

العلاقات بين الخلافة الموحدة والمشرق الإسلامي

٥٢٤ - ٩٣٦هـ / ١١٣٠ - ١٥٢٩م

الدكتور
ابن سام مرعي خلف الله
كلية التربية بدمنهور
جامعة الأزهر كندرية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥



دار المعارف

الاهـداء

الى أُمى الحبيبة
فى الكويت الشقيقة

العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى

فيما بين عامى ٥٢٤-٥٩٣٦ هـ / ١١٣٠-١٥٢٩م

تعتبر دراسة تاريخ العلاقات السياسية والحضارية بين مختلف دول العالم الاسلامى من القضايا الهامة فى التاريخ العام الاسلامى . ولكن أمثال هذه الدراسة يستلزم استعدادا خاصا من الباحث وجهودا مضنية سيما اذا كان الامر يتعلق بتاريخ العلاقات بين دول المغرب والمشرق الاسلاميين فى الفترة موضوع هذه الدراسة وأعنى بها العصر الموحدى ، الذى يواكب القرون الاربعة السادسة والسابع والثامن والتاسع الهجرية (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ م) ويضم ذيو لا للقرن العاشر الهجرى (١٦ م) اذا أخذنا فى الاعتبار أن الدولة الحفصية امتدادا طبيعى لدولة الموحدين ، ذلك أن تحصيل المادة العلمية لثل هذه الدراسة ملء بالاشواك ، فالمعلومات المتعلقة بهذه العلاقات قليلة للغاية ، ثم أنها متناثرة ومتفرقة فيما هو متوفر لدينا من المصادر القليلة عن تاريخ الموحدين ، كما أن هذه المعلومات تتعلق بأحداث لا تتصف عن روابط ودية بقدر ما تسفر عن أكثر من وجه من وجوه التناخس والعداء القائمين بين دولة الموحدين ودول المشرق الاسلامى المعاصرة لها . ومع ذلك فان التاريخ العلمى الموضوعى هو الذى يعرض لكل وجوه الحركة التاريخية ودية كانت أم عدائية حسبما يعرض للنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تدخل فى نطاق أحداثها .

ودراسة تاريخ العلاقات من شأنها أن تحيط بجميع الوجوه وتعتبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً فى مرحلة هامة من مراحل التاريخ الاسلامى عندما كان المشرق الاسلامى يجتاز فترة انتقالية خطيرة : فالخلافة العباسية لم يعد لها السيطرة الكاملة على المشرق الاسلامى كما كان العهد فى عز سطوتها ،

اذ شأركتها الخلافة الفاطمية الشيعية المسيطرة على مصر مركز الثقل في منطقة المشرق الأدنى الاسلامى وان كانت هذه الخلافة الفاطمية في مرحلة الاحتضار • ومع ظاهرة التدهور المتناهي في كل من خلافتي المشرق الاسلامى العباسية والفاطمية تعددت الدويلات الاسلامية المنقطعة داخل حدود كل منها مع الاكتفاء باعتراف اسمى بسيادة هاتين الخلافتين •

في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ المشرق الاسلامى قام محمد بن تومرت — مهدي الموحدين — برحلته الحجازية الى بلدانه • ومن أحداث المشرق في زمن هذه الرحلة استمد مهدي الموحدين الاصول الفكرية لدعوته الموحدية ، وهي أصول صقلت من فكرة المهدية الموحدية التي كانت مكتنزة في حصيلته الفكرية وميراث بيئته الثقافية المغربية • وهذه نقطة هامة من نقاط هذا البحث الذي اهتمت صاحبه بالدراسة المقارنة فيها لابرار طبيعة العلاقات القائمة بين تلك الاصول وأثر كل من المفكرين المشرقي والمغربى في فكرة المهدية الموحدية التي استحدثها المهدي بن تومرت • ويدخل هذا الجانب من الدراسة في نطاق العلاقات الفكرية بين المشرق والمغرب الاسلاميين حيث أن المغرب كانت له ثقافته الاسلامية المميزة منذ انتشار المذهب المالكي في أنحائه واصطدامه بفكر الشيعة والمعتزلة وأفكار الخوارج الاباضية والصفرية من البربر ومن وفد عليهم من العرب •

ويتعارض ما نذهب اليه مع ما ورد في معظم البحوث التاريخية الحديثة التي عرضت لتاريخ الدولة الموحدية ، وأرجعت فكر الموحدين الى أصول مشرقية دون الاهتمام بذكر أثر الفكر المغربى في هذه الاصول • وهذا الجانب الهام في تاريخ الموحدين وصلاتهم بالمشرق للقى اهتماما خاصا من الباحثة صاحبة هذا البحث التي عاشت في المغرب ما يقرب من

ثمان سنوات كانت في حد ذاتها كافية لكي تبرز أثر التفاعل والتواصل بين الفكر المشرقي والفكر المغربي في العصر موضوع الدراسة .

وكان المغرب الأقصى في زمن رحلة ابن تومرت المشرقية خاضعا لدولة الملثمين ، وهم المرابطون أصحاب اللثام ، وكانت دولتهم في هذه الآونة ما تزال تعيش مرحلة استقرارها السياسي وازدهارها الحضاري ، ولكن هذه الدولة لم تلبث أن تعرضت منذ عودة ابن تومرت من رحلته لمشاكل داخلية وخارجية أثرت تأثيرا مباشرا في استقرارها السياسي . وكان أكثر ما تعرضت له هذه الدولة من متاعب في الاندلس ، فقد واجهت أخطارا متلاحقة من جانب الممالك المسيحية في أسبانيا ، وكان على قواتها في الاندلس أن تخوض معارك ضارية انتهت في معظم الأحيان بانتصارات حاسمة في إفراغه وفي إقليش . ومع ذلك فقد كانت هذه المتاعب أقل بكثير مما تعرضوا له من مضايقات أهل الاندلس الذين ، رغم مواقف المرابطين البطولية المشرفة في الجهاد ومدافعة القوى المسيحية في أسبانيا ، ظلوا يتعصبون لاندلسيتهم كما كان العهد في عصر العواطف وانتهى الامر بقيامهم بثورات متعددة في مختلف مناطق الاندلس على حكم المرابطين . ومن الناحية الحضارية انحصرت ثقافة المرابطين عن أقاليمهم البوادي خارج الحاضرة مراكش ، وعاد الى مجتمعات تلك البوادي ميراث فكرها التاريخي وما فيه من مؤثرات شيعية واعتزالية وخارجية . وكان فكر ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن يجسد جانبا كبيرا من هذا الميراث البيئي للبادية المغربية ، وهي نقطة بحث ركزت عليها الدراسة للإجابة على سؤال هام يتعلق بظاهرة نجاح ابن تومرت في تفجير ثورته بين شعب المغرب مما أدى الى انهيار دولة المرابطين وهي في أوج ازدهارها كما سبقت الإشارة ، وقامت على

أنقاضها امبراطورية الموحدين المغربية الكبرى التي ضمت اليها كل بلاد المغرب والاندلس وتطلعت في عهد المنصور الموحدي الى ضم المشرق الاسلامي *

كانت مصر والشام قد شهدت في نفس الفترة صفحة جديدة مشرقة في التاريخ الاسلامي ترتبط بقيام الدولة الايوبية السنية وما اقترن بذلك من الجهاد ضد قوى الحركة الصليبية في و أوجها * وهنا اختلفت الظروف التي عاشتها بلدان المشرق والتي وقف عليها ابن تومرت في رحلته المشرقية وكانت من الاسباب المباشرة التي دفعت الى تفجير ثورته المهدوية الموحدية * ومن ثم قدر للعلاقات القائمة بين المشرق والمغرب الاسلاميين أن تسطر صفحات من أحداث التنافس السياسى والحربى بين امبراطورية موحدية بلغت قمة عظمتها السياسية ووصلت بحدودها السياسية حتى طرابلس على مقربة من حدود مصر الغربية وبين الدولة الايوبية الفتية التي حلت في الحكم محل الدولة الفاطمية البائدة وسيطرت على ممتلكات الدولة النورية في الشام والاراضى الحجازية التطلعة الى قوة تتولى حمايتها ، وهى دولة في ذات الوقت سنية المذهب بما يتوافق مع مذهب الخلافة العباسية نفسها ولا يتفق مع المرشدية الموحدية *

ويشكل هذا التنافس طورا من أطوار العلاقات القائمة بين الدولتين منذ بدء قيام كل منهما * ومع ذلك فلم يكن الامر بينهما مجرد تحاسد وتنافس تحول الى مصادمات عسكرية اذا لم يخل من محاولات لفتح صفحة ودية في تاريخ هذه العلاقات لا سيما وأن الاخطار المحدقة بالدولتين من جانب القوى الصليبية المتمركزة في المشرق الادنى بالنسبة للدولة الايوبية وهوى الاسترداد الاسباني البرتغالى المتحالف مع العناصر الصليبية

الوافدة في طريقها الى المشرق كانت تتطلب بل تستلزم قيام تعاون بين الدولتين *

عن هاتين المصفتين السياسية والجهادية عرض البحث لموضوع حملة قراقوش الايوبية على طرابلس « الموحدية » كما عرض لموضوع السفارة الصلاحية التي منصور الموحدين * وأفاض في تفصيلات تتعلق بالموضوعين لاتصالهما الوثيق بأحداث أخرى شاركت في صنعها عناصر عربية وأخرى مملوكية وبربرية زناتية على وجه الخصوص كانت منتشرة فيما بين مصر وأرض المغرب *

ويمضى ما يقرب من نصف قرن تعرضت فيه الدولتان للضعف وعوامل الوهن والاضمحلال * ولكن الخلافة الموحدية تحولت بمقر حكمها من مراكش الى افريقية وتولى احياءها فرع من خلفاء الموحدين من اعقاب الشيخ أبى حفص الهنتاتى عرفوا لذلك بالحفصيين * ويتفق هذا الحدث مع الانتقال الحكم في المشرق من الدولة الايوبية الى دولة المماليك ، ويؤكد ذلك الحدث تحول مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة * تم ذلك كله في فترة زمنية تصاعدت فيها الاخطار الخارجية في المشرق والمغرب الاسلاميين على السواء * ففي المشرق تعرضت دولة المماليك في مصر والشام لخطر الغزو المغولى ، كما تعرضت دولة الموحدين في المغرب والاندلس لحملات قتالية برتغالية صليبية « برية وبحرية » عاتية *

ومع استقرار الخلافة الموحدية الحفصية في افريقية وتحول الخلافة العباسية الى مجرد خلافة اسلامية في مصر تحت حماية سلاطينها المماليك، قدر لنجم الخلافة الموحدية والحفصية أن يرتفع ويجد صدى له في بلدان

المشرق الاسلامى * غير ان سلاطين المماليك عارضوا ذلك الاتجاه بكل السبل ؛ وكان احياء الخلافة العباسية فى القاهرة المملوكية على يد المظاهر ركن الدين بيبرس سندا ارتكر عليه بيبرس لاطهار شرعيته فى السلطنة المملوكية من جهة ووسيلة توسل بها لمواجعة سياسة الانسياح الحفصية ويشكل ذلك الحدث مظهرا من مظاهر التناقس بين دولتى المغرب والمشرق وسرعان ما تبدلت تلك العلاقات فى ظل استقرار الحكم فى كل من الدولتين من علاقات عدائية الى علاقات ودية سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية هذه العلاقات المتنوعة حرصت الباحثة على تتبع مظاهرها من خلال ما اتيح جمعه وتحصيله من اخبار هزيلة ومعلومات شحيحة متناثرة فى بطون المصادر والمراجع * وبالرغم من ندوة هذه الاخبار فقد امكن من خلالها اعداد فصول ثلاثة كاملة من فصول هذا البحث * وقد عانيت كباحثة كثيرا فى التنبؤ والتتقيب عن مادة اعتمد عليها فى دراستها الى حد الاستناد الى الاشارات الواردة فى ثنايا المراسلات المتبادلة بين خلفاء الموحدين ومختلف الدول لا سيما دوقية بيزة الايطالية التى لمعت كدويلة اوروبية ذات علاقات تجارية واسعة النطاق فى حوض البحر المتوسط وعقدت علاقات وثيقة فى هذا الشأن مع بلدان العالم الاسلامى مشرقه ومغربيه *

وقد رأيت من المناسب ألا أتعرض فى المقدمة لتفاصيل هذه العلاقات وغيرها ، ولذلك اكتفى بذكر أقسام بحثها ومنهجها الذى انتهجته فى هذه الدراسة *

فالببحث ينقسم الى بابين رئيسيين :

الباب الاول : ويتعلق بالصلات السياسية بين الخلافة الموحدية

والمشرق الاسلامى ، ويتضمن هذا الباب ثلاثة فصول :

أولها عن قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق • ويعرض هذا الفصل لأخبار رحلة ابن تومرت المشرقية من عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ومقابلته للغزالي في المشرق • كما يعرض لأوضاع المشرق الاسلامي وأحواله في الفترة التي كان ابن تومرت يتنقل خلالها بين بلدانه ، ثم عن الاحداث التي والكبت عودة ابن تومرت الى المغرب وظروف التقائه بسراج الموحدين خليفته عبد المؤمن بن علي • كذلك تعرضت لعدد من القضايا التي تتعلق بانتشار الدعوة الموحدية في مصر وغيرها ، وأثبت رأيا يختلف عن الآراء التقليدية فيما يتعلق بصدى دعوة ابن تومرت في المشرق الاسلامي • ثم تحدثت عن الخطوات التي خطاها المهدي لارساء دعوته الموحدية باتخاذها تينملل مركزا أساسيا لهذه الدعوة ، وتتبع مراحل قيام الدولة الموحدية بدءا بالصدام المسلح الذي وقع بين الموحدين والمرابطين في أغمات ، وتسمة المرابطين بالكفرة الجسمين والزراجنة ، واتخاذ سياسة الاستئلاف الفكرى في المواجهة الاولى مع المرابطين عن طريق المساجلات والمناظرات الى أن تم اعلان قيام الخلافة الموحدية في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) وتطبيق النظام الادارى العشرى • والاهم في هذه الخطوات التاريخية ما ذهبت اليه في ابراز ارتباط أحداث هذه المرحلة بالهدف الاشمل الذى أعلنته الدعوة الموحدية ، ويقضى بتجديد الدعوة للإسلام القوى واعادة وحدته السياسية • وتتبع عرض هذا الارتباط من خلال الاشارة الى الحروب الاولى التي خاضها الموحدون حتى وقعة البحيرة عام ٥٢٤ هـ (١١٣١ م) التي ن سجل بداية تطبيق نظام متميز في التاريخ العسكرى للموحدين وأعنى به نظام « التمييز » ، ولقد توقفت عند هذا النظام ، لاثبت كيف قدر له أن يصبح أداة هدم في مستقبل الدولة الموحدية بعد أن كان من الخطوات الاولى للحفاظ على كيان هذه الدولة في مرحلة نشأتها • وكانت الجهود التي

بذلها عبد المؤمن في هذا المصدد نستهدف الى انقاذ الدولة الموحدية بعد صدمة وفاة المهدي المبكرة الى اعلان نفسه أميراً للمؤمنين + فالاساس في هذه العلاقة عند الموحدين هو ما يعرف بالجهاديين : الجهاد الاكبر أى جهاد الاعداء من غير المسلمين دفاعاً عن الاسلام ، والجهاد الاصغر أى جهاد في العالم الاسلامي ذاته + وفيما يتعلق بهذا الجهاد الاصغر افترضت الفكرة الموحدية انجازه في فترة زمنية قصيرة وذلك على عكس ما حدث في الواقع، حيث طال به الزمن ، ومن ثم عرقل ذلك مهمة الموحدين في ممارسة الجهاد الاكبر + وفي اطار هذين الهدفين تنوعت العلاقات الموحدية في الاراضى المحيطة بدولتهم سواء في الاندلس شمالاً أو في بلدان المغرب العربي حتى مصر شرقاً +

وعالجت في الفصل الثانى موضوع العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين + فتحدثت عن تدخل الدولة الايوبية في شئون الموحدين الداخلية في طرابلس عن طريق الحملة المملوكية التى أسند صلاح الدين قيادتها الى تورانشاه وتولى قيادتها الفعلية بهاد الدين قراقوش الاسدى ، وقد تحدد الاطار السياسى لهذه الحملة منذ دخولها افريقية في عام ٥٧٥ هـ (١١٨٠م) ، فظهرت بصورة تحالف يجمع بين مماليك قراقوش الغز ، وعرب بنى هلال ، ثم أنصار دولة المرابطين البائدة ممثلين في بنى غانية أصحاب البليار + وقد أوضحت في هذا المجال دور الموحدين في موانجة التحالف الثلاثى سالف الذكر + وعلى الرغم من عودة قراقوش الى مصر في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) الا أن آثار حملته على المغرب الادنى (افريقية) تركت جروحاً غائرة في العلاقات المصرية المغربية كما أن دولة

الموحدين ظلت تنتظر الى تلك الحملة نظرة الرافض لكل خارج عن تعاليم
الخلافة الموحدية المرشدية .

واذا كانت حملة قراقوش تعكس صفحة قائمة في تاريخ العلاقات
السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي ، الا أن ما تلاها من
أحداث — أى ما يتعلق بأخبار السفارة التي بعث بها السلطان صلاح الدين
على يد أسامة بن منقذ والتي طلب فيها من الخلافة الموحدية عوناً بحريا
لصد الهجوم الصليبي على عكا في الشام — ينهض دليلاً كافياً على مبادرة
طليبة وودية من جانب الدولة الايوبية تجاه الخلافة الموحدية وفقاً لاقوال
صلاح الدين نفسه ، واعتذاره عما قام به قراقوش في البلاد الافريقية .
ولقد تعرضت لتلك السفارة منذ دخول أسامة بن منقذ افريقية عام ٥٨٦هـ
(١١٩٠م) ، ومقابلته لمنصور الموحدين عام ٥٨٨هـ (١١٩٢م) ، وعدم تلبية
المنصور للطلب الايوبي . وأوضحت السبب في اعتذار المنصور عن عدم
تلبية الطلب الايوبي بانشغاله في صد الهجوم الصليبي البحري الذي
وجهه على غرب الاندلس ، وهذا الجهاد في حد ذاته يعبر عن مشاركة
فعالة من جانب المغرب الاسلامي في مواجهة الحركة الصليبية وفي نفس
الموقت مساندة يقدمها المغرب راضياً للايويين .

ومن الجدير بالذكر أن أخبار حملة قراقوش سجلت في المضمار سنة
بعد سنة ، وقد عكفت على تحليل نصوص الوثائق التي يشتمل عليها هذا
المضمار ، وتمكنت من خلال هذا التحليل ومقابلة النصوص فيما بينها من
الاستنباط حقائق علمية جديدة .

وعالجت في الفصل الثالث موضوع العلاقات السياسية بين الخلافة
الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامي ، وفيه أوضحت مكانة افريقية

(تونس) بالنسبة للمشرق ، ومدى امكانياتها في مجال البحرية التجارية مع افتقارها للقوة الذاتية البشرية والاقتصادية ، وقد ساعدت هذه العوامل على تأصل قيام الدولة الحفصية منذ عام ٦٠١ هـ (١٢٠٦ م) على يد محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص . كذلك أوضحت كيف تم للحفصيين استغلال الخلاف الفكري للموحدين في مراكز خاصة في عهد المأمون ، بأخذ البيعة لانفسهم من أشياخ الموحدين . وقد هيا لهم ذلك حمل لقب الامارة مع الاستمرار في ذكر اسم المهدي معتمدين في ذلك على نفس الشرعية التي استند عليها الموحدون من قبل . ففي عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) بويع لابي زكريا الحفصي البيعة الاولى من أهل المغرب وفي عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٤ م) تمت البيعة له من الاندلس .

وقد عالجنا في هذا الفصل أيضا أهمية العلاقات الحفصية مع الدولة الايوبية من حيث تأثر هذه العلاقات بالمصالح المشتركة بين الدولتين نتيجة تنبها لابعاد الخطر الصليبي المشترك الذي تجاوز القدرة الجهادية للدول الاسلامية .

ولم يفتنى في هذا الفصل أن أبرز تطلع سلاطين بني حفص الى المتلقب بلقب « الخليفة أمير المؤمنين » منذ عام ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) الذي يسجل سقوط بغداد في أيدي المغول وانتقال الخلافة العباسية الى القاهرة . وقد ترنّب على ذلك أن تعلق الحفصيون بتراث الخلافة الموحدية وبذلوا جهودهم في احيائه الى حد أنهم طلبوا من المماليك في مصر أو يتوجهوا بولائهم الروحي نحو الخلافة الموحدية الحفصية وانتهاء حالة الثنائية في الخلافة الاسلامية العامة . وقد تأكد مسعى الحفصيين هذا بوصول بيعة مكة اليهم في عام ٦٥٧ هـ (٨ - ١٢٥٩ م) . وأثبتت المراسلات الحفصية أن

لقب الخلافة كان مما تلقب به سلاطينهم^(١) .

ويتأكد هذا اللقب لمن يصفوا على حكام الحفصيين لقب السلطنة من الرجوع لنصوص الالقاب الحفصية في المصادر الاصلية الوارد نماذجها في الملاحق . وتبقى بعد ذلك مشكلة البحث في وضعية الاسرة الموحدية التي تألف منها مجلس العشرة في تونس والقي استمد منها الحفصيون الحصانة الدينية الموحدية ، ومن ثم تلقبوا بلقب الخلافة وامرة المؤمنين . والواقع أن هذه الاسرة كانت تمثل طبقة الاجتماعية دينية عليا في المجتمع الحفصي . وفي عهود الحكام الحفصيين الضعفاء ظهر هؤلاء مجرد سلاطين يستندون الى المكانة الاجتماعية والدينية العليا للأسرة الموحدية ، وهذا ما جعل أعداءهم بالذات ينكرون عليهم لقب الخلافة وامارة المؤمنين ، ويفسر لقب الخليفة بمعنى المهدي بن تومرت لا سيما وأن اسم الاخير كان يتصدر خطبة الجمعة الحفصية الرسمية .

وقد أوضحت انتجاع كثير من أفراد البيت الحفصي الى الاسكندرية في أوفات أزمتهم فضلا عن كثرة تردد المغاربة على الختلاف مهنهم على هذه المدينة في الوقت الذي كان فيه الايوبيون ومن بعدهم المماليك يشتغلون بمدافعة القوى الصليبية . وفي نفس هذا الوقت أيضا بدأت الدولة الحفصية بعد عهد المستنصر تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال التي حد اعلان اسم السلطان المملوكي المصري في خطبة الجمعة بدلا من اسم المهدي . ثم سجل عام ٥٧٢٧ هـ (٧ - ١٣٢٨ م) بدء مرحلة الانهيار بالنسبة للدولة الحفصية وهي مرحلة استمرت حتى سنة ٥٧٧٢ هـ (١٣٧٢ م) في

(١) أنظر الملحق رقم ١ ، ويضم نماذج لصورة هذا اللقب وردت في بعض المراسلات الواردة ضمن مجموعة اماري عن الموحدين والحفصيين .

الوقت الذى تسجل فترة البحث المرينى (من عام ٧٤٨ حتى ٨٧٥٠) على يد أبى الحسن المرينى وابنه أبى الفضل * غير أن الدولة الحفصية لم تلبث أن استعادت قوتها ، وأخذ سلاطينها يتلقبون من جديد بلقب الخلافة الموحدية فى الفترة ما بين عامى ٧٧٢ — ٨٩٣ فى عهد ثلاثة من عظماء حكامها هم : أبو العباس أحمد ، وابنه أبو فارس عبد العزيز ومحمد المستنصر *

وفى إطار هذه النقلة الواقعة فى التاريخ الحفصى بين القوة والضعف ، عرض نفس الفصل فى شقه الأخير وكخاتمة للفصول الباب الاول لدور كل من العرب والترك والمغاربة فى تلك العلاقات الموحدية — الحفصية — المشرقية ، بدءا باحلال الترك محل العرب ، وبرز دورهم العسكرى ، مع بيان أهمية مكانتهم المدنية التى رغبت مكانة العرب فى النصف الاول من عصر دولة الموحدين لا سيما فى عهد يعقوب المنصور والناصر * .

وقد واصلت فى هذا الفصل توضيح مدى التفوق للدور التركى المملوكى الذى قابله انحسار للدور العربى سواء فى مصر أو فى المغرب وبالتالى كان سببا فى ثورات العرب أو العربان المستمرة * ثم عرضت للآراء المختلفة حول هؤلاء العربان عند كل من : ابن اياس والعبدري وعبد الوهاب بن منصور ، ثم أبرزت كيفية الاستفادة منهم فى الحرب الدائرة بين الحفصيين أنفسهم * وأخيرا تعرضت لدور المغاربة العسكرى فى المشرق وعلى الاخص عند الاعتداء القبرصى على الاسكندرية فى عام ٨٧٦٧ (١٣٦٥م) ، وكيف كانوا يشكلون أغلبية البحريين فى الاسطون المصرى فى العصرين الايوبى والمملوكى *

أما الباب الثاني فيتناول عرضاً لأهم مظاهر الصلات الحضارية القائمة على التبادل الحضارى بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلاميين، ويشتمل على ثلاثة فصول مكملة للفصول السابقة هي :

الفصل الرابع ويتعلق بالصلوات الاجتماعية ، وفيه عرضت للرحلات المغربية الى المشرق والطريق الذى كان يسلكه الرحالة المغاربة اليه وأهمية الاسكندرية كباب المغرب وما أورده هؤلاء الرحالة المغاربة عنها ، بل تعرضت لوصف بعض المدن المصرية الاخرى التى كان لها دور هام فى اجتذاب علماء المغاربة الى المشرق مثل قوص — بلبيس — عيذاب • الخ • كذلك تعرضت لذكر ما كان يلاقيه تجار المغاربة من معاملات كريمة أو سيئة من أهل الاسكندرية ، ووضع طبقة التجار المغاربة الذين وصفوا بأنهم « من مياسير القوم » ومدى مشاركتهم فى الحياة المغربية • وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن وضع الجالية المغربية بوجه عام وما كانت تلاقيه من ترحيب الحكام والسلاطين ، وما أقاموه لهم من منشآت لايواء ضعفاء الحال منهم •

وأوضحت فى موضع آخر فى الفصل مدى التأثير المغربى فى الحياة المصرية من ظهور فن المديح ، وما قابله من تأثير مشرقى فى الحياة المغربية • وتناولت بالدراسة مدى الاثر المغربى فى المجتمع الاسكندرى فى العادات واللغة وبعض أنواع الزى والاطعمة التى ما زال بعضها معروفا لدى أهل الاسكندرية بوجه خاص حتى يومنا هذا ، كما عرضت لمؤثرات المشرق فى الحركة الادبية بظهور عدد من الكتاب والشعراء ، وظهور فن الملحون أو ما يعرف بالزجل المغربى • هذا وقد رأيت أن أبرز دور المرأة المغربية فى

الحياة الادبية والعلمية أسوة بأختها في المشرق ، ثم دور المدرسة المغربية الصوفية على يد أبى العباس السبتي وعبد السلام بن مشيش •

وفي ختام هذا الفصل تعرضت لموقف الموحدين من اليهود عامة ، واعتبارهم من أهل الذمة ، وتحديد شكل ملابسهم وبيوتهم وركوبهم • وقد اعتبر الموحدون اليهود والنصارى أعداء للإسلام بحيث تعرضوا للاهانة في عهد يعقوب المنصور الموحدي • ومع ذلك أبرزت مدى انتعاش حالتهم بعد وفاة الناصر الموحدي وفي ظل خلافة المأمون أثناء القُدح في العقيدة التومرنية الى حد الاستعانة بالنصارى على المسلمين وبشروط مجحفة بلغت حد اقامة كنيسة في مراكش • وبينت كيف تلت مراحل انشاء هذه الكنيسة وهدمها صفحة من العلاقات المتنوعة الموحدية المسيحية تراوحت بين التبعاد أو التنافر والالتقاء لا سيما في عهد الخليفة المرتضى حسبما يظهر من الرسائل المتبادلة بينهما • وهناك نص وردت صورته في ملحق البحث يتضمن رد هذا الخليفة الموحدي على احدى الرسائل المسيحية يتضح فيه حال أهل الذمة في المغرب في ظل الحكم الموحدي •

وفي الفصل الخامس ويتعلق بالعلاقات الاقتصادية تناولت أهمية كل من الاسكندرية وتونس وبجاية في الحركة التجارية بحوض البحر المتوسط وما مثلته هي وغيرها من محاور رئيسية للتجارة بين الشرق والغرب شكلتها فروع ثلاثة من العلاقات : بين الشرق وأوروبا ، الغرب الاسلامي وأوروبا الغربية ، ثم الشرق والغرب الاسلاميين • ومن خلال ما تجمع لدى من مجموعة رسائل أماري المنشورة نشرها محدودا والمحفوظة في المكتبات الاوربية أوضحت ما فرض من اجراءات مشددة لتأمين الطريق التجاري ، وعلاقة ذلك بنشاط القرصنة وآثارها على تلك العلاقات وكيفية حل

مساكلها * ولم أشأ أن أعرض كل ما توفر لدى من مجموعة تلك الرسائل وإنما اكتفيت بتسجيل نصوص عدد منها يخدم البحث في ملاحق البحث *

وفي ضوء هذا التحديث عن العلاقات التجارية تعرضت لدراسة تجارة السودان عبر مسالكها الصحراوية وما كانت تمثله من أساس للقوافل التجارية البرية ، وكيف ربطت بما فيها - من الربط والحصون والقلاع ومراكز تجارية وأسواق - بين المشرق والمغرب * واستخلصت ما كان لهذه المسالك من ازدهار نوع هام من السلع مثل تجارة الذهب وبيعت مواضع استخراجها وأهميته وكيفية تبادله (التجارة الأصامتة) ، ومثل تجارة الملح وكيف كان الملح في تعامله يوازى التعامل بالذهب ومثل تجارة الرقيق وأهميتها في ذلك الوقت * وأظهرت أن هذه التجارة كانت تمضى في إطار من العلاقات الودية بين المغرب والمشرق ، وأوضحت ما كانت تعكسه من مظاهر انتعاش في الحياة الاقتصادية في بلدان كل منهما ، فضلا عن الطرف الثالث أو الشريك الأوربي في اكمال هذه الدورة التجارية *

وهنا يبرز دور الموحدين في تنظيم هذه العلاقات التجارية من خلال كتب الأمان التي كانوا يصدرونها ، وما تتضمنه من تنظيمات تتعلق بمصير أدوار كل من التجار والوكيل الثقة والعدول والتراجمة والوسطاء التجاريون والدلالة في الحلقة التجارية * ويظهر في إطار هذه العلاقة أدوار للمصري والعراقي والشامي والتلمساني والطنجي والتونسي والبجاوي والجنوي والبندقي والبيشاني * الخ *

وفي إطار نفس هذه العلاقات التجارية ، واصلت التحديث عن إنشاء الفنادق والأسواق ، وكيف أن فكرتها كانت مقتبسة من الشرق * كما عرضت لما يترتب على ذلك من تنظيم مالي واختلاف أوزان الدينار وصلة ذلك

باليهود ودورهم البارز آنذاك في هذه الحركة التجارية ، فكان منهم
الوسطاء الدبلوماسيين الى الدول الاوربية ، والمترجمة في المعاهدات
وكتاب البلديات وملاك السفن التجارية المترددة بين المغرب والمشرق .

الفصل السادس والاخير ويتعلق بالصلات الثقافية والفنية بين
الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي . وفيه تعرضت لدراسة الاصول
الفكرية التي قامت عليها الدعوة الموحدية ، وكيف أن المهدي استقناها من
الفكر المشرقي لا سيما الاشعري وما يتصل به من فكر اعتزالي وشيعي
وخارجي ، فضلا عن الفكر المالكي السلفي . ولقد أوضحت في هذه الدراسة
مظاهر هذا الخليط الفكري في مجتمعات المغرب والمؤثرات البيئية التي
ينطوى عليها ، وأثبت أن فكرة المهدية الموحدية عند ابن تومرت كانت نتاج
هذا المزج وتلك المؤثرات لا سيما ما يتعلق بفكر قبيلته مصمودة ومجتمعها
الجبلي النائي . لذلك كانت مؤلفاته : المرشدة الموحدية ، وتأليفه عن
القواعد والامامة والتوحيد ، وتسميته للعارفين بها باسم الموحدين وتصنيف
صفاتهم ، وأقوالهم عن الغيب وأنه موحى اليه من الله . بل ان تعاليم
مرشحته الموحدية بلغت حدا من التقديس تلت فيها مرتبة القرآن الكريم
في الاسلام .

وعرضت في هذا الفصل أيضا لفقهاء المغاربة القاطنين في المشرق
والتقاء ابن تومرت بهم ومشاركته لهم في حلقات دروسهم . وهنا تبرز
مدرسة الاسكندرية السنية وعلى رأسها أعلام المغاربة أمثال : الطرطوشي
(٤٥٠ — ٥٢٠ هـ / ١٠٥٨ — ١١٢٦ م) والمشاظلي (٥٩٣ — ٦٥٦ هـ / ١١٩٧ —
١٢٥٨ م) وأبي العباس الرسي (٦١٦ — ٦٨٥ هـ / ١٢١٩ — ١٢٨٧ م) .
ومع ذلك ، فقد اختلفت تعاليم المرشدية الموحدية عن تعاليم أئمة هذه

المدرسة مما ينهض دليلا جديدا على أن أصل فكر الموحدين انما استمدته ابن تومرت أصلا من بيئته المغربية وصقلته الرحلة المشرقية صقلا جليا .
وفي إطار هذا العرض سجلت قائمة بمختلف المغاربة المقيمين في المشرق ، والمشاركة المرحلين الى المغرب والمغاربة العائدين الى المغرب وآثارهم المختلفة في جوانب الحياة بكل من المغرب والمشرق .

وختمت البحث بدراسة نماذج من المعاهدات التجارية الموقعة بين الدولة الموحدية الحفصية وأوروبا من ناحية وبين الدول المشرقية وأوروبا من ناحية ثانية .
وهذه المعاهدات قد تضمنت موضوعات تتعلق بالمكس ومقداره وسبب اختلافه وكذلك مقدار الضريبة على كل جنسية وصور الاعفاء منها ونوع المواد المعفاة من الضرائب ، وأنواع التجارة المتبادلة ، وهي مظاهر من المعاملات الاقتصادية تقدم صورة شتى للعلاقات الاقتصادية بين المغرب والشرف الاسلاميين عبر الوساطة الاوربية . وفي هذا الصدد ، برز أيضا دور تونس في إطار الوساطة بين التجار الاوربيين وسلطات مصر لاعطاء حقوق تجارية لبيزة تماثل ما كان للبندقية .

وقد سبقت الإشارة الى ذكر الفترة الزمنية التي يشغلها البحث وهي : ٥٢٤ — ٩٣٦ هـ / ١١٣٠ — ١٥٢٩ م . وأن عام ٥٢٤ هـ هو تاريخ وقعة البهيرة التي بها يتحدد تاريخ بداية الدولة الموحدية ورسوخ دعوتها للخلافة . كذلك حدد البحث عام ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م نهاية لاحداث هذه الدولة في فرعها الحفصي الممتد حتى سقوط المغربين الاوسط والادنى في أيدي العثمانيين . وهناك أكثر من تاريخ يحدد نهاية الدولة الموحدية الحفصية . ففي عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) كان دخول العثمانيين في شخص خير الدين بربروسا الى الحضرة الحفصية . وفي العام التالي ٩٣٦ هـ (١٥٢٩ م) ، على حد قول ابن أبي الضبابة ، مؤلف مخطوط « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك

تونس وعهد الامان » : « * * ودخل الحاضرة بغير دفاع ، واستولى على
سرير ملكها ، ودعا للسلطان العثماني على منابرهما ورسم اسمه على
السكة . وذلك في سنة ست وثلاثين وتسعمائة » (١) .

غير أن الاسبان استولوا من العثمانيين على الحاضرة الحفصية في عام
٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) وقاموا على حكمها باسم حماية الامارة الحفصية حتى
وقوع وقعة حلق الوادي في عام ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م . في هذه الوقعة كان
انتصار العثمانيين الساحق على الاسبان وبها تأكد نهائيا دخول الحاضرة
التونسية في أملاك الامبراطورية العثمانية . وبعدها كان انقضاء عهد
الاسرة الحفصية كلية .

وواضح أن التاريخ الاول ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) يمثل النهاية الحقيقية
للدولة الموحدية الحفصية ، إذ أن أحداثها بعد هذا التاريخ هو ما دخل
أساسا في علاقات النزاع الدولي بين العثمانيين والاسبان ووقوع الامراء
الحفصيين في براثن التنافس فيما بينهم والاستعانة بالطرفين الدوليين في
ضرب بعضهم البعض .

هذا وقد اعتمدت في عرضي لهذه الدراسة على عدد من المصادر
الاساسية وأهمها الوثائق التاريخية للدولة الموحدين هذا بالإضافة الى عدد
كبير من المراجع الحديثة المتخصصة في موضوع البحث ، وفيما يلي عرض
لاهم هذه المصادر .

(١) احمد بن أبي الضياف ، انحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد
الامان ، تونس ١٩٧٧ ، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشئون الثقافية والاخبار ،
النشء الثانية ، ج ٢ ، ص ١٢-١٣ .

١ — مخطوطة « أقوال المهدي بن تومرت في علم الكلام بل شرح
أعز ما يطلب » :

لابى بكر على الصنهاجى المعروف بالبيذق * وقد تم العثور عليها
حديثا في مدينة مراكش في عام ١٩٧٥ العاصمة الموحدية ، في احدى الخزائن
الخاصة بعد عناء كبير وهى مكتوبة بخط مغربى جيد ، ولكن لسوء الحظ
يوجد بها تلف في أجزاء كثيرة بسبب قدمها ، كما أن الصفحات ٤٢٤ ، ٤٦٣ ،
٤٦٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ناقصة * وقد تم تصويرها ميكروفيليا ، وحفظت في
دار الوثائق بالرباط — المغرب ومسجلة برقم ١٠٥١ *

وتتضمن المخطوطة على ٥٦٦ صفحة ، مقاس ١٣×٢٠ سم وكل صفحة
تتضمن على ٢١ سطرا * جمع فيها البيذق جميع أقوال المهدي بن تومرت في
علم الكلام ، وأورد كل الاستشهادات المهدي في تفسيراته كل على حدة في
فصول عدة منها : العلم والنقل والجائز والواجب والمستحيل والقياس
والشرع والمضدين * كما أورد أقوال المهدي المأخوذة عن الاشاعرة وبصفة
خاصة رأى الاشاعرة في العلوم ، ويستشهد على كل تلك الاقوال بالحديث
الشريف *

ورغم أن المخطوطة تخوض بعمق في النواحي الفكرية والعلوم
الفلسفية ، الا أن البحث استند اليها في بعض التفاسير الخاصة بموقف
المهدي بن تومرت وفي الاساس الفكرى للخلافة الموحدية *

٢ — مجموعة الوثائق الموحدية التى نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال:

قدم الدكتور محمد حجى^(١) فى تصديره لكتاب « مؤرخو الشرفا »
ترجمة مطولة للأستاذ بروفنسال مؤلف الكتاب أبرز فيها الخدمات الجلية

(١) الاسناد بكلية آداب الرباط ، جامعة محمد الخامس وعميد الكلية .

التي أسداها هذا المستشرق الفرنسي الكبير للدراسات المغربية الاندلسية
وفضله في احياء قسط لا يستهان به من التراث التاريخي والحضارى
والادبي، للمغرب الاسلامى بوجه خاص *

ومن أهم مآثره وأفضاله نشره لمجموعة الرسائل الموحدية وهى من
انشاء كتاب الدولة الموحدية المؤمنية ، تصل الى سبعة وثلاثين رسالة
رسمية موحدية نشرها بالرباط فى عام ١٩٤١م * ولهذه الرسائل أهمية
قصوى فى ابراز الخطوط الرئيسية لسياسة الدولة تجاه المتمردين عليها
مثل : ابن مردنيش فى الاندلس ، وابن غانية فى جزر البليار ثم فى افريقية،
كما تتضمن اشارات ضافية عن حملة قراقوش ، وعن كيفية القضاء على
الغز * وتسجل هذه الرسالة أيضا وصفا دقيقا لعرب المشرق وكيفية
اصطناع الدولة لهم عن طريق سياسة التودد والتقريب ، واللين والترغيب،
مع تذكيرهم بأمجاد العرب ونجدتهم الدائمة لاعانة اخوانهم عرب المغرب
بل ومسلمى الاندلس * وقد استند البحث الى فقرات عديدة من تلك
الرسائل للاستدلال على استقرار الدولة الموحدية ولعرض بعض مظاهر
الحياة الادبية ممثلة فى شخص كتابها المبرزين أمثال : أبى جعفر بن عطية
وأخيه أبى عقيل ، وأبى الحسن بن عياش ، وأبى الحكم بن المرخى ، وأبى
القاسم القالى ، وأبى الفضل بن محشرة ، وأبى عبد الله بن عياش *

٣ — مجموعة رسائل نشرها ميشيل أمارى تحت عنوان :

Documenti Degli Archivi

Toscani Pubblicati Par Cura Della R. Soprintendenza Generale

Agli Archivi Medesimi.

هى مجموعة من الوثائق المهمة غير معروفة لدى الدارسين المشاركة

وتتركز أهميتها في أنها تسلط الضوء على طبيعة العلاقات التجارية القائمة بين دولة الموحدين والدولة الحفصية وبين المدن التجارية في إيطاليا وعلى رأسها جنوة والبندقية وبيشة * وتتضمن هذه الوثائق عقودا تجارية يعمل بها حسب القوانين الموضوعة ، وبعض رسائل موجهة من سلاطين المشرق خاصة من مصر المملوكية في عهد كل من السلطان قلاوون والسلطان برسباي والسلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري الى هذه المدن التجارية ، فهي تصور العلاقات التجارية القائمة بين المغرب الموحدي والمشرق الاسلامي سواء بالطريق غير المباشر عبر أوروبا ، أو بالطريق المباشر من تونس الى الاسكندرية التي تعتبر أهم قواعد الحركة التجارية البحرية في حوض البحر المتوسط *

ولاهمية تلك الرسائل عمدت الباحثة الى نشر بعضها رغم طوله كملاحق ذيلت بها الرسالة ، فهي تعتنى بالنظام الضريبي وذكر أنواع السلع التجارية وأوضاع التجار اجتماعيا ودينيا وما كان يسمح لهم به من بناء الفنادق وما يتبعها من كنائس ومدافن * الخ وتحديد نوع القضاء بين الاوربيين بعضهم البعض وبين المسلمين ، وعدم السماح بالقرصنة لسفن المسلمين وعقوبة ذلك * بل ان الرسائل توضح دور تونس كوسيط في العلاقات التجارية بين أوروبا ومصر المملوكية ومطالباتها سلاطين مصر بحكم العلاقات الودية السماح لتجار أوروبا بالتجارة في مصر وأن يكون لهم حقوق هي نفس حقوق اخوانهم البنادقة * وهذا الكتاب الذي يضم تلك الرسائل محفوظ في دار الوثائق بالرباط بالمغرب تحت رقم

ويشتمل على أكثر من أربعين رسالة *

A4O 583

1 bis

٤ — كتاب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين :

لصاحبه أبى بكر على الصنهاجى المكنى بالبيذق : من المصادر الهامة فى موضوع البحث ، حيث أنه يبدأ « من عند وصوله الى تونس » • والكتاب لذلك قطعة مبتورة الاصل ، لا يتضمن فترة حياة المهدي السابقة لعودته من المشرق الى تونس • ولما كان البيذق صاحب المهدي وخادمه وتابعه ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية المهدوية ، ومن أكثر المعجبين بخليفته عبد المؤمن بن على الكومى ، فقد طغى على كتاباته بنوع من المبالغة الملحوظة ، بل وجنح الى الخيال فى سرد أخبار المهدي وخليفته وفى تتبع علاقاتهما مع الملتزمين •

وتتجاوز أهمية الكتاب العلاقات الاولى بالمرابطين الى الغزوات المتسعة التى خاضها المهدي ، وفيها يروى البيذق بعض القصص التى تثبت مقدرة المهدي وبراعته فى استخدام اللغة العربية والبربرية فى حل مشاكله الخاصة الى أن ينتقل الى عهد عبد المؤمن فيذكر حملاته الشهيرة (منذ عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م) فى المغرب المراكشى ، ثم يشير الى ارتحاله تجاه المشرق ، مستهدفا السيطرة على المغرب الاوسط ، ويعود من جديد الى سرد وقائع فتح فاس ومكناس حتى سقوط مراكش قاعدة الحكم المرابطى عام ٥٤١هـ (٦ - ١١٤٧م) •

٥ — وللبذق كتاب آخر لا يقل فى أهميته عن كتاب المهدي وأعنى به كتاب المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الادحاب • وفى هذا الكتاب يسرد البيذق النسب العربى القرشى للمهدي ، وكذلك يفعل مع خليفته عبد المؤمن ، ثم مع آل بيت المهدي • وينتقل الى القبائل وترتيبها حسب

أهميتها في الدخول الى التوحيد ، والتعريف بفروعها وبطونها ومواضع نزول كل قبيلة منها وينتقل الى التعريف بأصحاب المهدي الاوائل — العشرة — السابقين الى اعتناق التوحيد ، أمثال : الوائشريسى وعبد الواحد الشرقى وعبد المؤمن وأبو حفص الهنتاتى * الخ ، الذين كانوا أساس الدعوة الموحدية بالمغرب * ويزودنا بوصف لما كان يقوم به من تمييز لهذه القبائل * وتتمثل أهمية الكتاب وقيمه في ذكر تفصيل التنظيم السياسى الذى أعده المهدي من : العشرة والخمسين والسبعين الى أن يصل الى العبد والختم : كما هو مبين في صلب البحث *

٦ — عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى وتاريخ المن بالامامة

على المستضعفين :

اعتمد البحث على الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وهو القسم الذى نشره وحققه الدكتور عبد الهادى التازى * وقد سجل الناشر في مقدمته أن مؤلف الكتاب توفي سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) * ونستدل من هذا التاريخ على أن المؤلف عاصر قيام الدولة ، ويتمثل ذلك في حالة التبجيل والتعظيم التى أحاط بها المهدي بن تومرت وخلفاءه ، ومن هذا المنطلق أيضا نستطيع أن نحكم على رواياته بأنها أولى بالثقة لمعاصرتة لحوادث الدولة في المغرب والاندلس * ولهذا اعتمدت على هذه الروايات في مواضع كثيرة من الدراسة كدراسة الصلات التجارية القائمة وأسلوب التعامل المالى ونوعية السكة ، هذا بالإضافة الى وصف الاحتفالات التى كان يقيمها الموحدون في المناسبات الخاصة والعامة ، كالاحتفال بخروج الحملات وترتيبها ورفع الرايات الملونة عند الاسير للغزو *

ومن الجدير بالذكر أن مادة الكتاب تتشابه في كثير من المواضع مع مادة كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي لا سيما في الاجزاء المتعلقة بدولة الموحدين * ويغلب على الظن أن ابن عذارى الذى عاش بعد وفاة ابن صاحب الصلاة تأثر بكتابه بل اعتمد عليه في الفترة المتعلقة بخلفاء الموحدين الاوائل *

٧ — كتاب الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية :

لمؤلف مجهول الاسم ، عني بتصحيحه ونشره علوش بالرباط عام ١٩٣٦م * والكتاب جامع لعصر الخلافة الموحدية وجاء مرتبا على أساس الفترات الزمنية لعصر كل خليفة على حدة ، مع التركيز على الحياة الثقافية وتتمثل في الصور العديدة لمشايخ وعلماء المغرب ورحلاتهم الى المشرق ، بالاضافة الى مظاهر العمران والحياة الاقتصادية *

وقد صدر مؤخرا تحقيق جديد لكتاب الحل الموشية في عام ١٩٧٩ قام على تحقيقه د. سهيل زكار (أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة دمشق والمعار سابقا بكلية آداب فاس) والاستاذ عبد القادر زمامة (محاضر مغربي بقسم اللغة العربية بكلية آداب فاس) * وخرجت النسخة المحققة الاخيرة ناسبة التأليف الى (مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري) ، وكرر المحققان ما سبق أن ذكره غيرهما عن مؤلف هذا الكتاب بذكر ما قاله الحوات، عن مؤلفه « السماك » *

واذا كانت هذه النسخة قد أخفقت في التوصل الى معرفة صاحب الحل فلقد توصل الاستاذ الدكتور محمود على مكي الى ذلك في مقدمته للمخطوطة التي نشرها في مجلة « المعهد المصرى » للدراسات الاسلامية

بمدريد ، المجلد العشرون عام ١٩٧٩ — ١٩٨٠ مدريد بعنوان « الزهرات المنبورة في نكت الاخبار الماثورة » + وفي هذه الدراسة أثبت الدكتور مكى أن مصنف الكتاب هو « محمد بن أبى العلاء بن سماك اللعالمى »^(١) .

ونتنمى أسرة بنى سماك الى قبيلة عاملة وهى الحدى القبائل اليمينية التى نزلت الاندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) المعروفة بالطلعة الشامية + وقد استند د . مكى على عدة أسانيد لاثبات أن صاحب كتاب الحل هو نفسه صاحب الزهرات المنبورة المشار اليه .

٨ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب لصاحبه أبو محمد عبد الواحد على التميمي المراكشي :

ولد مؤلف هذا الكتاب بمدينة مراكش سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م في عهد السلطان أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثالث خلفاء الموحدين ، وتلقى دراساته ما بين فاس ومراكش حيث قابل الوزير الطبيب أبا بكر بن زهر وفيلسوف الاندلس يحيى بن أبى بكر بن الطفيل ، وانتقل من المغرب الى الاندلس وهناك أتيح له أن يطوف بمراكزها العلمية المتعددة بغرب الاندلس ووسطها وشرقها من قرطبة الى اثسبيلية فمرسية ، ومن هناك جاز الى تونس عام ٦١٤ هـ ثم خرج منها متوجها الى المشرق لاداء فريضة الحج ولقاء العلماء ، ومكت بمصر عامين من ٦١٧ — ٦١٩ هـ (١٢١٨ — ١٢٢٠ م) . وقد صنف مؤلفه هذا في عام ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) حسبما يشير الى ذلك مرارا + ومما لا شك فيه أن الكتاب يضم أخبارا هامة من تاريخ المغرب والاندلس في عصر دولة الموحدين التى عاصرها المؤلف وعابن حواادثها

(١) ارجع الى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد ٢٠ ، مدريد ١٩٧٩ — ١٩٨٠ ، ص ١٨٥ .

ووفاءها * وقد أخذ البحث منه في عدة مواضع لا سيما ما يتعلق بمراحل نمو الدولة والصراع الذي خاضه عبد المؤمن وخلفاؤه في القسم الشرقي من المغرب حتى الفريقية ومع قوى القشتاليين والبرتغاليين في الأندلس شمالا * هذا وقد التزم المراكشي بالاختصار والتخليص لبعض أخبار الدولة لتغيبه فترة كتابته عن وطنه * وترجع أهمية الكتاب أيضا الى كون المراكشي كان معاصرا لحوادث المغرب والأندلس عقب عودته الى مراكش في سنة ٦١٠ هـ (١٢١١ م) لحضور حفل مبايعة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله محمد — خامس خلفاء الموحدين ، حيث يؤكد على ذلك بقوله : « حضرت ذلك بنفسى » وقوله : « رأيت فلانا لما كنت بتلك المدينة » وقوله : « هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس » ، وقوله : « شهدت هذا كله بنفسى لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه الى رواية » * وعلى هذا النحو فكتاب المعجب من المصادر الموثوق برواياتها التاريخية فيما يتعلق بعصر الموحدين وهو لذلك سند تاريخي لحوادث الدولة الموحدية وسجل هام للحياة الادبية والعلمية والعمرانية في عصر هذه الدولة *

٩ — كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب

وتاريخ مدينة فاس *

لابى الحسن على بن عبد الله بن أبي زرع * لم يصلنا شيء عن حياة المؤلف سوى أنه كان شاهدا بسماط العدول ، فهو من اسرة لها مكانتها في فاس في العصر الموحدى نم المرينى * والكتاب يؤرخ للدول ابتداء من قيام الدولة الادريسية حتى عهد الخليفة السعيد عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى فهو سجل لما جرى في المغرب من حوادث حتى عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٧ م) * يبدأ المؤلف بذكر نسب كل دولة وتشعب قبائلها ،

ومراحل تأسيسها ثم يذكر سلاطينها واحدا تلو الآخر ويسجل اعمالهم ومنشئاتهم * وفي نهاية كل دولة يجمال ابن أبى زرع الاحداث الاقتصادية والاجتماعية وبعض الظواهر الطبيعية كالمجاعات وانتشار الاوبئة * والكتاب على هذا النحو مصدر هام بالنسبة لموضوع الرسالة لا سيما الجوانب الاقتصادية والعمرانية ، وان كان هناك بعض المؤرخين الحديثين يطعنون في صحة ما أورده من أخبار فقد اتهموه بالكذب والاختلاق والتلفيق (١) *

١٠ — نفح الطيب في غصن الاندلس الطيب ، مؤلفه المقرئ :

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى عبد الرحمن بن أبى العيش ابن أحمد المكنى بأبى العباس المقرئ « بتسديد القاف » التلمسانى نزيل فاس تم القاهرة (توفى بالقاهرة ١٠٤١ هـ) رغم عدم طيب مقامه بها * عكف المؤلف اولا على كتابة تاريخ لابن الخطيب بتناول حياته وانتاجه العلمى والادبى * وبعد أن أتم المقرئ هذا الكتاب رأى أن يمهد له بتاريخ عام للاندلس ، فخرج الكتاب على شكل موسوعة كبيرة عن الاندلس * ويعتبر الكتاب مصدرا أساسيا لكل من يهتم بالبحث فى تاريخ المغرب والاندلس * وقد اعتمد البحث على هذا الكتاب فيما يتعلق بالياة الثقافية فى المغرب الموحدى والمشرق الاسلامى * ويتمثل ذلك فى معرض الترجمة لعلماء المغرب والاندلس ورحلاتهم الى المشرق *

واهتم المؤرخون والمستشرقون بالكتاب ، فنشر دوزى القسم الاول منه الخاص بتاريخ الاندلس ، وألحق به فهارس دقيقة * كذلك قام المستشرق الاسبانى باسكوال دى جاينجوس — الذى كان سفيرا لبلاده

(١) د. مختار العادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية : ١٩٦٨ ، ص ٥٥٩ .

في انجلترا — بترجمة المعلومات التاريخية التي تضمنها هذا الكتاب الى الانجليزية بعد ترتيبها زمنيا والتعليق عليها بحواشى مفيدة تحت عنوان

Pascual de Gayangos : History of the Mohammadan Dynasties in Spain. Vols. 2'

أى تاريخ الدولة الاسلامية في اسبانيا *

هذا وقد نشر كتاب نفح الطيب برمته في مطبعة بولاق في اربعة أجزاء سنة ١٨٦٢ م * ثم أعاد نشره حديثا الشيخ محيى الدين عبدالحميد في عشرة أجزاء *

١١ — رسالة بعنوان : مضمار الحقائق وسر الخلائق لصاحب حماه :

وهو محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الايوبى ، ابن أخ صلاح الدين ، قام بتحقيقها الدكتور حسن حبشى * وقد استفادت الباحثة كثيرا من هذه الرسالة ، في تتبع العلاقات السياسية بين المغرب الموحدى والمشرق الايوبى ، التي سجلها المؤلف ضمن حديثه عن حملة قراقوش (على المغرب) ، وفي معرض حديثه عن أحداث المغرب الواردة وفق المنهج الحولى وفيها يذكر مساندة قراقوش لابن غانية من جهة وللعرب الهلالية من جهة ثانية * وقد اعتبر الخليفة يعقوب المنصورى هذا المسلك عملا عدائيا ، وترتبت عليه نتائج خطيرة على مستقبل العلاقات بين مصر الايوبية والمغرب الموحدى ، وتمثل ذلك في فشل السفارة التي سيرها صلاح الدين برئاسة أسامة بن منقذ الى مراکش لطلب مساعدة الموحدين بحريا لقوى الايوبيين في صراعها ضد الصليبيين * والرسالة المذكورة مبتورة في الاول والاخر ، ولكنها مصدر هام لتاريخ العلاقات السياسية بين المغرب في عصر المنصور والدولة الايوبية في مصر والشام على عهد صلاح الدين *

١٢ — كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى :

لصاحبه السلاوى ، وهو الشيخ أحمد بن خالد الناصرى السلاوى * ينتسب مؤلف هذا الكتاب الى أسرة الشيخ أحمد بن ناصر العلوى الجعفري

مؤسس الزاوية الناصرية بتامجروت في وادي درعة جنوب المغرب • فهو مغربي قح نشأ في قلب المغرب الاسلامي ، وطاف في شبابه بأنحاء المغرب ما عدا أجزاء الجنوب موطن أجداده ، ثم عمل موظفا في المخزن ، واختص بالشئون المالية والاحباس ، وخدم في الثغور المغربية مثل سلا والدار البيضاء ، وأتاح له هذا العمل فرصة الاتصال بالاوربيين والافادة من علمهم وكتبهم •

كان الشيخ أحمد من كبار فقهاء المالكية المتعصبين للسلف (توفي ١٣١٥ هـ — ١٨٩٠ م) ، ولسلفيته مقت الدعوة الموحدية صاحبة مبادئ التوحيد ، لكنه أرخ لاحداث تلك الدولة وتوسعاتها ، وقضائها على الثورات التي واجهتها • وقد احتلت الدولة الموحدية وقبلها دولة المرابطين الجزء الثاني من مؤلفه الذي يصل الى تسعة أجزاء في طبعته الثانية بالمغرب • ولقد التزم المؤلف في سرده للحوادث التاريخية منهجا تاريخيا أقرب مايكون الى المناهج العلمية ، فكان يعتمد على المصادر المعاصرة للحوادث ولا يأخذ الا بالروايات الموثوق بها ولهذا فان الكتاب رغم حداثة يعد مصدرا تاريخيا قيما •

١٣ — تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمؤلفه الزركشي :

وهو محمد بن ابراهيم بن اللؤلؤ الزركشي • ينتسب الى جده اللؤلؤ الجوهري الاصل ، ولكنه نتونس ، وكانت ولادة حفيده المترجم له بتونس • وقد عاش المؤلف عصرا تمزقت فيه وحدة العالم الاسلامي وانكسرت فيه رقعة الاندلس بسقوط معظم قواعدها ومعقلها ، كما شهد مرحلة تاريخية مؤلمة عانت فيها تونس من ويلات الحرب الاهلية مما كان له أثره العميق في اضمحلال الحركة العلمية • ومع أن مؤلف الكتاب يوجز عرضه التاريخي

لاحداث المغرب من القرن ٥٦ هـ حتى ١٢/٥٩ هـ ، ويمر مرا سريعا على الدولة التي قامت بالمغرب في : مراکش — تلمسان — وتونس ، الا أن قيمة الكتاب تتركز في أن الزركشي كان شاهد عيان لاحداث الدولة الحفصية بتونس وأنه سجل كثيرا من وقائع عصره في صدق وواقعية ، وعلى هذه الفترة التاريخية اعتمدنا في الفصل الخاص بالحفصيين *

١٤ — نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان :

عن اسم مؤلفه ، فقد اختلف فيه المؤرخون ، فالترجمة التي تحمل اسم ابن القطان بكتاب التكملة لابن الابار (ت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) تذكر أنه هو : علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكامي الحميري الفاسي ، أبو الحسن ابن القطان * ويضيف ابن الايار قائلا : « وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لاسماء رجاله ، وأنه كان يشرف على طلبة العلم بمراكش ، واشتغل بالتدريس والقضاء * وتوفي قاضيا بسجلماة سنة ٥٢٨ هـ » *

والترجمة التي دونها ابن عبد الملك المراكشي (ت سنة ٦٦٩ هـ) بكتابه « انذيل والتكملة للكتابي الموصول والصلة » تتضمن ما يشير الى أن ابن القطان فاسي الاصل وأنه مع ذلك سكن مراكش ، وكان ذاكرا للحديث متبحرا في علومه معظما عند الخاصة من آل عبد المؤمن ، ومن الناس جميعا * وقد حظى ابن القطان عند يعقوب المنصور ثم ابنه المنصور ثم ابنه المستنصر * وكان يعقوب المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقاته ، ويخصه بالرجوع اليه في أمور شتى *

وقد قامت الادلة على أن المترجمين المذكورين ليستا لابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان وانما هما لوالده * اذ ورد بكتاب نظم الجمان

نفسه عبارات تشير الى عهد الخليفة المرتضى الذى حكم المغرب من سنة ٦٤٦ — ٦٦٥ هـ (١٢٤٨ — ١٢٦٦ م) ، على حين يذكر ابن الابار أن ابن القطان مات سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٣ م) . كما أورد ابن عذارى أن الخليفة المرتضى كان محبا للعلوم ، مقبلا على القراءة فألف له « ابن القطان » جملة من الكتب الجلية منها : « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » .

وكتاب نظم الجمان موسوعة كبرى فى تاريخ المغرب من بدء الفتح الاسلامى حتى قبيل سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) . ويؤرد لنا مؤلف الكتاب تفاصيل هامة وقيمة عن دولة الموحدين مدعمة بالوثائق للمهدى بن تومرت مكتوبة بخطه ، ورسائل من عهد عبد المؤمن وخلفائه وقد ذكر طبقات حكومة المهدي بنظام دقيق ، وذكر أسماء مجلس العشرة ومجلسي الخمسين والسبعين كاملة . ولا يخلو كتاب نظم الجمان من عيوب ، هى بعينها تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدي ومنها : شدة التعصب للخلفاء الموحدين وعبارات الاجلال والتعظيم التى تصل الى حد التملق التى يكررها فى كل فقرة من فقرات الكتاب وإغفاله لدولة المرابطين حقها . وقد نشر الاستاذ الدكتور محمود على مكي قطعة من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان فى الرباط عام ١٩٦٤ .

١٥ — البيان المغرب لابن عذارى المراكشى :

وترجع أهمية هذا الكتاب الى كونه صدرا شاملا لتاريخ المغرب والاندلس من الفتح الاسلامى حتى عام ٦١٢ هـ وذلك على الرغم من تأخره النسبى . وهو لذلك من أكثر مصادر تاريخ المغرب الاسلامى تفصيلا ، وأثرها مادة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى استفادته من تواريخ السابقين

كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار إليهم فيما نقل عنهم . وما يهمنا من هذا التاريخ الجزء الثالث طبع تطوان سنة ١٩٦٠ . فقد حفظ لنا ابن عذارى بجانب الحياة السياسية والاقتصادية للدولة الموحدية والتحفصية جانبا هاما من الحياة الادبية متمثلة في القصائد الشعرية التي امتدح بها القبائل العربية محاولا شحذ همم العرب سواء في عهد يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور الموحدى ، وتصويره للصورة وصول رسول صلاح الدين الايوبى والوصف الذى قوبل به لحين وصول الخليفة يعقوب المنصور الى فاس .

١٦ - الحسن الوزان أو يوحنا ليون الافريقى (١٤٨٨-١٥٣٣م) :

وهو الرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى الغرناطى ، وهو نفسه ليون الافريقى Leon Africanus ، ولد في غرناطة عام ١٤٨٨م ، ثم هاجرت أسرته الى مدينة فاس بالمغرب بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م . ومن هناك طاف الحسن الوزان بلاد المغرب والسودان الغربى ثم ارتحل الى الشرق فزائر مصر والقسطنطينية وبعض أقاليم آسيا .

ولعل أدق المعلومات وأكثرها عمقا ووضوحا تلك التى أوردها الحسن الوزان في وصف بلاد المغرب الاقصى التى قضى شبابه في التجول بين ربوعها . أما بقية بلاد المغرب مثل الجزائر وتونس وطرابلس ، فإنه جمع ما أمكنه جمعه من معلومات وبيانات عنها أثناء مروره في رحلاته البرية والبحرية .

وقد وقع الحسن الوزان أسيرا في أيدي القراصنة أثناء عودته من رحلته الثانية الى القسطنطينية ، فوجد طريقه الى روما وسلموه الى البابا ليو العاشر ، فاعتنق المسيحية وسمى نفسه ليون الافريقى ، وانقطع للبحث

والتأليف • وكان الحسن الوزان عند قدومه الى روما يحمل مسودة الكتاب الذى صنفه فى وصف افريقية وتاريخها باللغة العربية •

ومنهج الحسن الوزان يختلف عن منهج الجغرافيين والرحالة المغاربة الذين سبقوه فى التأليف عن افريقية مثل : البكرى والادريسى وابن بطوطة • فقد اعتمد كل من البكرى والادريسى فى جمع مادة كتابه على ما أخذه عن الرحالة والمسافرين والتجار وأهل البلاد الذين أتيح له الاتصال بهم • أما الحسن الوزان فان مصدره عن معظم المادة العلمية الخاصة بافريقية هو ما شاهده بعينه أو سمعه بأذنه فى بيئته الاصلية ، فكتب وصفا لافريقية وأرخ لممالكها وشعوبها وقبائلها •

لذلك ركز الحسن الوزان بعد رحلاته العديدة فى شمال افريقيا على أهمية الدور الذى تلعبه التجارة السودانية فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب الممتدة من طرابلس شرقا حتى البحر المحيط غربا • ومنهج الحسن الوزان فى التأليف والكتابة عن مصر لا يختلف كثيرا عن منهج الجغرافيين والرحالة الذين سبقوه ، فكان يردد بعض التقاليد الشعبية المختلطة بالاساطير والخرافات عن المجتمع المصرى ، لذلك فان ما كتبه عن مصر بصفة عامة لا يخلو من دقة فى وصف المعالم الطبيعية للبلاد والتعريف بطرقها ومسالكها ، ومواردها الزراعية ، ووصف معالم مدنها ، وأوجه نشاط أهلها الاقتصادى وحياتهم الاجتماعية •

والموضح من الصورة التى أراد الوزان رسمها لبلاد السودان من ناحية ومصر من ناحية أخرى ، أنها صورة منتزعة من واقعها • لذلك فقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية سنة ١٥٢٦م ، ونشر Romusio

النص الايطالى سنة ١٥٥٠م * ثم نقل هذا الكتاب الى عدة لغات : لاتينية
بمعرفة Temporal وانجليزية على يد John pory سنة ١٦٠٠م
ونشرها روبرت براون Robert Brown مع تحقيق النص وكتابة
حواشيه في ثلاثة أجزاء عام ١٨٩٦م بلندن * أما الترجمة الاسبانية فصدرت
في معهد الجنرال فرانكو عام ١٩٥٢م الذى أصبح اليوم معهد مولاي
الحسن بتطوان *

ولا يفوتني في معرض حديثي عن المصادر التي اعتمدت عليها في
محتي أن أتحدث عن كتب الرحلات التي تعتبر من المصادر الهامة لدراسة
الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الاسلامي * ومن أهم كتب
الرحلات تلك ما يلي :

١٧ — الرحلة المغربية للعبدى :

وهو ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود
العبدري الحيجي ، نسبة الى بلاد حاحة أي منطقة السوس الاقصى *
وواضح أن العبدري من خلال رحلته ينتسب الى أسرة كان لها حظ والفرة
من العلم وأنه قام في مقتبل عمره برحلته الى المشرق * بدأ الرحلة من
تلمسان برا الى المشرق ، وأعرب في مقدمتها عن أنه « سيستعمل الصراحة
في الرحلة والانصاف وأنه لا يعمد الى تقبيح حسن ولا تحسين قبيح » ،
وهذا ما فعله في الكلام عن القاهرة وأخلاقيات أهلها وعاداتهم وتقاليدهم
القبيحة ، وكذلك في كلامه عن الاسكندرية ووصف أبوابها ومنازلها ومنازلها
وكرم أهلها لما عدا رجال الديوانة وتصرفاتهم الاثمة نحو الوافدين من سوء
المعاينة والتشدد في التفتيش وجباية الضرائب * ولكنه زودنا بصورة
مشرفة عن الحياة العلمية في مصر في العصر الايوبي * فقد كانت مصر حينئذ
قبلة العلماء ومحط رجال الفضلاء * وعلى حد قوله عن شرف الدين

الدمياطى : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل ولا أقرب النى
الانسانية وأجمل معاملة من الشيخ الفقيه فلان ... » ، وذلك ما قاله عن
نور الدين ابن المنير عالم الاسكندرية من كونه : « صدر البلغاء ورأس
الكتاب والناظمين ، وحيد العلماء وبحر المصنفين » ، ثم أوصافه أيضا عن
ابن دقيق العيد .

لذلك ، فالرحلة وثيقة هامة عن الحياة الاجتماعية والثقافية في القرن
السابع الهجرى للبلاد التى مر بها صاحبها وزارها ، وسجل عن أوضاع
طائفة المغاربة المقيمين في مصر . كما تتضمن الرحلة مقولات أدبية وشعرية
من انتاج من لقيهم صاحبها من شعراء مصر ، ومثال ذلك قصيدتان لابن
جبير . احدهما في مدح صلاح الدين والاستغاثة به من الاعمال القبيحة
التى كان يقوم بها أعوان الديوانة ضد حجاج بيت الله ، والثانية قصيدة
في مدح الرسول وقد رواها العبدرى عن ابن حباسة الاسكندرى .

ولا يعرف تاريخ وفاة العبدرى ، الا أن الاستاذ محمد الفاسى محقق
الرحلة يرجح أنه توفى في مدة قريبة من رجوعه من الحج ، وأن قبره لا زال
الى الان معروفا عند مواطنيه من أهل حاحة حيث يطلق عليه اسم « سيدى
أبى البركات » . ويقع هذا القبر بقرية ادا وعزة بقبيلة ادا ويسارن في
جنوب الصويرة ، على بعد ٣٦ كيلو مترا من مدينة الصويرة .

١٨ — رحلة ابن رشيد السبتي الفهرى (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م) :

ويكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رشيد . ولد هذا الرحالة المغربي
بمدينة سبتة في بيئة علمية وعائش فترة الاضطرابات بالمغرب المعاصرة
لنهاية الدولة الموحدية وقيام دولة بنى مرين . وعاصر ابن رشيد أيضا
أحداث الدولة الحفصية بتونس ، وارتحل الى المشرق عبر أراضيها في سنة

١٢٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، لاداء فريضة الحج والاتصال بالمدارس العلمية في الحجاز والشام ومصر^(١) . فأبحر من ثغر الرية الى الفريقية ومنها الى مصر والشام . وتعد رحلته من أهم الرحلات المغربية الى المشرق فقد سجل مشاهداته ومعايناته في مدن الفريقية ومصر والاندلس ، وما أورده عن مصر يمتاز بكثرة تفاصيله ودقتها لا سيما عن الاسكندرية والقاهرة والفسطاط وبلييس . وقد اهتم ابن رشيد في رحلته اهتماما خاصا بالادب وسجل مشاهداته عن انطباعاته بالنسبة للحياة العلمية عموما . ولشدة إعجابه بالحياة الثقافية في الديار المصرية والتونسية ، التي قامت على نفس نمط المدارس المشرقية ، قام ابن رشيد بتدريس ما تعلمه من العلوم لطلبته المغاربة بفاس حيث توفي في ٢٣ محرم سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م^(٢) .

١٩. — تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المعروفة برحلة ابن بطوطة) :

هو أبو عبد الله محمد الطنجي اللواتي ، ويلقب بشمس الدين ويعرف بابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م) . ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م ، وقام برحلته بعد بلوغه سن العشرين التي شملت أرجاء العالم ، وهي في حقيقتها تتألف من ثلاث رحلات :

الرحلة الاولى :

غادر فيها طنجة مسقط رأسه سنة ١٣٢٥ م وطاف في أنحاء المغرب الأقصى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر وتونس وليبيا ثم مصر . ومن

(١) د. عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٩ .
(٢) أنخل جنثالث بلنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣١٩ .

هناك سافر الى الصعيد (جنوب مصر) وسار في طريق الحج الجنوبي الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الاحمر كي يبحر من هناك الى ميناء جدة •

ولم يستطع الابحار من عيذاب بسبب الحرب التي قامت هناك بين أمراء المماليك حكام مصر وأهالي المنطقة • واضطر ابن بطوطة الى العودة الى القاهرة ومتابعة رحلته الى الحجاز عن طريق الشام • وبعد الحج اتجه الى العراق وايران وآسيا الصغرى ، ثم حج مرة ثانية وجاور في مكة مدة سنتين • وفي عام ١٣٢٩م غادر الحجاز الى الجنوب فزار بلداته وعاد الى مكة وحج للمرة الثالثة ، وزار القسطنطينية ، ثم اتجه الى الشرق الاقصى • ولقد كانت هذه الرحلة هامة لوصفه الدقيق للنواحي الاجتماعية والاقتصادية • وعاد ابن بطوطة بعد تلك الرحلة الى مكة وحج للمرة الرابعة ، ثم قفل عائدا الى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر فوصل فاس عام ١٣٤٩م •

الرحلة الثانية :

بعد اقامته في بلاده مدة امتدت نحو العام ، قام ابن بطوطة برحلته الثانية الى مملكة غرناطة وذلك في عام ١٣٥٠م •

الرحلة الثالثة :

بعد عودته الى فاس عام ١٣٥١م ، واقامته بها مدة عام آخر ، بدأ ابن بطوطة رحلته الثالثة الى بلاد السودان الغربي سنة ١٣٥٣م ، استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات عاد بعدها ابن بطوطة الى فاس ، حيث استقر

في بلاط السلطان أبى عنان المرينى يروى ما شاهده من العجائب والغرائب .
وكان هناك شك فيما رواه ابن بطوطة ولكنه كان صادقا في أقواله مصيبا في
أحكامه ، وقد أثبتت الحوادث وأقوال المؤرخين والرحالة الاوربيين صدق
روايته . فمثلا لم يبالغ عندما ذكر بأن المراكب التى كانت تمر في نيلها بين
شطرى الوادى بلغ عددها ثلاثين ألفا وأن عدد السائقين على الجمال بلغ
اثنا عشر ألفا ، فمثل هذه الارقام ذكرها الرحالة الايطالى فريسكوبا لادى
Frescobaldi الذى زار مصر بعد ابن بطوطة بنحو خمسين سنة .

وقد غلبت على الجزء الخاص بوصف المغرب في هذه الرحلة المعاطفة
الوطنية بحكم كونه مغربيا ، فجعل المغرب في قمة البلاد التى زارها من حيث
الرخاء ورنخ الاسعار ، وكثيرا ما قارن بين المغرب والبلاد الاسلامية
ولا سيما مصر في هذه النواحي الاقتصادية والاجتماعية . وعلى هذا
الجانب كان اعتمادنا في البحث في الفصلين الخامس والسادس .

وتوفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م وقبره يزار في طنجة .
وللرحلة ترجمة فرنسية في أربعة أجزاء وجزء خامس للفهارس . وهناك
طباعات عربية عديدة لها مثل : طبعة الازهر ، وادى النيل في القاهرة ،
سلسلة الروائع اللبنانية تحقيق فؤاد أفرم البستاني .

وبعد .. فأننى أجد على لزاما أن أتوجه بالشكر والتعريف والتقدير
الى أستاذى المشرف ، الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ

التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية ، الذى شملنى برعايته ومنحنى من علمه الوفير ووقته الثمين وتوجيهاته القيمة وكتبه العديدة الشىء الكثير +
كما أقدم شكرى الى كل من قدم لى يد المساعدة لانجاز هذا البحث +

والله ولى التوفيق ،،،

الاسكندرية

أكتوبر، ١٩٨٤

ابتسام مرعى

الفصل الاول

قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق

- ١ - ابن تومرت : مؤسس دولة الموحدين *
- ٢ - قيام دولة الموحدين *
- ٣ - الاجهاز على دولة المرابطيين *
- ٤ - توسع دولة الموحدين نحو الشرق *

الفصل الاول

قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق

(١)

ابن تومرت : مؤسس دولة الموحدين

أ — حول رحلة المهدي الى الشرق الاسلامي :

من عجيب المصادفات أن تبدأ الصفحة الاولى من تاريخ دولة الموحدين برحلة مشرقية يقوم بها مؤسس هذه الدولة الى المشرق الاسلامي طلبا للعلم على شيوخه في المراكز العلمية المختلفة ، وأخبار هذه الرحلة لم يسجلها البيهقي في جملة ما سجله من أخبار المهدي ، فبالاسف الشديد يبدأ البيهقي أخباره عن المهدي منذ وصوله الى تونس في طريق عودته الى بلاده في أقصى السوييس .

والمواقع أن الخيوط الاولى لحركة محمد بن تومرت ^(١) الثورية تبدأ

(١) للتعريف بالمهدي محمد بن تومرت ، راجع المصادر والمراجع التالية : البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ١١ وما بعدها . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٤٥ — ٥٥ . عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ . ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٣٦٢ ، ٤٦٤ — ٤٦٥ . علي ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ . ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د . السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٦٥ . د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧٠ . عبد الله جنون ، مدخل الى تاريخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٥ ، ص ٤٨ .

مع بدء رحلته ثم بدأت تتخذ طابعها النورى منذ وطئت قدماه فى طريق العودة الى وطنه أرض أفريقية + وفى هذه الاثناء يسجل البيذق الخطوط الاولية للمقولة الدينية المهدوية ، ويربط البيذق بين ذلك وبين أول ردود فعل فى المغرب الادنى لهذه الافكار ، ويركز على تكاثر طلاب العلم وعامة الناس حول مجالسه وهنا يظهر أسم الرجل الثانى فى تاريخ الدعوة الموحدية واعنى به عبد المؤمن بن على سراج الموحدين ^(٢) ، وباهتداء المهدي اليه تتخذ دعوة ابن تومرت مسارا جديدا +

ويجدر القول بأن أخبار رحلة ابن تومرت متناثرة فيما يشبهه الاقاصيص فى بطون المصادر التاريخية لدولة الموحدين + ومع ذلك ، فان مجرد تتبعها ربما يلقى مزيدا من الاضواء حول تطور فكرة الدعوة الموحدية منذ بداية احتكاك ابن تومرت بعلماء المشرق الى أن تفجرت فى نهاية الرحلة باسم (المهدية الموحدية) فى ديار المرابطين بالمغرب الاقصى +

وكان محمد بن تومرت قد عرج قبل شروعه فى الرحلة الشرقية الى جزيرة الاندلس سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ربما ليأخذ نصيبه من علومها المترددة ويسمع على شيوخها البارزين + وفى قرطبة التى كانت ما تزال تحفظ بمكانتها العلمية السامية فى عصر دولة المرابطين ^(٣) ، قرأ ابن تومرت على يد القاضي ابن حمدين ^(٤) + ومن قرطبة انتقل فقيه السوس الى ثغر

(٢) التقى به المهدي فى بجاية وأخذ عبد المؤمن بنصيحته التى وجهها اليه بقوله : « ان العلم الذى يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب » . البيذق ص ١٦ .

(٣) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩٢ — ٣١٨ .

(٤) من القاضي أحمد بن محمد بن حمدين الذى ولى قضاء قرطبة : سننى ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، انظر : التكملة لابن الأبار ، ص ٣٨ ، ابن سعيد المغربى ،

المرية^(٥) حيث أقام بعض الوقت ليبحرمنها الى المهديّة ، ولا نشك في أنّه
احتث أثناء مقامه في هذا الثغر ببعض شيوخه فقد كانت المرية في هذا
العصر من مراكز العلم في الاندلس . وفي المهديّة أخذ عن الامام أبي عبد
الله المازدي^(٦) ، ومن المهديّة انتقل بحرا الى مدينة الاسكندرية حيث
درس على يد فقيه الاندلس أبي بكر الطرطوشي^(٧) . ومن الاسكندرية
خرج قاصدا الحجاز لاداء فريضة الحج ، وعرج منها الى بغداد حاضرة
الخلافة العباسية ومركز العلم والثقافة الاسلامية لا سيما في العلوم
النكلامية التي كان يميل اليها ابن تومرت^(٨) . وفي هذه الحاضرة العباسية

المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د . شوقي ضيف ، طبعة ثالثة ، ج ١ ، القاهرة
١٩٦٤ ، ص ٦١ .

(٥) راجع عن مدينة المرية : د . سالم ، المرية قاعدة الاسطولوجيا
الاسلامية في الاندلس ، مجلة الرابطة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢١—٢٧ ، ٧٨٠ .
انظر أيضا عنها في د . سالم ، د . أحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية
الاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ١٧٨ ،
— ١٨١ .

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التيمي نسبة الى مازر
بصقلية (٤٥٣—٥٣٦ هـ / ١٠٦١—١١٤١ م) وهو المعروف بالامام المازري ،
توفي بالمهدية ودفن بالمنستير (انظر : المقرئ ، أزهار الرياض ، القاهرة ج ٣ ،
ص ١٦٥—١٦٦ ، ابن فرحون . الديباج المذهب ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، ص
٢٧٩—٢٨١) .

(٧) هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن
أيوب الفهري الطرطوشي الاندلسي نزيل الاسكندرية المعروف بابن أبي رندقة
ولد في بلدة طرطوشة بالاندلس سنة ٤٥١ هـ حيث تلقى علومه ، ثم رحل الى
المشرق سنة ٤٨٦ هـ فحج ، استقر به المقام في الاسكندرية ، توفي سنة ٥٢٠ هـ أو
٥٢٥ هـ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ،
الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٢—٢٢٤ .

(٨) عن زيارته للاسكندرية في رحلة الذهاب والاياب والآراء فيها ،
انظر : لنفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د . عبدالعزيز
سالم ، ص ٢٧٤—٢٧٦ انظر أيضا :

كانت تدور حلقات الامام ابي حامد الغزالي ومجالسه العلمية ، ولا نشك في أن ابن تومرت شهد بعض هذه المجالس وأنه قابل الامام الغزالي ولازمه ويشك بعض المؤرخين في حدوث هذا اللقاء ^(٩) . بينما يؤكد آخرون كابن ابي دينار يؤكد وقوع اللقاء في قوله : « انه لازم الغزالي ثلاث سنين » ^(١٠) . كما يؤكد ابن خلكان ويوافقه السلاوي في قوله : (اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي والكياء الهراشي ، والطرطوشي وغيرهم) ^(١١) . بينما يلقي ابن خلدون ظللا من الشك على حدوثه في قوله : (لقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره) ^(١٢) . وفي رواية ابن أبي زرع تفصيل عن هذا اللقاء ، ويتمثل ذلك في قوله : (. . فكان أبو حامد اذا دخل عليه المهدي يتأمله ويختبر أحواله الظاهرة والباطنة فاذا خرج عنه يقول لجلسائه : (لا بد لهذا البربري من دولة . .) ^(١٣) ونقل بعض الاصدقاء هذا الخبر لابن تومرت بأن ذلك مكتوب عند الشيخ ، فظن ابن تومرت في خدمة الامام أبي حامد الغزالي حتى أطلعه عليه . ويذكر المؤرخون ^(١٤) أن ابن تومرت اطلع على ذلك في الكتاب

(٩) عبد الله عيان ، عصر المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦١ حيث يروي قصة اللقاء ونقدها وبالتالي نفيا ، انظر ايضا : د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

(١٠) ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق : محمد شمام ، ص ١١١ .

(١١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٦ . السلاوي ، الاستقصا ج ٢ ، ص ٧٨-٧٩ . ويضيف صاحب الحلل الموشية أن أهم شيوخ ابن تومرت في مصر : الامام أبي الوليد الطرطوشي ، وفي الشام أبي عبد الله الحضري ، وبغداد أبي حامد الغزالي ص ٨٥ .

(١٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ط بيروت ، ص ٤٦٦ .

(١٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٧٢ .

(١٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، السلاوي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧، ٨١ .

المسمى « كتاب الجفر » ، وهو من علوم أهل البيت ورؤاهم المستقبلية ،
وعقبه ما يشير الى عودة الامامة للاسلام في نسخ الامام المهدي المنتظر
وأن الامام يتمثل في صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوسر
من ذرية رسول الله ﷺ ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من
المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ي ن م ن ل وأن استقامة ذلك الامر
والاستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و
م ن ء ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة • فأبقت ابن تومرت أنه القائم
بهذا الامر وأن أوانه قد أوف • فما كان يمر بموضع الا ويسأل عن
صاحبه ، ولا يرى أحدا الا أخذ السمه وتفقد هيأته (١٥) •

وبتمثل في الروايات المذكورة عن لقاء ابن تومرت بالغزالي وتذليل
خاتمته هذا اللقاء بخبر الامام المنتظر الوارد في كتاب الجفر ، الخيط الاول
في نشأة فكرة الخلافة الموحدية • ومثل هذا الخيط وخبره لا يحتاج الى
تأكيد وقوعه من قبل في الفكر الصوفي المغربي ، وفي كتابات سبق للمغاربة
الوقوف عليها لا سيما في كتاب « الفتوحات المكية » لمحيى الدين بن عربي
و أهمية الخبر لا تنقف عند حد اطلاع ابن تومرت على القصة الواردة في
كتاب الجفر وانما تتعداه الى لقائه مع الامام الغزالي نفسه والوصول
بانرواية الى خاتمة مرسومة استهدفها ابن تومرت وهي انفراده بالاطلاع
على الكتاب وروايته على يد الغزالي وفي حضوره فيكون قد حصل من

(١٥) الجفر هو ما بلغ أربعة أشهر من أولاد الماعز وكان القدامى يكتبون
على جلود أولاد الماعز ويسمونهم جفورا ، وكان الروافض يكتبون في الجلود
لقلعة الورق • انظر : محمد بن محمد الاندلسي الوزير السراج ، الحل السندسية
في الاخبار التوسية ، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب الهيلة ، ج ١ ، تونس ،
١٩٧٠ ، ص ٩٧٨ . السلاوي ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

أكبر أئمة الاسلام في التشرق على التفويض اللازم لاعلان امامته ومهدويته
في الغرب الاسلامي (١٦) .

بـ أوضاع المشرق الاسلامي :

استمرت رحلة ابن تومرت في المشرق الاسلامي زهاء عشر سنوات
تنقل خلالها بين مراكزه العلمية وأفاد من احتكاكه بتسيوخته المشاركة كثيرا
من العلوم الدينية واللغوية لا سيما الدراسات الكلامية التي كانت محظورة
في المغرب والاندلس زمن المرابطين اذ كانوا يعتبرونها ضربا من الالحاد
وطربقا تؤدي الى الكفر وهذا ما حدا بهم الى احراق كتب الغزالي وبالذات
احياء علوم الدين لاحتوائه على كثير من المسائل الكلامية ، وعندما قرر
العودة الى بلاده ، ترك المشرق في صورة تكاد تنطق بالدعوة التي تجدد
الحلافة العباسية التي وهنت وأنتهت والخلافة الفاطمية التي مزقتها
الانقسامات المذهبية والتنازع الداخلي . فالخلافة الفاطمية في مصر ، بعد
وفاة الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) ، تعرضت لهزات عنيفة
نتيجة الانقسام السياسي والمذهبي الحاد داخل كيانها المصدع ، ولا شك
أن ابن تومرت عايش هذه الفترة وعان أحداثها ووقف على حالة الوهن
والضعف والانحلال التي أصابت العالم الاسلامي المشرقي سواء في الخلافة
العباسية أم الفاطمية . ففي مصر الفاطمية تعددت الانقسامات المذهبية

(١٦) كان ابن تومرت ينقرب الى الغزالي واثق أن بلغ الامام الغزالي في
احدى الجلسات العلمية التي كان يقبها مقام به الامر على بن يوسف ابن
تاشمين من احراق كتبه والتهديد بالعقاب الشديد لمن يوجد لديه هذه الكتب
فعلق على ذلك بقوله : « لذهبن عن قليل ملكه ، ولبقتن ولده ، ما أحسب
المتولى ذلك الا حاضرا مجلسنا » فقال له ابن تومرت « على بدى يا سيدى »
فقال له : « على يدك » . أنظر : المراكشي ، المعجب ، ص ١٠٧ ، ابن القنفذ ،
المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

الى فرارية ومستعلية والى طييبة وحافظيية ، وانعكس ذلك كله في الاضطرابات العنيفة التى سادت البلاد (١٧) .

واذا كان ذلك هو حال الخلافة الفاطمية التى وقف ابن تومرت على أحداثها ، فان أحداث الخلافة العباسية التى عايشها فى بغداد لم تكن صورنها الكئيبة أقل من أحداث الخلافة الفاطمية مع ارهاصات احتضار الخلافة العباسية التى هوت بالفعل أمام المغزوة المغولية البربرية العاشمة بعد ما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

أما المغرب فالحالة الفكرية فيه لم تكن أفضل منها فى المشرق ، فالمرابطون قد هبطوا فى نظره الى هوة التخلف الفكرى وجمدت أفكارهم عند طريقة السلف التى أصبحوا يسيرون عليها تقليداً دون أن يدركوا أغوارها وأعماقها ادراك السلف الصالح لها مما لا يحميهم من مظنة التجسيم لذات الله سبحانه وتعالى ، فحرموا دراسة علم الكلام الذى ينصدى لتأويل المتناسبه من الآيات القرآنية ، وهم على هذا الاساس فى نظر ابن تومرت الذى تأثر بأفكار المعتزلة كفرع ملاحدة ومجسمة (١٨) ، وهكذا خرج ابن تومرت من رحلته آسفا ومتحسرا على ما أصاب الاسلام فى المشرق والمغرب من التخلف الفكرى العقائدى فى الغرب ومن التحلل السياسى والاجتماعى فى المشرق .

(١٧) جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ . ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٤-٩٥ ، ١٢٠-١٢٢ ، ١٥٢-١٥٤ .
انظر ايضا : عبد المنعم ماجد ، السجلات المستنصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣ ، ١٤٥-١٥١ . محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ٦٥-١٩٦٦ ، ص ١١٨-١٢٠ ، ١٢٧-١٢٨ ، ١٣٠-١٣١ .
(١٨) عبد الله على علام ، الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ وما بليها .

وتحتدم نفسه بالثورة على تلك الاوضاع السيئة وسرعان ما يفصح عما يعتل بنفسه في موسم الحج بمكة عندما يقف خطيبا ويعلن تجريحه للاوضاع الفاطمية الفاسدة التي أرهقت الاسلام وأذهبت هيئته ويحمل على الفاطميين حملة شعواء ويندد بالمناقشات اللجواء التي كانت تعقد بين السنة والشيعة •

ج - رحلة العودة الى المغرب والتقاءه بعبد المؤمن في ملالة :

وفي أعقاب هذه الوقفة ، خرج ابن تومرت مطروداً من الحجاز فوصل الى مصر • وفي قاهرة الفاطميين ، بدأ دعوته الى « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » فتطاردت السلطات الفاطمية فيمضى الى الاسكندرية تمهيدا لنفيه خارج البلاد • وفي رحلة العودة الى المغرب على ظهر سفينة بحرية أُرست به في تونس سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) أو سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ويشير المؤرخون الى رحلته البحرية الى المغرب فيذكر ابن خلدون نزوله بطرابلس في حين يجعلها ابن الاثير المهدية أما عبد الواحد المراكشي فيجعلها بحابة • وأيا ما كان الامر فقد نزل ابن تومرت في تونس ، وواصل السفر منها الى المغرب • وكان في كل مدينة يدخلها ينصب نفسه أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر حتى كان يسبب الضيق لولايتها ، فيضطرون الى نفيه أو يؤذونه بسبب ذلك • ويذكر المراكشي في المعجب قصته مع ركاب السفينة من الاسكندرية فيقول : « • • • وجرت له وقائع في معنى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضت الى أن نفاه متولى الاسكندرية من البلاد ، فركب البحر ، فبلغني أنه أستمّر على عادته في السفينة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الى أن ألقاه أهل السفينة في البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة ولم يصبه شيء • فلما رأوا ذلك من

أمره ، أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدورهم ، ولم يزالوا
مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (١٩) .

ولم أقف على ما يفيد بشيء تفصيلي عن أخبار ابن تومرت في زيارته
المسار إليها الى طرابلس أو المهدية ذلك لانه لم يتبق من المصدر الرئيسي
لأخبار رحلة ابن تومرت الى المشرق ، وهو الخاص بالبيذق ، غير القطعة
التي نبدأ بذكر أخباره في تونس . ومن هذه الاخبار القصة الخاصة
بالصلاة على اليهودي بأعذارها نموذجاً للمناسبات التي كان يستثمرها
ابن تومرت لترديد دعوته بالامر بالمعروف . غفى القصة أن الناس رفضوا
الصلاة على الجنازة المارة ولما سأل قالوا له : « * هو يهودي وكان يصلي
فقال لهم : « رضى الله عنه أفياكم من ينسجد له بالصلاة ؟ » فرد الناس
بالايجاب من كل مكان ، فقال لهم : « قد شهدتم له بالايمان » ، ثم أمر
من يقيم الصفوف وصلى عليه والناس من ورائه . ولما انتهى من الصلاة
دعا الفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة ، فقالوا له بعد أن عرفوا الحق « جهلنا
يا فقيه » (٢٠) .

ونلمح في هذه القصة وغيرها من الاخبار القصصية المتعلقة بابن
تومرت في المشرق وخبر تزايد طلبته في تونس واقبالهم على دعوته وقوله
بأن العلم بأئيه في المغرب وليس في المشرق ، الثمرة الاولى التي خرج بها
من دروس رحلته المشرقية ، وهي أن « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر »

(١٩) المراهشي ، المعجب ، ص ١٧٩ . راجع في ذلك ، د . سالم ،
المهدي بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص
٤٦٦ .

(٢٠) البيذق ، أخبار المهدي ، ص ١٢ ، د . سعد زغلول ، محمد بن
تومرت ، ص ١٧ .

لم يعد بين ما يهتم رجال الحكم في الخلافة الإسلامية في الشرق الذين أنكروا أيضا على ابن تومرت أفكاره الثورية * بينما وجد في تونس بشائر الاستجابة اليها ، فتوسم أن نعم هذه البشائر سائر المغرب * ومن ثم فقد انتقل بعد رحيله من تونس الى طور جديد من دعوته وهو ما تشهد عليه أخباره في قسنطينة (٢١) حيث انكب على تعليم أهلها كيفية تطبيق الشرع في الاحكام لا سيما فيما شاهده بنفسه من قضايا (٢٢) ، ومع استمراره في تعليم تلاميذه الذين أخذوا يزدادون يوما بعد يوم وقد أعجبهم سعه علمه في دائرة دعوته التوحيدية وسحر بيانه وعمق تأثيره في الدرس وقدرته على الاقناع بالحجج وبراعته في اجتذاب المريدين الذين تبين لهم أن ذكاء المغرب الجامدين دفعوهم الى التجسيم والكفر *

ثم رحل من قسنطينة ، الى بجاية (٢٣) حاضرة بني حماد الصنهاجيين وفيها نهى الرجال عن التزوي بزى النساء ، وحث على عدم اختلاط النساء بالرجال في الصلاة * وفي هذا الصدد يروي أمير بجاية (العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس) لما رآه يفرقهم بعصاه قال له : « يا فقيه لا تأمر المسوقة بالمعروف وهم لا يعرفونه ، فاني أخاف أن يأمرؤا فيك وتهلكهم ، لا يستوى حر كريم مع نسيطان رجيم » ، فأغلظ له ابن تومرت ولائعا في

(٢١) البيهقي ، نفس المصدر ، تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص

٢٥٤ .

(٢٢) يورد البيهقي قصة ابن تومرت عند سماعه أهل قسنطينة ينادون على جزاء الحلال (الحلال في لغة المغرب القديمة بمعنى السارق) فقال : ليس عليه سياط بل القتل . ومرة أخرى المنادى على جزاء أهل السرقة ، فقال : تركتم الشرع ، انما يجب عليه قطع اليد ، وقال أن هذا الضرب يقوم مقام قطع اليد بجهلكم ، لانه لا يجوز جمع حدين في ذنب واحد . وطلب من السارق التوبة ، وسلمه شروطها (المصدر السابق) .

(٢٣) الوزير السراج ، الحل السندسية ، ص ٧ — ٩٧٨ . ابن أبي زرع ،

القرطاس ، ص ١٧٣ .

انقول فأنكر عليه الامير ذلك * فخرج ابن تومرت من بجاية خائفا الى قرية ملالة من قرى بجاية ، وفيها بنى له الطلبة مسجدا ، وكان مجلسه في هذا المسجد قريبا من دار يرزيجن بن عمر المعروف بأبي محمد والذي سماه ابن تومرت ، عبد الواحد (وهو معروف عند الموحدين بالشرقي من أصحاب المهدي والمقربين اليه) (٢٤) *

أخذ ابن تومرت يدرس دعوته أياما في حماية بنى ورياكل الصنهاجية الذين أجاروه وكان يجلس تحت شجرة خروب قريبا من ديار ملالة ويلتف حوله تلاميذه ، وتمضى الرواية في اظهار قرب اعلان مهدويته ، فقد سمعه تلاميذه تحت الشجرة يقول : « * الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالبا طوبا لمن عرفه وويل لمن أنكره » (٢٥) * فأخذتهم الدهشة في أمره فمن يا ترى يكون هذا القادم ؟

ذلك هو عبد المؤمن بن علي الكومي (٢٦) (خليفة المهدي) حسب رواية البيهقي نفسه * وفي قصه هذا اللقاء الذي تم بين المهدي وخليفته ما يكمل خيوط أحداث رحلة ابن تومرت الى الشرق والعودة منه الى بلاد المغرب *

(٢٤) البيهقي ، المصدر السابق ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .
(٢٥) البيهقي ، نفس المصدر ، ص ١٤ . أنظر أيضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٣—٧٧٤ .
(٢٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٤٦٧ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ ، ص ٢٣٧—٢٤١ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق د . عبد الهادي التازي ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٤١١—٤١٣ . البيهقي ، المصدر السابق ، ص ١٠—١٦ .

فتند ذكروا أن عبد المؤمن أقبل منذ صباه اقبالا شديدا على تلقى العلم فلما شب كان يتردد على جامع تلمسان للسمع وتلقى العلم على شيوخ عصره وفقهاء الحديث والتفسير ، فلما اتسع علمه تشوق الى الرحلة الى المشرق الاسلامي للتوسع في الدراسات الدينية على نحو ما جرى عليه طلاب العلم في بلاد المغرب فخرج بعد وفاة أبيه مع عم له يدعى يعلى الى بجاية ليركب من هناك سفينة الى الاسكندرية ، فوصل الى متيجة ومنها الى بى زلوى فلما وصل الى بجاية نزل بمسجد الريحانة ، وفي هذا المسجد رأى الناس يتركون المسجد جماعات للاجتماع بالفقيه السوسى ، فسأل الناس عنه ، فذكروا له أنه عالم المشرق والمغرب وليس كمثله أحد من الناس . فطلب من عمه قصده بملاحة ليسأله في أحوال الديانات والواجبات ويقص عليه مناماته (٢٧) . فما أن لمح ابن تومرت حتى أسفدناه منه وسأله عن اسمه وبلده وعرف منه أنه يقصد المشرق التماسا للعلم فرد عليه : « العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب » ، ورد عليه القول : « لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين » . فبكى عبد المؤمن لسماع ذلك ولشدة تأثره قال : « يا فقيه ما كنت فى شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى » . فقال له المعصوم (ابن تومرت) : « انما تطهرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك » واستنرد فقال : « طوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر » (٢٨) .

(٢٧) البيهقى - نفسه ، ص ١٧ . راجع قول المهدي لعبد المؤمن فى الاستقصا ، السلاوى ، ج ٢ ، ص ٨١ .
(٢٨) البيهقى ، نفسه ، ص ١٦-١٧ .

وعلى هذا النحو نجح ابن تومرت في اثناء عزم عبد المؤمن عن الرحلة الى المشرق في طلب العلم وعزم هذا على ملازمته في السراء والضراء وتفانى في الاخلاص له *

وتدل قصة هذا اللقاء على أمر جدد يهمننا في تتبع تطور دعوة ابن تومرت عبر رحلته ، لا يتعلق بخبر سبق اليه المهدى في التأكيد على غلبته بأن العلم يأتي في المغرب وليس في المشرق ، بقدر ما يتعلق بأن طلبته من المغاربة في رحلة العودة قد ألفوا الفوج الاول من صحابته المهاجرين معه على طريق اعلان مهدويته * وكان دخوله فاس بصحبة سبعة من أتباعه أو صبيانهم على حد قوله (٢٩) * وفي فاس أمر صبيانهم أو تلاميذه باستخدام القوة في النهي عن المنكر حيث للب منهم قطع مقارع من شجر التين المغروس بأسفل الوادي لتكسير أدوات اللهو التي بالحوانيت (٣٠) * ولما شكوا أربابها الى ابن معيشة قاضي المدينة لهم ينصفهم على أساس أن ذلك وجده الفقيه في السنة والا ما فعله * ومثل هذا العمل العنيف ، لم يسبق اليه ابن تومرت فيما ذكر من أخبار أطوار دعوته عبر رحلته الشرفية ، ومنها تلك المتعلقة بأخبار انتقاله الى تلمسان ووجده * وكان من أمره في تلك الاخير عزوفه عن مواجهة المخالفين بنظير مثلما حدث مع الجماعة التي صادفها في دشر قلال (٣١) الى دخوله فاس عندما ردوا على بعض

(٢٩) هم : عبد المؤمن بن علي وعبد الواحد الونشريسي والحاج عبد الرحمن والحاج يوسف الدكالي والبيذق وعمر بن علي ، وعبد الحق بن عبد الله . (راجع البيذق ، ص ٦٤) .

(٣٠) كانت الحوانيت في فاس مليئة بالدفوف والقراقر والمزامير والعيدان وجميع أدوات اللهو (البيذق ، ص ٦٥) .

(٣١) دشر قلال هي اليوم المعروفة بعين بوقلال الواقعة بتراب قبيلة مكناسة على الطريق بين تازة الى اكحول . البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ .

رجاله : « معروفنا ومعروفكم عندكم ، سيروا رالا نمثل بكم وبثقيكم » ،
فقال ابن تومرت : « سيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم » (٣٢)

د — صدى رحلته في المغرب :

على طريق العودة من المشرق الاسلامي ، اقتصر عدد الاصحاب
الذين رافقوا ابن تومرت على سبعة نفر الذي جاء ذكر بعضهم على لسان
البيذق في قوله : « * فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كما كنا أول
القدود : سيدنا المعصوم رضى الله عنه ، ويوسف الدكالي ، والحاج عبد
الرحمان ، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى
بالبيذق » (٣٣) * وفي شوط الرحلة من تونس الى فاس ، زاد على صحبه
الثلاثة الاوائل ثلاثة آخرون هم : عبد الواحد الونشريسي وابنه عبد
المؤمن بن علي الكومي * وبالتالي تفسر هذه الاخبار واقتصار صحابته
على هذا العدد المحدود مادامت دعوته لم تلق الاستجابة المنتودة سن
ابناء الخاصة كما أسلفنا القول خاصة قول أمير بجاية (٣٤)

ويستفاد من المقولة الاولى للبيذق عن الصحابة الثلاثة الاوائل أن
رحلة ابن تومرت كانت يمكن أن تقف عند نتيجة واحدة هي تلك التي تتعلق
بزيارة المشرق في اطار الزيارات التقليدية التي نهج عليها المغاربة عبر
تاريخهم بهدف الحج أو الاستزادة من علوم المشرق والاتصال بمعارفه
وأخوانه * فعاد ابن تومرت من المشرق الاسلامي في صحبة أصحابه
الثلاثة الذين بدأوا معه الرحلة ثم انضاف اليهم الثلاثة الجدد من المغاربة

(٣٢) البيذق ، نفسه ، ص ١٢ .

(٣٣) البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ .

(٣٤) انظر : البيذق ، أخبار المهدي ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطين

والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥—١٦٦ .

العائدين من رحلاتهم الى الشرق أو القاطعين ! يا أخذا بنصيحة ابن تومرت وعن طبيعة الدعوة التي وجهها المهدي للناس في أثناء رحلته المذتورة ، لم يشر البيهقي الى دعوة أبعد من مخاطبة السوفا بالامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر — وهي الدعوة التي ردها : بعض أيضا عن أخباره بالحواضر المشرقية والتي انحصر تأثيرها الأول الى مجرد اخراجه من الحاضرة حسبما أفاد البيهقي نفسه في مقولته الثانية المذكورة أعلاه .

ووضح من أخبار الرحلة أيضا أن طبيعة هذه الدعوة قد جعلت نرحال ابن تومرت بين الحواضر الاسلامية يتم في سلام أو على حد قول البيهقي « في أمن من الله » (٣٥) ، بالرغم من عدم رضا الحكام أمثال « العزيز » صاحب بداية على أسلوب ابن تومرت في مخاطبة « السوق » . ومع ذلك ، تبقى لقولة « العلم الذي يريد اقتباسه بالمشرف قد آتاه بالمغرب » ذلك المعنى الذي يتعدى بالدعوة من الوعظ الديني في أمور حياة السوفا : عادية الى تلك الثورة التي فجرها ضد المراتبين بعد مودته والتي من أجلها قطع صحبه الثلاثة الجدد رحلاتهم الى الشرق وأجمعوا « على السير نحو المغرب في صحبته » (٣٦) .

وأفادت أبحاث الدكتور أحمد مختار العبادي بوجود العديد من أنصار الدعوة التومرتية في البلدان المشرقية — حسبما يرد بالتفصيل ، فيما بعد (٣٧) . وأعتقد أن أعداد هؤلاء قد مكثرت في كل مرحلة من مراحل

(٣٥) البيهقي ، نفسه ص ١٢ .

(٣٦) البيهقي ، نفسه ، ص ١٧ .

(٣٧) أنظر : د . مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ،

الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ ، البيهقي : نفسه ، ص ٢٨—٢٩ .

رحلة ابن تومرت في طريق عودته الى المغرب نتيجة للاخبار التي تراءت
أصداؤها في أرض المغرب عن فقيه السوس 'العالم المقنع' ، الداعي الى
الحق ، الذي تصدى للامراء والعلماء والحكام وفاقهم ببلاغة وسر
مقـولته *

عن هذه الاخبار ، أفادت قصة دخول فاس أن قاضيها « عبد الحق
بن عبد الله بن معيشة الغرناطي » لم يذهب كما ذهب غيره في الحراضر
المشرقية الى الاعتراض على طريقة ابن تومرت في النهي عن المذك * بل
أفادت القصة أيضا بأن سكوت ماضي فاس عن أسلوب العنف الذي نزع
اليه ابن تومرت في حادث اللهو 'لخوانيت يعني أن الفقيه القاني فد مال
الى آراء ابن تومرت أو تأثر بها * ومن الاخبار في رحلته الى مراكش أن
دعوته أخذت تؤتى نمارها بالفعل ، فتكاثر أنصاره في مكناس وحميس
عنزارد (٣٦) ، ورحبت القبائل به وأنصاره (٣٧) *

وعندما حل بمراكش قاعدة دولة المرابطين ومقر أميرهم ومركز
علمائهم أيقن بقرب الصدام المحتوم مع هؤلاء الفقهاء الذين يمتتون علم
الكلام ويرمون أصحابه بالكفر ، فأقام وأصحابه في مسجد صومعة الملوب
وظل مقيما به قرابة أسبوع حتى كان يوم الجمعة التالية حيث دخل مسجد
على بن يوسف ، فألفاه جالسا على غفارة ابن نيزمت والوزراء واقفون ،

(٣٨) هي مدينة الخميسات حاليا ، تقع في منتصف الطريق بين فاس
والرباط .

(٣٩) من الروايات في هذا الصدد أن القبائل اعترضته أثناء عبوره
وصحبه نهر أم الربيع حيث طلبت منه دفع الضرائب حسب عدد الرؤوس من
أجل المرور ، فخاطبها بالبربرية قائلا : « آو مورن ملو لينن ان سوس آداون
نأك » أي أن السبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها ، وهذا غير جائز في الشرع ،
فتركوهم لحال سبيلهم ، البيذق ، نفسه ، ص ٢٦ .

فقال له الوزراء ود الخلافة على الامير (٤٠) ، فقال لهم : « وأين لاميير ؟
أتى أرى جوارى منقبات » . لما سمع ذلك على بن يوسف ، جذ انجاب
عن وجهه وقال لهم صدق (٤١) . فلما رآه ابن تومرت قال له : « الخلافة
بله وليست لك يا على بن يوسف » . ثم قال له : « يا على قم عن هـ - العيرة
تكون أمام عدل ، ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة ، فأزالها وأعطاها
لمولاها . وقال له : وما تغيرها؟ قال له ابن تومرت « لأنها تقعد بالنجاسة » (٤٢)
ثم خرج من المسجد ، ودخل مع الفقهاء للمذاكرة حتى قهرهم (٤٣) .

وتنتهى رحلة ابن تومرت المشرقية الى تلك القصة التى تقدمت أخبار
صدامه المباشر بالامير المرابطى على بن يوسف وفقهاء المرابطين . وبهذا
نكاد نطمس عقدة علفت بفكر ابن تومرت من رحلته المشرقية عن أوضاع
« السوق » من عموم المسلمين والمشاركة بوجه خاص ، أو انعقدت بفعل
ماوقف عليه من الاحوال السيئة فى المشرق الاسلامى وفى امارتى بن زيري
وبني حماد بالمغربيين الادنى والاسط .

ويبقى من الرحلة المشرقية صداها الذى تناقلته السنة الحجيح
المغاربة بين حواضر المشرق ، وتنوقلت فى حواضر المغرب وبواديه . وتتمثل
هذه الاصداء فى انتشار أتباع الموحدين فى مدن مصر حسبما سيرد الذكر؛

(٤٠) المقصود بكلمة ود هى أداء الواجبات والتشريفات للامير ، وهى
كلمة عامية لازالت مستعملة فى المغرب الى الان .

(٤١) سقى ابن تومرت المرابطين بالملثمين نظرا لخروج المرأة سافرة
الوجه ويضع الرجال اللثام . راجع قصته مع أخت على بن يوسف وتقريعه
لها . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ،
ص ٨٢ .

(٤٢) البيهقى ، نفسه ، ص ٢٧ .

(٤٣) البيهقى ، نفسه ، ص ٦٧ .

ومثل هذا الاثر من البديهيّات المفترضة في سياق ما يردده الحجاج المغاربة عن أنباء من تخلف منهم في المنفى + ولا جدال في أن ما سبق من تشاير ابن تومرت الى المغرب تحمل في طياتها التفسير المنطقي للقول السابق ذكره عن تكاثر أنصاره في الشواطئ الاخير من رحلة عودته الى حد أن قاضي قناس أخذ بأرائه بل الى حد امتناع الامير المرابطي على بن يوسف عن الاقدام على اجراء تأديبي يردع ابن تومرت عن تكرار تهجمه على شرعية امارته + ويمكننا ان نرى في هذا النحاء تفسير استمرار ابن تومرت في درسته الموحدية (بين أوساط المرابطين دون أي عقاب والى حد رفض الامير المرابطي الاخذ بنصيحة فقهاء مجلسه بالزج به في السجن — حسبما سيرد القول عن بقية أخبار ما تبقى من رحلته — والقبول بمقولة مثالية جاءت على لسان أحد قواده وليست من مآثر دروس الحكم القوي في تاريخ الامارة الاسلامية عموما والامارة المغربية على الخصوص +

أثر حياة ابن تومرت الاولى في فكره :

عن حياة ابن تومرت الاولى ومؤثراتها ، جاء عن نسبه على لسان البيهقي : هو « محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل ، بن حمزة بن عيسا ، بن عبيد الله بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله ، بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ » (٤٤) + وذكر ابن أبي زرع ادعاءه لنسبه النبوي في شجرة بها بعض الاختلاف ورسم الشجرة العائلية المذكورة ، فقال : هو « محمد بن عبد الله المعروف بتومرت ابن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن يحيى بن

(٤٤) البيهقي : المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ، الرباط،

١٩٧١ ، ص ١٢ + انظر أيضا ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٦ +

— Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, p. 17.

عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن حمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، * وأضاف ابن أبي زرع ما ذكره ابن القيس في تاريخه بأنه : « هو رجل من هرغة من قبائل المساعدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي وقيل أنه من كنفيسه » (٤٥) * .

وينحس ابن خلدون في إضافة النسب النبوي الى محمد بن تومرت ، على أساس ارتفاعه الى علي بن ابي طالب عن طريق سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ، وسليمان هذا هو أخو ادريس الأكبر الذي يقع نسب معظم بنيهِ في المساعدة وأهل السوس (٤٦) * . ويؤكد المراكشي في المعجب هذا النسب النبوي الشريف بقوله : « * له نسب متصل بالحسين بن علي بن أبي طالب * » (٤٧) * .

ويميل عدد من المؤرخين الحديثين الى تجريد المهدي من نسبه النبوي الشريف وتأكيد انتمائه الى قبيلة هرغة من بطون المصامدة (٤٨) * . ويأتي الاستاذ عبد الحميد العبادي برأى آخر فهو يعتقد أنه كان في الاصل بن أحفاد العلويين الادارسة الذين اندمجوا في البربر ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وتطبعوا بطباعهم ، فهو عربي الاصل ، بربري الطباع

(٤٥) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ ، انظر أيضا :

→ Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14.

(٤٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ط دي سلان ، الجزائر ١٨٨١ ، ص ٦٥ ، ، علام ، الدولة الموحدية ، ص ٤٧ .

(٤٧) المراكشي ، المعجب ، ص ١٠٧ .

(٤٨) علام ، المرجع السابق ، ص ٤٧ . ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم ، سلسلة الالف كتاب رقم ٨٩ ، ص ٢٦٥ .

— Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, p. 202.

وانظر أيضا :

— Charles André Julien; Histoire du L'Afrique du Nord, Paris, 1955, p. 90—92.

والاخلاق^(٤٩) . ومع التسليم بهذا الراى الذى يجمع بين الاصل العربى والخلق البربرى لابن تومرت يمتن أن ننبين غلبة البيئة البربرية على الاصل العربى . وهذا الرجحان واضح من الاشارات المتناثرة عن سيرته من حيث القول عن مولده فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م) أو ٤٩١ هـ (١٠٩٥ م)^(٥٠) وعن أبيه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) وعن قومه من قبيلة هرغة^(٥١) ، المصامدة المعروفين باسم (السريجين)^(٥٢) أى الشرفاء فى لغة المصامدة .

وعلى الرغم من أن مصمودة كانت من أكبر القبائل البربرية عددا وأشدّها بأسا الا أن والده كان فقيرا وكانت أمه من قوم يعرفون ببني يوسف من مسكالة من عمالة السوس^(٥٣) .

تلقب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) بلقب تومرت الذى كان

(٤٩) عبد الحميد العبادى ، المجلد فى تاريخ الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٢ .
(٥٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ويذكرها فى ٤٩١ هـ وشتر حولها
الخلافة ، ص ٤ ، أنظر أيضا آراء ابن الخطيب ، أعلام الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦٦ ، راجع فيها :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14. —

ونبها بنافش عملية تحديد مولد ابن تومرت عند ابن خلدون والزركشى وابن خلكان تفصيلا .

(٥١) هرغة قبيلة المهدى ، قبلية مصمودة أسماها البربرى أرغن ، مساكنها جنوبى وادى سوس الى الشرق من مدينة رودانة وتشمل فى الوقت الراهن على البطون التالية : بنى عثمان ، بنى تاموا دان ، آران والجرف (البيذق ، نفس المصدر ، ص ٣٣ .

(٥٢) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ . أنظر أيضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٩ .

(٥٣) السلاوى ، الاستقصا ، راجع تقسيمه لمعالمات المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢-٧٣ .

يتلقب به أبوه^(٥٤) ، كما تلقب بـ (امفار) أى الشيخ فى لغة
البربر^(٥٥) . وحمل فى صغره لقب أسافو أو أسافور بمعنى الضياء لكثرة
ما كان يسرجه من قناديل فى المساجد التى لازمها للعلم^(٥٦) .

ولم تكشف المراجع النى بين أيدينا عن حياة محمد بن تومرت الاولى
وتخلوا القطعة الباقية من أخبار المهدي للبيذق من هذا الجانب . وكل
ما نعرفه عنه أنه ولد فى أقصى السوس فى قرية تومكران ، ويذكر عن هذا
المكان أن « لا ماء فيه انما يشرب أهله من ماء المطر ، وأنه فى سفح جبل
اجليز »^(٥٧) . وكان أن انطبعت شخصيته بمعالم هذه البيئة فاستمت
بصفات منها أنه (كان رجلا ربة ، أسمر عظيم الهامة ، غائر العينين ، حديد
النظر ، ضعيف المعارضين)^(٥٨) . ومن أصول صفاته البيئية أن يتحدث

(٥٤) يعرف البيذق معنى نومرت بقوله : « . . أنه اسم لبيه عبد الله ،
شهر فى صغره الى كبره بتومرت بن وجليد . ذلك لما ولد فرحت به أمه وسرت
فقالته بالاسان الغربى « آنومرت آبنو اسك آبيوى » ومعناها : « يا فرحتى
بك بابنى » . وكانت اذا سئلت عن أبها وهو صغير تقول أيضا بنفس اللسان
« يك نومرت » ومعناها صار فرحا مسرورا . فغلب عليه اسم نومرت ، وترك
دعاؤه باسم عبد الله الذى سمي به أولا . أنظر ، المقتبس من الانساب ، ص
٢٧ . (والمقصود هنا باللسان الغربى هو لغة أهل المغرب فى الغرب) .

ويضيف رشيد بروبنة Rachid Bourouiba
« أن والد ابن تومرت سمي عبد الله وتلقب هو بتومرت بواسطة أخته
حسب ما ذكره ابن القطان أو بواسطة أمه كما سبق أن ذكر البيذق ويضيف ابن
القطان أن « عبد الله عند مولده قد دثر فى تومارت أى معطف » ومن ثم تلقب
بهذا الاسم . المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٥٥) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . سالم
ص ٢٦٥ . عبد الله عنان ، عصر المرابطون والموحدون ، ج ٢ ، ص ١٥٨—١٦٩
(٥٦) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ . راجع أيضا ، د . سعد

زغلول ، محمد بن تومرت ، ص ١٣ .
(٥٧) Marcel Peyrouton ; Histoire General du Maghreb, Paris, 1966. p. 94. (٥٧)

(٥٨) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

بالبربرية أو حسب الاشارة السابقة عن أمه بـ (اللسان الغربى) وقد ذكر البيهقى فى هذا الصدد أن ابن تومرت فى نهاية رحلة العودة من الشرق فى الطريق من فاس الى مراكش كان بخطاب القبائل البربرية (٥٩) وان ذلك كان مفاجأة لاسحاب ابن تومرت . هذه اشارة تعنى أن ابن تومرت كان لا يستخدم البربرية فى أحاديث رحلته المشرقية الا نادرا ليل منه الى تفضيل الحديث فى هذه المرحلة من حياته بلغة القرآن ، وأن اقدامه فى المرحلة من رحلته على الحديث بالبربرية يعنى التسليم بالمطابع الخاص لبيئة موطنه ومؤثراتها عليه .

ويردد السلاوى (٦٠) ما ذكره ابن عذارى عن أصول الثورة الفكرية فى بيئة ابن تومرت المغربية ، بقوله « كان له ناموس عظيم » . ويضيف أيضا ابن أبى زرع الى هذا القول أنه (كان عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالاصول والجدل) (٦١) . وتؤكد مخطوطة « أقوال المهدي فى علم الكلام » (٦٢) ما سبق أن ذكره السلاوى .

وكان على ابن تومرت الذى ابتنى فكرة المهدية على أساس مزج ما كان يحمله من فكر الطرقيين الدسوقيين فى المغرب (٦٣) قبل رحيله الى

(٥٩) انظر ما قاله البيهقى بالبرية ، اخبار المهدي ، ص ٢٦ .

(٦٠) السلاوى ، نفس المصدر .

(٦١) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ .

(٦٢) البيهقى ، مخطوطة اقوال المهدي ابن تومرت فى علم الكلام ، دار الوثائق بالرباط ، ميكروفيلم رقم ١٠٥١ ، عن العلم وأهميته وسنده بالاحاديث والقرآن ، انظر ، ص ١٩-١٠ . وفى العقل والجائز والواجب والمستحيل والآراء حول تفسيرها ، انظر ، ص ٤٨ . وعن الكلام فى المتواتر وما يتعلق به من فصول ، انظر ، ص ٧٦ ، ٨٢-٨٤ .

(٦٣) راي جورج مارسيه فى « الاعتقاد فى المهدي وفى عودة ظهوره من مقاليد البلاد . فمن بين أقاليم الاسلام ، يبدو أن المغرب كان هو الاقليم الذى

المشرق مع ما تلقاه من فكر الغزالي وأفكار المعتزلة والمتكلمين أثناء رحلته المشرقية ، كان عليه أن يواجه انجمود الواضح في أفكار فقهاء المالكية في المغرب المرابطي حيث يتصدى ابن تائسفين لمحو تعاليم مالك وتتبع كل من يشتغل بالعلوم الكلامية وقصر التعليم على الفقه وحفظ القرآن والاعتماد على الفروع •

وفي حياة ابن نومرت الأولى دراه ينلقب بلقب أمفار (الشيخ) ويسبقه بلقب (اسافو) بالاضافة الى ما أسبغه المؤرخون عليه من شرف الانتساب الى بيت الرسول ﷺ ، ولم يخل الامر من الاشارة أيضا في هذا الصدد الى الاصل العربي بالرغم من غلبة المؤثرات البربرية على أصول أسرته ، وواقع التدني المادي لهذه الاسرة ، فضلا عن انعزال موطنها في قرية مجهولة من قرى جبل اجليز ، وهذا يعنى في اجمال الحديث أن نظرية ما كانت قد تألفت عبد ابن نومرت ومهدت له فكرته السياسية التي تكونت لديه عن افدولة المهدوية الموحدية وذلك قبل أن يبدأ رحلته المشرقية • كما يعنى نفس الحديث أن هذه النظرية كانت قد تأثرت أيضا بثورة الامير المرابطي على فقهاء علم الكلام وما صاحبها من ردود فعل مختلفة مست على نحو مباشر مالمديه من أفكار فقهية ، هذا وقد تضمنت هذه النظرية التي تألفت لديه الاشارة الى خليفة ابن نومرت عبد المؤمن

سيطرت فبه على الاذهان فكره انتظار المهدي ولاسباب غامضة كانت منطقة السوس المكان الذي تبلورت حوله الآمال الملحة ، وحتى نهاية القرن ١١م كان ما يزال ينتظر هناك •

— Georges Maracis, La Barberie Musulmane et L'Orientan, M.Age 1946. pp. 259—60.

وقد رأى د . عباس الجراري في هذا الرأي مبالغة ربما نجمت عن الآثار التي تخلصت عن العصر الموحدي وظلت تراود بعض النفوس (الموحدون ثورة مذهبية ، مجلة المتاهل ، الرباط ، ١٩٧٥ ، العدد الاول ص ١١٢) •

بن على فنذكر أن أمه رأت في منامها وهي حامل به النار تخرج منها وتتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، وأن تفسير ذلك حسبما قيل لها أن مولودها هذا سيصبح شخصية لها شأنها وأنه سيضم المشرق والمغرب والقبلة والجوف (٦٤) . وأن هذه الشخصية ترتفع في نسبها إلى الرسول ﷺ ، فهو في هذا النسب (عبد المؤمن بن على بن علوى بن يعلا بن الحسن بن كنونة بنت ادريس بن ادريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب) (٦٥) .

ويلي ذلك الحديث عن رحلتى المهدي وخليفته إلى المشرق (٦٦) . والأرجح أن الفكرة من وراء الرحلة المشرقية عند الرجلين تدخل في إطار نفس النظرية المذكورة وتستكمل خيوطها الأخيرة . ولكن تبقى الإشارة الخاصة ببقاء ابن تومرت في رحلته المشرقية مدة عشر سنوات ، والانتارة بعدول عبد المؤمن عن اتمام رحلته المشرقية ، وهما اشارتان يفسرهما جزئيا القول بأن العلم يأتيه بالمغرب وليس من المشرق . ويكتمل هذا

(٦٤) البيهقي . أخبار المهدي ، ص ١٧ . راجع قول المهدي في عبدالمؤمن في السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٦٥) أنكر ابن خلدون نسب عبد المؤمن العربى أصلا (العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٨) ويشاركة صاحب الحلل الموشية (ص ١١٧) وكذلك المراكشى (صاحب المعجب ، ص ١١٨) في ذلك . والثابت أن عبد المؤمن ينتمى إلى بطن من بطون قبيلة بنى عابد إحدى قبائل كومية وهي قبيلة من جذم ضريسة من البربر البتر ، كانوا يعرفون قديما بصطفورة لهم ثلاثة بطون ومنها تفرعت قبائلهم : ندرونة وصفاره وبنى يلول . وموطنهم الاصلى جبال ترارة على ساحل البحر المتوسط شمال غرب تلمسان . ولد بتاجرا القريبة من مرسى هنين بجبال ترارة غربى وادى الفنا أو تافنا آخر عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٥ م (راجع في ذلك : صالح باجية ، الاباضية بالجريد ، ص ١٦) . ولزيد من التفاصيل عن نسب عبد المؤمن وقرباته أرجع إلى : البيهقي ، الانساب ، ص ١٣—٢٢ .

(٦٦) نفذ المهدي رحلته وعاد عند شروع عبد المؤمن في رحلته إلى المشرق فأثناه عن القيام بها وأقنعه بصحبته فهو صاحب الامر من بعده .

التفصيل بالربط بين نظرية ابن تومرت والمدة التي استغرقتها رحلته وتلك المقولة • ويستناد من هذا الربط أن الفكرة السياسية للدولة الموحدية وجدت في أحوال الخلافة الإسلامية بالشرق ما يجسمها ويخرجها من إطارها النظري في فكر ابن تومرت ؛ وكان الاعتقاد أن هذه الأحوال خير ضمان للانتقال بالفكرة النظرية إلى الثورة في أرض المشرق ذاته ومنها إلى المغرب ، وحيث أن ذلك لم يندفق بين المشاركة بالرغم من سنوات إقامته الطويلة بينهم ، فقد عاد ابن تومرت ليجد في المغرب ضالته المنشودة وبعبارة أخرى موجزة ، فإنه بالعودة إلى المغرب يعود صاحب الرحلة إلى إعلان ثورته العارمة على الأهمكار الفقهاء عند المرابطين ، وهي ثورة أضاف إليها بعد العودة من رصيد رحلته الشرقية ثورة أستاذة الغزالي على الخلافة الإسلامية عامة •

واستكمالا لنسج الخيوط الأولى لهذه الثورة ، يسجل المؤرخون ما وقع من مساجلة كلامية في اللقاء بين الأمير المرابطي (علي بن يوسف) وابن تومرت بعد أن استفحل أمره • ومن هذه المساجلات رده على الأمير المرابطي بأنه : « ... رجل دأب آخره وليس بطالب دنيا ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وواجه أحياء السنة وامانة البدع » • ومن مساجلات هذا اللقاء أيضا مخاطبة ابن تومرت للأمير المرابطي بقوله : « ... وقد أمر الله بتغييرها وأحياء السنة بها ، إذ لك القدرة على ذلك ، وأنت المأخوذ به والمسئول عنه ، وقد عاب الله تعالى على قوم تركوا النهي عن المنكر ... » (٦٧) • وكذلك من الأخبار في هذا الصدد ما دار من جدل

(٦٧) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٧٤ ، المراكشي ، المعجب ، ص

بين ابن تومرت وفقهاء المالكية في حصور الامير المرابطى * فقد حدث أن
أستقر رأى الامير المرابطى على جمع العلماء من كل صوب ليختبروا ابن
تومرت، ويقفوا على حقيقة أمره ، فان كان عالما حقا تبعوه وان كان جاهلا
أدبوه على حد قول المراكشى صاحب المعجب (٦٨) * وكان على رأى المجتمعين
من هؤلاء الفقهاء الفقيه مالك بن وهيب (٦٩) * وكان ان وجه ابن تومرت،
كلامه الى مالك قائلا : « أيها الفقيه أنت لسان الجماعة ، فأخبرنى هل
تتخصر طرق العلم أم لا تتخصر ؟ فأجاب : تتخصر في الكتاب والسنة
والمعانى التى بنيت عليها » * فقال له المهدي : سألتك عن طرق العلم هل
تتخصر أم لا ، فلم نذكر الا واحدة * ومن شروط الجواب أن يطابق
السؤال (٧٠) * واستطردا لهذا الجدال المبني على الاصول في علم الكلام،
ومن منطق ادراك ابن تومرت أن الفقهاء المجتمعين لمجادلته هم أصحاب
حديث وفروع أساسا ، استطرد في مجادلة ابن وهيب فسأله عن أصول
الحق والمبطل ، وأظهر ابن وهيب عجزه عن الاجابة ، وأخذ ابن تومرت
عذته في توضيح أصول الحق والمبطل مفيدا بأنها أربعة : العلم والجهل
والشك والظن ، العلم للهداية والاخريات للضلال ، ثم كان استطراده في
بيان أسس وطرق العلم * وذان من الطبيعي أن يثور هؤلاء الفقهاء عليه
ويوغروا عليه الامير على بن يوسف فيصفونه بأنه : « رجل خارجى

(٦٨) المراكشى ، نفس المصدر .

(٦٩) مالك بن وهيب الاشبيلي ، كان فقيها فيلسوفا مشاركا في جميع
العلوم ، الا أنه كان لا يظهر الا ماينفق في ذلك الزمان ، وهو الفقه والعلوم
الدينية التى كانت لمعاطيها سلطان على نفوس ملوك الدولة المرابطية (البيهقي
اخرار المهدي ، ص ٢٧) .

(٧٠) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٤-١٧٥ . وعن فثشل
هذه المناظرة أنظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، دائرة المعارف
الاسلامية مجلد ٢ ، ص ٤٥١-٤٥٣ . علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٤-٧٥ .

مسعود ، أحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس ، وان بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها وينشر ذلك عند الناس حتى يرسخ ذلك في قلوب أكثر العامة » (٧١) . ونصح بن وهب ، الأمير على بن يوسف بأن يقضى عليه لأنه هذا هو صاحب الدرهم المكن ومذه صفته ، وقال له : « اجعل عليه كبلًا كي لا تسمع له طبعًا » (٧٢) . فأمر على بن يوسف بسجنه ، ولكن اعترض على الأمر القائد المراتبي ييستان بن عمر ، وأقام اعتراضه على منطق السؤال عن (كيف يسجن رجل من رجال المسلمين وماذا يقال عن أمير المسلمين ؟) وتأثر على بن يوسف بهذا القول ، ومال إلى المصفح عن ابن نومرت ولكنه أرجأ ذلك القرار حتى تتم المشاورة ، وفي هذه الاثناء اصطحب هذا القائد معه ابن نومرت إلى داره حتى تمت المشاورة من على بن يوسف الذي قرر أن يتركه يخرج من مراکش (٧٣) .

وخرج ابن نومرت من حاضرة المراتبيين إلى الجبالة الواقعة في طرف المدينة حيث نصب خيمته فتكاذر عليه الطلبة ، ووصل خبره من جديد إلى الأمير فطلبه ، ولكنه لم يمتثل لكلام رسول الأمير من منطق أنه يقيم بين ثبور الموتى وليس مع الأحياء . ومع ذلك فقد خاف ابن نومرت من

(٧١) البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٧٢) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، تحقيق ماضور ، ص ٥ . البيذق ، نفس

المصدر .

(٧٣) هو قائد مراتبي كبير ، قاد غزوتهم الأولى ضد ابن نومرت وكانت له مواقف مشرفة مع الموحدين ، وراعوا ذلك بعفوهم عن بنتيه ميمونة وتامكونت مع نساء عديدات ، وعن ابنه عمر وسائر أبناء بيننان عند فتح فاس ومراكش بسبب توصيته المهدى لهم ، حتى أن ابنته ميمونة زوجة القائد يحيى بن مريم قائد حصن زاكورة من قبل المراتبيين أبناها عبد المؤمن بعد أسرها عام ٥٢٦ هـ في الجبل حتى أمندى بها كل من كان بتلمسان من أسرى الموحدين (البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧) .

بطش الأمير وآثر السلامة فخرج فاصداً أغمات (٧٤) . وفيها رُسخت دعوته بين أهلها الى حد انقسامهم الى فرقتين (مؤمن وكافر) وبرز فيها عدد من طلبته (٧٥) الذين رافقوه في رحلته الى منازل قبيلة هرغة وذلك في سنة ١١٤٠ هـ (١١٢١ م) .

وفي هذه الرحلة من أغمات الى هرغة ، مر ابن تومرت وصحبه بعدد كبير من القرى ولم يتوقف اثناء سيره عن وعظ أهلها وارشادهم ، وكان يحث قتال من لا يقتنع بدعوه من هذه القبائل البربرية .

ثم تأهب ابن تومرت للصدام المسلح مع المرابطين بعد أن تأكد من

(٧٤) تقع أغمات على بعد حوالي ٤٠ كلم جنوبى مراكش في الطريق —
الذهبية منها الى جبن وريكة . بها قرينان : أغمات هيلانة أو أغمات ن ايلان ،
والثانية أغمات وريكة الواقعة جنوبها ، بنتها قبيلة هواة قبل الاسلام ، وبها
مسجد بنى عام ٧٠٤ م ، وكانت قاعدة المذهب الخارجى بالمغرب ، ثم عادت
الى مذهب أهل السنة في عهد الادارية ، وكانت من حظ عبد الله بن ادريس
الثانى ، فسارت قاعدة لناحية مراكش ومقصد العلماء والادباء من الاندلس
والقيروان . وفي سنة ١٠٥٨ م أستولى عليها المرابطون وطردها أميرها
لقوط الزناتى زوج زينب النفزاوية التى صارت فيما بعد زوجة لابی بكر بن عمر
اللمتوني ثم ليوسف بن ناشفين وإلى أغمات نفى المعتمد بن عباد وفيها توفي .
ومن المعروف أن أغمات فقدت أهميتها بعد تأسيس مدينة مراكش وأخذها
حاضرة لدولة المرابطين ، ولم تلبث أن أصبحت مجرد قرية ولكنها بدأت تنعش
الآن ببناء ضريح على قبر المعتمد بن عباد وأخذها مقر جماعة قروية (البيذق ،
المصدر السابق ، ص ٢٩ وعبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ،
الرباط ١٩٦٨ ، ص ١٢٣—١٢٤) .

(٧٥) على رأس هؤلاء الطلبة : سليمان بن البقال ومعروف بسليمان
احضرى (من العشرة الذين بايعوا المهدي ، ومن الخمسين في التنظيم الحربى
للموحدين ، وكان كاتب رسائل المهدي الى مقتله في معركة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ
/ ١١٣٠ م . واسماعيل آيكيك (معروف باسماعيل بن يسلاى الهزرجى
من أهل العشر ، قائد على هرغة ، نولى القضاء ، عقد البيعة لعبد المؤمن ،
أنقذ المهدي من محاولة اغتياله ، فدى عبد المؤمن) البيذق ، كتاب الانساب ،
ص ٣٠-٣١ .

القوة البشرية التي تؤيده ونساعده . وطلب من المجتمعين معه أن « يعملوا أسارك (٧٦) كبير لان الخبل يصلكم » وأمرهم ببناء المذود (٧٧) وقال : « من عمل مذودا أخذ فرسا ومن عمل اثنين أخذ اثنين ، ومن كذبنا حسيبه الله » (٧٨) .

وواضح من مواصله استعداداته القتالية وتنظيماتها أنها كانت تستهدف أبعد من مجرد قنال المرابطين والتصدى لمحاولاتهم القضاء على تنظيم الدعوة التومرتية وهي في مراحل النشأة . فهل كانت تستهدف تحقيق الغاية الأساسية التي فامت ، أيها الدعوة الموحدية بعد نضوجها وأدبج ذلك ضرورة لازمة لتحقيق الثورة المهدوية الشاملة المرتقبة للنهوض بالاسلام ورفع الخلافة الإسلامية وانتشالها من واقع التردى في مشكلات التنافس على الامارة الإسلامية والخلاف (المذهبي) بين رجالها وأزمة هكرها ؟ وإذا كان الامر كذلك ، فماذا عن النشأة السياسية والحربية لهذه الرئاسة الموحدية وتطورها الى خلافة إسلامية عامة تسعى الى التوسع شرقا ؟

(٧٦) أسارك هي مربط الخيل بالبربرية .

(٧٧) بذود هي مآكل الدواب وموضع علفها . راجع في ذلك ، البيزق ، أخبار المهدي ، ص ٣٣ .

— C. Julien, Histoire de L'Afrique, p. 53. H. Terrassé, La Barberie, (٧٨) p. 261.

(٢)

قيام دولة الموحدين

أ — المهدي والدعوة الموحدية :

كان هروب المهدي من مراكش إلى أغمات مؤشرا لبداية هجومه على المرابطين ، فقد أخذ يحمس طلابه ويعلمهم بقصده كما أخذ يطعن في المرابطين ويصفهم بالكفرة المبسمين والزراجنة ^(٧٩) وأحل قتالهم إذ أن كل من يعلم أن الله واحد وجب عليه « غزو الروم والمحوس » * فقتبعه أكثر من ألف وخمسمائة من تلامذته وأتباعه ، وجاءه طالب ينادى قسرب خيمته « يا موسى أن الملا يأترون بك ليقتلونك فأخرج اني لك من الناصحين » وكرر ذلك ثلاث مرات * ولما سمع محمد بن تومرت النداء فطن له ، وقرر الخروج متخفيا مع بعض الصحابة حتى وصل إلى تينمل ^(٨٠) في شهر شوال من عام ٥١٤ هـ / يناير ١١٢١ م ، وأقام حتى شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م عندما جهر بدعوته *

(٧٩) الزراجنة : جمع زرجان وهو طائر أسود البطن أبيض الريش ، شبه المهدي بن تومرت المرابطين به لانه يرى أنهم بيض الثياب سود القلوب ، كما سماهم الجسمين لانه ألزمهم في المذاكرة أن يقول بالتجسيم والمكان ، وكذلك سماهم الحشم للنامهم كما تفعل النساء المحتشمات (انظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق د . مكى ، ص ٣٢ — البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٥ ، علام الدولة الموحدية ، ص ٧١ وتفسيره للثام) .

(٨٠) يذكر البيذق أن تينمل قرية واقعة بتراب قبيلة كدمة (كدمت) الكندافية بطن فرغوسة على بعد ١ كلم من الطريق الذاهب من مراكش إلى رودانة ، اختارها المهدي لاقامته وبث دعوته لمناعتها ، وسرح منها أنصاره لضرب المرابطين . وفيها دفن عام ٥٢٤ هـ وكذلك خليفته عبد المؤمن وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور قرب المسجد والضريح اللذين أسسهما عبد المؤمن ، وظلت المدينة أطلالا حتى قامت وزارة الاوقاف بترميم المسجد وأصلحه . كتاب الانساب ، ص ٢٤ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص

وفي تينملل لحق به صحابته العشرة وهم الاوائل الذين سارعوا الى قبول دعوته والذين صدقوا امامته ، وأيدوا رئاسته وهم : عبد المؤمن بن علي ، أبو أبراهيم وهو أسماعيل بن يسلالى الهزرجى المعروف عند الموحديين باسماعيل أيكىك ، عمر أصناك أو عمر بن علي الصنهاجى ، عبد الواحد الشرقى ، أبو محمد عبد الله بن محسن الوانشرىشى المكنى بالبشير أبو موسى الصودى أو عيسى الخالسى الصودى ، أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وأبو محمد وسنار بن عبد الله ، أبو عثمان بن يخلف ، أبو يحيى بن يجيت (٨١) .

وبعد أن أطمأن ابن تومرت فى مقامه بتينملل أنشأ فى منتصف شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م ، رابطة للعبادة وزاد من عدد طلبته وأنباعه ، وبدأ يعلمهم مذهبهم فى التوحيد الكلامى ، فطلب منهم عدم اتخاذ العنف من أجل نشر هذا التوحيد . وهذا التوحيد مؤلف باللغة البربرية (٨٢) ، ومن مؤلفاته أيضا التواعد والامانة وهى بالعربية والبربرية . ولفصاحته فى اللسانين ، سهل على ابن تومرت الشرح والتفسير واعطاء المواعظ وضرب الامثال ، فحصل ذلك اجتذاب قومه البربر اليه ، وتتميد امامه السبيل لاعلان مهدويته وتفجير ثورة البربر على المالكية وأمارتها المرابطية .

(٨١) البيدق ، أخبار المهدى ، ص ٣٤-٣٥ .

(٨٢) يذكر صاحب الحلل الموشية انه : « ألف لهم كتاب أسماء بالتوحيد بلسان البربرية وهو سبعة أجزاء عدد أيام الجمعة وأمرهم بقراءة جزء واحد منه كل يوم اثر صلاة الصبح بعد الفراغ من جزء القرآن وهو يحتوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم ونحقيقه والقضاء والقدر والايمان بمايجب لله تعالى ، ومايستحيل عليه وما يجوز وما يجب على المسلم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وواخى بينهم فيه . وأضاف أنه ألف لهم كتابا سماه بالقواعد ، وآخر أسماء الامانة وهما مدونان بالعربية والبربرية » وذلك لسهولة مههما ولجذب القبائل البربرية الى جانبه (المصدر السابق ص ٨٩) .

وهكذا بدأ ابن تومرت قرب نهاية رحلته الشرقية وعند وصوله الى
أغمات ، صدامه الفكرى بالمرايطين * فقد وضع من الاخبار الاولى لهذا
الصدام أن الجانب الفكرى المذهبي قد شكل الاطار الظاهر لما وقع من
أحداث بين الطرفين * وتجلى ذلك فى القالة النعتية التقليدية التى تنكر
على المرابطيين الايمان وتصفهم بالتكفرة « المجسمين والزراجنة » *

ولم يلبث الخلاف المذهبى أن ازداد حدة وعمقا بسبب تأخر الصدام
السياسى والعسكرى ، ومن ثم استمرار مجلسه العلمى فى الرابطة التى
أنشأها فى تينمل وتكاثر الطلبة حول المجلس للاستماع الى آراء ابن تومرت
فى المذهب المالكى وغيره من المذاهب وتلقى تعاليمه الاولى عن دعوة
التوحيد * وكان من هذه التعاليم حسبما سبق الاشارة عدم اتخاذ العنف
طريقا لنشر مبادئ هذه الدعوة ، وهو عامل هام من عوامل تأخير الصدام
المذكور بينه وبين المرابطيين ، بالاضافة الى أن سياسة هؤلاء المرابطيين
كانت تعتمد أغفال شأن الدعاة أمنال ابن تومرت لا سيما فى مناطقهم النائية

ونم الاعلان ابن تومرت للمهدية فى رمضان عام ٥١٥ هـ / نوفمبر
١١٢١ م أى بعد نحو عام من استكمال رحلته الشرقية ، وذلك فى خطبته
الشهيرة على طلبته فى تينمل حيث قال : « الحمد لله الفعال لما يريد ،
القاضى بما يشاء ، لا راد لامره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا
محمد المبشر بالمهدى الذى بملا الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا
وظلما . ييمثه الله اذا نسخ الحق بالمبطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه
المغرب الاقصى ، وزمنه آخر الزمان ، وأسمه أسم للنبي عليه الصلاة
والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون
عليه وسلم ، وقد ظهر جور الامراء ، وامتلات الارض بالفساد ، وهذا

آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل » (٨٣) .
وهكذا تلقب ابن تومرت بالمهدي وصرح بدعوى لعصمة لنفسه وأنه
المهدي المعصوم .

وكان الشق الثاني من هذا الحدث الكبير مبايعة العشرة من أصحابه
في رحلته الشرقية (٨٤) حيث انتفوا حوله بمجرد فراغه من خطبته
وبايعوه « وهم جلوس تحت سجرة خروب » على حد قول صاحب الحل
الذي روى تفاصيل هذه المبايعة فيما نصه : « قال الامام أبي يحيى ابن
المسيح ، سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول لما فرغ الامام المهدي من خطبته
لبربر مراتش سنة ٥١٥ هـ من كلامه هذا بادر اليه عشرة رجال من أتباعه
والملازمين له كنت أنا واحد منهم وذلنا : ياسيدي هذه الصفة لا توجد
الا ديك فأنت المهدي ، فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع به الصحابة
ورسوله ﷺ وأن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع فبايعه أصحابه
العشرة نحت شجرة خروب وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على أن
يقاتلوا عنه ويبدلوا أنفسهم دونهم فعرخهم بما في ذلك من الارزاء والحن
بوالقتل والافتن فالتزموا بذلك » (٨٥) .

وجاء ابن تومرت بتنظيم العشرة في خلافته من صحابته ، وألحق
بهذا التنظيم تنظيمًا عشرينيًا آخر على النحو التالي :

(٨٣) الوثائق ، مجموعات دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ،
اشراف عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ج ١ ، وثيقة رقم ٧٧ ، ص
٢٢٥-٢٢٦ .

(٨٤) وبسميهم اهل العشرة وبسميهم ايضا بالجماعة .

(٨٥) الحل الموشية ، ص ٨٨-٨٩ .

١ — أصحاب العشرة من أهل الجماعة من صحابته العشرة السابق ذكرهم ، وهم أول من امن به وبمهدوبته .

٢ — أهل الخمسين وهم التابعون في التأييد ، وكانوا من قبائل بربرية متعددة : هرغة ، وهنتاة ، وجدميوة ، وكنفيسة ، وصنهاجة ، والقبائل وهسكورة (٨٦)

٣ — أهل السبعين .

٤ — الطلبة من العلماء والمفكرين .

٥ — الحفاظ من صغار الطلبة .

٦ — أهل الدار من أسرة المهدي .

٧ — أهل هرغة ، فبيلة المهدي وأفراد حرسه الخاص .

٨ — أهل تينمل من أعيان المدينة .

٩ — أهل جرمونة من الجند .

١٠ — الرماة والغزاة وعامة عبيد المخزن من الجند .

(٨٦) المقصود بالقبائل في التسمية الواردة بالمتن اشتمات القبائل التي انحارت الى المهدي بن تومرت أنتصارا له دون أن يجمعها نسب . وقد تميز بين تلك القبائل المختلفة المذكورة أهل هرغة بدعوى أنهم السابقون من أنصار المهدي ، فضلا عما كانوا يمثلونه من أفخاذ ويطون عديدة بحكم أنهم أنفسهم هم قبيلة ابن تومرت . ويذكر عنهم أنهم كانوا اذا ما توجهوا الى المهدي وسألهم عن حاجتهم يقولون له ، على حد قدل البيذق : « جئنا نتبرك بك وتدعو لنا فيبايعونه ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم كذلك غير مامرة » (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٤٢) . أما هنتاة فكانت لها أفخاذ تسعة وعرفت جدميوة بأفخاذها الستة والاربعين وما يتبع الافخار من المزوار (بكر الاولاد) كذلك عرفت جنفيسة بأفخاذها الاثنين والعشرين ، والقبائل المسماة بهذا الاسم بأفخاذ ثمانية . وعن كومية فأفخاذها كانت خمسة وعشرين . وكانت هسكورة القبلة (بربرا البراس) وهسكورة الظل بأفخاذ أحد عشر . أما صنهاجة القبلة أي الحنوية الساكنة خلف جبال البرانس والمتعرضة للشمس وصنهاجة الظل أي الساكنة في الجبل بعيدة عن وهج الشمس ، فأنهم كانوا للرأى والمنسورة (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٥٢-٥٣) .

ويمثل هذا التقسيم العتري أو الطبقي التنظيم الادارى والحربى الاساسى لحكومة الدولة الموحدة * وكان الترجمة العملية لوجه من وجوه الفكر النظرى للمهدية الموحدية المذكورة * وواضح من أن أصول هذا التنظيم فى فكر ابن تومرت أم تباعد عن ميراثه الببئى وعن اطار تاريخى سبقت اليه التنظيمات الصوفية وحملة الميراث الاجتماعى للقبائل المغربية وسيطراً على التنظيم الحربى للموحدين ، بعد معاركهم الثلاثة الاولى ، تعديل جدير لم يكن بعداً أيضاً عن هذا الميراث نفسه ، وأن مس جانباً منه حسبما سيرد الذكر غيماً بعد ، وكان من مظاهر هذا التعديل صفات التمييز التى جعلها المهدى لكل فئة فى تنظيمه لمعرفة الخبيث منهم والمحق فى بيعته * فيحتفظ أفراد كل فئة بمميزته لا يتعداها فى سفر ولا فى حضر ولا ينزل كل منهم الا فى موضعه الخاص (٨٧) *

(ب) الممارك الاولى :

ومن تنظيم العشرة أخذت الحركة الموحدية تشق طريقها نحو بناء دولتها فى المغرب * وفى هذا السبيل خاضت الحركة عدة معارك بلغت وقائعها فى حياة ابن تومرت تسعة وقائع * والى وفاة المهدي عام ٥٢٤هـ — ١١٣٠م ، لم يكن أتباعه قد دخلوا بعد الحاضرة المرابطية مراكش ، ومن ثم فإن الدولة الموحدية عاشت فى حياة مؤسسها طور المنشأة وظلت كذلك الى ما بعد وفاته بعدة سنوات وحتى سقوط مراكش نفسها حاضرة المرابطين فى عام ٥٤١هـ — ١١٤٧م * وكانت وفاة مهدي الموحدين فى أعقاب هزيمة فادحة كالهـ المرابطون فى نفس سنة وفاته (٥٢٤هـ) لجيش الموحدين وأعنى بها وقعة البحيرة *

(٨٧) البيذو * المصدر السابق ، أنظر أيضاً ، ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ١٢ ، ص ٤٧—٥٥ .

وكان من نتائج ما جرى في هذه المعركة وما بعدها من اجراءات باسم « التمييز » يعنى انتقال الدولة الى طور متميز من علاقات السلطة بين الخلافة الموحدية وأتباعها •

ويمكننا أن نشهد مقدمات هذا التطور في أحداث المعارك الموحدية السابقة لمعركة البحيرة ، وبهذه المناسبة أود أن أشير الى حقيقة هامة تتعلق بمعارك ابن تومرت التسعة المذكورة ، وهي أن فترة هذه المعارك تكاد تنقسم الى قسمين :

القسم الاول ، ويشتمل على أخبار المعارك الثلاث الاولى التي يغلب عليها القالب المثالي التقليدي في تفسير الموحدين لاسباب صدامهم الحربى مع المرابطين الى حد أن صفة الملتزمين تغدو سبة على لسان ابن تومرت ينعت بها المرابطين ويرد فيها بنفس التفسير •

ونقسم الثانى ، فيبدأ بأخبار المعركة الرابعة التي تطلعنا على نمط هذه العلاقات ، وتتعلق أساسا بقبائل جيش الموحدين الى مجموعة أحداث المعركة الاخيرة التاسعة التي وقع فيها انقسام قبلى حاد فاء الى تصفية « التمييز » والى مرض المهدي واعتكافه بداره حتى صدر نبأ موته في رمضان سنة ٥٢٤ هـ — أغسطس ١١٣١ م •

عن القسم الاول ، يتمثل الرفض الموحدى للمرابطين في أحداث هذه المرحلة في معنتهم لهم بالثمين والفاسقين والفاسدين والفاجرين والمنافقين ومامعى الزكاة • وكان اللثام — كما هو معروف — من العادات المتوارثة عند المرابطين وما زال متداولاً بين الطوارق الصحراويين الى اليوم • وقد عاب عليهم المهدي ذلك واعتبره من المحرمات التي تدخل في اطار التشبه بالنساء في الوقت الذي تسفر نساؤهم عن وجوههن • واستشهد المهدي في

هذا التحريم بما روى عن الرسول ﷺ القول : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء » (٨٨) •

وفي الصفات والنعوت الاخرى التي أطلقها عليهم المهدي ما يحقق الهدف الديني السياسي للمرحدين ويستهدف تجريد المرابطين من ولاية الحكم استجابة لقول الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظالموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (٨٩) ، وتوله تعالى أبصا : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٩٠) •

وإذا كانت هذه الصفات لا تحمل من معنى في نظر صاحبها أكثر من هذا الهدف المذكور ، فهناك الإشارة الخاصة بالزكاة وتشبيه قتالهم بحرب أبي بكر الصديق لماعى الزكاة في عبارته الشهيرة : « والله لقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى الرسول ﷺ لقاتلتهم على منعه » (٩١) • وعلق ابن تومرت بعبارة

(٨٨) ينسر الاستاذ عنان انخاذا المرابطين للنام فيقول : « . . أن أهل لتونة — وهى قبيلة المرابطين — كانوا ييخذون في أعراسهم نوعا خاصا من الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك في عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون الى اللثام نخفا من طلبة تار الدم ، وأخيرا أن اللثام كان من ضروريات الحماية من لفتح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتى اليوم في بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرها . وأما عن سفور النساء ، فقد قبل أنه لكي يظهر أنحطاطهن عن الرجال . عصر المرابطين والموحدين ، العصر الثالث ، قسم ١ ، ص ٢١٢ •

(٨٩) سورة هود ١١ ، الآية رقم ١١٣ •

(٩٠) سورة المجادلة ، ٥٨ ، الآية رقم ٢٢ •

(٩١) عن سورة المجادلة ٥٨ ، الآية رقم ١٣ حيث نفس المعنى « أن الشرك نظم عظيم » •

خاصة به نصها: « كل من منع غريضة من غرائض الله حق على المسلمين جهاده حتى يأخذوا منه + فكيف بمن منع الايمان والدين والسنة ؟ » (٩٢) .

قهل كانت هذه النعوت ترجمة لتدهور كبير أصاب أخلاقيات مجتمع المرابطين قبل اندلاع الثورة الموحدية ؟ اجابة ذلك نجدها فيما ذكره صاحب المعجب اذ يقول : « اختلت حال أمير المسلمين وظهرت في بلاده منائر كثيرة ، وذلك لاستعلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه ، واستولى النساء على الاحوال بواسطتهن اليهن الامور فصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وما خور وأمير المسلمين في ذلك يزيد من تغفله ويقوى من ضعفه وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادات والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال » (٩٣) .

ومثل هذا القول قد عبر عنه ابن خلكان في صورة أخرى حيث قال أن المهدي في تبئمل : « رأى بعض أولاد القوم سُقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل ++ فسألهم عن سبب ذلك ، فلم يجيبوه فألزمهم الاجابة ، فقالوا : نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج ، وفي كل سنة تصعد مماليكه الينا وينزلون في بيوتنا ويخرجوننا عنها ، ويخلون بمن فيها من النساء ، قتلنا أولادنا على هذه الصفة ++ وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا » . فقال محمد : « والله ان الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب حلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح ؟ » فقالوا : « بالرغم لا بارضا ،

(٩٢) علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٣—٧٤ وعن قائمة الاحاديث التي استند اليها ، أنظر ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ .
(٩٣) المراكشي ، المعجب ، ص ١١٧ ، الجراوى ، الموحدون ، ص ٨٤ .

فما أن رأيتهم لو أن ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ » قالوا :
كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت + قالوا : من هو ، قال : ضيفكم — يعنى
نفسه — فقالوا : السمع والطاعة » (٩٤) +

على أية حال ، ففى هذا الاطار العام من النعوت السبابة النى وصم
بها ابن تومرت المرابطين وتقويض الاساس الاخلاقى الدينى والاجتماعى
لحكمهم ، خاض الموحدون معاركهم الاولى + وعرفت المعركة الاولى بغزوة
« تاودزت » ، وفيها تولى قيادة المرابطين القائد بينتان بن عمر الذى أن
آوى المهدي فى أيام محنته الاولى مع على بن تاشفين + ووضح من تنظيم
المرابطين فى المعركة أن راعوا الهدف السياسى ممثلا فى اختيار القيادة كما
راعوا الهدف الحربى هو الآخر فيما جيشوه من قوة كبيرة أثارت الهلع
بادىء ذى بدء فى قلوب الموحدين + ومع ذلك ، فإن الحماس المهدى
للموحدين كان سببا فى ايقاع الهزيمة بالمرابطين الى حد أن المهدي أطلق
عليهم صفة أخرى هى « الحشم » +

فى المعركة الثالثة مع المرابطين ، حفظ التاريخ رسالة خطها ابن
تومرت وبعث بها الى شيوخ المرابطين قال فيها : « الى القوم الذين
استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمان ، الفئة الباغية والشرذمة
الطاغية اللامتونية » +

أما بعد فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم
طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ،
وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أدبتموها كنتم فى عافية ،
والا فسنعيب بالله على قتلكم حتى نحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع
العامر خاليا ، والجديد باليا +

وكتابتنا هذا اليكم اعذار وانذار . وقد أعذر من أنذر *
والسلام عليكم سلام السنة ، لا سلام الرضى » (٩٥) .

والرسالة المذكورة كما هو موضح تخلو من سبب محدد للحرب الدائرة بين الطرفين * ومع ذلك ، فعندما نصل الى أخبار المعركة الرابعة في تاريخ هذا الصدام الحربى بين المرابطين والموحدين ، نعر على بداية الخيط الذى ينتهى بأحداث « التمييز » المذكور * ففى هذه المعركة أو الغزوة الرابعة للموحدين ، أقدم المهدي على ترتيب جيشه الى مجموعة من الفرق تبعا لأقسام القبائل الكبرى ، يتقدم كل منها قائدها وعلمها * فظهر عبد المؤمن حاملا أهم أعلام المهدي « العلم الأبيض » وأخرج معه قبيلة كدمبوة * وقام على قبيلة هرغة قائدها أبو ابراهيم يحمل العلم الأصفر * وتقدم القائد عبد الله بن علوية على قبيلة كنفيصة بعلم أصفر آخر * وقدم لياث بن عام على قبيلة تينمل ، تم علم آخر لعمر آينتى وقدمه على هنتاة * ثم رتب المهدي سائر القبائل على ذلك الترتيب * بينما تولى قيادة جيش المرابطين قائدان من أشهر قوادهم هما يانو ، وآكدي بن موسى * وكان النصر حليف الموحدين في موقعة تيزي آن ماست (٩٦) .

كان التنظيم القبلى لجيش الموحدين بعد المعركة الثانية يعنى أن الخيط المذكور جاء ترجمة لوضع اجتماعى أضيفت أسبابه الى الأسباب الدينية فأدت جميعها الى انتصار مجموعات هذه القبائل للدعوة الموحدية ورفض الحكم المرابطى ويعبر ابن عذارى عن نتائج ذلك اقتصاديا بقوله : « .. اتصت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الأسعار بمراكش حتى وصل

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديد وانتهت هى الأخرى

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديد وانتهت هى الأخرى

بانتصار الموحدين ، انظر ، البيذق ، أخبار المهدي ، ص ٣٦-٣٧ .

فيها الربع من الدقيق بمنقال حشمى ذهبى ، وتوالى هذا الجذب حتى جفت
فى الارض مذابتها وأغبرت جوانبها وقلت المجابى بهذه الفتن * « (٩٧) .

ويخرج من ذلك بالنتيجة الآتية : أن التقسيم الحربى المذكور أوضح
أن الحركة الموحدية انتقلت الى طور جديد من تنظيمها كدولة . وفى هذا
الطور ، وقع اختلاف حول مسألة الغنائم ، ونستدل على ذلك من قول
المهدى : « * واجتنبوا المحارم ، وردوا المظالم ، وتحاللوا وتغافروا فيما
بينكم بغفر الله لكم ، وأصلحوا ذات بينكم * ولا تفسدوا فى الارض
ولا تبذروا ولا تسرفوا ، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تخونوا
ولا تغدروا ، ولا تحسدوا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تولوا الادبار عند
لقاء العدو ، بمن فعل ذلك فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس
المصير * واباكم والغلول (فى الغنيمه) ، فان الغلول عار ونا وشنار على
أهله يوم القيامة ، وأقسموها على موافقة الكتاب والسنة ولا تعيبوا قليلا
ولا كثيرا ، للرجال سهم ولل فارس ثلاثة أسهم بعد اخراج الخمس من رأس
الغنيمه ، والغنيمه لمن شهد الواقعة » (٩٨) .

ويشبه البيذق الى نفس الموضوع بقوله : « فى أثناء عودتهم الى
تينمان جارى طريقه على غدان من جلبان ، فقال : « اقلعوه » فقلعناه ، فلما
تلع نخالطوه فأخذ كل واحد قدر مقدرته فقبسم وقال : « هكذا نتخاطفون
بعدنا على الدنيا » (٩٩) .

(٩٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط تطوان ، ١٩٦٠ ، ج ٣ ، ص ١٢ —

١٣ .

(٩٨) الونانى ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٧ .

(٩٩) جلبان فى لغة المغاربة هى ماتعن فى المشرق : البازلاء (أنظر ،

البيذق ، أخبار المهدي ، ص ٤١) .

ونسنتج مما سبق أن الأمر يتعلق بضعف عام في شذرة التعاليم الموحدية على احتواء النوازع المادية لدى القبائل عموماً (١٠٠) . وفي هذا الصدد عرفت قبيلة هرغة (أهل ابن تومرت) وما في مستواها — ودون القبائل الأخرى — السبيل إلى إرضاء أفرادها لأنهم على حد قول البيذق : « هم السابقون وأنهم أنصار المهدي » (١٠١) .

ومهما يكن من أمر التساؤل حول خصوصية معاملة قبيلة هرغة بالمقارنة بغيرها من القبائل الموحدية ، فإن من الواضح أن الزعامة الموحدية قد ذهبت إلى تغليب تعاليمها المرشدية حفاظاً على الطامع الدبتي المهدوي للثورة . وانعكس ذلك على تنظيم القبائل في الجيش الموحدي ، فكانت إعادة ترتيب هذا التنظيم بعد الحملة الثالثة أشبه بمحاولة سامية أولية للتنظيم المتطور الذي تم بعد المعركة التاسعة على أساس ما عرف بتصفية التمييز بين قبائل الجيش الموحدي .

وفي المعركة السادسة وهي معركة تيفنوت ، اشتد القتال بين المرابطين والموحدين بحيث لم ترجح كفة أحد الطرفين على الآخر وانتهى بعودة كليهما إلى موضعه معولاً على الغزو من جديد . أما الغزوة الموحدية السابعة فاستهدفت قبيلة هسكورة ودارت الموقعة في موضع يعرف بـ آزليم . وفيها خرج المهدي لأول مرة وكان القتال من الضراوة والعنف بحيث جرح في أثناء القتال . وفي هذا يقول البيذق : « فقاتلناهم وشد الوطيس حتى تسج المعصوم ورفع أسحاق بن عمر ووسنار » (١٠٢) . ثم كانت المعركة الثامنة التي سبقت هزيمة البحيرة . وحدث في هذه المعركة

(١٠٠) أنظر الفصل الرابع في موضوع المرشدية الموحدية .

(١٠١) البيذق ، كتاب الأنساب ، ص ٣٧ .

(١٠٢) : البيذق ، أخبار المهدي ، ص ٣٨ .

وهي معركة تراكورت أن خرج الموحدون بمغانم عديدة منها أعداد من العبيد كانوا من الكثرة الى حد أن سماهم المهدي عبيد المخزن (١٠٣) .

ولعل ما خطه المهدي في رسالته الى المحاربين من رجائه في معركة البحيرة ، يعبر عن وجه من وجوه التطور الذي طرأ على العلاقات بين القبائل بعد المعركة الثامنة ، فهو يقول : « * * واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكاريين ، وكل من نسب الى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين ، فلا تلتفتوا الى ما يقولون ، فانه كذب وبهتان ، واقتراء على الله ورسوله ، وما نسبوكم اليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب يغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله ، يأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق واتبع سنة رسول الله ﷺ وأتاب الى الله مخالفا لله ورسوله ، بل اختلف لله ورسوله من اتبع الباطل وخطوات الشيطان * * * واعلموا وفقكم الله أن الموحدين في الامن والامان ، ونصر من الله وعاقبة وفضل منه واحسان ، نتابعت عليهم النعم وترادفت عليهم المنن ، الله الحمد على ذلك ، فاشتغلوا بتعليم ما يلزمهم والاهتمام بدينهم والقيام بفرائضهم والاستعداد للقاء ربهم ، فانه يتم علينا وعليهم ، ويوزعنا شكر أنعمه ، أذل الله لهم عدوهم ، وقذف في قلوبهم الرعب وزلزل أقدامهم * * » (١٠٤) .

ثم كان صدور الامر باجراء تصفية التمييز التي قام بتنفيذها القائد

(١٠٣) البيهقي ، نفس المصدر ، وقد أرسل المهدي رسالة الى الامير على بن يوسف بن تاشفين قبل معركة البحيرة بتوعده فيها ، وقد أحل فيها دماء المرابطين ، أنظر الملحق رقم ٣٤٢ .

(١٠٤) الوثائق ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ . وراجع نفس النص في : محمد بن تاوييت ، الادب المغربي ، ص ١٦٥ .

الموحدى أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسي^(١٠٥) . وشملت
تصفية التمييز الملقبين بـ « المنافقين والمخالفين والرافضين والخبيثاء من
الموحدين » . وقد استغرق التمييز بينهم مدة أربعين يوما أبيد فيها خلق
كثير بلغ تعدادهم خمسة قبائل كاملة . وإذا كانت تصفية التمييز هذه قد
تمت مباشرة قبل اللقاء الأخير بالمرابطين في هزيمة البحيرة ، فقد كان لها
تكملة بعد الوقعة شملت قبيلة كنفيسة^(١٠٦) .

ويصف البيذق هزيمة الموحدين في البحيرة^(١٠٧) فيقول : « ++ وهزموننا
بالعتى ، رنجا الموحدون ، ومات من مات ، واغترق الناس »^(١٠٨) . وأسرع
البيذق يخبر المهدي بنتيجة المعركة . وبقدر اهتمام المهدي بالمعركة وتلفه
على سماع تفاصيلها كان اهتمامه بعبد المؤمن ويتمثل ذلك في لهفته في
السؤال عنه : « عبد المؤمن في الحياة ؟ قلت نعم ++ قال : الحمد لله رب

(١٠٥) هو أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسي ، من أهل
المغرب الأوسط ، لقي المهدي عند مروره بجبال ونشريسي أثناء عودته من
الرحلة المشرقية ، وصار من تلاميذه ثم من جماعة العشرة ، وقد كلفه المهدي
بمعظم المهام العسكرية ضد المرابطين ، ثم بولى تمييز الموحدين ، وفقد في
معركة البحيرة عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م (البيذق ، أخبار المهدي ، ص ١٩) .
(١٠٦) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٧ . ويذكر السلاوي : « أنه غزا
مراكش وحاصرها لمدة ٣ سنوات من سنة ٥١٦ هـ الى سنة ٥١٩ هـ ، وكان
ينزل بجبل كيلز بقرب المدينة ، فبايعته كدميوه ، وغزا بلاد ركراكة ، وسار في
بلاد المصائدة ، ثم رجع الى ينمل وأقام بها شهرين ، وغزا مدينة أغمات
وبلاد هزرجة وأهل درن وأطاعنه هرغة وهنتاتة وكنفيسة بعد تمييزها ، وانتدبهم
لغزو مراكش ومد قدم عليهم عبد المؤمن وخصه بامامة الصلاة ، أما القيسادة
فلايى محمد البشير . (الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٣-٩٤) . راجع أيضا في
ذلك الملحق رقم ٣ / ٤ .

(١٠٧) البحيرة تعرف ببخيرة الرقائق ، بسبط كان امام باب الدباغين
وباب ابلان من مراكش حيث حدائق اكدال الحالية (البيذق ، أخبار المهدي ،
حاشية رقم ٦٦ ، ص ٤٠) .

(١٠٨) البيذق ، نفس المصدر .

العالمين قد بقى أمركم ، هل جرح ؟ قلت : سُج في فخذة الايمن ، فقال :
لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، الامر باق ، ثم قال : ارجع اليه وقل
له الامر باق ولا تجزعوا » (١٠٩) .

وبهذا الحوار الذى جرى بين المهدي والبيذق عن عبد المؤمن ، بدت
الدولة الموحدية وكأنها ما زالت في طور نشأتها لم تنتقل بعد من اطار
جماعة الصحابة الاولى للمهدي * والحقيقة أن القبائل الموحدية خاضت
بالعمل غمار تجربة أحداثه وعلاقاتها * وفي أحداث هذه التجربة ، ظهر
نمساك الزعامة المهدوية بمنظورها الدينى المهدوى في ترتيب العلاقات
اشغلية بين أنصارها * ولكن وضع أيضا أن الاحداث المذكورة لم تخل
من اتجاه مضاد يتمثل في سلوك القبائل ويقترن بالاسباب المختلفة لثورتها
على حكم المرابطين وترتب على ذلك اجراء بعض التوازن في هذا الاتجاه
الآخر مع لاتجاه المهدوى عن طريق اعادة تنظيم قوات الموحدين في المعركة
الرابعة *

ولكن بتبين لنا من خلال أحداث المعارك التالية حتى المعركة التاسعة
أو هزيمة البحيرة (٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) أن الامر انتهى بانتصار الاتجاه
المهدوى ونصفيه الاتجاه الآخر وأصحابه في اجراءات التمييز المذكور
بالرغم من تشدد الزعامة المهدوية في موضوع الغنائم ورفض ابن تومرت
التكالب عليها أو التنازع حولها (١١٠) .

ومن الجدير بالذكر أن المهدي بعد وقعة البحيرة المذكورة ، استخدم
مراعاته في ابهام أتباعه الذين تسرب التسك الى قلوبهم ، بقدراته الخارقة
ومعجزات مهدويته والتأثير عليهم مستغلا في ذلك ميل البربر الى تصديق

(١٠٩) البيذق ، نفس المصدر والصفحة .

(١١٠) راجع ما سبق عن الغنائم والوضعية الممتازة لقبيلة هرغة .

ما يعليه عليهم المهدي فيذكرون أنه انتخب عدداً من أتباعه ، ودفنهم في موضع المعركة بعد أن جعل لكل واحد متنفساً في قبره ، وقال لهم : « اذا سئلتهم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، وأن ما دعا اليه الامام المهدي هو الحق ، فجدوا في جهاد عدوكم » + وقال لهم أيضاً : « اذا فعلتم ذلك أخرجتكم ولكم عندي المنزلة العالية » + وبعد ذلك جمع أصحابه وقام لهم : « أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه واعوانه الحق + فجدوا في قتال عدوكم فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد من اخوانكم يجبرونكم بما لقوا من الثواب عند الله + وأتى بهم الى موضع المعركة ونادى « يا معشر الشهداء ماذا لقيتم عند الله عز وجل ؟ قالوا : قد أعطانا من الثواب لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر » (١١١) + فذهلوا ، واغتتنوا ، واعتقدوا أن الموتى قد كلمتهم ، وقصوا هذا الحادث على بقية اخوانهم ، فزادهم بصيرة بأمره ونبأنا على رأيه وزاد ايمانهم ببعديته ، وتمسكهم بمذهبه وأصبحوا على أتم الاستعداد للتضحية من أجله +

وينكرر مثل هذا المسلك الذي لا ينكره الميراث الفكري للقبائل ، وفي اطاره أمكنه ايهاها بأنه موحى اليه + ففى ساعة احتضار المهدي وساعة دنو أجله ، أظهر علمه بميقات هذا الاجل في حوار دار بينه وبين الهاتف الذي نادى به وأوحى اليه بخبر موته + وقد رأيت أن أسجل هذا الحوار لاهميته البالغة بالنسبة لمستقبل الدعوة الموحدية ، فقد مات ابن تومرت بالفعل بعد ستة أيام من اعلان الحوار المذكور + وفيما يلي نص ذلك الحوار كما ورد في أخبار المهدي :

الهاتف :

كأن بهذا البيت باد أهله

وقد درست أعلامه ومنزله

المهدى :

كذلك أمور الناس يبلى جديدها

وكل منا حقا ستبلى خصائله

الهاتف :

ترود من الدنيا فأنك راحل

وانك مسئول فما أنت قائله ؟

المهدى :

أقول بأن الله حق شهادته

وذلك قول ليس تخفى فضائله

الهاتف :

فخذ عدة للموت انك ميت

وقد أرف الامر الذى أنت نازله

المهدى :

متى ذاك خبرنى هديت فأننى

سأفعل ما قد قلت لى وأعاجله

الهاتف :

تبيت ثلاثا بعد عشرين ليلة

الى منتهى شهر فما أنت كامله (١١٢)

(١١٢) البيهقي ، اخبار المهدى ، ص ٤٢-٤٣ ، ابن أبى زرع ، القرطاس

وذهب البيهقي الى أبعد من هذا الحوار الغيبي في تأكيد خبر الإحياء الى المهدي بالموت فيما ذكره عنه أنه (ابن تومرت) قال لأصحابه : « اسألوني عما بدا لكم من أمر دينكم وديناكم فاني غدا ان شاء الله أجمع مع ربي » ، وأقول كما قال رسول الله ﷺ : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ألا قد بلغت ؟ ألا قد بلغت ؟ ألا قد بلغت ؟؟ » (١١٣) . وفي رواية أخرى يوردها البيهقي أن المهدي عندما عاد من موقعة البحيرة ولحق بالموحدين فيها ما وقع من هزيمة كبرى ، شعر بالغمة واعتلت صحته فرجع الى داره في تينمك ، وبعدها خرج الى أتباعه وقال لهم : « أعرفوني وحققوني ، أنا مسافر عنكم سافرا بعيدا ، فضج الناس بالبكاء فقالوا له : ان كنت تسير الى الشرق نسير معك ، فقال : ليس هذا سفر يسافره أحد معي ، انما لي وحدي » (١١٤) .

وعلى هذا النحو انتهت حياة المهدي ابن تومرت في هذا الاطار من الحوار الفكري الغيبي عن موته .

(ج) عبد المؤمن بن علي « أمير المؤمنين » :

يشبه ابن خلكان ما وقع في البحيرة بالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبالج المصبح ويستعلى الضوء (١١٥) . وهذا التشبيه يتضمن الكثير من الحقيقة ، فقد حدث بعد التمييز الثاني أن نزل الموحدون على مراكش وحاولوا انتحامها من جديد فعجزوا عن ذلك وظلوا يحاضرونها ثلاثة أشهر

(١١٣) البيهقي ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(١١٤) البيهقي ، نفس المصدر ، ص ٤١ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ،

ص ٩٧ .

(١١٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ، السلاوي ،

الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٩ — ٩٠ .

عادوا بعدها الى تينملل * وخلال هذه الفترة مرض المهدي غما وحسرة بسبب انكسار الموحيدين في موقعة البحيرة التي كبته أخلص الاتباع وأعظم القواد *

ومما يذكر في هذا الصدد أن المهدي لما شعر بمرضه وأحس بدنو أجله ، لزم داره وظل في غيبة عن الناس لمدة ثلاث سنوات يتناوب عليه : عدد المؤمن ، وأبو ابراهيم أو اسماعيل بن يساى الهزرجى ، وعمر أصناك ووسنار ، وأخته أم عبد العزيز بن عيسى * وكان أبو محمد وسنار يخرج الى الموحيدين ويذكرهم أن المهدي يأمرهم أن يفعلوا كذا وكذا ، وكان أهل الجماعة يخرجون للغزو وظل الامر على هذا النحو حتى اشتد عليه المرض فترقى في شهر رمضان من عام ٥٢٤هـ — أغسطس ١١٣٠م (١١٦) *

وكان المهدي قبل وفاته قد أقر عبد المؤمن بن علي أميرا للمؤمنين عندهما خاطب الموحيدين بقوله : « أنتم المؤمنون وهذا أميركم » (١١٧) * وعندما حانت ساعة وفاته دعا عبد المؤمن وأوصاه بمن أحب وبأخوته خيرا ، وعطاه كتاب الجفر ، وأمره أن يخفى أمر موته أياما اذا مات حتى تجتمع كلمة الموحدين *

كان عبد المؤمن قريبا الى قلب ابن تومرت ، فقد رفع منزلته وأدناه الى ممسه اذ كان يجد في طموحه صورته الشابة ، ووجد فيه ضالته ووضع فيه كل أمله في تحقيق ما كان يستهدفه من دعوته ورسالته ، ويعبر ابن تومرت عن اعجابه بسمات عبد المؤمن بن علي في قوله :

(١١٦) هناك اختلاف في تاريخ وفاة المهدي بين أغلب المؤرخين . انظر تلك الآراء واختلافها في : ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٨٠-١٨١ . انظر أيضا ذلك في ' البندق ، أخبار المهدي ، ص ٤٢ .
(١١٧) المراكنى ، المعجب ، ص ١١٤ .

تجمعت فيك أشياء خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسمن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط (١١٨)
فهل كانت منزلة عبد المؤمن عند القبائل الموحدية تماثل منزلته عند
شيخه المهدي؟ (١١٩) *

كان عبد المؤمن بن علي الكومي — حسبما سبق — من كومية
وبالرغم من أصله البربري ، نراه يرفع نسبه الى بيت الرسول ﷺ عسى أن
يسبغ ذلك سرعة لامامته الموصى عليها من المهدي * وكان ثابتا لدى أقرانه
أنه زناتي الاصل جاء من تاجرة على بعد عدة أميال من مرسى هنين (١٢٠) *
على أن أصحاب المهدي أخفوا خبر وفاته ثلاث سنوات كاملة شغلوا
خلالها بمصادقة المرابطون * وما كان خبر وفاة المهدي يعلن رسميا في سنة
٥٢٧ هـ — ١١٣٣ م حتى تفجر النزاع بين أصحاب المهدي العشرة حول صاحب
الحق منهم في الخلافة * وازداد الخلاف حدة بعد أن دخل أهل الخمسين
مع أهل العشرة في نزاع حاد قبل أن يقرر شيوخ الموحدين حقنا للدماء
مبايعة الشيخ أبو عمر بن علي الصنهاجي المعروف بأزناج (١٢١) * ولم يلبث

(١١٨) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٨٤ *
(١١٩) أنظر رأي المهدي في عبد المؤمن عند ابن تغري بردي ، النجوم ،
ج ٥ ، ص ٣٦٣ *
(١٢٠) تاجرا قرية على ساحل البحر بأرض قبيلة بني عابد من حوز
ندرومة لازالت تعرف بهذا الاسم الى الآن . ومرسى هنين قرية شهيرة تقع
بجبال نرارة على ساحل البحر المتوسط بين مصب نهر تافنا ومرسى الغزوات ،
كانت بالعصر الوسيط مرسى تلمسان ونواحيها وفيها آثار للموحدين ، ابن
خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ١٢١ *
(١٢١) عمر بن علي الصنهاجي ، يعرف عند الموحدين بعمر أصناك
(أزناج) أي الصنهاجي بالشلحة (البربرية) وأسمه الاول يملوك ، أحد
السابقين الاولين الى نصرة المهدي بن تومرت ونشر دعوته ، وأحد العشرة
الدين سارعرا الى بيعته ، فكان بذلك من أهل الجماعة العشرة ، استوزره
المهدي ولما مات كان أحد الثلاثة الذين بايعوا عبد المؤمن بن علي خلفا له ،

هذا الشيخ أن أشار على الموحدين بمبايعة عبد المؤمن بن علي الكومي ،
اقرارا بمبرلنه عند الامام المهدي ، ولانه غريب عن قبائلهم ليس له أهل
وعصبية يعتمد عليها في منافسته لهم . فاجتمعت الآراء وشرعوا يبايعونه ،
فلما أقبل المصامدة بين يديه نهض قائما فحمد الله وصلى على محمد ﷺ ،
ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ثباتهم في
الدين وصلابة عزمهم ، وتصميمهم على الحق ثم قال : « ما نقرضت هذه
العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيرا عن أمة بنيتها ،
وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم جاهلا ، مدهانا ، فلم
ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك واجتأبوا به الدنبا وأمالوا
وجوه الناس اليهم في أشباه هذا القول الى هلم جرا . ثم ان الله سبحانه
وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر
بحقيقته توحيدده وقبض لكم من ألكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون
لا تعرفون معروفنا ولا تنكرون منكرا . قد غشت فيكم البدع واستهوتكم
الاباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها .
وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى ،
وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الزلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين
وسبورنكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبت أيديهم وأضمرتة قلوبهم
» وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروه من
الشكر قولاً وفعلاً ما يركى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم
واحذرما الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على

فناه عبد المؤمن عن الوزارة تشريفا له ونوبها بقدره لانه أرفع منها قدرا ،
وتوفى عام ٥٣٦ هـ . وكان لاولاده مكانة عظيمة عند عبد المؤمن وكانوا أول من
يمر في العرض العام عند الموحدين (الببقي ، أخبار المهدي ، حاشية رقم
٥٣ ، ص ٣٤) .

عدوكم فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر أتباعكم وأطهر الله الحق على أيديكم ، وألا تفعلوا شملكم انذل وعمكم الصغار واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة ، وعليكم في جميع أموركم بمرج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الامة الا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا بكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، والخبرنا سريرته وعلايينته ، فرأيناه في ذلك كله ثبتا في دينه متبصرا في أمره ، وانى لارجو ألا يخلف الظن به ، وهذا المنار اليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه ، فان بدل أو نكس على عقبه أو ارتاب في أمره ففى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله يقلده من شاء من عباده » (١٢٢) *

وجاءت هذه البيعة العامة بعد ما سماه ابن صاحب الصلاة ببيعة السر التى تمت بعد وفاة المهدي مباشرة وقبل ان يختلف الصحابة العشرة حولها . واستمرت البيعة الاولى مدة ثلاث سنوات هى التى أعلن خلالها خبر اعتكاف المهدي لمرضه . ويسرد ابن خلدون أخبار هذه الفترة قائلا : « أن المهدي حين توفى ختى أصحابه من افتراق الكلمة ومما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأوا الامر الى أن تخالط محبة الدعوة قلوبهم ، وكنتموا موته ثلاث سنوات ، يمونها فيها بمرضه ويقيسون سنته في الصلاة والحرب ، ويدخل أصحابه بيته كأنه اختصهم بعبادته فيجلسون الى قبره . ويتفاوضون في شئونهم ، ثم يخرجون لانفاذ

(١٢٢) المراكنى ، المعجب ، ص ١١٧-١١٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ . ص ٣٢٧ . وطالع أيضا نص هذا الخطاب على نحو غير كامل من منتصفه في : محمد بن تاوويت ، الادب المغربى ، ص ١٦٧ .

ما أبرموه ويتولى ذلك عبد المؤمن ، حتى تمكن أمر الدعوة فكشفوا القناع عن مرت المهدي * والتفقوا على تقديم عبد المؤمن وتولى ذلك أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد الملوك الحفصيين الموحيدين أصحاب تونس ، عرض البيعة لعبد المؤمن ، فانقادوا له وأجمعوا على بيعته « (١٢٣) » .

أما البيدق فيذكر البيعة الثانية على أنها مجرد اعلان أو اظهار للبيعة الاولى (السرية) في قوله : « ... توفي رضى الله عنه (المهدي) يوم الاربعاء وقبل يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ هـ وبويع الخليفة يوم السبت لاقرّب من هذا التاريخ ... ولما عاد عبد المؤمن الى بننمل صاح بالقبائل وضم الموحيدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ، ثم وعظ الناس وقال لهم في آخر كلامه : « بقي عندكم عهد ببيعة المهدي رضى الله عنه ، قالوا : نعم . فقعد ثم وعظ عمر أصناك ثم سائر المشيخة رضى الله عنهم أجمعين ، ثم قال لهم : المهدي قد توفي رضى الله عنه ، فبكى الناس ، ثم قال لهم : اسكتوا ، فسكتوا . فقال أبو ابراهيم وعمر أصناك ، وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن : أمدد يدك نبايك البيعة التي عقدناها مع الامام المهدي فمد يده ، وبايعوه ، ثم تبعهم سائر الناس * وكانت البيعة ثلاثة أيام متتالية « (١٢٤) » .

ونخرج من الاحداث التي اقترنت البيعة بأن ولاية عبد المؤمن لخلافة الموحيدين لم تخل من عقبات ومشاكل عويصة كانت دوافعها هي نفس دوافع مشكلات الحركة الموحدية في طور نشأتها ابان حروبها الاولى * وكانت

(١٢٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٧ ، ابن أبي دينار ، المؤنس في اخبار أفريقيه ونونس ، تونس ١٢٨٦ ، تحقيق محمد شمام ، ص ١١٤ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٠١ . أنظر : عنان ، عصر المرابطين ، حول الآراء المختلفة ، قسم ١ ، ص ٢١٩—٢٢١ .
(١٢٤) البيدق ، أخبار المهدي ، ص ٤٥ . الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والدمصية ، نونس ، ١٩٦٦ ، تحقيق محمد ماضور ، ص ٧ .

تجربة البحيرة درسا قاسيا وعاء عبد المؤمن حيث شهد ارتداد كثير من الموحدين عن الدعوة اعتقادا منهم بأن امامهم المهدي المؤيد بالله لا يجوز أن يهرم فعمل على اخفاء موت المهدي حتى يلتئم الجرح ولا تكون هناك تغرة على حد قول البعض^(١٢٥) ينفذ منها الرابطون لتقويض دعائم حركة الموحدين .

وتؤخذ الروايات الغيبية عن عبد المؤمن حرصه الشديد على ألا تغفل الخلافة من يده وذلك في حياة المهدي حسبما ورد في القصة التي أوردها صاحب « المعجب » وتتعلق بمنام لعبد المؤمن فيه ايماءة بضياح هذه الخلافة على يد ثائر من بجاية وأخرى بحصوله عليها حين أتى عليه من قال له : « أتعرف من هذا الذي اهتزت له هذه الارض ؟ قال : لا ، قالوا : هو غلام صاحبك الذي كان يعلمنا معك ، فقال : ان كانت حالة غلام انتهت الى هذا فلا بد أن أكون غدا أنا أمير المؤمنين »^(١٢٦) .

على أية حال فقد تلقب عبد المؤمن بن علي بعد ظفريه بالببوة العامة « بال خليفة أمير المؤمنين » . ويعنى هذا اللقب التعلق بفكرة الخلافة

(١٢٥) عيان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .
(١٢٦) هناك قصة أخرى لها صلة بتلك التي وردت بالمتن أوردها ابن أبي زرع وبذهب فيها عبد المؤمن مذهب أصحاب الكرامات الخارقة حين دبر للمجتمعين حوله من الموحدين مشهد هجوم أسد عليهم وتمسحه بعبد المؤمن دون أن يذبه (القرطاس ، ص ١٨٤-١٨٥) . هذا وقد صارت هذه القصة موضوع قصيدة شعربة لشاعر الموحدين أبي الحسن بن عبد الله ابن الاشيري (من أهل تلمسان توفي عام ٥٦٩ هـ) الذي قال فيها :

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد	ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم	فقضى حثكم لما وُعد
انطق الخالق مخلوقاته	بالشهادات فكل قد شهد
انك القائم بالامر له	بعد ما طال على الناس الامد

ابن أبي زرع ، نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

الاسلامية العامة وأن مشاعر الخوف على مصير هذه الخلافة في المغرب والمشرق الاسلاميين عموما قد ظهر صداها قويا من جديد في مطلع عهد عبد المؤمن * وما قصة ثائر بجاية المشار اليها سابقا الا اشارة على تعلق فكر عبد المؤمن من أيام مهديه بهذه المشاعر وتطلعه من ثم الى التوسع شرما بعد استكمال الانتصار على الدولة المرابطية * ويدعم من هذا التطلع القول بأن أخبار نجاح الحركة الموحدية قد سبقت الى الشرق وشدت من أيدي من تواجد من رجالها في المشرق من أيام رحلة ابن تومرت المشرقية *

وفي هذا الصدد يذكر د. مختار العبادي : « .. وكان لهذا النجاح صدى كبير بين المشاركة أيضا بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة .. مثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة التيمثي الذي عاش بمصر في أواخر عصر الفاطمي ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلا للاحداث الجارية في عصره فلم يجد فيها أعظم من شخصية ابن تومرت الذي ارتفع في رأيه الى أعلى درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته

كما يقول الوري لحما على عظم

وتد نرقى الى أن أمسكت يده

من الكواكب بالانفاس والكظم

وكان أول هذا الدين من رجل

سعى الى أن دعوه سيد الامم (١٢٧)

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن الدعوة الموحدية كانت قد عبأت

(١٢٧) ابن خلكان ، وفیات ، ج ٣ ، ص ٤١٥ د . مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ أنظر أيضا :

— Hartwing Derenbourg; Omara du Yemen, Sa Vie et son Oeuvre, Tome; 1, Paris, 1909, p. 354.

بالفعل كل طاقاتها وجندت كل دعائها وأنصارها للخلافة الموحدية في ربوع العالم الاسلامى لا سيما في مصر والشام • فالبيذق يذكر من أنصار المهدي في المشرق ما جاء في قوله : « أما رجاله واخواته فهم واحد وخمسون رجلا من أهل الديار المذكورة ، غير الرجال الذين آخوه في الله تعالى وعظموه في سائر البلاد المصرية وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله محبين لامره مؤمنين به مختارين صحبتته مؤثرين لحقه معظمين لحرمة » (١٢٨) • وهذا يعنى أن المهدي ابن تومرت ترك في مصر قبل عودته من رحلته المشرقية جبهة قوية عملت على نشر دعوته في العالم الاسلامى المشرقى • فانتشر أتباع هذه الجبهة على صعيد مصر كلها في الوجهين القبلى والبحرى (١٢٩) •

(١٢٨) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٨ •
(١٢٩) يذكرهم البيذق فيقول : أن اول من آمن به بالديار المصرية محمد بن عبد الظاهر الاحمى ، وعرفه بن جابر ، يونس اللخمى ، شادى بن ثابت ، ثابت القيسى ، عمار بن كثير ، مطرف بن حسام المرشدى ، باشر ابن نوير ، عبد القادر الافادى ، بصير القليوبى ، مدين بن شعيب ، تميم بن عوف الاسكندراني ، عمران بن معافى الانوى ، ظاهر بن يحيى ، نهيان بن شمس ، على بن عبد العظيم ، ياسين بن وائلة ، كامل بن سعد ، ماجد بن مهلب ، شجاع وهمام ربدر بن اولاد الجولى القناوى ، جبريل العابدى ، نجاح بن مقبل ، زيان بن مهيب ، ارشى ، ذو النون بن مبارك ، على بن نهيان اللخمى ، جابر ومنصور ابنا جرير ، عمار بن ثابت اليماني ، نجم بن هلال ، شرف الحجازى ، على بن الطفال ، هشام الاسناوى ، رجاء بن رجاء الدمياطى ، عبد العالم القهارى ، سراج بن نوير البجلي ، فخر بن يسار ، على بن مكى المصرى ، داوود بن عنان الدمشقى ، أدريس بن يوسف بن عيسى العاجى ، قاسم بن الرقام الزهرى ، محمد بن أبى المثنى الهروى ، صالح بن مؤيد ، وافد العنوى ، خالص بن منجى»
المصدر السابق ص ٢٨ ، ٢٩ •

(٣)

الاجهاز على دولة المرابطين

ما كادت الهزائم تتوالى على المرابطين حتى شاع بين الناس قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الاسلامى ويؤكد ذلك ما ذكره ابن فرحون في كتاب الديباج المذهب في ترجمة أبى الوليد القرطبى : « أنه لما قدم الى مصر هاربا من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يحج فدخل اليمن ، ثم خاف أن ينلير على اليمن فأراد أن يتوجه الى الهند ولكنه مات بزبيد » (١٣٠) . ولم يكن في امكان عبد المؤمن بن على تحقيق مشروعه في التوسع في اتجاه الشرق ما لم يبنه قبل كل تنىء من مراكز المقاومة المرابطية ويقضى تماما على خلايا المرابطين في شرق المغرب الاقصى ثم في غربيه ، فبدأ بتوجيه قوى الموحدين نحو شرق المغرب الاقصى فأوغل بهم حتى وهران (١٣١) ثم عرج منها الى وجدة (١٣٢) ثم فاس (١٣٣) فمكناس (١٣٤) . وبعد أن استتراد من هذه الجهات الشرقية أنصارا جدد ، أقدم على حصار مراكش بقصد انتهاء حكم المرابطين بها كلية . ولم يخل الامر ، في رحلة الموحدين الحربية في المغرب ، من تكرار تجربة التمييز بين صفوف قواته .

-
- (١٣٠) ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٣٢٢ . د . العبادى ، المرجع السابق ص ١١٤ .
(١٣١) ابن الابار ، الحلة السيرة ، تحقيق د . مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٨ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦ — ١٧ .
(١٣٢) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨ .
(١٣٣) مجهول ، الحلل ، ص ١١١ . أرجع الى رأى ابن عذارى في سقوط فاس ، ج ٣ ، ص ٢٠ .
(١٣٤) محمد بن غازى العثمانى ، الروض الهنون في أخبار مكناسة الزيتون ، الرباط ، ١٩٥٢ ، ص ١٦ . الحلل ، نفس المصدر ، ص ١١٢ .

وان توسعا حربيا من هذا القبيل قوامه تكرار سلسلة المعارك (١٣٥) وتنصفيات التمييز ، قد يستهدف استئصال كل أسباب التمرد والارتداد أو تعبئة قلوب الموحدين بالايان تماما بالدعوة الموحدية • ولم يكن تحقيق ذلك بالامر اليسير منذ بداية أحداث حصار المرابطين داخل حاضرتهم مراكنس وانفطاعهم عن أنصارهم في الجهات المغربية الاخرى في أملاكهم • ولهذا أصبح الوقوف على أحداث هذه المعارك الاولى في حروب عبد المؤمن لازما للتصديق على هذا التعديل • ولكن يكفينا هنا من تفصيلات هذه الاحداث تسجيل ما دار منها في وقعة سقوط الحاضرة المرابطية « مراكنس » •

(أ) فتح مراكنس :

في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧-٦ م نزل عبد المؤمن بجيشه على جبل الجليز المطل على مدينة مراكنس العاصمة المنبئة لدولة المرابطين وأحكم الحصار عليها ، وقد استمر حصاره لها ما يزيد على تسعة أشهر حتى عذمت الاقوات ، وانهارت المقاومة وساعت أحوال الاهالي ويذكر ابن عذاري نقلا عن ابن صاحب الصلاة أنه : « لما طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوما هلكوا جوعا من طول هذه المسدة وضاقوا حتى أكلوا الجيف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا ، وعذمت الحيوانات وعذمت الحنطة بأسرها وطلب اسحاق مخازن أبيه فلم يجد شيئا ، قال أبو عبد الله بن عبيدة كاتب

(١٣٥) في تلك المعارك وما صاحبها من تمييز تقول الرسائل : « .. ابتدأنا بالنظر في أحوال الموحدين وأحضر الجمع منهم بهذه الحضرة — عمرها الله — وأستوفدناهم قبيلة قبيلة وشعبا شعبا ، وقد تأكد العزم على القيام بأمر الله وأعانتة على ادلاله وأحيائه دراسة وأقامة عموده ونفى الخبيث من أرجائه وتصفيته من الشرب ، وأنشأه خلقا جديدا .. اذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج القلوب والفئة الاهواء .. ونسى كل ربه .. » ليفي بروشنال ، رسائل موحدية ، الرباط ١٩٤١ ، رقم ١٢ ، ص ٥٥-٥٤ .

اسحاق : فعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة وكثرة الضيق » (١٣٦) .

وكان سداخل مراكش عدد كبير من أعيانهم وكبارهم على رأسهم الامير اسحاق بن على بن يوسف وكان بعد صبيبا صغيرا ، فأمرهم بالخروج للملاقاة لخرابة النازحين ، فبرزوا في نحو ٥٥٠٠ من الفرسان ومن الرجالة مالا يحصى . وعندما اقتربوا من محلة الموحدين خرجت عليهم الكمائن التي أعدها عبد المؤمن فولوا الادبار ولاذوا بالفرار وتدافعوا الى باب دكالة والارحدون من خلفهم يحدقون بالمدينة من جميع جوانبها . ومات في الكمائن من اهل مراكش مالا يحصى وأتبع السيف سائرهم الى الابواب فقتل بعضهم بعضا بالازدحام . فطال الحصار عليهم واشتد الجهد بهم ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم وغنبت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع أعداد لا تحصى . ثم أمر عبد المؤمن برفع السلالم على السور وقسمها على القبائل فدخلت هنتاتة من جهة باب دكالة ، وصنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين ، وهسكورة مع القبائل من باب ينتان ، فاقتحموا البك بالسيف ، وتدافعوا داخل المدينة التعسة ، فتحصن الامير اسحاق مع بعض الانبياء في قصبته المعروفة بقصر الحجر . وأعمل عبد المؤمن ورجاله السيف في رقابهم ، وكان الامير اسحاق متخفيا في كيس الفحم ، فأخرج وسيق هو وخادمه طلحة الى عبد المؤمن ، فطل اسحاق يتضرع لعبد المؤمن ويقول : « مالى في الرأى شىء » فيقول له غلامه طلحة : « اصمت أرأيت ملكا يتضرع لملك غيره » . ومال عبد المؤمن الى العفو عنه وخادمه لمصر سنهما ، ولكن أغاظ ذلك القول ابن وجاج (أبو الحسن)

الذى صاح بالموحدين : « ويوا ويوا الموحدين ++ ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة ++ » * فغضب عبد المؤمن وخرج من المجلس وتبعه الموحدون ما عدا أبو الحسن بن واجاج والشيخ أبو حفص (١٣٧) *

فأخذ أبو الحسن اسحاق وقتله ، ثم جذبوا طلحة ليقتاوه ، فقال : « يا عمى أبا الحسن سلاحى ما الذى تفعل به عسى أن أعطيه لك » * فأطلق من تكتيفه ليعطى السلاح ، وكان الخنجر فى وسطه فضرب أبا الحسن وقتله ومات ، ومات طلحه بعده على يد أعوان أبى الحسن * وبقي ثالثهم أبو بكر ابن تيزمت انذى حمل الى عبد المؤمن فقال له : « ألم تعلم أنى خصم لعلى بن يونس ؟ فقال أعلم ذلك ولكن لاى شىء تقتلنى ، فقال : لأنك رميت يدك فى الامام المايدي وحملته الى السجن فقتلتك السنة لاجل ذلك * فقال لهم : اذ عزمتم على قتلى فأخبركم ان عندي برمتين بهما ذهباً أخاف أن أحاسب عليهما ان نركتهما » * فاختار له عبد المؤمن أمناً يمشون معه وذلك اثنان من كل قبيل الموحدين فصار معهم الى داره فأدخلهم اليها وأغلقها على نفسه وعليهم ، بيده عكاز فيه سكين فغدرهم به وكانوا اثني عشر رجلاً لم ينج منهم الا رجل واحد (١٣٨) تمكن من الدخول الى جبل احليز وعرف الموحدون بالخبر ، فهدموا عليه الدار ، وقتلوه وجروه الى الدبل *

وورد فى الحلبرواية ابن صاحب الصلاة أنه لما تحقق لعبد المؤمن فتح مراکش فى ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ — ٢٤ مارس ١١٤٧م ودخلها ، رجع

(١٣٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢—٢٤ . الحل الموشية ، ص ١١٣ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٦ . د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٦٩٩—٧٠١ .

(١٣٨) الحل الموشية ، ص ١١٧—١١٨ . البيهقى ، أخبار المهدي ، ص ٦٦ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٤ . ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١١٤

فيها الى محلته وجعل الامناء على أبوابها مدة تسهرين فاجتمع فيئها وأهوالها ، فقسمة على الموحدين ، وقسم عليهم ديارهم ، ثم بيع سبى مراكش بيع العبيد باستثناء زينب بنت يوسف ، فقد استثنوها من البيع لكان زوجها الامير يحيى بن اسحاق المسوفي المعروف بونزمار « أنجمار » وكان قد ترك قبيلته ودخل في دعوة عبد المؤمن ، فأعفيت داره من الفىء ، واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وذخائر لقوذه مما يقصر على وصفه اللسان * « وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج * » وأبى الموحدون دخولها لان المهدي كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم تبثون أنتم مسجدا آخر مكان ذلك * فبنى الخليفة عبد المؤمن بدار الحجر مسجدا آخر جمع فيه الجمعة ، وتسرع في بناء المسجد الجامع وهدم الجامع الذى كان أسفل المدينة الذى بناه على بن يوسف (١٣٩) *

وبسقوط مراكش تنتهى الدولة المرابطية فى المغرب بصفة رسمية ويبقى للموحدين السيطرة على بقية أملاك هذه الدولة ، فإذا ما فرغوا منها يمكنهم مواصلة توسعاتهم نحو الشرق ، نحو الخلافتين المتداعيتين فى مصر وبعاد * غير أن دولة الموحدين الفنية لم تلبث أن تسغت باخماد حركات التمرد والثورة الامر الذى أدى الى تأخير دخول قوات عبد المؤمن بجاية الى سنة ٥٤٧هـ - ١٠٦٥م والمهدية الى سنة ٥٥٥هـ - ١١٦٠م *

(ب) الثورات ضد المهدية :

ولم يقف خطر الثورات التى استعلت فى المغرب على تهديد الكيان السياسى والعسكرى لدولة الموحدين ، بل امتد هذا الخطر الى المساس

بفكرة المهدية ذاتها وصلاحيه الموحدين لها ولحروبها الجهادية ومن ثم
لخلافتها الاسلامية العامة * ويتضح ذلك من ثورة ابن هود السلاوي^(١٤٠)،
وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسي مدعى المهدية ، في رباط ماسية عام
٥٤١ هـ / ١١٤٧م * وكان ابن هود في البداية من أتباع عبد المؤمن وشهد
معه فتح مراديس ثم ارتد عن الطاعة ودعا لنفسه بعد استخلاف عبد المؤمن *
ويذكر ابن عذارى أن جموعا كثيفة من البربر ساندته ويعبر عن ذلك بقوله:
« وفي غرة روال من السنة المؤرخة » ويعنى سنة ٥٤١ هـ « فأقبل الناس
المغتربون به من كل مكان وقبيل اليه ، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعا طار
له الذكر في الافاق وتحدثت به الرفاق ، وكثروا عنده واستندوا له ، فقامت
بدعواته جموع لا تحصى * * * وأتته دعوته في جميع العدو حتى لم يبق منها
الا مراكنس وغاس وارتدت سائر البلاد كلها »^(١٤١) * وقد دخل في طاعة
المسي الماسي أهل سبتة وطنجة وسجلماسة ودرعة وقبائل دالة وحاحة
وهسكورة الرطاء ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة^(١٤٢) *

ويمكننا تقدير حجم هذه الثورة وخطورتها عندما نقف على الارقام
المغالى فيها عن عدد أنصارها المقاتلين في الجهات المختلفة * نفى دكالة بلغ

(١٤٠) يذكره البيهقي بأسم آخر هو عمر بن الخياط ، أخبار المهدى ،

ص ١٠٦ .

(١٤١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٦ . راجع أيضا :
ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٢ . مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٢١ ،
السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(١٤٢) البيهقي ، أخبار المهدى ، ص ١٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ،

ص ٤٨٠ . السلاوي ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

عدهم عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل (١٤٣) * وللقضاء على الماسي أرسل اليه عبد المؤمن من قواده أبا زكريا يحيى بن أنكار الماسوفى فهزمه الماسي * فأرسل اليه الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ، الملقب بسيف الله المسلمون تنسبها بخالد بن الوليد في « جيش خشن من فرسان ورجاله » (١٤٤) حسب تعبير ابن الخطيب * فانهزم الماسي وبدد شمله وغرقت قوته في شهر ذي الحجة سنة ٥٤١ هـ ، ثم اتجه أبو حفص عمر وأشياخ الموحدين الى سائر نواحي المرتدين عن الطاعة فهزموا جزولة ومسكورة وبرغواطة ولم يلبث أهل سلا أن عادوا الى بذل الطاعة لعبد المؤمن (١٤٥) *

وتشبه هذه الثورة المهدوية في ماسة ، ثورة قامت في عرب الاندلس على المرابطين وأعنى بها ثورة المريدين أتباع ابن قسي (١٤٦) وفيها أدعى

(١٤٣) بقول صاحب الحل : سار عبد المؤمن في أمم لا تحصي من الخيل والرجل والرماة ، وكان أهل دكالة لا رامى عندهم ، ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال جاءهم من ناحية أخرى غير الناحية التي اعتقدوها فانحل نظامهم وفل جمعهم وخرحوا عن وعز الموضع الذي كانوا به فالتجأهم السيف الى البحر فنقل أكثرهم في السباوخذت ابلهم وغنمهم وأحوالهم وسبى أولادهم وانتهى البيع فيهم الى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم « الحل » ، ص ١٢١—١٢٢ .

(١٤٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٢٧١ . أنظر أيضا الرسالة الخاصة بمقتله في : كتاب الوثائق ، ونسقة رقم ٨٥ ، ص ٢٤٣—٢٤٥ .

(١٤٥) البيذو ، أخبار المهدي ، ص ١٠٧ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٨٠ .

(١٤٦) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي ، ينتهي جده الى أصل نصراني ، ولد في مطلع القرن ٦ هـ بأحواز شلب ونشأ بها ثم اشتغل بالعمل الحكومي وسثمه فنركه وانكب على دراسة النصوص والتعمق فيه ومال الى الزهد فاششونين وبقشق سم جال في الاندلس والنقي بشيخ الصوفية أبي العباس بن العريف بالمرية ، ودرس عليه أصول النصوص حتى ألف فيه ثم عاد الى قرية جله من أعمال شلب وبنى بها رابطة للعبادة ودراسة التصوف فكثرت

ابن قسى 'المهدوية وتلقب بالامام تشبها بالامام المهدي بن تومرت تقليدا له ولواقفه في المغرب ضد المرابطين * ومن ثم كانت ثورته أصلا على المرابطين وحكمهم بالاندلس * وانضم الى ابن قسى في ثورته عدد من زعماء غربي الاندلس أهمهم ابن القابلة وابن وزير وابن المنذر وابن الحجام في بطليوس والبطروجي في ليلة (١٤٧) *

وقد حاول ابن قسى ايجاد علاقة صداقة وقربى مع عبد المؤمن عندما لاح له عزم الموحدين على غزو الاندلس * وفشلت محاولته بسبب الرسالة التي بعث بها ابن قسى الى عبد المؤمن ناعتا نفسه فيها بالامام المهدي ، فأنكر عليه عبد المؤمن ذلك على أساس أن الامة والمهدوية قاصرة على مهدي الموحدين * وكانت الرسالة في حد ذاتها حافزا للموحدين على مبادرتهم بسمل ميدان المعركة الى الاندلس *

مريدوه . وكان عارفا بطرق التأبر على الجماهير فادعى الولاية والهداية وابتدع كثيرا من "خوارق والشعوذة التي افتنن الناس بها ، واعتمد عليها في ثورته . (ابن البار ، الحلة السيرة ، تحقيق د. مؤنس ، ج ٢ ، ص ١٩٧ — ٢٠٢ . عنار ، عصر المرابطين ، القسم الاول ، ص ٣٠٧ ، علام ، الدولة الموحدية ، ص ١٤٧) *

(١٤٧) الاول هو محمد بن يحيى الشلطيشى ويعرف بابن القابلة ، وكان يلقب بالمصطنى ، والثانى أبو محمد سراى بن وزير عميد أهل يابرة . والثالث هو أبو الوليد محمد بن المنذر ، من اعيان شلب وفقهائها ، برز في الادب وتولى خطة الثورى وتركها ثم انزوى وتزهد وانضم لطائفة المريدين أتباع ابن قسى وقام بالدعوة في شلب . والرابع هو محمد بن على بن الحجام أحد زعماء المريدين في بطليوس ، والخامس هو يوسف بن أحمد البطروجي أحد زعماء المريدين في ليلة . (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ — ٢٥١ . د. سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامى ، ص ٧٠٢ — ٧٠٣ . عنان ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ ، علام ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ — ١٥٣) *

وحدث بعد سوء طالع المريدين وفشلهم في الاستيلاء على قرطبة ومن قبلها اشبيلية^(١٤٨) أن نشأ نزاع بين مهدي المريدين ابن قسي، وبين تابعه سدرای بن وزیر (أمير باجة) مما حدى بابن قسي للتخلص منه على يد أخلص أتباعه ابن المنذر (أمير شلب الذي لقبه ابن قسي بالملك العزيز بالله)، وانتهى النزاع بينهما بهزيمة ابن المنذر، الامر الذي غرى من ساعد بن وزير واستولى على مدينته شلب وميرتلة^(١٤٩)، وأعلن خلع ابن قسي والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة^(١٥٠) وكان هذا الخلاف السبب في قرار ابن قسي الى المغرب ولجوئه الى عبد المؤمن في عام ٥٤٠هـ / ١١٤١هـ^(١٥١) بعد أن شمله بعفوه عسى أن يستفيد منه بدوره في القضاء على حكم عدوهما المشترك يحيى بن على بن غانية المسوفى في قرطبة^(١٥٢) .

قامت الثورة في ترق الاندلس، وكانت أشد عنفا، وأصعب مراسا، وأطول زمنا، من قاعدتها بلنسية في عهد واليها المرابطى عبد الله بن غانية،

(١٤٨) ابن الانبار، الحلة السبراء، ص ٢٠٣—٢٠٤ .
(١٤٩) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ٢٥١، د. سالم، تاريخ المغرب ص ٧٠٢—٧٠٣ .

(١٥٠) هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين، ينتمى الى بيت عربى عربى، تعلم بقرطبة، عمل بالقضاء حتى نولى منصب قاضى قضاة قرطبة سنة ٥٢٩هـ . اختلف ابن حمدين مع المرابطين فعزل من القضاء سنة ٥٣٢هـ، وبعد الفتنة في قرطبة عن قاضيا للمرة الثانية سنة ٥٣٦هـ وظل بالقضاء حتى قيامه بالثورة في عام ٥٣٩هـ . وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين .

ابن الآبار، نفس المصدر، ص ٥٢—٥٣ .
(١٥١) ابن الانبار، نفس المصدر، ص ٢٠٠—٢٠١ . ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٣٥ . ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ٢٥١ .

(١٥٢) هو أبو زكريا يحيى بن على بن غانية المسوفى، كان واليا على قرطبة، مشرفا على شئون الاندلس وقائدا عاما للجيش المرابطى . دافع عن قرطبة ضد قوات قنسالة وحليفهم ابن حمدين عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م حتى توقيع الهدنة معهم، ثم نقضها وقرر اعلان طاعته للموحدين وتوفى في ٢٤ شعبان ٥٤٣هـ — ٧ يناير ١١٤٩م . ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٣٥ .

الذى فر الى مدينة شاطبة عندما شعر بقرب الثورة • وتولى زعامة الثورة ابن عبد العزيز بالحاح من عبد الله بن مردنيش ، وعبد الله بن عياض (قائد الثغر) في سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) (١٥٣) • ومع تطور الاحداث ، خاصة بعد ثورة مرسبه نولى ابن عياض أمر شاطبة ثم مرسية ، وجعل صهره عبد الله بن مردنيش واليا على بنلسية ، وجعل الدعوة للامير « سيف الدولة بن هود » ، وبعد مقتل ابن مردنيش وابن هود في سنة ٥٤٠هـ عدا ابن عياض الحاكم في ترق الاندلس حتى لقي مصرعه سنة ٥٤٣هـ — ١١٤٦م (١٥٤) ، وتولى الامر من بعده محمد بن سعد بن مردنيش (١٥٥) •

وحدث أن انتصر محمد بن سعد بن مردنيش في أوائل سنة ٥٥٦هـ — ١١٦١م على يد الموحدين قرب قرطبة حيث قتل القائد الموحدى ابن بكيث • وأعقب ابن مردنيش انتصاره بانتزاع مدينة قرمونة من الموحدين فجرد عبد المؤمن في أثر هذه الزريعة جيشا لعبور الاندلس قاده الشيخ أبى محمد

(١٥٣) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ، كان امام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة • دخل الاندلس طالبا للعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، استقضى ببلده سبتة ثم نقل عنها الى قضاء غرناطة • ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، رقم ٥١١ ، ص ٤٨٣—٤٨٥ • أما عبد الله بن مردنيش فهو صهر القاضي ابن عياض ، وعم محمد بن سعد بن مردنيش بطل ثورة شرف الاندلس •

(١٥٤) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ص ٢٢٠ • ابن خلكان ، المصدر السابق ، ص ٤٨٥ •

(١٥٥) يذكر المراكشي أن ابن مردنيش كان خادما لابن عياض ، يحمل له السلاح • المعجب ، ص ١٣٥ • هو محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى التجيبى ، ولد في أحواز طرطوشة سنة ٥١٨هـ كان والده سعد بن محمد حاكما لأقراغه من قبل المراكبيين ، كما كان عمه عبد الله بن مردنيش واليا على بنلسية من قبل ابن عياض • كنى بابن مردنيش • ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٥ •

عبد الله بن أبي حفص ، فاستعاد قرمونة في المحرم من سنة ٥٥٧ هـ —
ديسمبر ١١٦٣ م . غير أن ابن مردنيش وحلفاءه تمكنوا من إيقاع الهزيمة
بقوات أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن في أحواز غرناطة وأخذوا يضيقون
الخناق على غرناطة ويهددون قلعتها الحمراء (١٥٦) .

وأمام هذه الانباء المزعجة بادر عبد المؤمن بتجهيز جيش متميز من
خيار جنده عنته ما يقرب من ٢٠ ألف مقاتل منهم عدد كبير من أشياخ
الموحدين . وأسند قيادة هذا الجيش الى ابنه أبي يعقوب يوسف ، والشيخ
أبي يعقوب يوسف بن سليمان . فاتجه هذا الجيش صوب غرناطة ووصل
قرب جبل الـبيكة والـحمراء في شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ — يوليو ١١٦٣ م ،
حيث دارت المعركة المسماه بوقعة السبيكة وانتهت بهزيمة ساحقة منى بها
ابن همشك حشر ابن مردنيش . وأعقبها دخول الموحدين غرناطة في ٢٨
رجب من نفس السنة ١٣ يوليو ١١٦٣ م . وفر ابن همشك الى شقورة بينما
هرب ابن مردنيش الى محلته بحدرة (١٥٧) .

(١٥٦) بعرض ابن الخطيب صوره واضحة لهزيمة الموحدين فيقول :
« .. واعترضت الفل تخوم الفدادين وجداول المياه التي تتخلل المرج قاستولى
عليهم القتل ، وتتل فيها السيد أبو محمد .. ودخل ابن همشك الى غرناطة
بجملة من الاسرى ، أمحن بهم التلة بمراى من اخوانهم المحصورين » ، ص
٣٠٩ ، انظر أيضا ،

— Marcel Peyrouton ; Histoire Général du Maghreb, p. 98.

(١٥٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٥٢—٥٣ . ابن صاحب
الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٩٥—٢٠٠ . وابن همشك هو ابراهيم ابن محمد
ابن مفرج بن همشك ، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفات الخاصة ،
وهو من أصل نصراني ، فجد مفرج أو همشك نصراني نزح الى سرقسطة ،
وأسلم على يد أحد ملوك بني هود في أواخر أيامهم ، وكان مقطوع إحدى
الاذنين ، فكان النصراني اذا رأوه في القتال عرفوه وقالوا « هامشك » ، ويقول
لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة تعنى « ترى مقطوع الاذن » الاحاطة ،

وبوصول أخبار هذا الانتصار الى مسامع عبد المؤمن ، سارع بارسال كتب الفتح والاعلام بالنصر والاحتفال به . وتطورت مسألة الاندلس في حروب عبد المؤمن الى قضية جهاد عام في أراضيها وعمل على تعبئة جيش كثيف لهذا الغرض لا سيما عندما بلغه قيام القشتاليين بالهجوم على مدينة باجة فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وجميع القبائل يستنفرهم الى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، فاجتمع له من عسكر الموحدين والمرزقة من قبائل المغرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثمائة فارس ، ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومئة ألف راجل ، فضاقت بهم الارض ، وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة الى عين خميس واستدارت راجعة الى حلق المعمورة ، فلما استوفت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود ، ابتدأه مرضه الذي توفي منه « (١٥٨) » .

ولم يقدر لعبد المؤمن تنفيذ مشروعه الجهادي في الاندلس بسبب مرضه الذي لازمه حتى وفاته في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ — ١٥ مايو ١١٦٣ م . وكانت هذه الوفاة المبكرة عائقا حال دون تحقيق الخلافة الموحدية أهدافها التي ترمى الى التوسع نحو المشرق الاسلامي . بل ان انشغال عبد المؤمن بمحاربة بقايا المرابطين في المغرب والاندلس ، أعاق

ج ١ ص ٣٠٥—٣٠٧ . وتحول ابن همشك الى قشتالة ، وخدم ملكها ثم ترك خدمة النصارى ، ونزح الى الاندلس ، وخدم المرابطين ، والتحق بخدمة ابن غانية . ومع توالي الاحداث في شرق الاندلس اتصل ابن همشك بابن عياض ، ولما آلت بلنسية ومرسية الى ابن مردنيش اتصل به وصاهره . الاحاطة ، نفس الصفحة . المراكشي ، المعجب ، ص ١٣٥ .

(١٥٨) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ٢٠٢ . انظر أيضا ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١١٧ . السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٤٣ . وعن وفاته واقوال المهدي فيه وامتداد ملكه راجع ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ . وابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ .

التوسع الموحدي في المغرب ذاته وهو ما يهم أساسا موضوع العلاقات مع المشرق الاسلامي .

والواقع أن الدعوة الموحدية التي نادى بها المهدي محمد بن تومرت كانت تستهدف أمرين الأول تحقيق الهدف البعيد وهو بسط سيادتها على العالم الاسلامي المختل ، والثاني الجهاد ضد المتمردين والمارقين تمهيدا للجهاد الاعظم ضد أعداء الاسلام .

غير أن الجهاد ضد المارقين والتوار أيام المهدي وخليفته استغرق جانبا كبيرا من وقت الموحدين وجهودهم واستنفذ قدرا كبيرا من قوتهم على حساب الجهاد الاعظم . ومن المعروف أن حروب المهدي وخليفته عبد المؤمن استمرت نحو أربعين سنة (٢٥٩) وهي فترة طويلة إذا قيسست بعهود الحكام وأعمال البشر .

(٤)

توسع دولة الموحدين نحو الشرق

بدأ الخيط الاول في حروب عبد المؤمن باتجاه الشرق منذ أن اتخذ بقايا المرابطين بالاندلس وحلفاؤهم الهلالية من بجاية قاعدة لمقاومة الموحدين . ولكن رحلة عبد المؤمن الحربية نحو الشرق حتى حدود مصر الغربية كان لها أن تكرر رحلة ابن تومرت الدراسية التي بدأها بالاندلس وانتقل منها إلى الشرق الاسلامي . وقد شرع عبد المؤمن نفسه في القيام بها في شبابه ولكن لم يقدر له أن ينفذها بسبب اثناء المهدي له عن ذلك لقاء

(١٥٩) استفرقت تلك الحروب على وجه الدقة ثلاثا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوما من حزن وفاة المهدي حتى وفاة عبد المؤمن .

الامل في اتخاذ خليفة له . ولا مجال هنا لتكرار الاسانيد التاريخية الدالة على جاذبية التشرق الاسلامى فى الفكر المغربى وأحداثه . فمن بداهة القول تكرار الاشارة الى سحر الشرق ومغناطيسه الجاذب فى أحداث المغرب منذ دخول المغرب فى فلك الدولة الاسلامية . فقد سبق للمرابطين أن ولوا وجوههم شطر المغربين الاوسط والادنى لولا صلة القرابة التى تربطهم بالزيريين الصنهاجة . كما سبق أيضا للفاطميين أن تطلعوا نحو الشرق الاسلامى ونجحوا فى محاولتهم الرابعة ، وكان ذلك الاصل فى ظهور القاهرة التى لعبت وما تزال بأوتار السياسة العالمية . وقد سبق الاشارة الى آثار رحلة ابن تومرت ومدى نجاح دعوته فى الشرق .

(أ) الحملة على بجاية :

فى رسالة أوردها ليفى بروفنسال من انشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية موجهة من الخليفة عبد المؤمن الى الشيخ أبى زكريا يحيى بن على بن غانية يدعوه فيها الى التوحيد بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ٥٤٣ هـ . يحاول عبد المؤمن عن طريق اللين والترغيب والاستمالة ايقاف حملة ابن غانية العدائية ضد الموحدين والانخراط تحت راية الموحدين كما فعل أسلافه من قبيلة مسوغة ، الذين اعترفوا بالمهدى وأقروا رياسته فيقول : « وهذا الامر هو أمر المهدي حق فتأمل ، ومع معاملة الجلاء فلا ظن ولا تخيل ، والمهدى قد بشر به النبى فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته ، وآياته فى قديم مزاره وحديث ، ودل على اسمه وزمانه وفعله ومكانه . . وما خص الله به مسوغة الذين هم من قبيلتكم وخصيلتكم قام ودهم له فى مواطن الحفا وقبيلته ،

وهاجروا اليه وهجروا سواء • فهو آلفهم بفضل الله عليهم وهم
آلافه » (١٦٠) •

غير أن بسى حماد الصنهاجيين (١٦١) رغبوا الدعوة وظلوا يتمسكون
باستقلالهم منذ أن أعادوا تأسيس بجاية عام ٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م على يد
أميرهم الناصر بن علناس بن جهاد (١٦٢) (٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م)
وهم في كفاح من أجل الحفاظ عليها ، سواء في مراحل هجوم العرب الهلاليين
أو أثناء رغبتهم التبعية للمرابطين •

ومع قيام دولة الموحدين ، لحق بدولة بنى حماد أكثر من خطر كاسح:
فالنورمان يوجهون هجومهم على افريقية مقر بنى باديس الزيريين (أبناء
عمومة الحماديين) ويستولون على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة في سنة
٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ويعيثون فسادا على طول الساحل التونسي حتى يقاربوا
مملكة بنى حماد • والمرابطون اللاجئون اليها يستهدفون تحويناها الى قاعدة

(١٦٠) لبقى بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ، ١٩٤١ ، رسالة ،
رقم ٤ ص ٦ - ١٠ •

(١٦١) هي نازبة اماره نظاميه بنتا بالمغرب الاوسط على يد حماد بن
باكين بن ربرى الصنهاجى ، كان عاملا من قبل أخيه باديس بن المنصور بن بلكين
أمير المغرب الادنى على مدينة أشير . استقل بجهته وبنى القلعة المنسوبة الى
أسرته (قلعة بنى حماد) عام ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م . وبعد منازعات بينه وبين
السلطة الشرعية في القيروان أعلن حماد انفصالها عنها في (٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م)
فانقسم بنو زيرى الى : بنى باديس بالقيروان وبنى حماد بالقلعة ، قامت بينهما
حروب تلتها المصالحة والمهادنة . أنظر : عبد الوهاب بن منصور ، قبائل
المغرب ، ج ١ ، ص ١٤٤ •

(١٦٢) ولهذا سميت بجاية الناصرية نسبة الى الناصر بن علناس (د .
سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامى ، ص ٧٠٦ ، د . سالم ، المغرب
الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٦٨٣ - ٦٨٥ •

لعملياتهم العسكرية ضد الموحدين في مشروع حلف يضمهم مع بنى غانية
المسوفيين أصحاب البيسار (١٦٣) *

كان الامير يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس
منهمكا في مآذاته مستغرقا في لهوه غير عابىء بأمور دولته ، كان وزيره
ميمون بن حمدون متنبها الى الاخطار المحيطة ببجاية ورأى في الاستجابة
للدعوة الموحدية سبيلا لانقاذ هذه المدينة من تلك الاخطار فكتب الخليفة
الموحدي عبد المؤمن في السر يرغبه في بجاية باسم انقاذ المسلمين
فيها (١٦٤) *

وجاءت دعوة ابن حمدون لفتح بجاية في وقت اشتغل فيه عبد المؤمن
بتصفية تمييز جديدة في صفوف قوائمه ، وهى الحادثة المعروفة بعملية
الاعتراف (١٦٥) * فقدمت دعوة بجاية ، لسياسة التمييز الموحدي في حادتها
الجديدة ، لا عند الجهادى المنشود للتخفيف من آثارها * ومن قبل ، كان
تسخن المهدي وحده يجب أى سند مطلوب لتبرير سياسة التمييز في
أحداثها التى وقعت بحروب الموحدين الاولى * ولكن الامر يتعلق هذه المرة
بخليفة المهدي ومدى الاعتراف بخلافته (١٦٦) * وعندما ينهض بحملة فتوح

(١٦٣) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٤ ، ص ٨-١٠ .

(١٦٤) عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(١٦٥) ليست هذه العملية التى أقدم عليها عبد المؤمن الا تصفية همجية
تمت في عام ٥٤٤هـ - ١١٤٩م كما يذكرها ابن عذارى (البيان ، ج ٣ ، ص ٢٨) .
ولا يشبهه في شناعته وفضاعته الا التمييز الذى نفذه المهدي محمد بن تومرت
على يد عبد الله بن محسن الوشريسى المعروف بالبشير بهدف ازالة ما حاق
بالموحدين من التخليط ، ويذكر البيهقي تفصيلات عن ذلك الاعتراف وعدد من قتل
من كل قبيلة فيه بسبب قتل مكناسة الفحامين في جبلهم (أخبار المهدي ، ص
٦٩ - ٧٢) *

(١٦٦) ارجع الى الصفحات السابقة (ص ٩١-٩٣) *

بجاية ، فهو يحقق أملا كبيرا في الفكر الموحدى يتعلق بالشرق والاتجاه بالفتوح الموحدية نحو بلدانه يوحدوها داخل بوتقة فلسفته وبصم أشنات دولها في نطاق دولة الموحدين الكبرى .

وواضح من تكتل الموحدين لوجهة حملة بجاية أن حروبهم في الاندلس لم تكن قد حسمت بعد ، وأن عبد المؤمن أتر الانتقال بحروب الموحدين الى الشرق بمجرد وصول دعوة بجاية . وفي سبيل تحقيق حملة بجاية ، عمد الى التمهويه في خطته العسكرية . فعندما فرغ من اعترافه السابق اتجه ناحية سلا وأمر ببناء أساس مدينة الرباط ، وكان يعول على الخروج منها الى بجاية عن طريق المعمورة الى الهبط — ناحية جبالة الواقعة بين الريف والمحيط الاطلسي — موهما في اعلانه أنه متجه الى الاندلس . وبلغ من تكتله أنه أمر بقطع الطريق عن المارة في جميع الاتجاهات التي تؤدي الى جهة الشرق وعين عليها مراقبين أو أمناء لمراقبة الطريق ، بل وصل به الامر الى حد معاقبة كل من يتفوه ولو بإشارة عن هدف تلك الحملة (١٦٧) .

ويصف ابن زرع الطريق الذي سلكه عبد المؤمن في حملته على بجاية (١٦٨) ، بدءا من فاس الى نهر ملوية ثم تلمسان التي أقام بها يوما واحدا ، ومنها الى الجزائر التي دخلها على حين غفلة ، ثم خرج الامير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم وكان قد انتقل اليها بعد سقوط المهدي في

(١٦٧) يقول البيهقي : « وعندما نزل الى شبريط . . كان أمامه عبيد يلعبون ، منهم ميمون أغراف ، فأنطق الله على لسانه بطول أجله ، فقال كذا نفعل يا أمير المؤمنين في بجاية ان شاء الله . فقال له الخليفة تكتف ، فأمر به فقتل » (اخبار المهدي ، ص ٧٤) وورد في الحلل الموشبه ، أن مناديا نادى : « أيها الناس من يكلم منكم بكلام معناه الى أن هذا السفر فجزاؤه السيف » ص ١٢٣ .

(١٦٨) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٩٣ .

أيدى النورمان * فتلقاه عبد المؤمن بحفاوة بالغه^(١٦٩) وفر عاملها الى بجاية ،
وأخبر حاكمها يحيى بن العزيز بمقدم عبد المؤمن واستيلائه على الجزائر *
ولم يمض عهد قصير حتى وصلت جيوش عبد المؤمن الى بجاية ودخلها بعد
الفتح أبو محمد ميمون بن علي المعروف بابن حمدين وفتح أبوابها للموحدين ،
وتم توحيدده وأصحابه * وفر الأمير يحيى بن العزيز الى قسنطينة ، فدخل
عبد المؤمن بجاية ونم تطهيرها وتوحيد أهلها^(١٧٠) *

وما أن نم لعبد المؤمن السيطرة على بجاية حتى واصل زحفه الى قلعة
بنى حماد معقل الحماديين الاعظم وحصنهم الامنع ، فاقتحمها قوات
الموحدين عنوة ، ودمرت عمائرها وضربت عمرانها وأضرمت فيها النيران
وسقط واليها جوشن عبد العزيز وابن الدحامس من الاثيج ، وبلغ عدد
القتلى بها نحو ١٨ ألفا^(١٧١) * ثم ان عبد المؤمن قلده على 'الجزائر وبجاية'
والقلعة وأعمالها ابنه عبد الله بن عبد المؤمن ورتب معه من سيقولى الدفاع
عنها من قوات الموحدين ثم قفل عائدا الى مراكش^(١٧٢) وبصحبتة الحسن
بن علي *

(ب) حملة سطيف :

بينما كان عبد المؤمن فى متيجة فى طريق عودته من الحملة الاولى الى

(١٦٩) البيهقى ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ . ابن أبى زرع ، المصدر
السابق ، انظر أيضا ، د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٢—٧٩٣ .
(١٧٠) د. سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦) ص ٧٩٣ .
(١٧١) ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ٤٩١ . د. سالم ، المغرب الكبير ،
ص ٧٩٣ .
(١٧٢) د. سالم ، المغرب الكبير ص ٧٩٣—٧٩٤ . د. سالم ، تاريخ
المغرب ، ص ٧٠٧—٧٠٨ .

مراكش ، وصلته الانباء بقيام عرب الائبج ورياح وزغبة في سطيف (١٧٣) بالثورة على عبد الله ، ومحاولتهم اعادة دولة بنى حماد ، فسير الى ولده مددا بقيادة يصلاسن بن المعز وعبد الله بن وانودين صهر عبد المؤمن ، ولكن لاختلاف وقع بينهما تمكن العرب من قتل عبد الله وأرغموا يصلاسن على الهرب فاقدم عبد المؤمن على اجراء تمييز أعقبه بدفع جميع جيش الموحدين الى العرب . ونهاهم عن الانشغال بالمغانم والمكاسب حتى لا تهزمهم العرب ، بل أوصاهم اذا سمعوا العرب تقول الرواح الرواح ، بضرورة اتباعهم وتتبعهم الى القضاء عليهم . وكان ما كان من هزيمة العرب وأسر بعض شيوخهم من بينهم ديفل بن ميمون ، وحباس بن الرومية ، وابن زيان ، وأبو قطران ، وأبو عرفة ، والقائد بن معروف فسيقوا الى مراكش ، ثم ردت اليهم نساؤهم وأطفالهم وأمهاتهم بعد أن أعلنوا طاعتهم له في سنة ٥٤٧هـ — ١١٥٣م . وأعادهم الى 'غريقية معززين بعد أن أكرمهم وبالحفاوة بهم (١٧٤) .

وقد وجه عبد المؤمن رساله الى الشيخ أبي محمد وسنار وأهل مراكش يعلمهم بعروته في البلاد الشرقية وانتصاره على العرب بناحية سطيف . ويرى أن هذا الفتح التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع . ويصور حال العرب في تعبير يقول : « . . وقد قذفتهم الغلبة الى صحرائها ، ونبتتهم الروعة بعرائها ، وحدثتهم حال الكثرة المهدية عن كماتها وضرائها ،

(١٧٣) يظهر لنا قصة سطيف عن شدة تأثيره بالمهدى في حب سفك الدماء بل والقضاء على المعارضة بجميع أشكالها من دفع خيله وخل الموحدين قبر سطيف فوق الطريق في ربوه ، وحك خيله هذا القبر ، وقال لهم : « أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر ؟ قالوا : أنت العارف بذلك ، فقال لهم : قال أزيلوني عن هذا القبر لئلا ندرسنى خبل عبد المؤمن بن علي الكومي » . اخبار المهدى ، ص ٧٤ . (القبر السطيف هو القبر المرتفع وأعلاه مسطحا) . (١٧٤) انبيذق ، أخبار المهدى ، ص ٧٦ .

فصاروا بين ندافع الحيرة والتهيه ، وتراجع التخيل والتمويه ، مظهرين
الانابة الى المتساب ، متكررين في أكثر الاحيان على مراتب الشك
والارتياب « (١٧٥) •

كما وصفهم بالجهال مرة والاشقياء مرة أخرى فهم « • ، الذين
يخاطبون جميع من ببلاد افريقية وما يتصل بها الى جهة الاسكندرية من
العرب المغررين بغوامر الجهالة ، المغمورين بأوامر الضلالة ، فخطبه
الاستصراخ والاستنجاد ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد ،
ويستدعونهم لعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد •• وأقبل جميع من
ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بنى عامر من عرب
اليمن ، وشعوب الحروب والفتن ، بقضهم وقضيضهم ، عاملين على اغواء
اخوانهم الخساليين وتحريضهم ، نافرين أفواجا بعد أفواج بغاية عزمهم
ونهاية نهوضهم •• فلم تنزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد وكتائبهم
تتعاقد على الاعتزام وتتقاعد •• والموحدون مقبلون على •• أمروا به من
ارتحالهم الى العرب •• وقتالهم بوادى الاقواس بجهات سطيف ، وكذلك
في متيجة •• وأكلتهم والتقمتمهم الحرب الزبون ، وكابد الهول الكبار جميع
فرسانهم وأعيانهم ومن يدعى البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم •
وأختلطوا بهواؤسيهم اختلاط الانعام بالانعام •• وحاق الويل بهلال
بن عامر •• يصف تتبع الجيش الموحدى لهم حتى أوائل بلاد افريقية
وما يجاورها ، ولم يروا لبقية المارقين أثرا « (١٧٦) •

(١٧٥) لى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، ص ٢٦—٢٧ •
(١٧٦) لى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، وهى رسالة طويلة
مؤرخة فى سنة ٥٤٨ هـ ، ص ٢٧—٣٤ •

على أن هزيمة العرب ، المعلنة بهذا الاسلوب التشهيري الوارد في رسالة عبد المؤمن ، لم يعقبها تسليم قبيلة صنهاجة الحمادية بهزيمتها . فحاولت النار باتفاقها مع حلفائها من قبائل لواتة وكتامة تحت قيادة أبي قصبة من بني زلدوى ، وكان من أشد النوار مناهضة لعبد المؤمن . وتلاقت هذه الجموع مع جيش عبد المؤمن (١٧٧) ، وفيها انكسرت صنهاجة وحلفاؤها ومن أبو قصبة ، وأستتب الامر للموحدين في بجاية ونستبعد أن يكون عبد المؤمن قد قدم على رأس قوات الموحدين إذ أنه لم يعاود الخروج الى افريقية الا في سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م . وقد تكون هذه المعركة قد وقعت، أثناء قفوله من حركته الاولى سنة ٥٧٤/١١٥٣م وهو الارجح .

فقد أوصى قبل عودته الى مراکش أهل بجاية في رسالة وجهها اليهم باقامه الحدود وحفظ الشرائع واطهار الحق بلزوم الواجبات . وتعرف هذه الرسالة برسالة الفصول وفيها يركز على التقيد بالشرع والعمل في أمور الدين والدنيا باللازم الواجب ويشمل هذا الالتزام الرجال والنساء والاحرار والعبيد .

وتتصف الرسالتان المذكورتان بطولهما والتفصيل في موضوع كل منهما مع قصر ماده الرسالة الاولى على أخبار انتصاره على العرب وصفات التحقير التي أنزلها بهم ، وحصر الرسالة الثانية على وصيته لاهل بجاية

(١٧٧) اختلفت الروايات حول الشخص الذى قام على قيادة جيش الموحدين في هذه المعركة . فيذكرها ابن الاثير تحت قيادة سعيد يخلف من أهل خمسين ، بينما يؤكد البيهقي أن الخليفة عبد المؤمن هو الذى قاد تلك الحملة . وفى هذا الصدد ، يذكر البيهقي أن الجيش بأجمعه كان قد خرج للقاء العرب ، ولم يبق مع عبد المؤمن الا الخاصة من أهل الدار مع السوقة ، وممسك القناة التى يمسكها من عام البحيرة (ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٦٠ . البيهقي ، المصدر السابق ، ص ٧٥) .

وتعاليمه ليجم المستمدة من تعاليم المهدي الدينية (١٧٨) * وبالربط بين موضوعي الرسلتين وما وقع في تاريخ حملة بجاية من تصفيات للتمييز بين صفوف الموحدين ، يظهر بوضوح أن الاعتقاد الخالص في الاهداف الموحدية لم تأخذ به أطراف مختلفة في مقدمتها عرب البوادي * وأقتضى الامر ، مع تصفيات التمييز التي كانت تجرى للانصار القدامى ، العمل على كسب مزيد من الانصار الجدد ومن ثم الاقدام على فتح جديدة * وواضح في حرب بجاية أن أحداثها انتهت بانتصار حاسم بالرغم من مقاومة العرب * وواضح أيضا أن هذه الاحداث قد قدمت لعبد المؤمن حديثا يسهل استهلاكه في بلاده لصالح الدعوة الموحدية ، الامر الذي يسر له طريق العودة على رأس حملة ثانية في اتجاه الشرق *

ج - الحملة على المهديّة وبرقة :

في ١٠ شوال عام ٥٥٣ هـ / أكتوبر - نوفمبر ١١٥٨ م خرج عبد

(١٧٨) أوصت الرسالة بـ : يأخذ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين وتوجيههم الى قراءه العقيدة النى أولها « اعلم أرشدنا الله واماك » وحفظها وتفهّمها . وتشمل هذا الالتزام النساء والرجال والاحرار والعبيد .
- اقامة الصلاة ، لان لاحظ في الاسلام لن ترك الصلاة ، فهو غير مثبت بديوان المؤمنين ، وتاركها ميت في عداد الاحياء .
- ايتاء الزكاة ، ومن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة ، ومن منع شربة واحدة كمن منع الفرائض كلها .
- النظر في الربوب وتمييزها ، والهجوم على بائعها ، ومدمن شربها ، فبراق سكرها ، ويقطع منكرها ، فالخمر أم الكبائر ، وهى رجس من أعمال الشيطان .
- الكشوف عن اللصوص والجراة ، كالا اجتماع على سيرة الجاهلية ، الضلالة من الرجال المفسدين ، النساء المفسدات .
ويوصى أهل بجاية بانبياع تلك الفصول والضرب على أيدي هؤلاء المفسدين . (لى بروفنسال ، المصدر السابق ، رقم ٢٣ ، سنة ٥٥٦ هـ ، ص ١٢٦ - ١٣٨) .

المؤمن بن علي من جديد في جيونس ضخمة تلبية لطلب ولده عبد الله الذي انهزم في تونس على أيدي بني خراسان وعرب رباح ولاذ ببجاية * وأراد عبد المؤمن أن يحقق من هذه الحملة أمرين ، الأول الاستيلاء على تونس والمناطق الخارجة على سلطانه من قابس وقفصة وشط الجريد والاريس والتوسع شرقا الى طرابلس والفاني تحرير المهدية من سيطرة النورمان وكانت الثورة على الاحتلال النورماندي قد شملت مناطق عديدة من المغرب الأدنى ابتداء من جربة ، وصفاقص على يد عمر بن أبي الحسن الذي أمر بقتل جميع النصارى فيها عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م (١٧٩) الى طرابلس على يد الشيخ ابو يحيى بن مطروح الذي أسر جميع النصارى النصرانية فيها في عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، ثم مدينة قابس * وكان الموحدون قد استولوا على بجاية وبونة (غابة الحالية) ، ولم يبق بأيدي النورمان غير مدينة المهدية (١٨٠) *

خرج عبد المؤمن من مراكنس في أوائل شوال ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) فاندبا افريقية في قوة كبيرة من أجناد الموحدين بالاضافة الى الاسطول * وكان قد آمن من بلاده أثناء غييبته فاستخلف ابنه أبا الحسن على على مراكنس ، والشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي على المهدية أو

(١٧٩) يذكر البجاني في رحلته أن « الملك روجار الثاني ملك صقلية قد ولي عمر بن الحسن على صفاقص وأخذ والده الشيخ أبا الحسن القرطبي رهينة عنده لكي لا يحيد عمر عن طاعنه ، ولكن الشيخ أبا الحسن قد أرسل سرا الى ابنه بأن ينهز أول فرصة لتحطيم قوة النصارى ، ولا يهتم بمصير أبيه . وبخروج عمر بن الحسن على النصارى عمدوا الى شنق أبيه الشيخ وهو يتلو القرآن الكريم » ص ٧٥ . د . علام ، الدولة الموحدة ، ص ٢٠٨ .
(١٨٠) الحلل الموشية ، ص ١١٧ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ ص ٧٦-٧٧ ، ٩١ ، ٩٩ . أنظر أيضا : أبو علي أحمد بن عمر بن رسته ، العلاقات النفسية ، لبدن ١٨٩١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

رباط الفتح ، ويوسف بن سليمان على مدينة فاس ، أما في الاندلس ، أقام عبد المؤمن ابنه أبا يعقوب على اشبيلية وترك معه في حكمها عبد الله بن أبي حفص . كذلك قلد ابنه السيد أبا عثمان واليا على غرناطة ، وابن يخييت على قرطبة (١٨١) .

وواضح من حجم هذه الاستعدادات أن عبد المؤمن كان ينوى التغيب لفترة طويلة في حملته الثانية في اتجاه الشرق ، وإن هدفها لم يكن مجرد السيطرة على تونس أو تحرير المهدية من السيطرة النورمندية وإنما كان يعمل على ضم كل حواضر افريقية التي لم تتبع بعد الحكم الموحدى . وبدأ الحملة أحداثها بالوقوف أمام مدينة تونس ، فحاصرتها قواته البرية وأحاط بها الاسطول الموحدى بقيادة أبو عبد الله بن ميمون ثلاثة أيام . وطلب الموحدون من أهل تونس الدخول صلحا في طاعتهم ولكن واليها أحمد بن خراسان الذى أسنقل بها لم يرضخ لطلبه . فبدأ الموحدون يهاجمون المدينة ، وعندما أقبل الليل أقبلت فئة من أعيانها تطلب الامان ، فأجيبوا الى طلبهم على أساس الامان فى أنفسهم ، وأهليهم فقط ، أما الاموال والاملاك فبالنصف بينهم وبين الموحدين (١٨٢) . أما النصارى واليهود فقد خيروا بين الدخول فى الاسلام أو القتل ، فدخلوا فى الاسلام . وهكذا دخل الموحدون المدينة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) وترك عبد المؤمن تايها جيشا من الموحدين .

ثم زحف جيوش عبد المؤمن الى المهدية ، وأستعدت لمواجهة

(١٨١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٨ . انظر ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٠ — ٧٩١ .
(١٨٢) علم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

النورمان وكان عبد المؤمن موقنا بطول أمد الحصار بسبب مناعة المهدية (١٨٣) . وكانت المدينة تتلقى الامدادات من صقلية عن طريق البحر وعلى هذا النحو امتد الحصار برا وبحرا مدة سبعة شهور تخللتها هجمات بالمجانيق والعدد وأنقطعت الامدادات صقلية عنها لوجود أسطول الموحدين حتى استسلمت المدينة بعد أن آمن حاميتها على أن يخرجوا الى صقلية ونم دخول 'المهدية' في سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) (١٨٤) .

وفي أثناء حصاره للمهدية جاءته الاخبار بأن عرب سليم تعدوا بشدة على مدنه قابس ، فخاطبهم بتسعر من قول القاضي بن عمران يقول فيه :

أسليم دعوة ذي أخا مرند
هاد الى الحق المبين المسعد
ومسذخر ما كان أسلاف لكم
فضلوا به أفعال كل مسدد
بجهاد أعداء الاله ونصرهم
لرسول ربهم النبي محمد
وتعرفوا أننا عليكم صبر
حتى يعود جواب هذا المنشد (١٨٥)

(١٨٣) المراكشي ، المعجب ، ص ١٤٨ . مجهول ، الحل ، تحقيق ، د. سهيل زكار ، والاسناد عبد القادر زمامة ، الرباط ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٤ .
(١٨٤) المراكشي ، المعجب ، ص ١٤٨-١٤٩ . الحل الموشية ، ص ١١٧-١١٨ . ابن عذارى ، البيان ، ح ٣ ، ص ٣٩ . ولم يقتل من الموحدين في استرجاع المهدية سوى ابن بكت (البيذق ، أخبار المهدي ، ص ٨٠) .
(١٨٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٩ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامة ، ص ١٧٥-١٧٦ .

وأردف 'نرسالة التي لم يصل رد لها بتجريد عساكره على قبابس بقيادة ولده عبد الله ، وتمكن من الانتصار عليهم وكتب الى الموحدين بفاس يبنرهم بالانتصار والفتح وجاء في رسالته : « .. وبلاد افريقية للقبيل الرياحي المستولى على أقطارها ، المستعجل في اضرارها . لا ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتتبع ، ألحقوا بقبيل العدم ، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم ، وأصبحوا كهنسيم التهبته نفحة ضرم ، خيزت عليهم الثنايا والانقاب ، وتبسط فيهم كيف شاء العقاب .. حنت عليهم الصيحة فأنارتهم هبا منثورا وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمس » * وفي موضع آخر تقول الرسالة عن عرب بنى سليم : « وكان في هذا القبيل الرياحي فخذ منهم يعرف بنى دحمدا لاحظتهم السعادة يطرف غير حض وأحتضنتهم في حجر الوقاية حض ، وكان لهم من القدر السابق بمغازتهم جد كفيل كفى ، فألقوا بمقاليد الانقياد ، وأنخرطوا في سلك أهل التوحيد بجميع الانف والاموال والاولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد * وأن عماد بيتها وزعيم أمرها أبا يعقوب يوسف بن مالك » (١٨٦)

وعن عرب جسم تستطرد الرسالة : « وهم عدد لا يحمله الا البساط الفياح والفضاء المنداح * وكل من هذين الحيين الجشمي والنفخ المحمدي من الرياحي فقد عزم وأعزم به على أن تحتط ان شاء الله بالمغرب دارهم ، ويوياً هنا لكم قرارهم ، ويقصر على خدمة هذا الامر العزيز جوارهم » *

(١٨٦) ليفي بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢١ ، وهي من انشاء الكاتب أبي الفاسم القاملي ، كتبت في متبجة في ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٥٥ هـ يعلمهم بهزيمة عرب امريضة ودخولهم تحت طاعة الموحدين ، ص ١١٣-١٢١ .
انظر أيضا : ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

وعن قبائل الاثيج وزغبة ، فقد وصل اليه أيضا أعيانهم « يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون السنة الانابة » (١٨٧) .

وهكذا أسنرت معارك عبد المؤمن في افريقية عن تحرير المهديّة من قبضة النورمان وأنتراع تونس والقيروان وقفصة وطبرق والاريس وطرابلس وسوسة وصفاقص (١٨٨) .

وواضح مما ورد في احداث فتح المهديّة أنه تم صلحا مع أسنتمان النصراني ودخل عبد المؤمن مدينة المهديّة في يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ / ٢١ يناير ١١٦٠ م ، وهى المعروفة بسنة الاخماس . وتوالت عليه التهاني بذلك الفتح ، وقيل فيها قصائد المديح التى جاء من بينها ما بلى من الابيات :

وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا
وأصبح وجه الحق غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر
وعاد به الاسلام بعد تغلب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة
ونادى منادى الحق فى كل مرقب

(١٨٧) ليعى بروفنسال ، نفس المصدر .

(١٨٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٩٤ ، أنظر أيضا عن الوفود التى وفدت على عبد المؤمن من تلك البلاد : وقد صفاقس : عمر بن أبى الحسن الغرباني ، طرابلس : ابن مطروح شيخ طرابلس ، قنصة : يحيى بن نعيم ابن المعتز ابن الرند ، بنزرت : عيسى بن مقرب بن مراد بن الورد اللخمى . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٢ .

فأبـنـسـر أبـا حـفـص بـنـصـر مـؤـزـر
كـفـيـل بـما تـبـغـيـه فـي كـل مـذـهـب
وـلـا بـد مـن يـوم أـعـز مـحـجـل
يـسـيـل دـمـاء الكـفـر فـي كـل مـذـنـب
وـيـغـرـو بـلاد الرودم جيش عرمرم
بـخـيـل مـن قـبـس وأبـنـاء يـعـرـب (١٨٩)

وبخضوع افريقيه وطرابلس امتد سلطان الموحدين من برقة حتى
المغرب الأقصى ، وعمل عبد المؤمن على ضبط ثغورها واصلاح أقطارها
وتعيين عماله وقضاته عليها ، بل عمل على تكسير أراضيها حتى بلاد نول
في السوس الأقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا وأسقط منه الثلث في
الجبـال والـانـهار والسـباخ والطـرقات والـحـرمون والشـعراء وما بـقى قـسـطـهـلـيـه
الخـراج وألـزم كل ثـبـيـلة قـسـطـها مـن الزرع والورق (١٩٠) .

وبعد أن اقام بالمهدية مدة ٢٠ يوم ، عاد الى مراکش (١٩١) مع
سادة العرب وأولادهم ، لمتابعة اخضاعه لابن مردنيش في شرق الاندلس
حيث أقام مدة عامين خرج بعدها الى بلاد الاندلس .

(١٨٩) ابن عذاري ، البيان ، ج ٣ ، ص ٤١ . ارجع الى القصائد الاخرى
التي قيلت في مدح عبد المؤمن لفتح المهدية وبلاد افريقية ص ٤٥ ، قول أبو بكر
بن منحل ، قول ابن صاحب الصلاة ، وقول أبو العباس الجراوي ، ص
٤٦ — ٤٨ .

(٦) د . سالم ، المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .
(١٩٠) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ٩٩ .
(١٩١) مجهول ، الحل ، ص ١٢٥ .

الفصل الثانى

العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين

- ١ — العلاقات الموحدية العربية حتى سقوط الدولة الفاطمية فى مصر
- ٢ — التحالف الثلاثى العربى المسوفى الغزى ضد الموحدين .
- ٣ — سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور المبحدى .

الفصل الثانى

العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين

كانت معارك الموحدين مع عرب برقة وأفريقية تعنى الصدام بشكل غير مباشر بالدولة الفاطمية فى مصر • غير أن هذه الدولة كانت تلفظ آنذاك أنفاسها الأخيرة • ومن ثم فإن استمرار معارك الموحدين مع القبائل المشرقية كان يعنى أن هذه المعارك قد غدت ذات طرف سياسى واحد يتمثل فى الدولة الموحدية وخلافتها ، الأمر الذى طرح على القبائل العربية القبول بأحد الخيارين : الانخراط فى صفوف الموحدين وقبول سيادتهم السياسية والمذهبية أو عدم القبول بذلك فى إطار من التمرد القبلى المجرى من أى سند سياسى • ولم يكن أمام عرب افريقية بعد تجارب مريرة مع الموحدين سوى الأخذ بالمبدأ الاول ، ولم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الموحدين غير أن طورا آخر من تاريخ العلاقات الموحدية بالشرق قد استجد بقيام الدولة الايوبية فى مصر محل الدولة الفاطمية • وظهرت الدولة الايوبية منذ نشأتها دولة فتية قوية ، سرعان ما اتسعت حدودها خارج مصر باسم الخلافة العباسية • وأنعكست علاقات الموحدين بهذه الدولة بادية على بدء على عرب برقة وأفريقية الذين ظهروا على رأس حملة قراقوش ضد الموحدين بالشرق من محاولات لرأب الصدع بين الدولة الموحدية العتيدة والدولة الايوبية الناشئة فيما قام من اتصالات دبلوماسية بن يعقوب المنصور الموحدى والناصر صلاح الدين •

(١)

العلاقات الموحدية العربية الى سقوط الدولة الفاطمية في مصر

كانت بلاد المغرب هدفا لموجات من الهجرات العربية القادمة من المشرق الاسلامي من بلاد الحجاز أو بادية الشام والعراق أما رغبة في الجهاد ونشر الاسلام أو الاستقرار في مناخ هادئ بعيدا عن أنظار العباسيين أو خرازا من الاضطهاد المذهبي الذي كانوا يتعرضون له على أيدي السلطات العباسية . وعلى هذا النحو قامت في المغرب قوى سنية مالكية وأخرى شيعية حسنية واسماعيلية هذا بالإضافة الى القوى الاباضية والصفرية الخارجية الذين ساندوا الدعوة الاسماعيلية في المغرب ودعموا كيان الدولة الفاطمية في مصر وحكموا باسمها في افريقية والمغرب الاوسط .

ولكن أكثر الهجرات العربية فعالية وقوة وأثرا في الاحوال السياسية والاجتماعية في المغرب هجرة القبائل الهلالية من بني هلال وبني سليم ورباح والاثبج وزغبة وهي وأن كانت مدفوعة بدوافع سياسية من حكومة موتورة عاجزة وهي الحكومة الفاطمية في مصر وسببت تضررا من الاضطرابات السياسية والاقتصادية في المغرب طوال ما يزيد على قرن من الزمان الا أنها كانت خيرا على المغرب الاسلامي اذ ساعدت على تعريبه وتخفيف حدة اللهجات المحلية .

أ - اتصال الموحدين بقبائل العرب في افريقية في عصر عبد المؤمن وولده يوسف :

وتم أول اتصال موحدى بالقبائل العربية أثناء عبور المهدي بن نومرت بافريقية والمغرب الاوسط في طريق عودته الى السوس فقد اتصل

بالثعلابة عرب الجزائر^(١) ، فكانوا أول من ناصر الدعوة الموحدية^(٢) .
ثم كانت حملة عبد المؤمن الأولى على أفريقية في سنة ٥٤٦ هـ واستيلائه
على الجزائر بجاية وقلعة بني حماد وعودته بصحبة الحسن بن علي بن
يحيى الصنهاجي الى مراكش (توفي الامير الحسن في تامسنا سنة ٥٦٩ هـ)
على النحو الذي أوضحناه . وتجدر الإشارة الى أن القبائل العربية من
الانبيج وجشم تواجدت على عبد المؤمن أثناء تحركه بجيوشه نحو افريقية
وبابغته في نفس سنة ٥٤٦ هـ ، فعقد لابي الجليل بن شاعر أمير عرب
الاثبح ، ولحباس بن مشيغر على عرب جشم ، وبعونهم استولى عبد
المؤمن على بجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة ، وطرقت جيوش الموحدين
أبواب افريقية بعنف^(٣) . غير أن القبائل العربية من الاثبح وزغبة ورياح
بنو قرة (من قبائل بني هلال) قد راعها عظم نفوذ الموحدين بادرت
بالاجتماع بزعامه يحيى بن العريز بظاهر بجاية وتناست ما بين العرب
والحماديين من أحماد وثارات ، وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وانقاذ ملك
بني حماد وأنتهز صاحب صقلية هذه الفرصة ليدلو بدلوه ويدخل في
هذا الحلف ، فعرض عليهم نصرته وحاول مساعدتهم بخمسة آلاف فارس

(١) هم من بطون بني معقل ، كانوا يسكنون أولا بجبل نظري حيث مدينة
أشير . ثم غلبهم عليه بنو توجين فانتقلوا الى فحص متيجة المجاور لمدينة الجزائر
فسكنوه تحت حماية قبيلة ملكيش ، وقد تتبع ملوك بني عبد الواحد هذه القبيلة
بالقتل والسبي والنهب الى أن دترت في نهاية القرن الثامن الهجري ، ولم يبق
لها منذ ذلك التاريخ وجود . واليها ينسب العلامة الجزائري سبدي عبد الرحمن
الثعالبي (ت بالجزائر ١٤٧٠ م) . عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ،
ج ١ ، ص ٤٢٤ .

(٢) مما يذكر هذا الصدد أنهم أدوه حمارا فارها ليركبه وقد أهدى الحمار
بدوره الى عبد المؤمن . السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٠ .
(٣) ابن خلدون ، العر ، ح ٦ ، بولاق ١٢٨٤ هـ ، ص ٢٠ .

من النصراري ولكنهم أندوا من الاستعانة بالنصارى ورفضوا عرضه (٤) .
ودارت المعركة بين العرب والحماديين وبين الموحدس بناحية
سطيف عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م وأنتهت بهزيمة العرب لأول مرة منذ مائة
عام بعد دخولهم الى أفريقية . فقسم عبد الله بن عبد المؤمن جميع
أموالهم على عسكره ، ولكثرتها وزعها حين عودته في غاس ومكناس
وسلا (٥) . رجع صدمة هذه الهزيمة على العرب ، أخذوا في مراجعة
أنفسهم وقبلوا الدخول في طاعة الموحدين ، وأذعنوا لحكمهم بل أن
شيوخهم توجهوا الى الخليفة عبد المؤمن في مراكش لاعلان ولائهم له
فوصلهم وأكرسهم وأعادهم الى افريقية معززين . وكان لذلك أعظم الاثر
في دخول العرب في دابته ، فاتخذ منهم جندا وأقطع رؤساءهم بعض تلك
البلاد ثم أنه استفرهم بعد ذلك للغزو بالاندلس فأجابه عدد كبير من
العرب جاز بهم الاندلس سنة ٥٥٥ هـ (٦) .

وظل عبد المؤمن على وفاق مع العرب الى تاريخ عودته (٥٥٤ هـ /
١١٥٩ م) الى أفريقية لتحرير المهديّة من سيطرة النورمان وضغطهم
المستمر برا وبحرا على المسلمين . وأثناء حصاره للمهديّة جاءته الانباء
بعيث قبائل بنى سليم ، فعمل على استمالتها تارة بحتها على الجهاد
وأخرى بالامداح والقصائد (٧) . ولما لم يستجب شيوخها وتمادوا في

(٤) البيدق ، أخبار المهدي ، ص ٧٦ .

(٥) ليقي بروفنسال ، رسائل موحديّة ، رقم ٩ ، ص ٢٦-٣٢ . وهذه
الرسالة موجهة الى أهل مراكش في أول ربيع الثاني سنة ٥٤٨ هـ يخبرهم فيها
بغزوته في البلاد الشرقية وظفر الموحدين على الاعراب بناحية سطيف .
(البيدق ، المصدر السابق) .

(٦) د. سالم ، المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .

(٧) من القصائد البليغة التي ألقاها القاضي أبو عمران التينملى صهر
عبد المؤمن فسوله :

عنادهم ، جرد عليهم جيشا بقيادة وزيره عبد السلام الكومى . الذى استأصل نساءهم من الجيوب التونسية ، فكانت هزيمة ناعبة تدرى لهم .

وفى أعقاب انتصار الموحدين على النصارى فى المهدية سنة ٥٥٥ هـ — ١١٥٩ م المعروفة بعام الاخماس ، بلغت عبد المؤمن قيام العرب من جديد بالثورة عليه بعد أن حافوا على مصعب عثمان بالتزام الطاعة ، فصرح اليهم جيشا جرارا بقيادة ابنه عبد الله أوقع بهم بالقرب من القيروان وقتل زعيمهم محرز بن زياد الفارغى من بنى على احدى بطون رباح ^(٨) . كما استولى عبد الله على قابس وكان قد تغلب عليها بنو كامل من رباح ، وعلى قفصة أنتزعها من بنى الررد وطبرقة من مدافع بن علال وجبن زعوان من بنى حماد بن خليفة والاريس من بنى قنتاته العرب ^(٩) .

ومنذ ذلك التحين انضوى العرب تحت لواء الموحدين وأصبحوا أعوانا لهم فاستغل عبد المؤمن الطبيعة القتالية عندهم للجهاد ضد الاعداء داخليا وخارجيا . فبعد من افريقية هذه المرة وبصحبته أعداد كبيرة منهم وصلت الى ألف من جن فبيلة ^(١٠) بعيالهم من بنى رباح وجنم وبنى عدى ، حتى أن ابن صاحب الصلاة يصفهم لكثرتهم بالذباب والحصى ^(١١) ومن

أسلم دعوة ذى أخاء مرشد هاد الى الحق المبين المسعد
وذكر ما كان أسلاف لكم فضلوا به أفعال كل مسدد
بجهاد اعداء الاله ونصرهم لرسول ربهم النبى محمد
(ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، راجع أيضا قول ابن المنفل
ص ٤٥) .

(٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٥—١٤٦ ، ١٤٨ .

(٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٩٤ . د. سالم ، المغرب الكبير ، نفس الصفحة .

(١٠) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٩ . حيث يقول : « بعيالهم وأبنائهم ، وهم عرب جشم » .

(١١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق التازى ، ص ١٤٤ .

الاشعار التي نظمت في انتصار الموحدين على العرب ، خاصة عرب رياح
قول عبد الملك بن عياش :

ولما بعثت من جيشها نفلا
ألقى بنفسه في كنف منتهب
صدر بالعرب العرباء وانقلبت
عن الحسام رياح شر منقلب (١٢) .

ألقى عبد المؤمن العرب الجندية لتوجيههم الى الاندلس ، وأمر
بتدريسيهم على الفنون الحربية واعدادهم لجولاته المقبلة ، وأرسل
بذلك الى عماله في بلاد الاندلس يعلمهم بما سيقدمه هؤلاء انصار ،
وقسمهم الى كتائب وزعماء على مختلف أنحاء المغرب ، وأخرى على الاندلس
للمرابط بالثغور . غزى بعض القبائل بقرطبة ، وأخرى باشبيلية ، وأبلى
أبنائها بلاءا حريشا انتصاراتهم الالسن ، فذكر أبو العباس الجراوى
شاعر الموحدين في دور العرب :

لو راء موسى ما فعلت وطارق
زريا بما لهما من الاثار
أتممت ما ضد أملوه وفقاتهم
من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل حرقهن أعارب
من كل مقتحم على الاخطار

(١٢) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ١٦٢ . وهناك قصيدة أخرى
مماثلة في المعنى للشاعر أحمد بن سعيد الاشبيلي المعروف باللص (عبد الوهاب
بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩٨) .

أكرم مهن قبائل اقلالها
في الحرب يغنيها عن الاكثار
أنظر ر اذا اصدقت كتائبها الى
ما محمد الكتاب في الاسطار
لو أنها نصرت عليا لم ترد
خيل ابن حرب ساحه الانبار (١٣)

ولم تنته علاقة العرب الهلالية بدولة الموحدين بوفاة عبد المؤمن في
١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ / ١٧ مايو ١١٦٣ م ، بل ظلت تلك العلاقات
قائمة في عهد خلفه أبي يعقوب الذي سار على نفس سياسة أبيه في
استجلاب العرب واستئلافهم والحاقهم بالجنديّة وتسخير طاقاتهم الحربيّة
من أجل الحفاظ على الأمن في الداخل والجهاد في الاندلس . فكان يرسل
لهم مخاطباته سعرا ويترا (١٤) فتسرى فيهم مسرى السحر في الجسد ،
فيقبلون أزراغا وجماعات . وتشهد لهؤلاء العرب حين دخولهم الى المغرب
الاقصى وبلاذ الاندلس خلوص السريرة وصدق العزيمة ، وحرص النية
على خدمة الدولة ومجاهدة الاعداء (١٥) . ومن أطف ماكتب لاستدراجهم

(١٣) يعتبر المؤمن أول من جلب العرب من افريقية الى المغرب . ويذكرنا
استخدام عبد المؤمن لهم قول التساعر أبو العباس الجراوى مهنا بالانتصار
الذى أحرزه العرب في وقعة فحص بلقون سنة ٥٥٦ هـ .
أعليت دين الواحد القهار بالمشرقية والقنا الخطار
(ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٧٢) .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(١٥) لا يقصد بالاعداء المسيحيين فقط بل خصوم الدولة أيضا ومنهم ابن
مردنيش في ثورته عام ٥٦٠ هـ ، فاستعد له أبو حفص أخ الخليفة في قوة عظيمة
وأمر بالنير اليه والاسراع بالموحدين من الصابرين ونخبة الفرسان الابطال من
العرب الرياحيين والاتبجيين . أنظر : ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ،
ص ٢٧٠ .

الى الدخول الى العرب تلك القصيدة النى أنشدها أبو بكر بن الطفيل في عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م نسخذ همهم الى الغزوة الكبرى في الاندلس (١٦) ولما لم يستجب العرب للدعوة سريعا ألحقهم بقصيدة أروع من السابقة فصاحة وبلاغة يستحثهم على سرعة الوصول ، وفيها يقول عبد الله بن عياش :

أقيموا الى العلباء هوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
بنى العم من دليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسل وابن ناسل
فطيروا اليها يا هلال بن عامر
ثقالا خفلا بين حاف وناعل (١٧) *

وبوصول ذلك القصاصد التى هزت الهمم العربيه أقبلوا من كل فج يتزاحمون على التجمع للجهاد الاكبر فى الاندلس فتجمع فى بجاية مايقرب من ٤ آلاف فارس حائسا المتاه وقد حملوا معهم الميرة والسلاح والدواب ما يعجز حصره ، بالاصافة الى من انضم اليهم من عرب ناسان وعدتهم الف فارس من العسكر النظامية مشاة وركبانا * وبعد وصولهم الى مراكز وما تم من حفلات الضيافة وتوزيع المنح والصلوات ، تم تمييز

(١٦) هى قصيدة طويلة من ٤٤ بيتا ، تمتلىء بالالفاظ الحماسية ، فأسرعوا الى بلية الدعوة وفيها يستحثهم على النهوض فهم لا يخيبون رجاء المسلمين ولا بخلفون وعدا . (ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤١١-٤١٢ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٨٨-٨٩ . عبد الوهاب بن منصور ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣-٤٠٤) .

(١٧) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٥ ، ومدى تقربه لهم ص ٤١١ . ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٩٠ .

العرب لمعرفة وضبط أنسابهم ، وكان عدد الفرسان العرب الذين عبروا البحر الى الاندلس في أول رمضان ٥٦٦ هـ / ٨ مايو ١١٧١ م عشرة آلاف فارس شاركوا في عدد كبير من المعارك كما أسهموا في عملية البناء والنشيد (١٨) .

هذا وقد نعم عرب المغرب الأقصى والاندلس بحياة الاستقرار بينما ظل اخوانهم في افريقية على عاداتهم من الفوضى والاضطراب يظهرون مالا يبطنون ، دعة رأمانا وسكونا في ظل قوة الدولة ، وفوضى وفتنا واضطرابا حين يتسعون بضعف قبضة الدولة . وهذا ما حدث بعد وفاة اخليفة يوسف بن عبد المؤمن وخلافة ابنه يعقوب المنصور عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م .

ب - سياسة المنصور مع عرب افريقية :

تجدد عبث العرب بعد وفاة ابي يوسف يعقوب ويتمن ذلك في تحالفهم مع على بن اسحاق بن غانية (١٩) الذي قصد بجاية حين راسله

(١٨) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٧ ، والوصف الكامل للاستقبال والمداغة والاحتفال باطعامهم وتمييزهم ص ٤٣٠-٤٣٤ . ويذكر ابن عذارى عدد ما وصل من افريقية من الخيل ٤ آلاف فرس ، و ١٥٠ جملا من المال الصايت ، وعند التمييز بدأ بقبيلة زغبة على أساس أنها أقدم القبائل وصولا الى المغرب . وبعد ضبط أنسابهم اجتمع للموحدين ١٠ آلاف فارس وللغرب ١٠ آلاف فارس المتطوعة (نفس المصدر ، ص ٩٢) .

(١٩) ينتمى بنو غانية الى قبيلة مسوفة ، وهم أبناء عمومة قبيلة لتونة ، وهم من بطون صنهاجة الكبرى ، وهم أبناء على بن يوسف المسوفي . وقد أنجب على هذا ولديه هما يحيى ومحمد ، وكان يحيى من قواد المرابطين ، ويقول المراكشي في يحيى بن غانية « كان حسنة من حسنات الدهر . . وكان مع هذا شجاعا فارسا . . اذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس . . » واستقر محمد في جزر الجليار ، حتى أنه كان يغزو بلاد الروم مرتين في كل سنة فقوى أمره ،

جماعة من أهلها ونسكن بفضل أسطوله من التغلب عليها في عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م * وعلى أثر دخول الميروقيين بجاية فر منها أبو الربيع أخو أبي موسى (هما عما الخليفة يوسف يعقوب) الى تلمسان بعد أن خذلتهم العرب وانضمت الى ابن غانية الذي تتبع أبا الربيع ، فاستولى على الجزائر وأقام عليها ابن أخيه يحيى بن طلحة ثم ضم مليانة وأسنند ولايتها الى قائده يدر بن عائشة ثم عاد الى بجاية (٢٠) *

هذا وقد سنع الموحدون بابن غانية وأتهموه بالكفر ووصموه بالغدر والغى لاقدامه على السيطرة على كل امريقية والقسم الشرقي من المغرب الاوسط من ذلك قولهم : « » * احزاب الشيطان وجموعه ، وبدر جماعة الخبيث وجموعه ، والكفر البائد » ، ويذكر عنه في موضع آخر : « » * وقد علمتم ما كانت عليه حالة الكافر الغادر ، اللعين الخائن الخاسر ، بقيّة الحثالة الغاوية وسؤر الكفر الدائر ، شقى ميورقة — لعنه الله — من الانكمان في جزيرته » (٢١)

ولم يكد على بن اسحاق يستقر ببجاية حتى أقبل عليه الناس يبايعونه بالامارة ودخلوا في طاعنه ولم يلبث أن دعا للخليفة العباسي الناصر في

وهايه ملوك أوربا ، ونوفى سنة ٥٧٩ هـ . ولم تخضع شوكة بني غانية الا في عهد الناصر الموحدى خاصة بحى بن غانية . المعجب ، ص ١٧٦—١٧٧ .
راجع في ذلك الحميرى ، الروض المعطار في أخبار الاقطار ، ترجمة ونشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٨٨—١٨٩ .

— Alfred Bel; Les Banou Ghanya, Paris, 1903, p. 71.

د. سالم ، المغرب الكبير ، (طبعة ١٩٦٦) ص ٨٠٢—٨٠٣ .
(٢٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤٦—١٤٨ .
(٢١) ليفي بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢٩ ، مؤرخه في ٥ ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ الى طلبة اشبيلية بعلمهم بغزوة الموحدى على ابن غانية ، وفتح مدينة بجاية ، وهى طوبلة ، ص ١٦٨ — ١٨٠ .

الخطبة وسير ولده مع كاتبه عبد البر بن فرسان للخليفة العباسي (الناصر لدين الله) طلبا للخلع والاعلام السوداء فارسلت اليه . وجاءت تفاصيل حركة ابن عانية في رسالة موحدية تذكر منها ما يلي : « .. ولما عنيت للفاسق الفرصة ، اعتنم بزعمه انتهازاها .. فدخل أوباشا ممن كان ببجاية ممن رق دينه ، وضعف ايمانه ويقينه ، وزان على قلبه شيطانه المضل وقرينه ، فيسروا له تههد صهوتها ، وأعانوه على تسنم ذروتها ، ووصلوا بسببه الضعيف أسباب قهرها وغلبتها . ولما قر فيها قراره ، وانتشر بها فساقه وفجاره ، وجمع له من أتباعه في الجهالة ، وأعوانه في الضلالة ، وغطى على بصيرته العمياء جهله وضلاله فقتطوف على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة وكر منها الى بجاية » (٢٢) .

وعندما بلغت أبا يعقوب يوسف هذه الاخبار المزعجة وبلغه خذلان العرب للموحدين وأخذه سهم الى على بن اسحاق بن غانية وسيطرة هذا الاخير على معظم افريقية وقسم من المغرب الاوسط حتى قسنطينة استعد لئلازلتهم . فسبر السيد أبا حفص بن السيد أبي زيد لمحاربة ابن غانية كما عقد لمحمد بن أبي اسحاق بن جامع على الاسطول الذي تحرك من سبتة (٢٣) بقيادة أبي محمد بن عطوش وأحمد الصقلي (٢٤) . وبينما خرجت قوات السيد أبي زيد ابن عم الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور الى تلمسان لتفقد حصونها ومن هناك تقدمت الى مليانة ، كانت أساطيل الموحدين تستولى على ثغر الجزائر ، ووقع يحيى بن طلحة بن غانية ويدور

(٢٢) ليفي بروفنسال ، المصدر السابق ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٤٢-٦٤٣ .
(٢٣) ليفي بروفنسال ، نفس المصدر .
(٢٤) د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٣ .

بن عائشة أسبرين في يد ابن جامع ثم تقدم أحمد الصقلي الى بحاية
وأفنتحها وخر يحيى بن غانية الى أخيه اسحاق وكان يحاصر قسنطينة ،
فرفع الحصار وولى اللادبار الى قلب الصحراء والموحدون وراءه * أما
الموحدون فقد قبضوا على أنصار على بن اسحاق وقتلوا البعض ووزع
الباقون مع الاماء على الموحيدين * ويأتى وصف هذا الحدث كما يلى :
« ... وكان طلبة الاسطول اجتمعوا بالموحيدين بتلمسان ورسموا لهم
أن يكون اجتماعهم بالجزائر * فتبسر لهم مرامها ، وبادر أهلها الى فتح
أبوابها ، والقبض على من أمكنهم ممن كان عندهم من أبواب الضلالة
وأوشابها ، وبان للسردمة اللعينة سوء مصيرها وما بها * وكان ممن حصل
في ثقات القهر وتمكنت من عنقه الذليلة ربقة الاسر ، ابن عم الشقى الغوى
وجماعة من أعيان شياطينه الرجماء ، وجملة من كبار أصحابه الزعماء *
فسارع الاسطول بالتوجه ، فهو أمر الله المنجد على كل محارب ، المظهر
على كل مطالب ومغال ، الموعود بالاستيلاء على ماروى من المشارق
والمغارب * ولا سهل الله لهم استعادة بجاية وفتحها ، حتى انتهوا الى
أوائل متيجة * وبقي الخائن الخاسر بجهة قسنطينة مسلوباً محروباً
مغلولاً منكوباً » (٢٥) *

ولقد هنا الشعراء الخليفة المنصور بذلك الفتح المبين : فقال
اشاعر أبو العباس بن عبد السلام :

لسواؤك منصور وسعدك غالب
وحزبك للاعداء عنك محارب

لقد نكلت أم المنادى وغررت
مبادى من أحواله وعواقب
سماء ستراق السمع من هدايته
ودون سماء الملك شهب نواقب
تلاقى عليه البر والبحر تترتمى
سفينا الى استيصاله وكتائب (٢٦)

أما ابن غانية فقد زحف الى قفصة واستولى عليها ثم حاصر توزر
فلما استعصت عليه تركها ومضى الى طرابلس حيث التقى بقراتوش الغزى
المظفرى واتفق معه على التحالف ضد الموحدين كما نجح فى استمالة قبائل
من بنى سليم من العرب النازلين ببرقة وتجمع لديه المنحرفون على
الموحدين من رياح وجنسهم والاثبج ثم عاد ابن غانية فى السنة التالية
(٥٨٣ هـ) ونزل بأطراف طرابلس يؤلف فيها العرب * ووصلت الكتب الى
المنصور بذلك فأستعد فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٦ م ورفض استصحاب
عرب المغرب معه هذه المرة وأكتفى منهم ببعض أشياخ رياح كبنى زيان
لقد هم هجرتهم الى العرب وصدق نصيحتهم (٢٧) *

وكان ابن غانية قد سيطر بفضل حلفائه من العرب والغز على قفصة
وكثير من بلاد الجريد وحصونها وأقام الدعوة العباسية فيها كما أفتتح
توزر *

وعندما وصل المنصور الى تونس سير جيشا بقيادة يوسف بن أبى
حفص عمر وعمر بن أبى زبد لمحاربة ابن غانية ووقع الاشتباك فى موضع

(٢٦) ابن حذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٥١ .
(٢٧) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

يقال له عمرة * فانتصر ابن غانية وحلفائه الاعزاز والعرب انتصارا حاسما وفيها قتل جملة من أعيان الموحدين من بينهم عمر بن أبي زيد نفسه وعلى بن يغمور وغرت ملال الموحدين الى قفصة ولاذ معظم بتونس * وقرر المنصور الإقامة فخر بتونس لاعادة ترتيب الجيوش وتمييزها بسبب ما وصلت من ألباء مخالفة مدينة قفصة من بلاد افريقية عليه ، فخرج بنفسه لمحاربة ابن غانية والتقى معه في حامة دقيوس في شوال من نفس السنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فانهزم على بن غانية وتمكن المنصور من فتح قفصة وقابس وتورر (٢٨) ثم أوقع بعرب افريقية وهزمهم هزيمة نكراء استباح جلهم وأموالهم فأتوه طائعين صاغرين ونقل عددا منهم الى المغرب (٢٩) *

أما على بن غانية فقد قتل في بعض حروبه مع نفزاوة في سنة ٥٨٤ هـ وخلفه أخوه يحيى بن إسحاق (٣) فواصل مضايقة الموحدين *

وهكذا تراوحت العلاقات الموحديه العربية بين التطريع الجبرى والاستئلاف الودى * كذلك تراوحت مواقف العرب بين القبول بالانخراط

(٢٨) د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٥ .

(٢٩) ترك المنصور عرب بنى سليم في أماكن سكناها بأرض افريقية ولكنه نقل من بنى هلال وبنى جشم أعدادا كبيرة الى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين في سنة ٥٨٤ هـ . فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط — وهى ما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير وتسمى اليوم بسهل الغرب . . ، والى أزغار البسيط وهى السهل الممتدة من طنجة شمالا الى سلا على ساحل البحر المحيط ، واستقروا بها وطاب لهم المقام . وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط ما بين سلا ومراكش جنوبا ، وهى أوسط بلاد المغرب الاقصى وتضم السهل الممتدة من نهر أبو رقراق الى نهر أم الربيع . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٦٨-١٧٠ . بن عبود ، تاريخ المغرب ، ص ١٥٢ .

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٩٦ وما يليها . د. سالم ، المغرب

الكبير .

في الجندية الموحدية وحياتها الاقطاعية العسكرية في أراضي الشـور
الموحدية وبين العودة للحياة القبلية والقبول باغراءات معارك الكر
والفر الصحراوية تأييدا للقوى الخارجة على الموحدين ممثلة في الميورقيين
وبقايا أسرة المرابطين •

ومع ذلك فقد كانت قوة الخلافة الموحدين تمثل قطب الجاذبية
السياسية الاقوى والمتحتم في تحديد الولاء النهائي للقبائل العربية أثناء
أحداث تلك المرحلة التاريخية التي بلغت خلالها الدولتان الفاطمية
والعباسية أدنى درجات الإعياء والضعف • ولكن الامر يتبدل عندما تحل
الدولة الايوبية محل الدولة الفاطمية وتدين في ولائها السياسي للخلافة
العباسية وتجدد دماء القوة العسكرية للمشرق الاسلامي وتوحد خلافته ،
ويظهر نشاط هذه القوة الفتية وتدخلها في التراب المغربي بالفعل ممثلا في
تلك الحملة التي قام عليها القائد المعروف ببهاء الدين قراقوش الاسدي
الغزي وأمكنه أن ينشئ حلفا ثلاثيا (أيوبيا — عربيا — مبرقيا) بأسم
الخلافة العباسية •

(٢)

التحالف الثلاثي : العربي المسوفي الغزي ضد الموحدين

كان بهاء الدين قراقوش ^(٣١) المظفري النقي مولى تتقي الدين
عمر ^(٣٢) ، ابن أخ صلاح الدين ونائبه على مصر قد خرج عام ٥٧٥ هـ /
١١٧٩ م غازيا الى بلاد المغرب ومن هناك كتب الى مولاه تتقي الدين عمر

(٣١) راجع في ذلك ، ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٩١—٩٢ •

يقول : « ان البلاد سايبه » (٣٣) * ووجدت هذه الدعوة صدى طيبا لدى
تقى الدين الذى كتب بدوره يستأذن السلطان صلاح الدين فى الخروج
ويسأله : « ألا يمنعه من سلوك ملكها » * ويزودنا صاحب المضمـان
(المنصور محمد بن تقى الدين عمر) بحوادث هذه الحملة وغقا لترتيب
السنين ففى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) يذكر أنه خرج قاصدا طرابلس حتى
وصل الى حد نفوسه رفيها تلاقى مع أشياخ وأعيان قبائل دباب الذين
وصل عددهم حوالى ٥ آلاف وهى جموع غفيرة من عرب بنى هلال بالاضافة
الى ما كان معه من الفرسان والاجناد من الاجناس التركية والكردية
والاكادشبة وصل عددهم الى ٤٠٠ فارس (٣٤) *

وقام بهاء الدين قراقوش بافساد العرب على أهليهم ، فأخذ هو
جانب دباب وزعامتهم فى حميد بن جارية ضد زغب وزعيمهم ناصر الدين
ابراهيم ، ويتضح ذلك فى قول قراقوش لصاحبه حميد : « يا أمير ، انما
قصدى أن أستفسد جماعه من الاتراك الذين عند ابراهيم ويقل أصحابه
وتقوى عليهم » (٣٥) *

وأراد بهاء الدين قراقوش القضاء على ابراهيم زعيم زغب بواسطة
دباب غير أن الجانبين 'التربيين' (دباب وزغب) أقدما على نهب خبء

(٣٢) عينه صلاح الدين نائبا عنه فى مصر ، وفى رجب من سنة ٥٧٩ هـ
طلبه فى القدوم الى الشام فغضب وأعلن عن عزمه على المسير الى برقة وديار
المغرب ليلحق بةناة بهاء الدين قراقوش . انظر : ابن خلكان ، نفس المصدر ،
ج ٣ ، ص ٤٥٦-٤٥٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩١-١٩٢ .
(٣٣) أبو تسامة ، كتاب الروضتين ، تحقيق محمد حلى محمد أحمد ،
القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ٢ ، ص ٧٠ . ابن واصل ، مفرج الكروب فى اخبار بنى
أيوب ، نشر د. التتال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٣٤) ابن الاثر ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ١٤٦ . ابن خلدون ،
العبر ، ج ٦ ، ص ١٩١-١٩٢ . النجاني ، الرحلة ، ص ١١١-١١٣ .
(٣٥) حسن حبشى ، مضمـار الحقائق ، ص ٣٥ .

قراقوش وأبراهيم عنى به سواء * ولما شاهد جند قراقوش الاتراك هذا الموقف الذى تضامن فيه عرب دباب وزغبة خافوا أن يفتكوا بهم ، فهرب بعضهم وبالتالي دارت الدائرة على بهاء الدين قراقوش الذى لم يجد شيئاً فى خبائه رغم أنه كان يملك من الاثقال الشيء الكثير * ويحصى صاحب المذممار ما كان لديه من الجمال فيذكر : « أن الذى كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الاتراك فللواحد أربعون جملاً ، وثلاثون جملاً وأقل وأكثر » (٣٦) * ولم يبق له ولا لجنده ملابس ولا مأدل حتى أنه شكا الى حميد بن جارية يومه وما فعلوه به ، ففتوا عدهم حميد بما ينظرهم ، وأمد قراقوش بخدمته . فوصل قراقوش الى طرابلس فى ٤ مارس ونزل على مدينة ناجرة قرب طرابلس * ولما رأته زغبة خافت وحاولت الصلح بين أبراهيم وقراقوش ، وفعلت تم الصلح على حد فاصل معلوم بين قراقوش وبين زغبة هو نفوسة ، فما كان تسرقها لبهاء الدين قراقوش وما كان غربها خلابراهيم * وظل قراقوش ببقية السنة (٥٧٥ هـ) فى طرابلس أمّنت فيها دباب من غارات زغب ، الا أنها استغلت هذه الهدنة وغدرت بالاتراك من قوات قراقوش * فكانت تسرقهم وتقتل من تلقاء من الاتراك منفردا * وازاء ذلك قرر قراقوش الانتقال الى قابس من أرض افريقية فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) *

والواقع أن القرار الذى اتخذ قراقوش بالانتقال نحو قابس انما تم بعد أن أمن جانب ابراهيم زعيم زغب فقد أخذ عليه المواثيق والعهود بعد أن غدر الواحد منهما بالآخر ، وقبل أن يرحل قراقوش خاطب ابراهيم

بقوله : « تركت هذه البلاد وأهلى بقلعة أم العز (هذه القلعة تطل على شرق جبل نفوسة) في وديعتك وأنا متوجه ، فان فتح الله تعالى على واستغثيت عنها أعطيتك الجميع » (٣٧) .

ثم مضى قراقوش غربا نحو بلاد افريقية وأوغل فيها وأخذ يفتتح الحصون والقلاع مستغلا ثورات العرب على بني عبد المؤمن وتمردهم عليهم ، فبوّل قبائل بعضها على بعض كما حدث بين عثمان وغروخ صاحبى قلعتين بمدينة دمر فطلب غروخ مساعدة قراقوش ضد عثمان الذى استنفذ بدوره البربر بقوله : « ان هؤلاء الغز قافلة » لكثرة من انحاز الى جانب قراقوش وخوفا منه بسبب قوته ويطشه بأعدائه . وحدث أن دخل قراقوش قلعة عثمان وأعمل السيف فى رقاب أهلها من البربر كما بطش بأهل المناطق المحيطة بجبل نفوسة ومطماطة وملاقة بحجة أنهم قوم خوارج . وطلب عثمان الامان ، فأمنه قراقوش بشرط أن يظفر بالجبل وقسمه اقطاعات للاجناد . وأمن من بقى من أهل القلعة مقابل مبلغ معين من المال ، ثم رحل قراقوش الى قلعة أخرى تسمى « أم لامة » يبلغ عدد سكانها البربر ما يزيد على ٣٠ ألف راجل ، فقاتلهم فى سنة ٥٧٦ هـ — ١١٨٠م وغنم غنائم كثيرة .

وفى سنة ٥٧٧ هـ — ١١٨١م ارتحل قراقوش الى افريقية (٣٨) فنزل على الاريس (٣٩) واجتمع معه عدد من العرب من مرداس والرجالة (وهم من أكبر بطون رياح) ، وجال البلاد ثم عاد الى قفصة بعد أن كاتبه بعض

(٣٧) د . حسن حبشى ، المصمار ، ص ٥٣ .

(٣٨) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ،

ج ١٢ ، ص ٣٠ .

(٣٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٩٤ .

شيوخها ووعدوه على ليلة معينة لدخولها انتقاما من الموحدين الذين كانوا قد انتزعوها عنوة من يد أصحابها بنى الرند في سنة ٥٧٥ هـ . ولكن في تلك الليلة الموعودة لم يستطع قراقوش ومن معه من التسيوخ والاعراب اقتحام أسوار المدينة ، فقد شعر بهم الموحدون فنازلوهم وأوقعوا بهم الهزيمة .

وفي أواخر سنة ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م نزل قراقوش موضعا قريبا من القيروان يسمى سكة وبصحبه من العرب سليم الشريد في حوالي ألف فارس كما وصل اليه حميد بن جاريه زعيم دباب في ٢٠٠ فارس . وما أن تقابل القائدان العربيان حتى نشب بينهما القتال لخصومة قديمة بينهما . وانحار قراقوش في هذا القتال الى حميد ، بينما انسحبت مشايخ الشريد وتركوه وحيدا يلاقى مصيره أمام قوات الموحدين الذين ظهروا آنذاك بقيادة أبى موسى بن عبد المؤمن في نحو عسره آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . غصالح قراقوش قوات الشريد وساعت هذه القوات الى الاجتماع معه وهجموا على الموحدين هجمة واحدة انكسر فيها الجيش الموحدى .

وفي هذه المعركة تنم قراقوش وأسر عددا كبيرا من قواد الموحدين منهم ابن مثنى صاحب ديوان افريقية والقاضى ابن ماسكة قاضى افريقية وجماعة كبيرة غيرهما حاولوا فداء أنفسهم بمبالغ من الاموال^(٤٠) . وقسم قراقوش الغنائم على جنده الاتراك والاكراذ . وفي أثناء تقسيم الغنائم وصلته الانباء بنكت ابراهيم بأهله في قلعة أم العز ، فقرر العودة . وفي طريقه الى طرابلس تلقى طاعة كل من دباب وزغب . أما ابراهيم فلم يسعه بعد سلسلة من المحاولات للوقوف ضد قراقوش الا أن يطلب العفو ، فشرط

(٤) د. حبشى ، المضمار ، ص ٧٠ .

عليه قراقوش أن يتوجه الى طرابلس ومنها في مركب الى الديار المصرية (٤١) .

وفي طرابلس تمت الحيلة لمنع سفر ابراهيم الى مصر عندما حثه والى طرابلس (ابن مطروح عبد المجيد) ، الذي كان على ولائه للخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، على التوجه الى المغرب . وفعلا انتقل ابراهيم في مركب الى تونس حيث تلقاه واليها عبد الواحد وسيره الى مراكش .

ثم حاول قراقوش الاستيلاء على قابس ، فاشتبك مع أهلها البربر وأوقع بهم الهزيمة . وغنم منها الكثير من الاموال والاقوات وزعها على أصحابه وأجناده . ثم التقى قراقوش بعدها مع على بن اسحاق بن غانية وتحالف معه ضد الموحدين وقد تم هذا التحالف على أسس قوية قوامها الرابطة السياسية المنبثقة من الولاء للخلافة العباسية ، والاتفاق على تقسيم المغرب بين الغز المماليك والميورقيين (٤٢) . ويعبر رسول ابن غانية الى قراقوش عن ذلك بقوله : « اننا قوم من بنى العباس ونريد دولتهم ، ونحن نريد أن نكون واياك مجتمعين » (٤٣) .

وبعد هذا النجاح المستمر لحملة قراقوش ، استدعاه المنصور أخ سيد

(٤١) د. حبشى ، نفسه ، ص ٧١ .

(٤٢) قام اتفاق التقسيم المذكور على أساس أن يكون لقراقوش البلاد من بونة شرقا ولاس غانية من بونة غربا . د. حبشى ، المضمرة ، ص ٢٢٩ .

(٤٣) ومن أجل تحقيق ذلك الاجتماع أرسل اليهم قراقوش بهاء الدين ساروج ومعه سنون فارسا من أجناده الاتراك الذين وصلوا اليهم سريعا . وكان أعوان ابن غانية قد أخفقوا في الاستيلاء على توزر وما حولها ، الا أن استنبد ال الجند الاتراك أدى الى الاستيلاء عليها (د . حبشى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٩) .

الناس (مقدم ورئيس نفزاوة) ، وأطاعه بنو يتستري أعداء المنصور غولى عليهم مملوكا يدعى حراج وبذلك قوى مركز قراقوش * وزاد من قوته أيضا ما كان يصل اليه من امدادات متواصلة من مصر من ممالك وأكراد (٤٤) *

وكان على ابن اسحاق بن غانية قد سيطر على كل افريقية عدا تونس والمهدية بالاضافة الى القسم الشرقى من المغرب الاوسط حتى قسنطينة * وأصبح التحالف الثلاثى العربى الغزى الميورقى يشكل خطرا جاثما على دولة الموحدين ، فقرر المنصور التصدى لهذا الحلف والقضاء على بنى غانية قضاء مبرما فخرج على رأس حملة كبرى فى عام ٥٨٢هـ — ١١٨٦م الى افريقية واشتبك مع ابن غانية وحلفائه فى حامة دقيوس فانهمز ابن غانية وغر الى صحراء افريقية وتمكن المنصور بذلك من توجيه ضربة قاصمة الى رباط التحالف بينه وبين قراقوش (٤٥) *

ونستدل من نص رسالة يعقوب المنصور الى طلبه مراکش عام ٥٨٣هـ — ١١٨٧م (٤٦) أن الحملة الموحدية قد بلغت القيروان وقفصة وقابس

(٤٤) وصل الى قراقوش من مصر جماعة من أتباعه يرأسهم شجاع الدين بن شكل وبالتالي زاد عدد جنده الى ٨٠٠ فارس من الانراك والاكراد ، وقد بذل لابن شكل ومماليكه الخبر الكثير حتى أنه وعده بقوله : « اذا فتح الله البلاد وملكتها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » بعد أن خلع عليه وأعطاه ٥٠ هجلا ، ١٠ من الخيل ، ٨ آلاف دينار . أنظر : د . حبشى نفس المرجع ، ص ١٦٧—١٦٨ . ابن عبد الحق ، مرصد الاطلاع ، تحقيق البجاوى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، ج ٣ ، ص ١٣٨٢ .

(٤٥) د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧١٨—٧١٩ . أنظر الملحق ، رقم ٥

(٤٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدة ، رقم ٣٠ ص ١٨٠—١٩٠

لمنع « الاثقياء الغربيين * * واخوانهم في الضلالة الميورقيين * * وصعاليك سليم وذؤبانهم وكل من وافقهم على الضلالة من الاعراب » من أن « يستقلوا » بالجهات الافريقية * أما « بنو النقي قراقوش وأهله » في قابس وقدسبتهم الحصينة بها ، فقد « حصل * * وبنوه وماله غنما لاولياء الله تعالى ونفلا وملكها لطائفة الحق وخولا » * وهذه الاوصاف في حد ذاتها توجز في وضوح بيان أسباب الحملة الموحدية ونتائجها على افريقية والوجود الايوبى فيها في شخص رجال حملة قراقوش *

وبعد عام ٥٨٢ هـ — ١١٨٦ م تكاد أخبار قراقوش التى نشرها المصمار تتوقف على الرغم من الحقيقة باستمرار احتفاظه بالمناطق الممتدة من جبك نفوسة ومطماطة وبلاد نفزاوة بما تبقى له من أعراب وما كان ينضاف اليه من أتراك وأكراد يفدون من مصر (٤٧) *

واذا تتبعنا بقية أخبار على ابن اسحاق بن غانية ، بعد قفول المنصور عائدا الى المغرب وجدنا أنه نزل في بلاد الجريد ، وهناك سقط صريعا في بعض حروبه مع نفزاوة في سنة ٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م ، وخلفه أخوه يحيى بن اسحاق (٤٨) * ولم يتردد يحيى في مضايقة الموحدين كما كان يفعل أخوه على من قبل ، ونجح في الاستيلاء على بسكرة عنوة وكثر عيئه في البلاد وفي هذه الاثناء أعاد قراقوش الحلف القديم بينه وبين بنى غانية الى حيز التنفيذ ، وترتب على ذلك أن خرجت منطقة الجريد وطرابلس من قبضة الموحدين للمرة الثانية * وعزم المنصور على القضاء على هذا الحلف الثلاثي

(٤٧) الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ١٥

(٤٨) د . سالم ، المغرب الكبير ص ٨٠٥ (طبعة ١٩٦٦) *

من جديد لكنه عدل عن ذلك ريثما ينتهى من حربه من قشتالة فى الاندلس .
واستغل يحيى بن غانية انشغال الموحدين بحروبهم فى الاندلس فى الفترة
من ٥٩١ هـ (١١٩٥م) الى وفاة المنصور فى ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) وتمكنوا
من السيطرة على افريقية (٤٩) .

ولم يتم القضاء على الحلف الغزى الميورقى الا فى عهد محمد الناصر
عندما ركر جهوده للقضاء على بنى غانية وأمكنه التغلب على قوات يحيى فى
عده مواقع . ومع ذلك ظل بنو غانية سوكة فى جنب دولة الموحدين حتى
استقل بنو حفص بتونس (٥٠) .

وفى هذه المرحلة ذاتها ، كانت سفارة صلاح الدين الايوبى الى
المنصور الموحدى التى استهدف منها الاستعانة بأسطول الموحدين ضد
الصليبيين . وكانت أحداث حملة قراقوش من النقط السوداء التى عرقلت
جهود ابن منقذ رسول صلاح الدين وقد عبر المنصور عن استيائه من
تصرفات قراقوش فى رسالة وجهها الى طلبة مراکش . وتكرر ذلك فى رسالة
أخرى تدمتكم هذا التفسير وترد على كل تساؤل حول تلك النقطة ، وفيها
يبلغ الموحدين بافتتاحه قفصه ، وما تم من قمع المعتدين الماردين ودمار
أعداء الدين واراحه تلك الاصقاع من هؤلاء الاوباش . ثم تشرح الرسالة
كيف توغل الجينس الموحدى فى طرق لا عهد لرجاله بها الى حد وصفها
« بأن سلوكها لمن العجائب العجائب » ، وكيف استسلمت بلاد تلك المناطق
بمجرد وصول عساكر الموحدين مثلما وقع فى واحة توزر تخلى سكانها

(٤٩) د . سالم ، نفسه ، نفس الصفحة .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦٩—١٧٠ . ابن أبى زرع ،

القرطاس ص ٢١٨—٢١٩ .

عن أموالهم وأثاثهم حتى نقل الموحدين أسلابهم وأصبح أهلها وبنوها
ونسبائها رقيقا * ونظهر الرسالة بوجه عام مدى الاستعدادات الجهادية
التي أعدها الموحدون في إطار حملاتهم على افريقية وطرابلس للقضاء على
حملة قراقوش ومن تبعه من العرب ، وكيف وصل رسل قراقوش خاضعين
يطلبون اليه التوبة راغبين في التوحيد ويعلنون أنهم سوف يصلون الى
الموحدين طائعين سامعين اذا ما قبلت نوبتهم^(٥١) *

(٣)

سفارة صلاح الدين الايوبي الى يعقوب المنصور الموحدى

كان من أمر أحداث حملة قراقوش وما خلفته في نفوس الموحدين
نحو صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبية الفتية في مصر ، ومن خلال
أحداث هذه الحملة * وقف الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على قوة الدولة
المشرقية الجديدة النانسة وسرعة اتساعها باسم الخلافة العباسية المنافسة *
ومن ثم ، فان العلاقات السياسية بين الدولة المغربية العتيقة والدولة
المشرقية النانسة لم يكن لها أن تصفو لصالح العالم الاسلامى الا بعد
أن تبلغ الدولتان الحد الاقصى من جهودها الحربية كالجهد ضد الحركة
الصليبية * ولنا بصدد عرض الجهود العسكرية التي بذلها كل من
الموحدين والايوبيين في هذا المجال وتتنويع ذلك بالنسبة للموحدين بانتصار
الارك (٥٩١ هـ — ١١٩٥ م) وبالنسبة للايوبيين بانتصار حطين (٥٨٣ هـ —
١١٨٧ م) ، أو على حد قول د * سعد زغلول عبد المجيد : فبينما يقوم صلاح
الدين بالحرب في انتقام باسم الخلافة العباسية أى الخلافة السنية ، التي

(٥١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدة ، رقم ٣١ ، ص ١٩٨ ، ورقم ٣٢

لها السلطان الشرعى — اسميا على الاقل — على جميع المسلمين ، نجد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب فى الاندلس باسم خلافته الخاصة أى خلافة الموحدين « (٥٢) . والاهم فى موضوعنا أن صلاح الدين بعث أثناء تأهبه لخوض معركته هذه بالسفارات الى حكام المسلمين يطلب تأييدهم ، وكان من بين سفاراته سفارة وجهها الى يعقوب المنصور الموحدى .

وجاء فى خطبة صلاح الدين فى جنوده قبيل معركة حطين : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله . وقد بقى فى هذا التجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءنا نجده ننتظرها سوى الملك العادل (أخ صلاح الدين) وهو واصل ، وهذا العدو ، ان بقى وطال أمره الى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك » (٥٣) .

ونستخلص من هذا النص أن صلاح الدين كان قد أرسل رسله الى الملوك وتلقى من الردود العملية ردا واحدا فحسب هو رد الملك العادل وان كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك . ومهما يكن الامر بالنسبة لمعنى هذا النص ،

(٥٢) د . سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، الاسكندرية ١٩٥٣ ص ٨٦
(٥٣) المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٩٣ ابن الانير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ . أحمد أحمد بدوى ، صلاح الدين الايوبى بين شعراء عصره وكتابه ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٨—١٩

فمن المؤكد فيه أن ديوان الانشاء بمصر قد حرر رسالة حملها عبد الرحمن بن منقذ رسول صلاح الدين الى بلاد المغرب^(٥٤) . فهل لنا من وقفة أمام أخبار هذه السفارة ؟ *

خرج ابن منقذ من الاسكندرية متجها الى المغرب فوصل الى افريقية في عام ٥٨٦هـ — ١١٩٠م^(٥٥) ، ثم واصل ابن منقذ مسيرته حتى وصل الى بجاية . وفي رجب من نفس السنة وصلت كتب أبي زيد والى افريقية وأبى الحسن والى بجاية الى المنصور الموحدى تتضمن ما يشير الى وصول ابن منقذ الى ديارهم ومبالغته في الحرص على كتمان خبر وصوله اليهم والهدف من هذه الزيارة . وأفادت هذه الكتب أيضا بمدى الترحاب الذى قبول به هذا الرسول من . « . الميرة وتوطئة المهاد » . ومن هذه الافادات أيضا أن عمال هذه الاقاليم قد نفذوا كل ما أوصى به الخليفة يعقوب المنصور من حسن استقباله واحسان وفادته وتكريمه لحين وصول الخليفة . *

ولا يمكننا أن نفسر هذا الاهتمام باستقبال سفير صلاح الدين ورسوله الى يعقوب المنصور بأكثر من حرص هذا الخليفة على الفصل فى قضايا الحكم وموضوعاته بنفسه ، وعلى حد قول ابن عذارى : « كان حاضر الجواب مشرفا على أجزاء مملكته من القرب والبعد . لا يغيب عنه شيء من أحوال رعيته »^(٥٦) . كان المنصور يفضل الجلوس للاحكام بنفسه ، لذلك طلب من عماله استضافة السفير بفاس الى حين عودته من افريقية

(٥٤) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ . راجع أيضا : ابن واصل ، مخرج الكروب ، نشر د . النبال ج ٢ ص ٣٦١—٣٦٢
(٥٥) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٣
(٥٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤٠

بعد أن يضع حدا لعبث ابن غانية وحلفائه المماليك الغز ، ثم عاد الى تلمسان في شوال سنة ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م حيث استقر بها الى آخر السنة . وفي أول المحرم من سنة ٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م خرج المنصور من تلمسان وهو مريض وكان يركب في محفقه أو كما يسمونها أكرواوا ، فدخل فاسا وهو مريض . وقد أقعده هذا المرض بفاس مدة سبعة أشهر ، لم يرد في المصادر^(٥٧) عن أخبارها أى اشارة عن مقابلة المنصور لابن منقذ .

ويرد خبر هذه المقابلة بعد فترة النقاهة حيث استدعى المنصور ابن منقذ على انفراد ، فقدم له السفير هدايا صلاح الدين وتكون من مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيطة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نتيابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة^(٥٨) . وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدى الغرض من سفارته وعرض له طلب صلاح الدين الاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين الكفار في المغرب وعدم تمكينهم بارسال المدد الى اخوانهم في الشام ، مما يمكن مسلمى الشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا ، مع بيان أهمية عكا بالنسبة للمسلمين^(٥٩) .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين كان مطلعا على تفوق الموحيدين

(٥٧) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨٣ ، ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ٢١٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٦
(٥٨) أبو شامة ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٣ . د . سعد زغلول ، العلاقة بين صلاح الدين ص ٩١
(٥٩) أبو شامة ، نفس المصدر ص ١٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٤٦ . القلقشندي ، صبح الاعشى ح ٦ ص ٥٣٠

العربي في حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد وقفَ على قوة أساطيلَ
الموحدين ودورها في انتصارات دولة الموحدين في الاندلس على قوى
النصرانية مجتمعة * والمعروف أن عبد المؤمن بن علي اهتم باعداد قوة
بحرية موحدية ضاربة ولهذا أمر في عام ٥٥٧ هـ - ١١٦١م بإنشاء الاساطيل
في جميع سواحل المغرب فأنشأ أربعمئة قطعة : « منها في حلق المعمورة (٦٠)
ومرساها مائة وعشرون قطعة ، ومنها في طنجة وسبتة وباديس (٦١) ومراسي
الريف مائة قطعة ، ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هتين مائة قطعة ،
ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة * * ونظر في استجلاب الخيل للجهاد
والاكثار من أنوا السلاح والعدد ، وأمر بضرب السهام في جميع عمله ،
فكان ينرب كل يوم منها عشرة قناطير ، فجمع من ذلك مالا يحصى » (٦٢) *

ومن مظاهر عناية خلفاء الموحدين بإنشاء هذا الاسطول وحرصهم
على دعم قوتهم البحرية أكثروا من انشاء دور لصناعة القطائع فمن
أهمها : دار صناعة قصر مصمودة (القصر الصغير بين سبتة وطنجة)
للسفن المخصصة لنقل المحاربين والمعدات ، ودار صناعة الحبالات (شرقي
فاس عند ملتقى وادي فاس بوادي سبو) * كما انتشرت القلاع الساحلية
حول المراسي لتمكين الدفاع البحري عن القواعد وفي ذلك يقول ابن

(٦٠) تعرف اليوم باسم المهديّة ، تقع على مصب نهر سبو ، والغابسة
المجاورة لها مازالت تحمل اسم غابة المعمورة .

(٦١) مدينة على ساحل البحر المتوسط غربي مدينة الحسيمة ، خربت
ولم يبق منها الا الاطلال ، وتقع بازائها جزيرة صغرة تسمى جزيرة بادس احتلها
القائد الاسباني بيدرو نافارو سنة ١٥٠٨ ثم استردها المغاربة سنة ١٥٢٢م ،
وأحتلها الاسبان للمرة الثانية ولازالت تحت الاحتلال الاسباني .

(٦٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢١٣-٢١٥ . ابن أبي زرع

القرطاس ، ص ٢٠١

خلدون : « ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد ، وكان قائدهم أحمد الصقلى * . وكانت له آثار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين ، وأنتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل . ولا بعد فيما عهدناه » (٦٣) * . ولقد كان على أسطول الموحدين الدفاع عن سواحل المغرب والاندلس والتصدى لآى غزو قد تقوم به قوى النصرانية فى اسبانيا والبرتغال (٦٤) * .

وفى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور بلغت دولة الموحدين أوج قوتها السياسية الدفاعية برا وبحرا (٦٥) * . وليس أدل على عظم الاساطيل الموحدية وتفوقها على القوى البحرية الأخرى فى عصر يعقوب المنصور من نص الرسالة التى أرسلها ألفونسو التامن ملك قشتالة الى الخليفة يعقوب المنصور يطالبه بارسال أسطول من المراكب والشوانى والطرائد والمسطحات (٦٦) ، كى يجوز اليه بجيوشه ويقاّته فى بلده * . هذا فضلا عما رواه ابن سعيد المغربى (ق ٧ هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر

(٦٢) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٥١ ص ٢٥٥
(٦٤) يضيف د . العبادى الى مهام الاسطول مهمة قمع حركات القرصنة التى كانت منتشرة فى حوض البحر المتوسط بين المسلمين والمسيحيين على السواء (دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٤٧) .
(٦٥) يذكر السلاوى أن جميع انتصارات القوات البرية للموحدين دليل على مدى القوة البحرية التى كانت تواكب القوة البرية وتزودها بالمعدات والامدادات العسكرية أو نقل الجنود أو حماية الثغور والمضايق ونقل الرقاصين (عمال البريد) بسرعة (الاستقصا ج ٢ ص ١٨٤ . ابن زيدان ، العز والصلوة ، نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١ ج ١ ص ٤٠٧)
(٦٦) الشوانى أو الشنى السفينة الحربية الضخمة التى كانت تتكون من عدة طبقات كالقلعة . الطرائد أو الطريدة ، سفينة صغيرة السير والجري والمسطحات هى المراكب الكبيرة الحجم ، كانوا يجرونها فى البحار خلف المراكب

للعمل في الاسطول المصرى استنادا الى الفكرة التى كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفةهم بمعاناة الحرب والبحر (٦٧) .

ومع ذلك ، وبالرغم من مظاهر الحفاوة والتكريم التى تلقاها ابن منقذ أثناء مقامه بفاس وما صاحبه في طريق عودته من ضروب الاعزاز والتعظيم فقد «قوبلت هداياه من العوض في نفاسة الاشخاص والاثمان» (٦٨) وتعددت تفسيرات المؤرخين للموقف السلبي الذى وقفه المنصور من طلب صلاح الدين . وفي اطار هذه التفسيرات العديدة أقتصر هنا على ما يمس الواقع التاريخي من ذلك ما يتعلق باعتذار صلاح الدين الايوبي على لسان رسوله ابن منقذ عن أعمال القرصنة التى قام بها المملوك قراقوش وقد صفه بأنه : « من نفايات الرجال وليس من وجوه الممالك والامراء » . وأنهما ليسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد أفتقد » ؛ فهو يستعيز بالله من أن يأمر مفسدا يفسد في الارض (٦٩)

وهناك المشكلة التى أثارها لقب أمير المسلمين الوارد في رسالة صلاح الدين في الوقت الذى خاطب فيه ابن منقذ المنصور بلقب أمير المؤمنين مع أنه يمتل صلاح الدين (٧٠) . هذا بالاضافه الى ماورد من أقوال حوك احتجاز

الآخري من الاسطول ختية أن تغرق ، ولها سطحا كبيرا ، وهى من اكبر سفن الاسطول د . سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٢—٣٥٣ ، ٣٦٨

(٦٧) المفري ، النفتح ح ٣ ص ١١١—١١٢ . العبادى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥

(٦٨) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ راجع أيضا :
 — George Marçais; La Berbérie Musulmane, Paris, 1946, p 269.

(٦٩) ابن خلكان ، وفیات ج ٥٤ ص ٣٨١ ، سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٩٦

(٧٠) يذكر ابن عبود : « أن المنصور أخذته العزة لانه لم يخاطب باللقاب العظيمة والخلافة حيث كانت عنده أعر من ضباع المسلمين وزوال ملكهم » تاريخ المغرب ص ١٤٤

المنصور لابن منقذ في غاس الى حين عودته من حملته على افريقية وأنتهاء مهمته في تلمسان *

وقد فسر البعض (٧١) هدايا يعقوب المنصور للسفير الايوبى بأنها كانت لشخصه فقط دون السلطان وأنها قدمت لابن منقذ شخصا في مقابل هداياه * ومن ثم ، فان الرعاية التى كفل بها الخليفة الموحدى هذا الرسول في رحلة عودته يمكن أن تفسر في نفس الاطار *

واعتقد أن تفسير الموقف السلبي الذى اتخذته المنصور من رسالة صلاح الدين لا ينبغى أن يتجاوز الحدود الطبيعية للحوادث المعاصرة لهذه السفارة ، فلا يجب أن نذهب بعيدا في تحليل هذا الموقف فنؤول مسلكه تناويلا بجانب الواقع * لقد جاءت سفارة صلاح الدين في ظروف صعبة شغل الخليفة الموحدى أثناءها بمشاكل مصيرية كان عليه أن يواجهها : « فالاخطار كانت تهدد أملاكه الاندلسية والافريقية لم تكن أقل من الخطر الصليبي على عكا * وما عدا ذلك ، فان التفسير يجب أن يأخذ في الاعتبار ما دار من معارك في افريقية والمغرب الادنى كان محورها تذبذب ولاء القبائل العربية بين الموحيدين والايوبيين ، وما يترتب عليه من نتائج

(٧١) خاطب ابن منقذ الخليفة الموحدى (يعقوب المنصور) بأمير المؤمنين حسبا كان رأيه في البداية قبل ارسال السفارة ، ومدحه بقصيدة يقول فيها :
شأشكو بحرا ذا عباب قطعتنه الى بحر وجود ما لآخراه ساحل
اليك أمير المؤمنين ولم نزل الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر مؤمنا بأن نذاك الغمر بالنجح كافل
وحرت بقصديك العلى فبلغتها وأدنى عطايك العلى والنواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا نبلفك الآمال ما أنت آمل .
فأعطاه لكل بيت ألف دينار وقال له : « انما أعطيناك لفضلك ولبيئك »
ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ . السلوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٨١

أبرزها موقع القسم الشرقي من بلاد المغرب من الخلافتين الموحدية والعباسية ، ثم موقف دولتين متنافرتين سياسيا ومذهبيا : الدولة الايوبية الناشئة التي تدين حسبما وضح من رسالة صلاح الدين بالتبعية لخلافة مشرقية متهاكمة والدولة الموحدية العتيدة التي لا تقر الا خلافتها الخاصة، ويدين سلطانها بالمذهب الشافعي (٧٢) الذي تلقاه الموحدون عن طريق رحلة ابن تومرت ويدين الايوبيون الذين يحكمون الشرق الادنى بنفس المذهب .

ومهما كان الامر فان الموحدين لم يتنقاسوا قط عن الجهاد ضد القوى الصليبية في الشرق الاسلامي ، ولكن بأسلوبهم الحربى الخاص الذى يواغق سيطرتهم البحرية على الملاحة في غرب البحر المتوسط (٧٣) ، وفي الوقت الذى يتناسب مع ظروف دولتهم . ومثل هذا الترقب انما يتفق ومنطق التفكير الحربى عند المغاربة بوجه عام .

(٧٢) يذكر هنرى لاوست في كتابه عن فرق الاسلام أن المنصور الموحدى بعد « أن كان مالكا انتقل الى الظاهرية ، ثم اعتنق المذهب الشافعى واختار كثيرا من القضاة من بين المنتمين لهذا المذهب »

Henary Laoust; Les Shismes Dans L'islam, Op. Cit., p 235

ويقول الجرارى : « أن ابن حزم كان شافعىا فى بدابة حياته وربما تأثر به المنصور - فكان معجبا به ويعنبره علما بارزا من اعلام الاسلام » . الموحدون ص ١١٠-١١١

(٧٣) يذكر المراكشى : أن المنصور أرسل أسطوله فى البحر « ليمنع الصليبيين من الوصول بكثرة الى بلاد الشام ، ولم يرد أن يشبك معهم فى المعركة لغرض حربى » (المعجب ص ٢٥١) وهذا الغرض الحربى كان ذا شقين : الاول انشغال المنصور بمحاربة ابن غانة صاحب جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة الذى اعانه صلاح الدن بطريق غير مباشر وعن طريق حملة قراقوش أنظر : لفى بروفنسال ، رسائل موحدة ، رقم ٣١ ص ١٩١-١٩٩ . والثانى مواجهه حركة الركونكستا

— G. Marçais; Les Arabes en Berberie du XI' au XIV' Siècles, Paris, 1913, p. 198—199.

وليس أدل على المهوم التي كان يواجهها المنصور عند قدوم سفير صلاح الدين الى المغرب من اعداده لمعركة الارك التي خاضها المنصور الموحدى: فى أعقاب سقوط مدينة شلب فى أيدي البرتغاليين سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٦ م وأنتصر فيها انتصارا يماثل انتصار المرابطين فى الزلاقة على النحو الذى سنوضحه بعد قليل + وحدث أيضا أن المنصور اعتل علة أقعدته فى مراكتس ، وأطمعت فيه ملوك النصرانية خاصة ملك قشتالة الذى أنتهز فرصة انقضاء مدة الهدنة (٥ سنوات) (٧٤) فعاث فى بلاد الاندلس عيئا شديدا + بل حدث أن بعث ملك قشتالة رسولا الى الخليفة يعقوب يتوعده ويطلب منه التخلّى عن بعض الحصون المتاخمة لبلاده (٧٥)

وواضح أن أسلوب ألفونسو الثامن فى هذه الرسالة لا يختلف عن أسلوب ألفونسو السادس فى رسالته التى وجهها الى يوسف بن تاشفين ويتحداه فيها أن ينقل المعركة الى أرض المغرب (٧٦) +

ويورد د + سالم تفاصيل دقيقة لمعركة الارك التى أصابت قلب الجيش الصليبي وبالتالي منعت التحرك الصليبي الى المشرق حيث يقول : «... وكان ألفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيئس ملك ليون وجيئس ملك نبرة + وحملوا على القشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسين ترمى العدو بالسهام ، فانهزم القشتاليون

(٧٤) قدم يوسف بن الفخار اليهودى رسولا من الملك القشتالى من أجل تثبيت الهدنة (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ١٨٧ ، ١٩٢ . المقرئ ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤) +

(٧٥) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٠—٢٢١

(٧٦) كتاب الوثائق ، وثيقه رقم ٦٠ ص ١٧٨ وأنظر أيضا جواب يوسف بن تاشفين ، على تلك الرسالة فى كتاب الوثائق ، وثيقه رقم ٦١ ص ١٧٩

وولوا الادبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحدين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنثالوفيجاس ومن معه من مطوعة البرتغاليين ، ونهب المسلمون معسكر النصرى ، وأفلت الفونسو الثامن بنفسه الى طليطلة ، وتحصن قل جيشه بحصن الارك» (٧٧)

وترجع هزيمة القشتاليين الى أن المنصور قد نجح في اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن في عداء مستحكم مع ملك ليون وملك نبرة . ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو هذا العداء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضي المسلمين دون أن تقابل مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش الموحدين ، ولم يفكر في مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن قيادة المنصور وشجاعته (٧٨) .

شبه المؤرخون معركة الارك بمعركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ان لم تكن أعظم منها . وبدأت علاقات الموحدين الحربية بالاندلس في حينها أشبه بعلامة الام الرؤوم بطفلها اليتيم وهذا ما أفصح عنه المنصور صراحة في وصيته للموحدين عندما شعر بدنو أجله حيث قال : « أيها الناس أوصيكم بنقوى الله وأوصيكم بالايتم واليتيمة ، فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن النسيخ أبي حفص محمد بن يحيى الهنتاتي : يا سيدنا ومولانا وما الايتم واليتيمة ؟ فقال : الايتم أهل جزيرة الاندلس وهي اليتيمة فأيكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الاسوار وحماية الثغور

(٧٧) د . سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦ م) ص ٧٠٧ — ٧١٠

(٧٨) د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧١١

وتربية أجنادها وتوفير رعايتها ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها ولو مد الله لنا في الخلافة الحياة لم نتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار اسلام ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا للمسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها » (٧٩)

وهذا النص وحده كفيل بتفسير اعتذار المنصور الموحدى عن عدم تلبية طلب صلاح الدين * فالحرب المغربية هنا على مشارف العالى الاوربي (الصليبي) ان لم تكن في قلبه ، وهدفها الرئيسى دفع الخطر الجاثم على دولة الاسلام وأسفرداد ما أفتتطح من أرض الاجداد فى الاندلس وحماية ما تبقى بأيدي المسلمين من هذه الاراضى * أما الاختيار فى الجهاد الاسلامى بين ميدان وآخر ، فان السبيل اليه يدخل فى مقتضيات ظروف الدولة الاسلامية وأهدافها * وقد سبقنا الإشارة الى هذه المقتضيات والاهداف اننى أفترضها سبيل الاختيار أمام المنصور الموحدى فى موقفه من سفارة صلاح الدين الايوبى * ومع ذلك ، لم يخل الامر فى التفكير، الموحدى آنذاك من اصرار على التعلق بالشرق حيث شاع عند وفاة المنصور فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م (٨٠) من أنه « ساح فى الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ، ودفن هناك بالبقاع » (٨١) *

(٧٩) مجهول ، الحل ، تحقيق علوشى ، ص ١٣٣ ، ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٠٨ . المقرئ ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤ . ابن عبود ، تاريخ المغرب ص ١٤١ . وعن اطلاق المنصور أسارى معاركه ، وهى من أعظم أخطائه أنظر :

— Marçel Peyrouton; Histoire du Maghreb, p. 99.

(٨٠) توفى بمراكش من ربيع الاول سنة ٥٩٥ هـ ودفن بتينمل بجوار أبيه وجده . راجع فى ذلك ابن خلكان ، وفيات ج ٧ ص ١٨—١٩ . المراكشى ، المعجب ص ٢٢٤ . مجهول ، الحل ، ص ١٣٤

(٨١) يذكر الشريف الغرناطى فى شرح مقصوره حازم : « أن ذلك من هذيان السامة لولوعهم بالسلطان » أنظر ، المقرئ ، المصدر السابق ج ٦ ص

وعندما يقف القارئ على مظاهر الفخامة والابهة في دولة يعقوب المنصور ، يسهل عليه تصور ما كان يختلج في فكر الموحدين من شعور بالسيادة يتضاءل في اطاره كل دور سياسى وحربى تقوم عليه دولة مشرقية ناشئة مثل الدولة الايوبية * وأن النص التالى المأخوذ عن ابن صاحب الصلاة يدلنا على جانب هام من هذه المظاهر ترتبط بالصورة التى حرص الموحدون على أظهارها في فتوحاتهم * فها هو الخليفة يعقوب المنصور عندما تأهب لدخول المهديه يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ٥٦٦ هـ قد : « .. نزل في موضع فصيح (يقصد فسيح) من الارض مع الوزراء والاشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء ، وأمر باحضار أربع رايات صغار ، في أربعة رماح صغار ، وفي أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلالا ضياء وشعاعا ، والرايات ملونات بالخلدى ^(٨٢) الاحمر والاصفر والابيض ^(٨٣) وجعل تلك الرايات الاربع في أركان تابوت المصحف المكرم

١١٦ . ويمكن تفسير هذا التعلق بأنه تصوف ونسك فكان يلبس الصوف ناهجا مساج الصحابة والتابعين متبعا في ذلك قول الله : « رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١١

(٨٢) أسم معروف في بعض الكتب الاندلسية ومعناه النسيج الحريرى الدقيق ، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الآتية كلها نعنا للخلدى ، أى أن الراية الموحدية تتألف من نسيج احمر واصفر وابيض . المن بالامامة ، ص ٤٤٥ (٨٣) هذا وصف دقيق للرايات حيث أن العلم الابيض الخالص كان علم المهدي وعبد المؤمن أو بالحرى هو علم الامبراطورية الموحدية ، كما أن اللون الاحمر كان محببا عند أشراف العرب ، هذا الى أن اللون الاصفر يرمز عند الذين يهنمون بخصائص الالوان الى الارض ونرونها .. فهل يشير هذا العلم الموحدى الاضافى الى وحدة البربر — ولون رايتهم بيضاء — مع العرب ولوبهم هو الحمرة ، كما يشير اللون الثالث الى تروة الارض ؟ المهم أن معظم هذه الالوان ظل معروفا الى الان في جل بلاد المغرب .

مصحف عثمان رضى الله عنه ، نم استوى على صهوة فرسه ، ومشى على
الهيئة المتقدمة ، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملأوا بسيط
الارض ، واتسعوا فيها بالطول والعرض ، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم
الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين المذكورين (المصحف الثانى
هو مصحف المهدي) مع الساقة ، على خلاف العادة فى المشى ^(٨٤) تنويها
وتعظيما للتبرير والترتيب وهو رضى الله عنه متقدم والاشياخ من الموحدين
والوزير والكتاب والطلبة وراءه ، حتى وصل باب مدينة المهدي فرد وجهه
الى الناس وأستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالمهم ، وأمرهم بالنزول فى
تلك الارض العريضة ودخل داره ^(٨٥) بالمهدية المذكورة . وكان هذا
التبريز للنظارة من احدى العجائب وأفخم الظهور والدنور للعساكر
والكتائب « ١٦٧ » .

(٨٤) جرت العادة بأن تدق الطبول وراءه فى الوقت الذى يتقدم فيه
الراية البيضاء وحدها الموكب .

(٨٥) هذه الدار لا تزال آثارها — فبما نعتقد — داخل القصبة ولها صلة
بالمنزل اذى يوجد فى اقصى طريق الجامع فى الزاوية التى تؤدى الى الساحة
المشرفة على المحيط ، ويحمل المنزل اسم دار البركة ، وهى مستوحاه من لفظ
البركة التى استعملها الموحدون . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٤٤٤
(٨٦) انظر ، ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٤٥

الفصل الثالث

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامى

- ١ - نشأة الخلافة الحفصية *
- ٢ - تطور العلاقات الخارجية للحفصية مع المشرق الاسلامى *
- ٣ - تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبين الحفصيين *
- ٤ - دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية *

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامي

بموت يعقوب المنصور الموحدي سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ينتهي عهد الازدهار في خلافة الموحدين ، وتبدأ مرحلة جديدة من عهود خلفائه ^(١) هي مرحلة الانهيار في تاريخ هذه الدولة الى أن تجددت ممثلة في الدولة الحفصية التونسية نذ عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م .

والواقع ان افريقية (تونس) كانت تتميز خلال القرنين ٧ ، ٨ من تاريخها الاسلامي على المغرب الاقصى بموقعها الادنى الى المشرق الاسلامي وقرب اتصالها باحداث الحركة الصليبية في المشرق الاسلامي وأرتباطها الوثيق بالخلافة العباسية . كما تميزت بموقعها الاقرب أيضا من حركة التجارة البحرية في البحر المتوسط وقنواتها البرية المشرقية الموصلة اليها . غير أن افريقية من ناحية أخرى كانت تفتقر الى الامكانيات الذاتية البشرية والاقتصادية التي سبق للخلافة الموحدية أن أقامت عليها صرح دولتها المغربية ونهضت بها من مرحلة السقوط المربط الى مرحلة الازدهار الموحدي . ومن ثم فان العنصر البشري الخارجى وأن كان قد شكل رحيدا هاما في التنظيم العسكري الموحدي أيام خلافتها المراكشية ، فإن هذا العنصر — عربيا وتركيا وأوربيا — سيشكل جوهر هذا التنظيم وبيصبح له دور فعال ومؤثر على مسيرة أحداث الدولة آنذاك ويطلع سياستها الخارجية بطابعه ، ومع الافتقار أيضا الى الامكانيات الاقتصادية الذاتية ، فان الحركة التجارية البحرية ستطبع العلاقات التونسية الخارجية ببصمات واضحة أثرت الى حد كبير على دورها بين المشرق والمغرب الاسلاميين .

(١) انظر شجرة الدولة ، ملحق رقم (٦) .

نشأة الخلافة الحفصية

أ - أولوية الدولة الحفصية بالخلافة :

يقول ابن الشماخ عن تونس الحفصية « هي اليوم قاعدة البلاد الأفريقية وأم بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجر أهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرهما * فكثرت خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها وأحدثوا بها المباني والكروم » (٢) .

ترجع بداية نشأة الخلافة الحفصية في افريقية الى تاريخ تنصيب ابي محمد عبد الواحد بن أبي حفص واليا عليها سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م . ففى هذا العام ، عاد ابن غانية يواصل من جديد عبثه بافريقية وطرابلس وكان قد جرى بينه وبين الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) اتصالات وصلته بموجبها خلع عباسية سوداء ، ومما يذكر في ذلك أن الخليفة العباسى أرسل الى ابن غانية الشاعر الفقيه أبى الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندراني رسولا من قبله يحمل اليه التقليد والخلع واللواء . وقد وصل هذا الرسول العباسى بالفعل الى افريقية وأدى رسالته ثم عاد الى بغداد وهو يحمل مبلغا من المال قدره عشرة آلاف دينار وزعها على معارفه في بغداد (٣) . ولما بلغ الخليفة الموحدى الناصر بن المنصور معاودة ابن غانية العبث وبث الاضطراب جهز حملة الى افريقية في العام المذكور للنظر في أمورها ورافقه في حملته أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص . وبعد ان استقصى الناصر الاوضاع والامور في افريقية وسمع من أهل تونس شكاياتهم المريرة وما كانوا يقاسونه من عبث الثوار في

(٢) ابن أبى دينار ، المؤنس ، تحقيق شمام ، ص ٧

(٣) د . بدرى محمد مهدي ، تاريخ العراق في العصر العباسى الاخير ،

بغداد ، ١٩٧٣ ص ١٤

طرابلس وما كان يرتكبه ابن غانية من تعذيب أهلها ، وأمتهان البيوت ، وسلب الاموال ، رأى الناصر ضرورة اسناد هذه الولاية الى رجل قوى خبير بشئونها يقوم في افريقية مقام الخليفة وتفوض اليه السلطات اللازمة لوضع الامور في نصابها ووضع حد للفتن والاضطرابات وبذلك يضمن الناصر استمرار ربط افريقية بدار خلافته مراكش * ووقع اختيار الخليفة الموحدي على أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص لما كان يتميز به من حكمة وعزيمة ومضاء في كل الامور فخاطبه بقوله : « هذه البلاد (افريقية) من أول هذا الامر العزيز ، ونحن مع هؤلاء الثوار في أمر عظيم ، وتحت ليل بهيم ، وقد وصل اليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب وسيدنا المنصور ، وما منهم الا أنفق عليها أموالا ، وأغنى في الحركة اليها رجالا ، والمسقة شديدة ، والشقة بعيدة ، وما عاد واحد منهم الى حضرته الا وعاد لها الويل * وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذب عنها ، كذلك يجب عليك ، وقد طلبنا من جميع أخوانك وأعيان هذا الجمع من ينوب عنا في هذه البلاد ، فلم نجد عنك معدلا ، فأنحصر الامر فينا وفيك ، فاما أن نطلع الى حضرة مراكش فتقوم هنالك مقامنا ، ونقيم نحن بهذه البلاد أو نطلع نحن الى حضرتنا » (٤) *

وينتسب بنو حفص الى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد السلاطين الحفصيين بتونس وكان يتمتع بمكانة كبيرة في الدولة المهدية منذ بدء قيامها في عهد المهدي بن تومرت ثم في عهد خلفائها الاوائل

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٢٥ . الحل السندسية ، الوزير السراج ، ج ١ ص ١٠٢٠-١٠٢١ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تحقيق ماضور ، ص ١٨ . محمد عبد الهادي العامري ، تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، تونس ، ١٩٧٤ ص ١

حتى الناصر بن يعقوب المنصور * فهو كبير قبيلة هنتاتة البربرية وأحد العشرة الاوائل السابقين الى الاستجابة لدعوة ابن تومرت * أبلى البلاء الحسن في تثبيت دعوتهم ، وفي حروبهم بالمغرب والاندلس ، وتوفي سنة ٥٧١ هـ / ١١٨١ م * وقد شغل هو وأبناؤه مكانة سامية عند خلفاء الموحدين وكانوا موضع ثقتهم لما قدمه هو وأبناؤه في سبيل نشر الدعوة الموحدية ولذلك حظى بنو حفص بمنزلة رفيعة من حيث القيادة العسكرية (٥) .

وقد تمنع الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص باديء ذي بدء عن قبول ولاية افريقية ولكنه أعلن قبولها فيما بعد على أسس وشروط قبلها الخليفة الناصر منها :

١ — أن يخيم في افريقية فترة حددها بثلاث سنوات ، وبعودة النظام والهدوء الى البلاد ، وعلى الخليفة الناصر أن ينصب مكانه من يخلفه ويرجع هو الى وطنه مراکش .

٢ — اطلاق حرية التصرف له في الجيش والوظائف الادارية ، فمن شاء أبقاه ومن شاء أعفاه .

وقد قبل الناصر كل شروطه وتأهب للعودة الى مراکش ، حيث ودعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد حتى بجاية * وقبل أن يغادر الناصر افريقية

(٥) ولد الشيخ أبو حفص فيما يقرب من ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وكان اسمه بالبربرية « فسكات أو مزال » وعندما اتصل بالمهدى في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وعد من أخلص أصحابه فسماه ابن تومرت عمر وكناه أبا حفص تيمنا بعمر بن الخطاب وصحابه للرسول ، ولهذا عرف في بعض المصادر بأبي حفص عمر بن الخطاب ، وكان المهدي يقول لأصحابه : « فاصكة المبارك لا يزالون بخير مابقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده » . وهو الذي أخذ البيعة لعبد المؤمن بعد وفاة المهدي .

(أنظر : البيذق ، أخبار المهدي ، هامش رقم ٦٢ ص ٣٧ . البيذق ، كتاب الانساب ، هامش رقم ٣٩ ص ٣٢ . ابن أبي دينار ، المؤنس ص ١٣٠)

جمع أعيان تونس وخطب فيهم قائلا : « انا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم ، وآثرناكم به على نسدة حاجتنا اليه ، وهو الشيخ أبو محمد » وكان وصول الخليفة الناصر الى مراكش في ١٠ شوال سنة ٦٠٣ هـ / ١٠ مايو ١٢٠٧ (٦) .

ومنذ أن تولى الشيخ أبو محمد عبد الواحد الحفصي أمور افريقية وهو يؤدي عمله على أكمل وجه . وتصدت قواته بشدة لابن غانية الذي جمع عرب الدواودة من بنى عوف وسليم بنواحي تبيسه سنة ٦٠٤ هـ ، رسخرها لتعكير صفو الامارة الحفصية . لهذا فقد ركز الشيخ أبو محمد جهودہ القضاء على حركة ابن غانية فعمل على تشتت جموعه ومطاردة فلوله الى الجبال والصحارى (٧) . كذلك اهتم الشيخ الحفصي بتنظيم دواوين

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٨—٣١٩ . التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) الرحلة ، نشر حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ، ص ٣٦٢ . ابن القنفذ ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد التركي ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٥ . وعن اهتمامه بشئون الولاية والنظر في مسائلها مدحه الشاعر أبو اسحاق ابراهيم الخسائي بقصيدة ندل على فضله فيها :

وماذا عن المداح أن يمدحوا به وفيه خصال ليس تحصر بالعدد
نهارك في تدبير ما يصلح الوري وليلك مقسوم على الذكر والورد
(ابن أبي دبنار ، نفسه ص ١٣٠) . وبعد وصول الخليفة الناصر الى مراكش توافدت عليه الوفود مهنئة ، وغبه بقول ابن مرج الكحل مشيرا الى علامته الاميرية :

ولما توالى الفتح من كل جهة ولم تبلغ الاوهام في الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره بما أودع السر الالهي عنده
فلا نعمة ألا تؤدي حقوقها علامته بالحمد لله وحده
(السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ص ٢١٦) . أنظر أيضا :

— Jamil, M. Abun-Nasir; A History of the Maghrib; Cambridge, 1971, p. 117—137.

(٧) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٨

الامارة ، واستحدث منها زمام التصنيف لاستقبال الضيوف الوافدين على الدولة (٨) . ولما استكمل الشيخ المدة التي كان قد اشترطها على الخليفة استأذنه في أن يسمح بالعودة الى مراكش حيث الاهل والبلد . ولكن الخليفة لم يستجب لطلبه ، فظل الشيخ الحفصي في تونس حتى توفي في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

ثم حدث بعد وفاته نزاع شديد في افريقية بسبب التنافس على الامارة ، فانقسم الناس الى فرقتين : مالت الاولى الى ابنه الشيخ أبي زيد ، ومالت الاخرى الى ابن اخيه ابراهيم بن اسماعيل بن أبي حفص . ورجحت كفة الفريق الاول وأنتهى الامر بالاتفاق على استخلاف ابنه أبي زيد في امارة افريقية . وفي هذه الاثناء ، وصلت من مراكش كتب الخليفة الموحدى المنتصر بالله (تولى ٦١٠ هـ) بتولية عمه أبي العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان يتصدى آنذاك لمحاربة ابن غانية ، وطالب الخليفة من أبناء الشيخ عبد الواحد العودة الى مراكش . ولكن عهد أبي العلاء كان قصيرا فلم يلبث أن توفي بتونس سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) أى بعد عامين فقط من توليه امارة افريقية . وقدم ابنه من القيروان بعد أن وصله كتاب الخليفة (عبد الواحد المعروف بالملخوع) بولاية افريقية مكان أبيه (٩) .

ب — تطور نظام الخلافة الموحدية في عهد بنى عبد المؤمن :

ولنقف قليلا لنسترجع ما وقع في نظام الخلافة الموحدية وتعاليم المهديّة التومرتية في عهود بنى عبد المؤمن .

(٨) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢١
(٩) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢٣ . الزركشى ،
المصدر السابق ص ٢٠-٢٢

فقد سبق في الصفحات الاولى من البحث وحسبما سيؤكد تفصيلا فيما بعد الحديث عن الاساس الفكرى في نشأة الخلافة الموحدية ونهج التمييز الذى أخذ به ابن تومرت وعبد المؤمن وخلفاؤهما في سبيل الحفاظ على هذا الاساس * وكما سنوضح فيما يلى من فصول ، ذهبت الخلافة الموحدية الى ترجيح المقومات الفكرية لحركة الموحدين على المقومات السياسية والاقتصادية التى سبق أن تفوقت في عصر الدولة المرابطية وكان ذلك الاساس الذى قامت عليه الثورة الموحدية * وبعد انتصار الثورة الموحديه وتطور نظام دولتها الناشئة ، ظهرت الحركة الفكرية الموحدية وكأنها قد استقرت على قاعدتين : الحداها فقهية استمدت أصولها من المذهب المالكي ، والاخرى عقائدية أخذت بالمذهب الاشعرى * وبعد استكمال بناء الدولة وبلوغ امبراطوريتها الى منتهاها في الفتوح والتوسع ، عادت المقومات السياسية والاقتصادية تتغلب على الاسس الادارية في الدولة ومن ثم أصبح حديث نهج التمييز مجرد رمز سياسى يجرى من أجل السلطة والحكم * ومثل هذا الحديث ينطلق أيضا على بقية شعارات الدولة المأخوذة عن الاصول الفكرية المهدوية للثورة الموحدية * ومع ذلك ، فان مجرد الاحتفاظ بهذه الشعارات كان يعنى أن الدولة قد استمرت تتمسك ببعض أصولها الفكرية ، ومن ثم حفظت لخلافتها المغربية مقوماتها المتميزة في مجال المنافسة بينها وبين الخلافة الشرقية * وكان في مقدمة هذه الشعارات تصدير الرسائل والخطب الموحدية بأسم « الامام المعصوم والمهدى المعلوم » واستمرار نقش أسم المهدى في السكة الموحدية وترديده في كافة الشعارات (١٠) *

ثم حدث بعد وفاة المهدى انشقاق في أهل بيته من هرغة وتينمك

(١٠) ابن صاحب الصلاه ، الممن بالامامة ص ٦٦

على خلافة عبد المؤمن الى تعيين أبنائه على الاقاليم وما حمله هذا التعيين من معالم سياسية غالبية على غيرها من المعالم التي حملتها شعارات الثورة المهدية التومرتية . وزاد من غلبة المعالم السياسية اقدام عبد المؤمن في عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م على التخلص من هؤلاء المنشقين بالقتل وتهجير بنى أمغار الى فاس واصدار الامر الى واليها الجياني بأن يتعهدهم بالحراسة . وبذلك ، أخفقت المحاولة الاولى لثورة بيت المهدي بزعامة أخويه عيسى وعبد العزيز وأشياعهما من أهل هرغة وتينمك (١١)

ولم يلبث هؤلاء أن تمكنوا من الفرار الى مراكش حيث تسرعوا في الاعداد للثورة على عبد المؤمن من جديد . فتوجهوا الى واليها عمر بن تفراجين لاختذ مفاتيح المدينة وأمروا عبيدهم بقتله لرفضه أمرهم . وخرجت المدينة لقتالهم ، فقتل العبيد بالصباغين وعبد العزيز بباب الدباغبين ، وعيسى عند باب ايلان ، وكاتبهم بباب أغمات ، وأخرجتهم العامة وعلقتهم بباب الشريعة . وعندما تم القبض على أولادهم ونسائهم عثر معهم على مجموعة كبيرة من الكتب تتضمن أسماء بقية المشتركين في الثورة فأمر عبد المؤمن الحدادين بعمل القيود ، واستقدمهم مكبلين أمامه في قصره ، فأمر بقتلهم جميعا . وقدر عدد هؤلاء بنحو ٣٠٠ نهم خمسة من أعيان نجار المدينة (١٢) .

(١١) ولي الخليفة عبد المؤمن بن علي أبنائه باسم السادة على الاقاليم الموحدية : أبو محمد عبد الله ببجاية وعمر في تلمسان ، ويوسف في اشبيلية ، وأبو سعيد في غرناطة وعلى في فاس وأبو الربيع في تادلة ، وأبو زيد بن اللطية في السوس . (البيذق ، أخبار المهدي ص ٦-٧٧ . الوزير السراج ، الحل الهندسية ج ١ ص ٩٩١ . ابن عذاري ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨) .

(١٢) بزودنا البيذق بفصلات عن قتلهم فيقول : « . . جمع السوقه صغيرهم وكبيرهم وقال لهم : اليوم أعرف أن مالى اخوانا ولا جيرانا غيركم وأنتم أهل الامانات ، بارك الله لنا فيكم ، وأعطاهم السلاح سيوفا ورمحا ودرقا وسكاكين وأمرهم أن يعملوا زقاقا من ايمى ن نكمى (أى باب الدار بالبربرية)

وفي ظل المبادئ الفكرية للثورة الموحدية لم يكن هناك معنى ولا مغزى لثورة بيت المهدي * فالبيعة بالخلافة بعد المهدي تمت لعبد المؤمن الرفيق الاول للمهدي ، على نهج خلافة السلف الصالح * وتمسك عبد المؤمن في سيرة حكمه بشعارات الثورة الفكرية الموحدية وقرب اليه من بقى من صحابة المهدي العشرة ، لا سيما صاحب الاكبر أبو حفص * ولم يلبث الحكم بعد عبد المؤمن أن انحصر في أسرته داخل نطاق من النظام الوراثي مع التمسك الظاهري بشعارات الثورة الفكرية الموحدية (١٣) * وجاء التغيير الجذري الثاني في عهد الخليفة يعقوب المنصور ، عندما أجرى عدة تعديلات في الاصول الفقهية والعقائدية للدعوة الموحدية بحجة أن الفقهاء قد تفرعوا بهذه الاصول مذاهب عدة * فأصدر أمره باحراق كتب هؤلاء الفقهاء ومنع الناس من الخوض في علم الاصول والكلام وألف كتابا يلغى به كتاب المهدي جمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين وشجع الناس على حفظه بالمنح والاموال * وأمر على حد قول المراكشي : « جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع الاحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار وسنن ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه » (١٤) *

حتى الى السجن ، وأمرهم باخراج أعداء الله من السجن عشرة في عشرة ، وكانوا يقتلون بخصائصهم ، فكل من قال منهم لاى شئ أقتل ؟ قتل له هذا كتابك ، فبسط كتابه بيده ، كذلك فعل بهم حتى ماتوا جميعا . . في عام ٥٤٩ هـ « البيذق ، نفس المصدر ، ص ٨—٧٩

(١٣) الجراي ، الموحدون ، ص ١٠٦

(١٤) المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٤ ، ابن البار ، التكملة ج ٢ ص ٥٦٣

ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ص ٥٧

وفى رأى البعض أن مسلك المنصور هذا كان يستهدف محو مذهب مالك كلية من المحرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، اذ لم يكن مؤمنا ايدانا كاملا بعصمة المهدي ولا بمذهبه (١٥) ، فكان يسأل الطلاب والعلماء عما يقرأونه ويغضب عندما يجد الطالب يقرأ تأليف المهدي ويقول : « ما هكذا يقول الطالب انما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة » (١٦) . ويتأكد عدم ايمانه بامامة المهدي من قوله لاحمد بن مطرف المري ، وكان تسيخا صالحا : « يا أبا العباس اشهد لى بين يدي الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة » . وفى مناسبة أخرى ، استأذنه فى فعل نىء يفتقر الى وجود الامام فخطبه قائلا : « يا أبا العباس أين الامام *** أين الامام » (١٧) .

وتتمثل فى قول القاضى الموحدى حفص بن عمر صورة لمؤثرات الحملة المذهبية المذكورة على الحركة الفكرية المعاصرة ، يقول : « اياكم والمقدماء وما أحدثوا ، فأنهم عن عقولهم حدثوا . أتوا من الافتراء بكل أعجوبة وفلوبتهم عن الاسرار محجوبة ، الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم عنهم يتلقى وبهم يدرك السؤل » (١٨) .

ويبرر مثل هذا التدخل من جانب يعقوب المنصور فى الاطوار الفكرى لدولته وخلافته قوة هذا الخليفة الموحدى وعظمة شخصيته المهيمنة والمتسلطة على كل شؤون دولته ، وضخامة انجازاته بالاضافة الى اجماع الموحدىين حول كلمته . ولكن عندما يأتى مثل هذا التدخل من ابنه المأمون الذى يبلغ بتدخله الى حد اصدار أمره بإبطال العقيدة

(١٥) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٨٥—١٨٦

(١٦) المراكشى ، نفس المصدر ، الجرارى ، المرجع السابق ص ١٠٧

(١٧) المراكشى ، المعجب ص ١٩٣ الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٧

(١٨) جنون ، النبوغ المغربى ، ج ٢ ص ٣٥

التومرنية كلية ، فان الامر يتجاوز الحدود ويتحول هذا التدخل من جانبه الى مجرد بدعة من البدع التي تردت فيها الدولة الموحدية بعد موت يعقوب المنصور * فقد كان الحفاظ على هذه العقيدة ولو اسما أمام الاخطار التي تكالبت عليها وهددت بسقوطها تراحم الاعداء على الاندلس واستقلال بنى حفص باغريقية ، وتغلب بنى مرين على المغرب واستحوذاهم على جميع بواديه *

ولقد راجه المأمون مع اتمام بيعته في شوال ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١١٢٧ م هذه الاخطار الى حد القول في احدى خطبه : « معشر الموحيدين لا تظنوا انى أنا ادريس الذى تدرس دولتكم على يده ، كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله » (١٩) * ومع ذلك ، كانت ثورة المأمون الكبرى على العقيدة التومرنية بنبذ فكرها ومهدويتها وأمامتها وعصمتها والى حد لعن المهدي في خطبه علنا على المنابر في جميع بلادهم ومحي اسمه من النقش في السكة وقطع النداء الذى كان معمولاً به منذ بدء الدولة الى عهده (٢٠) ، وكتب في كتبه بذلك الى جميع الاقطار بخط يده للعمل بها * وكان يرى أنه ليس الوحيد الذى هم بصدع ذلك الفساد بل كان والده الخليفة يعقوب المنصور من قبل يعمل على تحقيقه ولكن حياته لم تطل لاتمام ذلك العمل الجليل الذى وقع عبء تنفيذه عليه * وفي ذلك يقول في رسالته : « من عبد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلبة والاعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الايام الوسام ، وأنا كتبناه اليكم كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا ، وخاطرا سليما ،

(١٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ح ١ ص ٤١٩-٤٢٠ . ابن أبى زرع ،
القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوى ، الاستقصا ح ٢ ص ٢٣٨
(٢٠) ابن عذارى ، البيان ح ٣ ص ٢٦٧

لا يزال على الطاعة مقيما ، من مراکش كلاها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم فاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصكم به تقوى الله • والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى الا عيسى بن مريم الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التي نفلدناها ، كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه ، وقد كان سيدنا المنصور رضى الله عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للامة الخرق الذي رقعناه ، فلم يساعده لذلك أمه ، ولا أجله اليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، واذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لا يدري بأى يد يأخذ كتابه أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا نبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك من أمرهم الرنيث ، وفعلهم الخبيث ، لانهم فى المعتقد كفار ، والسلام على من اتبع الهدى واستقام » (٢١) •

كان المأمون الموحدى أدبيا بليغا ، ومع ذلك فان ثورته المذهبية تلك ترتبط ارتباطا وثيقا بمبايعته بالخلافة الموحدية • صحيح أن بيعة أهل الأندلس ومراكش وصلت اليه فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) الا أن أشياخ الموحدين نكثوا ببيعتهم له بعد أن أقدم على قتل أخيه العادل ثم بايعوا ابن أخيه يحيى • وعرف المأمون بنكث الموحدين وهو فى طريقه الى مراكش قادما من الأندلس ، فأنشد قول الشاعر تمثلا بالخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) :

(٢١) كتاب الونائق ، وثيقة رقم ٨٩ ص ٢٦٤ . أنظر ايضا فى : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٦٧-٢٦٨ . مجهول ، الحل ص ١٣٧ . ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ٤١٩-٤٢٠ . جنون ، النبوغ المغربى ج ٢ ص ١٠٢

لتسمعن ونسيكا في ديارهم
ياللرجال الى نارات عثماننا (٢٢)

كان المأمون داهية سياسية عندما استعان بالقاضي أبي الوليد بن أبي الاصبع بن الحجاج سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) لاعداد خطبة عيد الفطر حتى يتهيأ له أن يكشف ما في نفوس أشياخ الموحدين نحوه اذا ما كانوا يضمرون الغدر به أم يسكنون عنه وفي هذا المسلك تحد صريح لأشياخ الموحدين * ثم عمد الى تأمين ظهره فاتصل بملك قشتالة ليمده بجيش يساعده على قتال ابن أخيه يحيى * وبعد أن وصل الى مراكش سنة ٦٢٧ هـ (٨ — ١٢٢٩ م) أمر أشياخ الموحدين وأعيانهم بالثول بين يديه ، وخاطبهم بقوله : « يا معشر الموحدين أنكم قد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم في الارض الفساد ونقضتم العهود ، وبذلتكم في حربنا المجهود ، وقتلتم الاخوان والاعمام ولم ترقبوا فيهم عهدا ولا زماما ثم أخرج كتاب بيعتهم الذي بعثوا به اليه ، وعاتبهم على نكثهم لهذه البيعة وأدانهم ، فلما ثبتت ادانتهم سقط في أيديهم ، فالتفت الى قاضيه (المكيدي) الذي قدم معه من اشبيلية وقال له : « ما ترى أيها القاضي في أمر هؤلاء الناكثين ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول : «ومن نكث فانما ينكث على نفسه » * فقال المأمون : « صدق الله العظيم ، فاننا نحكم فيهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما نزل الله فاولئك هم الظالمون » (٢٣) .

ثم أصدر المأمون أمره بعد ذلك بسحب جميع أشياخ الموحدين

(٢٢) ابن أبي زرع ، القرطاس ص ٢٥٠

(٢٣) عن تدبير الخطبة أنظر : ابن عذاري ، البيان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦

ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوي ، الاسنقصا ج ٢ ص ٢٣٨
جنون ، النبوغ ج ٢ ص ١٠٤

وأشرفهم إلى مصارعهم ، فقتلوا جميعا ولم يبق منهم لا على صغير ولا كبير • ويسوف لنا ابن عذارى أيضا قصة تصور مدى عنف المأمون في علاج مسألة بيعته إلى حد أنه لم يراع أي صلة قربي أو رحم ، ولا حتى الطفولة البريئة ، وذلك عندما أتى دور ابن أخت له صغير يبلغ من العمر ثلاث عشرة عاما وخاطبه قائلا : « يا أمير المؤمنين أعف عني لثلاث ، صغرت سني ، وقرب رحمي ، وحفظي لكتاب الله العزيز » • فنظر المأمون إلى قاضيه يستشير قائلًا : « كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وأقدامه على الكلام في هذا المقام ؟ » فقال القاضي : « يا أمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يادوا الا فاجرا كفارا » فأمر به فقتل (٢٤) •

وفي رواية أخرى أن ما يزيد على أربعة آلاف رأس من رؤوس القتلى سيفت إلى مراكس ، وعلقت على أسوارها إلى أن غابت المراهات الكريهة منها فطلب منه كاتبه الفزارى إزالتها ، فكان جواب المأمون : « ان هاهنا مجاذبن ، هذه الرؤوس أحراز لهم ، عطرة عند المحبين كريهة عند البغضيين » (٢٥) • وهذا يعني في نظر المأمون أن ما فعله انذار لكل من تسوله نفسه على الخروج على تعاليمه ومخالفته ، وأن هؤلاء القتلى استحقوا تلك العقوبة وفي ذلك يقول متوعدا كل مخالف :

أهل الحرابه والفساد في السورى
يعززون في التشبيه للذكار
فساده فيه الصلاح لغيره
بالقطع والتعليق في الاشجار

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، والصفحة •

(٢٥) الحل ، ص ١٣٨—١٣٩ • السلاوى ، نفس المصدر ص ٢٣٨

بن عبد الأژم ، ومن ثم استعاد أشياخ الموحدين مكانتهم (٢٩) وأكتسبت الدولة الموحدية من جديد بعض مقوماتها التاريخية التي كانت قد أفقدتها فان تعاقب الثورات وحوادث اخمادها في تلك الصورة الدامية المذكورة كان قد أثر تأثيرا مباشرا على المقومات السياسية والحربية والاقتصادية اللازمة لضمان استقرار الخلافة الموحدية في المغربين الاقصى والاوسط . لذلك ، جاء بعث الروح في هذه الخلافة على يد أبى زكرياء الحفصي في افريقية حصيلة طبيعية تجمع فيها كل صوت موحدى مؤيد لاستمرار الدولة الموحدية وخلافتها .

ج - دولة أبى زكريا الحفصي (٣٠) :

بدأ أبو زكريا جهوده لسلب مراكش خلافتها الموحدية وذلك عن طريق بث العيون في الامصار الغربية لتأليب أهلها على المستضعفين من الموحدين الذين محوا أسم المهدى ورسمه . وبدأ بأخيه عبو والى افريقية الذى رفض خطته الثورية ، فاتفق مع زعماء قابس على التخلص منه ، ونجح في اغراء فقهاء القيروان بالخطبة له سرا في تونس . ولم يلبث أبو زكريا . أن استولى في عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م على القيروان ثم اتجه الى تونس فدخلها في رجب من نفس العام . وفي العام التالى ، أعلنت طرابلس ولأها له وتمكنه فيها بين عامين ٦٢٨ - ٦٣١ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٣٣ م من ضم القسم الشرقى من المغرب الاوسط على أثر حملة سيرها الى تلمسان قوامها أربعة وستون ألف مقاتل بسبب وقوف بنى يخمراس الزيانيين بها ضد دعوته . وفي هذه الحملة ، تقدم كل من عبد القوى بن نوجين وأبى العباس بن منديل المغراوى - أقوى زعماء زناتة

(٢٩) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٣٠٥-٣٠٦

(٣٠) الوزير السراج ، الحل السندسية ج ١ ص ١٠٢٣ - ١٠٢٧ .

الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ٢٧ . ابن أبى دينار ، المؤنس ص ١٢٣ .

في غرب الجزائر — لمساعدة أبي زكريا في انتزاع تلمسان^(٣١) من أيدي الزيانيين ، وتم استيلاء الحفصيين على تلمسان في عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م تمت البيعة الاولى لابى بكر زكريا للخلافة الموحدية في عام ٦٢٦ هـ — ١٢٢٨ م من أشياخ الموحدين في افريقية وطرابلس وقسنطينة وبجاية . وجاءت البيعة في عام ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م من كافة الموحدين خواصا وعواما واكتفى أبو زكريا بلقب الامير في الخطبة مع ذكر اسم المهدي وخلفائه . ومن ثم أهمل كلية ذكر اسم الخليفة الموحدى (المأمون) في مراكش كما أن تلقبه بالامارة لم يستكمل بعد رسم « أمير المؤمنين » بالرغم من ميل الشعراء الى الاخذ بالرسم الكامل في المديح لابى زكريا^(٣٢) .

ومع ذلك ، فقد اعتمد الحفصيون في اعلان خلافتهم بافريقية والمناطق التابعة لهم على الاصل العربى ، والنسب النبوى ، الى جانب قرابتهم للموحدين ، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب^(٣٣) ، وهكذا توفرت لديهم كل المقومات الشرعية ليرثوا خلافة الموحدين .

وفي سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م تلقى أبو زكريا البيعة من كل من قصر عبد الكريم وسببة وسجلماسة وبينما عادت سجلماسة في نفس السنة الى التبعية لبنى عبد المؤمن في مراكش فان ابن خالص حاكم سببة ظل يحكم

(٣١) أبو زكريا يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) ، بغية الرواد في ذكر ملوك بنى عبد الواد ، نشره الفرد بل ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ٩ — ١٠ ، ٢٠ — ٢١ .

(٣٢) السلاوى ، الاسنقصا ، ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

(٣٣) العبادى ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣ — ١٢٤ . وأعزازهم فهم بهذا الاصل أطلق كتابهم وشعراؤهم على دولتهم اسم العميرية والفاروقية . أنظر أيضا :

هذه المدينة باسم الامير أبى زكريا الحفصى^(٣٤) . وحدث فى عام ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨م أن استولى النصارى على أشبيلية التى كانت تدعو له ، كما توفى فى نفس العام ابنه يحيى وولى عهده ونائبه على بجاية . ومن ثم انتقلت ولاية العهد الى ابنه الثانى المستنصر قبل عام واحد من وفاة أبى زكريا . وكان الجديد البارز فى حوادث هذه الفترة أن الدولة الحفصية الفتية أصبحت أمل أهل الاندلس الذين سقطت مدنهم تباعا وأصبحت ملاذا لهجرة العديد من الاندلسيين الساعين الى حمايه الحفصية وترددت أصوات شعراء الاندلس تستنهض همم الحفصيين معقد آمالهم من ذلك قول ابن الآبار :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا أن السبيل الى منجاتها درسا^(٣٥)

ويذكر المقرئ فى أزهار الرياض أن أبا زكريا الحفصى أرسل أسطولا من ١٨ سفينة شحنها بالمؤونة والسلاح ، ولكن هذه السفن أخفقت فى تفريغ شحناتها لشدة الحصار المحكم حولها واضطرت لاغراغ حمولتها فى دانية أما بلنسية فقد استسلمت للعدو فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ — سبتمبر ١٢٣٨م^(٣٦) .

(٣٤) ابن القنفذ ، الفارسة فى مبادئ الدولة الحفصية ، ص ١١٠ .
(٣٥) أزدهرت الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا وتقاطرت عليه البيعات من مختلف الانحاء ، فوصلت اليه فى عام ٦٤٣ هـ البيعة من أشبيلية والمريسة وشربش وطريف (أنظر ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٠) ويذكر الزركشى أنه نتيجة لتضييق العدو على أهل الاندلس ، استغاث أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع أمير بلنسية بأبى زكريا وأرسل له ببعثته فى سنة ٦٣٦ هـ مع ابن الآبار صاحب تلك القصبة (تاريخ الدولتين ، ص ٢٧) وكاتبه ووزيره الذى أرسله سفيراً من قبله مع وفد من أهل بلنسية يستصرخ أبا زكريا يحيى لاتجاد بلنسية قبل أن نقع فى قبضة ملك أرغونة . وقد روى ابن الآبار فى الحلة السيرة أنه قدم تونس رسولا من قبل أبى جميل زيان بن سعد والى بلنسية ودانية فى منتصف عام ست وثلاثين وستماية (ابن الآبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ترجمة رقم ٧٠٥) .

(٣٦) د. عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٣١ (١٩٦٦م) .

(٢)

تطور العلاقات الخارجية للحفصيين مع المشرق الاسلامى

(فى عهود الخلفاء : المستنصر — اللحيانى ،

الواثق — أبى العباس)

جاء فى وصية أبى زكريا لابنه المستنصر من الارشادات عن قواعد الحكم الصالح ما يعد ترجمة صادقة للسياسة التى اتبعها فى ارساء أسس دولته والتجارب التى خاضها فى علاقاته السياسية المختلفة . فكانت الوصية أشبه بدستور مرشد بليغ ، الامر الذى تستحق من أجله أن يسجل بعض ما جاء فيها فى هذا الموضوع من البحث ليكون منارا يلقى الضوء على ما يليه من أخبار الدولة الحفصية .

يقول أبو زكريا فى وصيته المذكورة : « سددك الله وأرشدك وهداك الى ما يرضيه وأسعدك ، وجعلك محمود السيرة ، مأمون السريرة : أن أول ما يجب على من استرعاه الله فى خلقه ، وجعله مسؤولا عن رعيته ، أن يقدم رضا الله تعالى فى كل أمر يحاوله ، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله ، ويكون عمله وسعيه وذويه من المسلمين وحربه ، وجهاده للمؤمنين بعد التوكل . وأحسن الى كبير جيشك وصغيره ، الكبير على قدره والصغير على قدره ، ولا تلحق الحقير بالكبير ، فيكون احسانك اليه مفسدة فى كلا الوجهين ، ويضيع احسانك ، وتشتت نفوس من معك فاتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم ابنا ، اخفض لهم جناح الذل من الرحمة ، وشاورهم فى الامر ، فاذا عزم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين . واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقيرة ، ولا تسع كلام الغالطين ، وعليك بتفقد أحوال رعيته والبحث عن عملهم ، والسؤال عن سيرة قضاتهم فيهم ولا تنم عن مصالحهم ، ولا تسامح أحدا

فيهم ، فاكشف عنهم كلمة ملمة ، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا اذا عدل
عن الحق » (٣٧) .

عمل أبو زكريا على تدعيم علاقاته بكل الدول المحيطة الاسلامية كانت
أم مسبحية ، فقد عقد معاهدات تجارية وحسن الجوار مع البندقية في سنة
٦٢٨ هـ — ١٢٣١ م ، ومع بيزة سنة ٦٣٢ هـ — ١٢٣٤ م ، ومع جنوة سنة
٦٣٤ هـ — ١٢٣٦ م ، وفي عام ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م أرسل اليه فردريك الثانى
ملك صقلية قنصلا كما أقام مع ملك أرغمون علاقات دبلوماسية (٣٨) .

هذا ولقد أقام أبو زكريا مع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب
في مصر علاقات ودية تظهر من خلال الحملة التى شنّها الصليبيون على دمياط
في عام ٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م وكان أبو زكريا قد وصلتته أنباء مسابقة عن تلك
الحملة على مصر فأرسل الى الملك الصالح يحذره لى يؤمن جانبه ويتخذ
أهبة لمنازلة الحملة . وتتضارب أقوال المؤرخين بشأن هذا الخبر فمن رأى
المقريزى على سبيل المثال أن الملك الصالح كان فى دمشق بالشام آنذاك (٣٩)
وأن الامبراطور فردريك الثانى (ملك صقلية) بحكم علاقات الصداقة
القائمة معه من عهد الملك الكامل قد أسر الى الملك الصالح بعزم لويس
التاسع ملك فرنسا على السير الى أرض مصر وامتلاكها . وكان الملك
الصالح أيوب مريضا فى تلك الفترة ، فحمل الى مصر على محفة ليكون قريبا

(٣٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٢٠—٦٢٣ .

(٣٨) بوفاة أبى زكريا سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م نقض نصارى صقلية
عهدهم وعذبوا المسلمين وأجلوهم عن ديارهم وطردوهم الى افريقية بل
نجاوزوا ذلك الى طرد مسلمى جزيرة مالطة أيضا . أنظر :

— Abun Nasir; Ibid., p. 139—140.

-- Burnschivg, La Berbérie, T. I, p. 34.

(٣٩) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٣٨٤ .

من ميدان المعركة^(٤٠) . ويؤكد ابن القنفذ أن الملك الصالح علم بأمر تلك الحملة وهو بمصر^(٤١) ، وأنه سمع بخبرها من رسول أبي زكريا إليه ، وفي ذلك يقول : « ... » وأنه لما تحقق قصد الفرنسيين إلى الديار المصرية قبل أن يبلغ ذلك الملك الصالح فوجه كتابه في ذلك في البر إلى الملك الصالح فدخل عليه الرسول بالقاهرة فجاءه بالكتاب ، فاذا فيه بالاعلام بما عزم عليه العدو — دمره الله — والاعتذار على عدم المبادرة إليه بنفسه وجنده ، لما يخشى من عدو صقلية المجاورة له ، ومن أعراب افريقية »^(٤٢) .

وبلغت علاقات حسن الجوار بين الحفصيين في افريقية والايوبيين في مصر في تلك الآونة درجة كبيرة من الود إلى حد أن الاسكندرية اعتبرت لدى الحفصيين موطنًا للاعيان المغضوب عليهم من الدولة الحفصية . وفي هذا يروي الزركشى عن الوزير الحفصي ميمون بن موسى الهنتاتى الذى غضب عليه أبو زكريا وقبض عليه في عام ٦٣٦ هـ — ١٢٣٩ م واستنصفى أمواله ثم « بعث به إلى قابس واعتقل بها مدة طويلة ، ثم صرفه إلى الاسكندرية . واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبى العلاء بن جامع إلى أن هلك فاستوزر من بعده بن أخيه »^(٤٣) .

وقد استطعت أن أصل في تفسير التقارب الودى القائم بين العاهلين الحفصى والايوبى إلى الافتراضات التالية وذلك من خلال دراستى للنصوص القليلة المتعلقة بعلاقات أبى زكريا السياسية مع الايوبيين ،

(٤٠) المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٣٣٤—٣٣٥ . سعيد عاشور وآخرون ، مصر في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٠ ص ١١٢ .

(٤١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٢ .

(٤٢) ابن القنفذ ، نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٩ ، ٢٤ . أنظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٦ .

والعلاقات الدولية المتوازية التى أقامها مع الدول المجاورة ، ومن خلال وصيته لابنه بشأن أساليب الحكم الصالح :

١ — من الجائز أن يكون أبو زكريا قد أدرك المتغيرات التى طرأت على العلاقات الموحدية مع المشرق الاسلامى فهذه العلاقات التى كانت تصلح فيما مضى مع خلافة متداعية فى دور الاحتضار مثل الدولة الفاطمية أو مع الخلافة العباسية التى شاخت وتهاكت وحتى مع دولة ناشئة مثل الدولة الايوبية فى عهدها الاول لابد أن تتطور بحكم الاوضاع المتغيرة . فالدولة الايوبية قد اجتازت مرحلة نشأتها وأثبتت مقدرة كبرى على التطور الى دولة اسلامية شرقية كبرى فى ظل الخلافة الروحية للعباسيين .

٢ — لا نستبعد أن يكون أبو زكريا قد ربط بين سياسته الخارجية مع الدول الاسلامية وبين علاقته بدولة الموحدين فى المغرب الاقصى . والظاهر أنه أدرك أن ذلك يستلزم منه أن يحدد أول كل شئ الرابطة السياسية والروحية بين دولته وبين الدولة الام الموحدية فى مراكش . وبالتالي يستلزم الامر تجنب فتح جبهة تشرقية مع انشغال الدولة الحفصية بتسوية مسائل علاقتها المعلقة مع الدولة الام وأملاتها الغربية . ومن الغريب أن ما حدث مع الحفصيين تكرر حدوثه مع الايوبيين ، فقد تسهدت الدولة الايوبية بداية حركة انفصالية مماثلة للحركة الحفصية تمثلت فى اقدم المنصور بن رسول عمر بن على بن رسول نور الدين على تأسيس الدولة الرسولية باليمن والاستقلال بها عن الايوبيين سلاطين مصر والشام (٤٤) .

٣ — كذلك لا نستبعد أن يكون كل من الحفصيين والايوبيين قد أدرك

(٤٤) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ص ٥٩٦ . على بن الحسن الخزرجى كتاب العقرد اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ج ١ ، القاهرة ١٩١١ ، ص ٢٨—٤٤ .

أن الخطر الأكبر على دولتيهما يكمن فيما إذا تصاعد الخطر المسيحي (الصليبي) وتجاوز القدرة الجهادية للدول الإسلامية ، لا سيما بعد أن نال الضعف الشديد بكل من الخلافتين الموحدية والعباسية ، ولم يعد التنافس الروحي بينهما ورقة سياسية ضاغطة في العلاقات الإسلامية بين المشرق والمغرب .

ومن خلال هذه الافتراضات ، كان على العلاقات الحفصية الأيوبية أن تأخذ بالاعتبار حماية المصالح المشتركة بينهما ودعم روح الجهاد حسبما دلت الاشارات المحدودة السابق ذكرها عن خبر الحملة الصليبية على دمياط وخبر نفى الوزير الحفصي الى الاسكندرية .

وتوفي السلطان الحفصي أبو زكريا في بلاد عنابة (بونة) في عام ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م ودفن بجامعها ثم نقل فيما بعد الى قسبة مدينة قسنطينة . واتفق أن انتهت بوفاته حياة معاصريه من الحكام الذين ارتبط معهم بعلاقات ما وهم : الملك الصالح أيوب سلطان مصر والشام^(٤٥) ، والمنصور بن رسول صاحب اليمن وملك نصارى الاندلس (الاندور) حسب رسم صاحب الفارسية^(٤٦) . وكانت وفاته العاجلة نهاية لما أصابه من غم شديد حزنا على الوفاة المبكرة لابنه وولى عهده المحبب اليه الذي رثاه بقصيدة جاء فيها :

(٤٥) المقریزی ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤٦) هكذا جاء اسم (الاندور) في الاصل ، والرسم أقرب الى اسم فرناندو القديس . والمعروف في تاريخ الاندلس أنه ابتداء من عام ١٢٤٨ م استولى من المسلمين على اشبيلية وجبان وقرطبة ومرسية ملك قشتالة فرناندو الثالث الملقب بالقديس . والمعروف أيضا تاريخيا أن هذا الملك قد مات في عام ١٢٥٢ وليس في عام ١٢٤٩م وأن هذا العام الاخير قد شهد أيضا قيام الفونسو الثالث على عرش البرتغال (١٢٤٨ — ١٢٧٩ م) بعد أن قاد النورة بايعاز من البابوية على حكم أخيه سانشو الثاني . ولعل صاحب الفارسية قد وقع لديه

ألا جازع يـيـكى لفقـد حبيبه
فانى لعمري قد أضر بي الشك
لقد كان لى مال وأهل فقـدتهم
فـهـأنا لا مال ولا أهـل
سأبـكى وأرثى حسرة لفراقهم
بكاء قريح لا يمل ولا يسـل
فلهـجى ليوم فرق الدهـر بيننا
ألا فرج يـرجى فينتظم الشمـل
وأنى لارضى بالقضاء وكلمة
وأعلم ربى انه حاكم عدل (٤٧)

ثم بويـع الامير أبو عبد الله بن أبى زكريا (المستنصر) البيعة الاولى
فى بـونـة سنـه ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م بعد وفاة أبيه مباشرة * ثم بويـع البيعة
الـثـانـية بعد وصوله الى تونس الحاضرة الحفصية ، فى شهر رجب من نفس
السنة * وأحتفظ أيضا بنفس لقب الامير الذى أخذ به أبوه وكان ذلك فى
شهر ذى الحجة من عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م *

وبالاطلاع على نص وصية أبيه اليه التى أشرنا اليها من قبل يتضح
التناقض أمام الدارسين بينها وبين الوصف الذى أنتهى اليه المؤرخون فى

الخط يبين حدث سقوط هذا الملك الـبرغـالى ضـحبه بـورة أخـه وبين حـدث
سقوط أنـسـبـلية سنة ١٢٤٨ م على يد فرنانـدو القشتالى . أنظر ، ابن القنفذ ،
الفارسية ، ص ١١٥ .

— Sidney Painter; A History of the Middle Ages, London, 1968, p. 196.

— Atkinson, W.C. A History of Spain and Portugal, London, 1970,
p. 92.

(٤٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ . ابن الخطيب ، الاحاطة ،
تحقيق عـان ، ص ٣٢١ .

قولهم عنه أنه كان في غاية الجبروت الى حد أن رجال دولته نقموا عليه
والى حد أن . عمه أبو عبد الله بن عبد الواحد المعروف بالليثاني أعلن
الثورة عليه (٤٨) .

وفي عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م أصبحت علامة الدولة الحفصية بنفس
اللقب الخلفي : أمير المؤمنين ولم تمض على ذلك ستة أعوام حتى سقطت
الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل الخليفة العباسي
المستعصم بالله وخلا المشرق الاسلامي من وجود خليفة عباسي مدة ثلاث
سنوات (٦٥١ — ٦٥٩ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٦١ م) . وهذا يعني أن الخلافة
الاسلامية صارت خلافة واحدة هي خلافة الموحدين ، وهو ما تأكد بالفعل
عندما أنت البيعة من مكة في عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٥٩ م الى الخليفة
الحفصي أبي عبد الله محمد الملقب بالمستنصر (٤٩) . ولم يبق أمام خلافة
الحفصيين الموحدية غير علاج ازدواجية رمز السلطة في هذه الخلافة بين
تونس ومراكش . وسرعان ما عادت الخلافة الحفصية الى وضعها السابق
على أثر قيام السلطان الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية في مصر
فأستقدم أحد امراء بنى العباس وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي
من دمشق لهذا الغرض في عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، وأقر القضاة وجماعة
العرب اتحدال نسبه بنسب العباس بن عبد المطلب فبويع بالخلافة ولقب
بالمستنصر بالله ومع ذلك فقد أثيرت الشكوك حول صحة نسب المستنصر
هذا وفي ذلك يقول أبو الفداء « وفي هذه السنة قدم الى مصر جماعة من
العرب (٥٠) . ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الامام

(٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣٢٢ .

(٤٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٧ .

(٥٠) هم عرب خفاجة (راجع النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٨ القسم

الاول ، المقریزی ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .

الظاهر بالله بن الامام الناصر » (٥١) . غير أن هذا الامام لم يلبث أن قتل على أيدي المغول سنة ٦٦٠ هـ أثناء توجهه الى العراق لاعادة الخلافة العباسية في بغداد ، فتأجل البت في مشكلة الخلافة العباسية الى حين احيائها من جديد بالقاهرة في عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م في شخص الامير العباسي أبي العباس أحمد الذي بويع له بالخلافة في مصر وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعلق المقرئ على وضع الخلافة العباسية الجديدة في القاهرة بقوله : « . أن خلافة الخليفة العباسي ، ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٥٣) .

معنى ذلك أن الخلافة العباسية في القاهرة احتفظت بمعالم مشكلتها التي وقف على معالمها ابن تومرت منذ رحلته المشرقية وكانت سببا في اعلان ثورته المهدوية وقيام الخلافة الموحدية . وقد لحق الحفصيون بنفس الطريق عندما سعوا الى تجديد الخلافة الموحدية ونصبوا أنفسهم عليها في دولتهم الحفصية . وكان قبول المماليك بخلافة عباسية رمزية حافظا دعا الخليفة الحفصي الى دعوة هؤلاء الى التحول بولائهم الروحي الى الخلافة الموحدية ووضع حد للخلافة المزدوجة . لذلك ، عندما وصلت الى الخليفة المستنصر الحفصي بيعة شريف مكة (أبو نهمي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة من ولد موسى الجون بن عبد الله المحض الحسني) (٥٤) . كان

(٥١) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٧ . ، أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .
(٥٢) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٢ ، ٥٤٤ . المقرئ ، المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .
(٥٣) عبد الملك النعماني ، سمط النجوم العوالي في أنباء الاوائل والتوالي ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ . كتب هذه البيعة : عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين المرسي عن شريف مكة ، ووصلت على يد أبو محمد ابن برطلانة (الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٧) .

لهذه البيعة المكية وقع كبير في البلاط الحفصي ، فأحتفل المستنصر الموحدى
بها احتفالا عظيما ، وقرأها بنصها الكامل الطويل على منبر جامع الزيتونة ،
وتسمى من يومها بأمر المؤمنين ، وسجل الشعراء الحدث حسبما جاء في
الابيات التالية :

أهنأ أمير المؤمنين ببيعة
جاءتك بالاقبال والاسعاد
ملقد حباك بمكة رب الورى
فأتى بشير بأفتاح بلاد
واذا أنت أم القرى منقادة
فمن المبرة طاعة الاولاد (٥٥) .

وعن الاحتفال بالبيعة المكية ، يقول ابن خلدون : « .. أن البيعة
لما وصلت استحصرت لها السلطان الملا والكافة وقرئت بمجمعهم وقام
خطيبهم القاضي ابن البراء . وفي ذلك المحفل فأبلغ فيها فاحتفىز في
تعظيمها والاشادة بحسن موقعها ، واطهار رقعة السلطان ودولته بطاعة
أهل البيت والحرم ودخولهم في دولته تم جار فيها للسلطان بالوعاء، وانفض
الجميع ، فكان من الايام المشهودة في دولته » (٥٦) .

ويذكر المقرئ في السلوك أن بييرس أراد ابطال ادعاء السلطان
الحفصي بالخلافة فكتب اليه « مثلك لا يصلح أو يلى أمور المسلمين » (٥٧)

(٥٥) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٢٥ . ويذكر أنه جاء في نهايه
الرسالة :

(كتبت نجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربى من الحرم الشريف) .

ص ٢٣٨ .

(٥٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٣٤ — ٦٥١ .

(٥٧) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

ومع ذلك فقد اختلف الرواة حول تاريخ هذه البيعة فذكر بعضهم انها تمت في عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وذكر البعض الآخر أنها أرسلت في عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م (٥٨) .

أكدت البيعة المكية للخليفة الحفصي الحقيقة بأن الخلافة العباسية في الشرق الاسلامي قد فقدت أهم دعائمها بعد أن تلقت الضربة القاضية مرتين على أيدي المغول ، وجاءت البيعة المكية أشبه بضربة كبرى أخرى أُنذرت بالقضاء أيضا على محاولة احياء هذه الخلافة في القاهرة . لذلك كان يحق للدولة المملوكية الناشئة أن تتضرر كثيرا من هذا الحدث وأن يسود التوتر علاقاتها بالدولة الحفصية لفترة زمنية قصيرة . ولكن ظهر أن هذا التوتر لم يمنع اشتراك الدولتين في التحرر من الخطر الصليبي الذي مثلته حملة لويس التاسع (الحملة الصليبية الثامنة) على تونس سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م كما سبق أن مثلته نفس الحملة الصليبية على دمياط في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م (٥٩) وأنتهت بأسر لويس في دار ابن لقمان وتعهده بالآلا ينزل في أي أرض للإسلام نظير إطلاق سراحه وبعد عودته الى فرنسا ، حث بوعده وقرر العودة الى مصر على رأس حملة جديدة أنتهت بالنزول في تونس بدلا من مصر ، وهلك فيها الملك الفرنسي سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م مع معظم جيشه بالقرب من قرطاجنة بعد أن نفقش فيهم الوباء . وخرج بقية أجناد الحملة من البلاد التونسية بعد عقد الصلح وبشرط عدم

(٥٨) ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٣٤ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ . تاريخ الدولتين ، ص ٣٢ . وفيها يذكر أنه تم مبايعة الناس البيعة العامة ، ووضع العلامة التي كان يمهر بها هي : « الحمد لله والشكر لله » وأنقسمت علامة الدولة الى قسمين علامة كبرى توضع في أول الكتاب بعد البسملة والصغرى معلمة في آخره لصدوره عن الخليفة .

— Runciman, S.; A History of the Crusades (3 vols) Cambridge, (٥٩) 1951, pp. 273—274.

التعرض لاي جهة من البلاد وابرام هدنة لمدة خمسة عشر عاما مع منح فرنسا أرضا بقرطاجنة لاقامة ضريح الملك لويس (٦٠) .

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الدولة الحفصية ودولة المماليك حول وقائع هذه الحملة الصليبية ، فان المصادر لم تذكر من اشارة غير ما حملته القصيدة التي ألحها شاعر تونسي تعبر أبياتها عن مشاعر الجهاد المشترك بين تونس ومصر ضد قوى الصليبيين مطلعها :

يا فرنسيس تونس أخت مصر
فتتبعنا لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منكرو ونكير (٦١)

ويستدل من أخبار العام التالي ٦٧٠ هـ / ١٢٧٣ م على أن العلاقة بين الدولتين من خلال احداث الحملة الصليبية الثامنة قد تعدت حدود هذه المتاعر . فهل قدم المماليك للحفصيين عونا ضد حملة لويس التاسع على تونس ؟ وهل قدم الحفصيون في مقابل المساندة المملوكية التي حصلوا عليها نوعا من المساعدة الى الظاهر ببيرس في حملته الاخيرة ضد سلاجقة الروم ؟ هذه الاسئلة يعززها خبر هام أوردته المصادر العربية في هذا العام نفسه (٦٧٠ هـ) عن وصول السفير الحفصي أبي عبد الله محمد بن الراسي على رأس سفارة الى السلطان الملك الظاهر ببيرس في الوقت الذي كان الظاهر ببيرس مشغولا بصد هجمات المغول على بلاد الشام لا سيما على البيرة في سنة ٦٧٠ — ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ — ١٢٧٣ م

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٦٣ — ٦٧١ .
(٦١) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٣٦ .
ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١١ .

وحدث أن تطورت الحرب معهم عندما تيقن الظاهر ببيرس من تحالف المغول مع سلاجقة الروم ضده الأمر الذي دعاه الى تكثيف حملاته التي أعدها في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م لغزو سلاجقة الروم الذين حلت بهم الهزيمة في موقعة ابلستين في نفس العام (٦٢) *

وواضح من الحملة التي جردها السلطان الظاهر ببيرس على مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية في سنة ٦٧٥ هـ / ١٧٦ م (٦٣) ، ومد نموذحه أيضا الى بلاد الحجاز ، وجود علاقة بين السفارة الحفصية المذكورة وبين هذه الاحداث وقيام نوع من التعاون بين الدولتين في اطار هذه الحوادث أو على الاقل الاتفاق على هدنة بينهما نسبها بتلك الهدنة التي عقدها الحفصيون مع الفرنسيون (٦٤) *

والظاهر أن هذه الهدنة التي عقدت بين المستنصر الحفصي وبين ببيرس قد اقتضاها انشغال الأخير بمصير أملاكه الشامية حيث توفي أثناء وجوده بدمشق في سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م . كما اقتضاها من ناحية الحفصيين ما وقع من انقسام في البيت الحفصي عندما ثار على الخليفة الحفصي أخواه ابراهيم وميمون . وقد فر الاول الى الاندلس بينما لجأ

(٦٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٢ . أبو الفداء ، مختصر تاريخ البشر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٦٣) مفضل ابن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٢٣٤ — ٢٣٨ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٣٢ . سعيد عاشور ، العصر المالكي في مصر والشام ، ص ٤١ .

(٦٤) ذكر محمد بن أبى القاسم الرعنى القيروانى ، المعروف بابن أبى دينار أن أصل هذه المعاهدة للصالح محفوظ في وزارة الخارجية الفرنسية وهي مؤرخة بحط القاضي ابن زبتون بتاريخ ٥ ربيع الآخر ٦٦٩ هـ . وقد حضر الفقيه أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى (عرض عليه القضاء في تونس وأبى — ت ٦٧٠ هـ) عقد تلك الهدنة ، المؤنس ، ص ١٣٦ .

الثانى الى المشرق • وكان من سياسة الحفصيين ازاء مثل هذا الحادث اتباع أسلوب المؤادنة ومهاداة أصحاب البلاد التى تأوى اللاجئين السياسيين بالهدايا الثمينة (٦٥) •

وفى هذا الصدد ، يذكر ابن بطوطه فى رحلته الى المشرق « أنه عندما زار مدينة الاسكندرية كان السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد الحفصى المعروف بالليانى ، سلطان افريقية المخلوع أو كما يسميه البعض المخلوع ضيفا على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى دار السلطنة بالاسكندرية وكان يجرى له مائة درهم فى اليوم الواحد • وكان يرافقه فى منفاه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، وأسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا ابن بعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين » (٦٦) • وظل الليانى مقيما بها الى أن توفى هو وولده السكندرى بالاسكندرية ، أما ابنه الثانى المصرى فقد امتد به العمر فى الاسكندرية ، بينما مضى أخوه عبد الواحد يتردد ما بين الاندلس والمغرب وأفريقية وتونس بجزيرة جربة (٦٧) •

وعلى الرغم من أن عهد أبى يحيى الليانى (٧١١ — ٧١٧ هـ / ١٣١١ — ١٣١٨ م) يدخل ضمن مرحلة الضعف التى بدأتها الدولة الحفصية

(٦٥) عن هذا الانقسام انظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ •

(٦٦) ابن بطوطه ، الرحلة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ١٤ • استوزر السلطان المخلوع : أحمد بن ابراهيم بن محمد بن يوسف المرادى القسرى المنوفى بالاسكندرية فى ربيع الاول ٧٣٦ هـ / أكتوبر — نوفمبر ١٣٣٣ م (المقرئى السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٤) • وأعترافا من السلطان المخلوع بجميل الضيافة وكرمها وطيب المقام بمصر — على حد قول د • سعد زغلول قد سمي واحدا من ابنائه المصرى والآخر السكندرى (الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦١) •

(٦٧) ابن بطوطه ، الرحلة ، نفس الصفحة •

بعد موت المستنصر وأحتدام الخلاف الاسرى في عهد ابنه الواثق (٦٨)
(أبو زكريا يحيى الواثق بن أبي عبد الله المستنصر) ، فان الدولة الحفصية
في هذا العهد ازدادت اقتربا من الدولة المملوكية ، وتوطدت العلاقات
بينهما لا سيما في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى حد
أن السلطان الحفصي المذكور (أبو زكريا الواثق) قطع اسم المهدي بن

(٦٨) فيما يلي أسماء سلاطين بنى حفص الدين تولوا السلطنة في مرحلة
الضعف المذكورة . الواثق يحيى بن المستنصر محمد : بويع سنة ٦٧٥ هـ ، وعزل
سنة ٦٧٨ هـ . وأبو اسحاق إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بويع سنة ٦٧٨ هـ وقتل
سنة ٦٨١ هـ نتيجة فتنة ، وأحمد بن مرزوق بن أبي عمار بويع سنة ٦٨١ هـ وقتل
سنة ٦٨٣ هـ ومما قيل عنه أنه نودى عليه ملكا على يد المشعوذين ، وأنقسمت
الدولة في عهده الى قسمين شرقي وغربي ، تم أبو حفص عمر بن أبي زكريا
بويع سنة ٦٨٣ هـ وبوفى سنة ٦٩٤ هـ . أبو عصيدة المستنصر محمد الواثق بن
المستنصر ، (شهد عصره بدخل الصوفية بدرجة كبيرة) بويع بالسلطنة في
سنة ٦٩٤ هـ ونوفى سنة ٧٠٩ هـ ، ثم أبو بكر بن الشهيد بن يحيى ، بويع له
سنة ٧٠٩ هـ ونوفى في نفس السنة (ودامت ولايته ١٦ يوما) ثم أبو البقاء
خالد أبي زكريا : بويع له سنة ٧٠٩ هـ وخلع سنة ٧١١ هـ ثم أبو زكريا بن محمد
بن أحمد اللحياني بويع له سنة ٧١١ هـ وفر من البلاد سنة ٧١٧ هـ (كانت
بيعته بمشاركة العرب فغلبوا على الوضع السياسى للدولة) . يليه محمد أبو
خربة بن أبي يحيى زكريا (الواثق) بويع له سنة ٧١٧ هـ ونوفى سنة ٧١٨ هـ .
ثم أبو بكر بن أبي زكريا يحيى بن الأمير اسحاق إبراهيم بويع له ٧١٨ هـ وتوفى
٧٤٧ هـ ثم أبو حفص عمر بن السلطان أبي بكر بن أبي زكريا بويع له في رجب
٧٤٧ هـ ونزل في جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (قتله أبو الحسن المريني أنتقاما لوفيه
على اخوته وسفك دمهم) ثم أبو العباس أحمد بن السلطان أبي بكر الملقب
بالمعتمد بويع له سنة ٧٤٨ هـ ودامت ولايته أسبوعا أو أكثر قليلا (ذهب ضحية
مؤامرة الحاجب المسند على الدولة ابن نافراجين) ثم السلطان أبو الحسن
على المريني ، استولى على تونس في جمادى الثانية ٧٤٨ هـ وطرد منها سنة
٧٥٠ هـ . ثم أبو الفضل المريني (سنة ٧٥٠ — ٧٥٠ هـ) ثم أبو العباس الفضل
بن أبي بكر الحفصي (بويع سنة ٧٥٠ هـ وخلفه الوزير ابن تافراجين سنة ٧٥١ هـ
ثم أبو العباس بن أبي بكر ، بويع له سنة ٧٥١ هـ وكان مغلوبا على أمره من ابن
نافراجين حتى وفاته سنة ٧٧٠ هـ . وأخير نولى السلطان الحفصي أحمد بن
محمد بن أبي بكر في الفترة من سنة ٧٧٢ الى ٧٩٦ هـ . (انظر : ابن القنفذ ،
الفرسية ، ص ٢٩٤) . انظر الملحق رقم ٧ .

تومرت من خطبة الجمعة وأستبدله باسم السلطان المملوكي * ولذلك ،
اختار هذا السلطان الاسكندرية مأوى له عندما اضطربت أحوال البلاد
فأضطر الى الخروج من تونس والتوجه الى الاسكندرية بحرا وهناك
أقام البقية الباقية من حياته حتى عام ٧٢٨ هـ أو ٧٢٧ هـ (على ما ذكره ابن
تغرى بردى) (٦٩) *

ومن النبت الاحصائي لسلاطين بنى حفص في الضعف الوارد في
الهامش سالف الذكر يمكننا الوقوف على مدى الضعف الذى وصل اليه
سلاطين هذه المرحلة * فبعد عهد اللحياني الملقب أيضا بالمستنصر
الثانى (٧٠) ، وباستثناء حكم أبى اسحاق بن أبى بكر (٧٥١ هـ — ٧٧٠ هـ)
الذى غلب عليه الوزير ابن تافراجين ، كان متوسط فترات حكم هؤلاء
تتراوح بين السنة والسنتين * ولذلك كانت ميول هؤلاء السلاطين
وهوهم يتأرجح بين المشرق والمغرب تبعاً لقوة الدولة الحاكمة فى كل
منهما ، لا سيما وأن المغرب قد عرف فى هذه المرحلة من جديد بعثا لدولته
على أبدى بنى مرين الى حد قيام السلطان المرينى أبو الحسن بالاستيلاء
على الدولة الحفصية وأملأها لفترة امتدت ما بين عامى ٧٤٨ و ٧٥٠ هـ كما
نجح فى حكمها ابنه أبو الفضل المرينى أيضا خلال سنة ٧٥٠ هـ *

ومع حالة الضعف والتردى التى آلت اليها الدولة الحفصية فى تلك
المرحلة فقد شهدت مرحلة من البعث امتدت ما بين عامى ٧٧٢ هـ و ٨٩٩ هـ ،

(٦٦) ويذكر ابن تغرى بردى أن أبا زكريا يعتبر أول الامراء الحفصيين
الذين غلبوا أسم المهدى من الخطبة وعوضه بالسلطان الناصر محمد بن
قلاوون (النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، القاهرة ، ص ٢٦٨) *
(٧٠) كانت الخطبة مشتركة بينه وبين أبيه حيث يقول الخطيب بعد ذكر
السلطان : « اللهم وأرضى عن نجلهم الناشئ عن مقامات شرفهم المستنصر
بالله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد (الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٦٤) *

وبدأت بعهد السلطان الحفصي أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أبى يحيى
أبى بكر ، وشملت فترة حكم ابنه أبى فارس عبد العزيز : ٧٧٢ — ٨٣٧ هـ
قبل أن تنتقل الى طورها الاخير فى عهد كل من محمد المستنصر بن المنصور
بن أبى العباس أحمد وأبى عمر عثمان بن محمد بن المنصور بن أبى فارس
عبد العزيز ٨٣٧ — ٨٩٣ هـ ، وسجل نهايتها خلفه أبو عمرو يحيى بن محمد
المسعود : ٨٩٣ — ٨٩٩ هـ .

بدأ أبو العباس عهده الاول فى السلطنة بالعودة الى قسنطينة
بمساعدة بنى مرين سلاطين المغرب الاقصى . وكانت وحدة السلطنة
الحفصية قد تمزقت من جراء استبداد أشياخ القبائل العربية بنواحي
اقطاعاتهم ، ولذلك ، كان السبيل الى اعادة هذه الوحدة ضرب سلطة
هؤلاء بقوة أخرى فتية تتمثل اما فى سلاطين المرينيين أصحاب المغرب
الاقصى أو سلاطين المماليك فى مصر والشام . وقد تعدى دور المرينيين فى
هذه الحوادث نطاق التحالف مع أبى العباس باسم الوحدة الحفصية
عندما تدخلوا فى النزاع الواقع بين هذا السلطان وابن عمه عبد الله
صاحب بونة الذى حصل على تأييدهم ضد السلطان الحفصى فى حركته
الفائسلة سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) وهى الحركة التى أنتهت بقتله وتعليق
رأسه على باب فاس . وفى رواية أخرى أنهما تلاقيا فى عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٥
م) وهزم عبد الله فى مسافة كبيرة من تبرسق الى سييوس ، ففر على
فرسه ، ومع حلول الظلام ركب البحر قاصدا المغرب للاستنجاد ببني
مرين (٧١) .

(٧١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٩١ . انظر أيضا : ابن خلدون ،
العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٨ . (لم أتوصل الى معرفة مكان مدينة سييوس ، ولعلها
تكون محرفة ، حيث ذكرها ابن خلدون سببية وهى مدينة بالقرب من تونس) .

كذلك تعدى دور العرب أيضا حسبما سيجيء الحديث فيما بعد
نطاق الاستبداد القبلى بالسلطة المحلية ، عندما استعان بهم الشيخ
الموحدي أبو عبد الله بن محمد بن تفراجين استكمالا لدور أبيه أبي محمد
بن تفراجين فى الاستبداد بالسلطنة واتصالا بهذا الدور العربى الرافض
أصلا للسيطرة المملوكية ، وصلت الى تونس فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م من
مصر سفارة السلطان المملوكى الملك الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ — ٨٠١
هـ / ١٣٨٢ — ١٣٩٩ م) تحمل هدية قيمة الى السلطان أبى العباس الذى
أجزل بدوره العطاء لرسد السلطان المملوكى وخرج معهم فى عام ٨٠٠ هـ /
١٣٩٨ م يودعهم ويشيعهم بنفسه وأتفق أن ضم ركب السفارة المركب
المغربى الكبير الذى خرج للحج ، فخرج معهم حتى تجاوزوا حدود
طرابلس ، حتى يكون أفرادهم فى مأمن من عبث الاعراب فى تلك النواحي
لا سيما الهوارة (٧٢) .

وهذا الحديث عن العرب والمماليك ، ينقلنا الى نقطة بحث يستلزمها
الامر لتوضيح ماوقع من حوادث يمكن حصرها فى نطاق العلاقات التى
كانت قائمة منذ عصر الموحدين بين العناصر العربية والمملوكية والمغربية
التي شذلت وجها آخر للعلاقات الحفصية المملوكية خارج نطاق الحديث
عن الخلافة الموحدية الحفصية وما يتعلق بها من موضوعات كالبيعة
والتبعية لأمشرك الاسلامى والمغرب .

(٧٢) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٠٩ . ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٧

(٣)

تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبين

الحفصيين

هذا الوجه الآخر من العلاقات الشرقية — المغربية في عهد الدولتين الحفصية والمملوكية تتجاوز أهميته المجال السياسى الى مجال الفكر الشعبى عند العامة ، وذلك منذ أن انتشرت بينهم مقولات لابن تومرت عبر بها عن تأصل الدعوة الموحدة وتذهب هذه الاقوال الى أن من يطول به العمر من الموحدين سوف ينشهد امراء من أهل مصر يستظلون بالشجرة التى كان المهدي يديم الجلوس تحتها للوعظ والارشاد .

أما عن دور العرب في تاريخ الدولة الموحدية المراكشية فقد سبق أن فصلنا الحديث عنه ونعود هنا الى الإشارة الى هذا الدور في تاريخ الدولة الحفصية . ففى بداية هذا الفصل أشرت الى الامكانيات البترية المحدودة التى قدمها موقع الدولة الجديد في تونس اذا ما قورن بموقع الدولة الموحدية الاولى في مراكش . وتبرز رسائل الموحدين — بعد حملاتهم على تونس — الاهمية الاقتصادية لمدين افريقية التى أفنتها الموحدون . وقد سبقنا الإشارة الى مثل هذا الوصف بالنسبة لمدينة تونس (٧٣) . وفى رسالة أخرى اشارة الى الاهمية الاقتصادية لمدينة قابس جاء فيها : « . وهذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الافريقية ومعناها وقفلها الذى يحمى حوزتها ويكف عداها ، ومنعتها التى لا يتهىء لمفسد أن يتخطاها الى أذيتها وينعدها ، وما تمنى للاغزاز — أبادهم الله — ما تمشى الا تملكها ، ولا توصلوا الى اغترهم الا بانتشار سلكها . وهى جامعة مع هذه الفوائد

(٧٣) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٧ .

الجمّة ، والمنافع الكاملة المستتمة محاسن يروق الناظرين رواؤها وتملا العين بهجتها * المؤنقة ولألأوها يتفجر خلالها الماء العذب ، ويلتقى بها الركاب والركب ، وتحقق بأرجائها الجنات الالفاف والحدائق الغلب ، وتجتمع فيها أصناف التمر المتخير والحب » (٧٤) *

ومع ذلك ، فلا جدال في الحقيقة التي ذكرناها فيما سبق حول الامكانات البشرية المحدودة للاراضى التونسية ، وتنعكس هذه الامكانات أيضا على حجم القوة الحربية للحفصيين ، بحيث اضطروا الى فتح المجال أمام المرتزقة من الاجناس المختلفة ومن المعروف أن قوة الجيش الحفصي في عهد أبي ركريا الاول مؤسس الدولة نحو سبعين ألف مقاتل من العرب والاندلسيين والماليك الغز والنصارى (٧٥) * وتعد العناصر الثلاثة الاخيرة وافدة جديدة اذا ما قورنت بالعنصر العربى الذى سبق الى الهجرة والاستقرار والانخراط في صفوف الموحدين * كما ظهر العنصر التركى من دون غيره من العناصر عنصرا متسلطا بحكم السيطرة المملوكية على بلدان المشرق فضلا عن تحول الغز الى عنصر محلى آخر تكاثرت أعداده الى جانب العنصر العربى * وقد ازداد نسل الممالك الغز لسدور العرب العسكرى وحاز افرادهم على الكثير من الامتيازات الاقطاعية التى سبق اليها العرب *

فلقد ظهر الممالك الغز في المناطق الشرقية من بلاد المغرب في خلال فترة الاضطرابات التى تسبب فيها ابن غانية وأسرته الميورقية * وجاء انخراطهم في صفوف المتحاربين في خضم هذه الحوادث متفقا مع سبق استخدامهم في المشرق بين قوات الفاطميين وقبلهم العباسيين *

(٧٤) لبفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ، ص ١٩١ .

— R. Brunschvig, La Berbérie, p. 81.

(٧٥)

أما في المغرب فقد استخدمهم الموحدون في جيوشهم ، في أعقاب السفاره التي أرسلها صلاح الدين الى المنصور الموحدى والتي كانت من آثارها غلبة روح الجهاد على المشاعر الاسلاميه في المغرب مما أدى الى انفتاح الموحدين على الغز بحيث بدأوا في استخدامهم في ديوان التمييز^(٧٦) .

ثم زادت أهمية هؤلاء الغز في الجيش الموحدى عندما اعتمد عليهم يعقوب المنصور بكثرة في معركة الارك عام ٥٩١هـ — / ١١٩٥م . ذلك أنه لما أراد الاستعداد للمعركة أعلن عن النفير العام عبر كتبه التي أرسلت الى جميع بلدان مملكته^(٧٧) لجمع أكبر عدد (حسب قوله) من الاتقياء والصالحين والشجعان ، على أن يحملوا اليه لتمييزهم قبل بدء المعركة .

وأجتمع للمنصور من هؤلاء الغز الاتراك عدد كبير قربهم اليه وجعل كلما ساروا بين يديه ، يبدى أفتخاره بهم حتى أنه كلما نظر اليهم قال . « من عنده هؤلاء الجند لا هؤلاء ويتشير الى العسكر »^(٧٨) .

(٧٦) يكون على رأس ديوان العسكر ورير ، غالبا من الجند ، له الاشراف على كل ما يتعلق بالجيش وشئونه . اما التمييز فهو كما أسلفنا عملية تصفية في صفوف الجيش من المارقين والخطرين واعدائهم ، ثم تطور الى اختيار الصفوة من الجند باشراف الخليفة الموحدى قبل كل معركة . ويعمل بالتمييز ويقرن بالانعام والبركات على الجند الذين فازوا بالتمييز ، وكان يتولى ديوان التمييز وزير يسمى كاسب ديوان التمييز . وكان للجيش في ديوان الكتابة كاتب أو أكثر يختصون بالكتابة في شئونه (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤١) .

(٧٧) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٢ .
(٧٨) وفي اعزاز الخليفة يعقوب الموحدى لهؤلاء شبه بما حكى عنه قتبية بن مسلم والى خراسان حين لقي النرك ، وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فأخبر أنه في ناحية من الجيش « متكئا على سنة قوسه رافعا اصبعه الى السماء ، فقال قتبية لاصبعه هذا : تلك أحب الى من عشرة آلاف سيف » . (المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٥) .

والمنصور في ذلك قد أقترَبَ بهم من وضع طائفة المماليك السلطانية — أي المماليك الخاصة بالسلطان القائم بالامر * وقد وصفهم القلقشندي بأنهم: « أعظم الاجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدَّهم قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم يؤمر الامراء رتبة بعد رتبة » (٧٩) .

وقد بلغ من اعزاز المنصور للغز الوافدين من مصر وغيرها من بلدان المشرق الى حد اقطاعهم الاقطاعات الواسعة التي لم يصل اليها الجند الموحدون * وكان جزء مهم من هذه الاقطاعات بالمغرب والاندلس يغل في كل سنة حوالي ٩ آلاف دينار * وفي ذلك يقول المراكشي : « فأحسن نزلهم وبالغ في تكريمهم وجعل لهم مزية ظاهر على الموحيدين ، وذلك أن الموحيدين يأخذون الجاميكة ثلاث مرات في كل سنة ، في كل أربعة أشهر مرة ، وجاميكة الغز مستمرة في كل شهر لا تختل * وقال : « الفرق بين هؤلاء وبين الموحيدين ، أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجاميكة والموحيدين لهم الاقطاع والاحوال المتأصلة » (٨٠) .

وتجاوزت المكانة السامية التي شغلها هؤلاء الحياة العسكرية الى الحياة العامة ، فقد عرف عنهم حسن المعاشرة والمعاملة للناس بل ذكر أنه لم يرد المغرب من هذه الطائفة الا وكان ألطف حسا وأذكى نفسا وأحسن محاضرة وأطيب معاشرة ، وأنهم كانوا يقرضون الشعر فزاد ذلك من علاقاتهم الودية بالمغاربة (٨١) .

(٧٩) القلقشندي ، صبح الاعشى ، دار الكتب ، ١٣٣٢ هـ ، ج ٤ ، ص

(٨٠) المراكشي ، نفسه ، ص ١٧٧ .

(٨١) يذكر المراكشي : أنشد لهم أحد الاصدقاء شعرا لاحد شعراء الاندلس من أهل اشبيلية :

وقاتل فيهم لم نهجع فقلت له كيف الهجوع لطرف نافر الوسن
لم تدر الكرى المتنوع عن بصرى هي السنان التي في مقلتي حسن
(ص ١٧٧) .

وقد ذكر ظهور هؤلاء الغز مع يعقوب المنصور عند زيارته لمدينة
تينمك وجلسهم تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد العامة بمقولات ابن
تومرت السابق الاشارة اليها عند الوعد بالنصر ، وعن مشاهدة أمراء من
أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة * ويذكر في هذا الصدد أنه بمشاهدة
هؤلاء مستظلين بظل تلك الشجرة اعتبر ذلك من الايام المشهودة حيث
سمع التكبير من كل جهة وخرجت النساء تولولن وتضربن بالدقوف ويرددن
بلسانهن البربرى ما معناه « صدق مولانا الامام نشهد أنه الامام حقا » *
وأن كان المنصور نفسه لم يبد اهتماما بتلك الحادثة لعدم اعتقاده أصلا في
امامة المهدي ومهدويته (٨٢) *

واستمر جلب الغز الاتراك من مصر في عهد خلفاء يعقوب المنصور
والى ما بعد هزيمتهم الشنعاء في عهد محمد الناصر بن يعقوب المنصور في
معركة العقاب بالاندلس سنة ٦٠٩ هـ (١٢١١ م) ، التى كانت نذيرابخروج
الاندلس من أيدي الموحدين بل ونهاية الدولة الموحدية(*) * ومع انتقال
قوة الدولة الموحدية الى القسم الشرقى من أملاكها على أيدي الحفصيين
في تونس ، وفي ظل ما قام من علاقات أوثق مع الش ق ، تهيأ المجال لدخول
عدد كبير من المماليك الاتراك في خدمة الدولة الحفصية عسكريا بوجه
خاص * وظهر هؤلاء في عهد الامير الحفصى أبى زكريا وقد خاقت مرتبتهم
في الجيش مرتبة العرب القدامى * فقد رتب هذا الامير جنوده في تونس
تحت امرة قائد يسمى المزوار على النحو التالى :

(٨٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨ .

(*) راجع في هذا الانهيار ، ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٤٤، ٢٤٢،

أولا — الجند من أبناء الموحدين المغاربة •

ثانيا — الجند من أبناء الأندلسيين الوافدين ومنهم الرماة •

ثالثا — الجند من ممالك الترك •

رابعا — قبائل العرب •

خامسا — العلوج أبناء الأفرنج •

لذلك استمر دور هؤلاء الترك يتساركون في الوقائع الحربية لدول
المغرب بما في ذلك الدولتين المرينية والزيانية (**).

(**) لم استنجد بالترك في دولة عبد الواد الزيانية في تلمسان خاصة في عهد أبي حمو الزباني — كقواد أورسل — الذي أرسل رسوله موسى بن علي الغزى لطلب النجدة العسكرية ضد ثورة راشد بن المغراوي خاصة من العرب عندما أرادوا محاصرة بجاية ضد الموحدين (انظر الفرد بل ، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ١٢٩) . ويؤكد برنشفك على أهمية الاعتماد في الحقبة الاولى من القرن ١٣م من حياة الدولة الحفصية على مجموعات هامة من الغز ويضيف أنه في عهد أبي زكريا الاول وابنه كان قد تم شراء ألفا من الفرسان المماليك الاتراك من مصر . وبذكر أيضا براوية ابن خلدون أنه بعد سقوط بغداد هرب عدد كبير من قواد الاتراك الى الشمال الافريقي ابتاعهم الخليفة المستنصر . ويستطرد برنشفك الحديث عن وجود العبيد في الجيش الحفصي فيقول : « . . في بداية القرن ١٤م كانت هناك مجموعة من العبيد السود جناوة Ganawo مرتدين ملابس بيضاء حاملين الرماح ، كانوا جزءا من حاشية السلطان ، ولكنهم كانوا قليلي العدد » . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

أمام هذا النمو المتزايد للعنصر التركي بين صفوف الجندية في قوات الموحدين والحفصيين والمرينيين والزيانيين ، انحسر الدور العربي الى مجال أحداث الثورات والفتن . وقد سبقهم في ذلك عرب مصر تعبيراً عن رفضهم للحكم التركي . ونشهد بداية هذه الثورات من العصر الايوبي عندما قام العادل سيف الدولة أخ صلاح الدين في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بالقضاء على ثورة عربان الصعيد بقيادة كنز الدولة ، وعندما قام الامير أقطاي نيابة عن السلطان المملوكي أيبك بالقضاء على ثورة كبرى لعرب بلبيس سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م . وكذلك عندما قام الاميران سلار وبيبرس الجاشنكير نيابة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م بالقضاء على ثورة أخرى للعرب في صعيد مصر قتل خلالها منهم بضعة آلاف حتى « جافت الارض بالقتلى » ، ومنها ماوقع من نتائج وخيمة للعرب ترتبت على ثورتهم من جديد في الصعيد سنة ١٣٥٣ م بقيادة ابن الاهدب شيخ قبيلة عرك (٨٣) .

لم تكن حركات العرب في مصر وثوراتهم ضد الترك نابعة من فراغ سياسى ارتبط بالحياة البدوية التي عرفت عن جماعات منهم تعرف بالعربان أو الاعراب . فهي قد اتصلت من ناحية بحركة الفلاحين المصريين الراضين للمظالم الجبائية المختلفة التي نزلت بهم الى حد لجوئهم الى « الهروب من الارض والاستسلام للموت في المجاعات والابوة » (٨٤) . كما اتصلت حركتهم ايضا بالاتجاهات الشيعية والخارجية التي أنهضت

(٨٣) المقرئى ، السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٢٠ — ٩٢٢ .
سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٠٩ .

— A.N. Poliak; Les Révoltes Populaires en Egypte à L'époque (٨٤)
de Mamloukes et Leurs Causes économiques REI 1934, T.3, pp.
260—61.

أصحابها ضد الحكم المملوكى السنى * هذا فضلا عن اتصال تلك الحركة بأسباب تاريخية تعلقت بظاهرة الاختلاط بين العرب والبربر في شمال أفريقيا ، وارتباط ثوراتهم في بداية عهد كل من دولتى الايوبيين والمماليك بالاعتقاد في أنهم أحق بالحكم من هؤلاء الحكام الذين خلفوا الفاطميين * ثم أن أتسايخ العرب كانت لهم امتيازات أحرزوها من جراء اقطاعهم الاراضى الواسعة في مناطق اقامتهم بل وتنصيبهم جباة لخراج الوجه القبلى ^(٨٥) ولذلك تنوعت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل العرب وأصبحت لهم موارد ثابتة من مواشى الذبح والخيول والجمال المصدره الى القاهرة والاسكندرية ، بل تعداها الى الدقيق والقمح والزيت والصابون والفواكه وبقية المنتجات الزراعية التى ينقلونها ويتاجرون فيها بل قامت بعض بطون هذه القبائل العربية المستقرة بالزراعة والصناعة مثل هواره في الصعيد التى عملت في عصر قصب السكر وتكريره ^(٨٦) *

وحين تنتهى صورة هؤلاء في نظر المؤرخين المعاصرين الى تلك الصورة التى نقلها لنا ابن اياس عن حوادث سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣ م ، فإن الامر يدعو الدارسين الى البحث في الاصول التاريخية لهذه الصورة قبل الاخذ بظاهرها الوارد على لسان ابن اياس القائل : « في ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ تزايد الفساد من العربان والعشيرة في جهة الشرقية والغربية وجهة الصعيد حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدي المقطعين فعند ذلك جمع السلطان الامراء في الدهيئة وضربوا مشورة بسبب فساد أحوال البلاد الشرقية والغربية وتعيين في ذلك اليوم جماعة من الامراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان وطردهم عن البلاد فعين طراباي رأس نخبة

(٨٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

— E. Piloti; L'Egypte au Commencement du XVe Siecle, Le Cairo (٨٦)

Univ. Fouad, Ter 1950, pp. 19 et Pass.

النوب الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية وعين الامير قانئى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة الشرقية * وعين خايربك صاحب التحجاب وقانصوه بن اللوقا أحد الامراء المقدمين الى جهة الصعيد وعين أزبك المكحل أحد المقدمين ودولات باى قرموط أيضا بأن يتوجهوا الى جهة البحيرة فخرجوا هؤلاء الامراء وصحبتهم الجم الغفير من العسكر * ثم بعد أيام جاءت الاخبار بأن عربان الشرقية قد كسروا الامير قانئى باى أمير آخور كبير وقطعوا طبوله وجرح في وجهه * فعند ذلك أرسل له السلطان نجدة فعين الامير نمر زردكاش أحد الامراء المقدمين ومعه جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا اليه * ثم أن الامراء الذين توجهوا الى محاربة العربان صاروا يقطعون رؤوس شبان العرب ويرسلوهم الى القاهرة في شلف الثبن على الجمال * وأشيع عن الامير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان بالمنشار من رؤوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم جماعة كثيرة وراح الصالح حتى مهدوا البلاد * وقتل من العربان زيادة على ألفين انسان فمن يومئذ سكن الاضطراب التى كانت بالشرقية والغربية قليلا وخف أمر العشير الذى طافشا في البلاد » (٨٧) *

ومثل هذه الصورة تراها في قول العبدري عن عربان افريقية أثناء رحلته حيث قال : « * ولا يعدم من عربانها ايلام خاطر ولقد استوى لديهم الصالح والطالح وأنفق في مذاقهم بكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح * اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا وأعتقدوا هلاكه ملة ودينا فما له عندهم طلعة أحلى من مال اليتيم في الولي الفاجر اللئيم ، ومن حيث اخوان الصفا ومن الوعد على ثقة الوفاء لبسوا أسمال المغاور والغوا خلال المفاوز فغهم بها أغنى عن الماء من ضب وأصب الى صب الغرافر * »

ولا يخطر على تلك المعابر عابر ولا يرد في تلك المناهل ناهل الا انقضوا عليه انفضاض النسور على البغات ، وأنحدروا عليه بحيث لا يغاث من استغاث . فمزقوا أشلاءه تمزيق الدهر للاحرار وعاثوا فيه عوث أوس في ثلة وأسامة في ضرار ، ولا آمن لهم من عوادي الدهر « (٨٨) » .

غير أن الصورة في المغرب الادنى لم تكن كذلك على الاطلاق . ففى تلك المرحلة من حياة الدولة الحفصية عمل العرب على البناء مثلما كانوا يفعلون في عهدهم الاول . ففضلا عن تعمير مناطق استقرارهم الاولى الساحلية وما نشره بها من معالم حضارتهم وفي مقدمتها اللغة العربية ، أنفقوا الى سفوح الهضاب العالية يتحصنون بها خلال وقائع أزمتهم فأسسوا قرية القلعة الصغرى والكبرى وأكودة والحمام في أوائل القرن ٨هـ وفيها امتزجوا أكثر بالسكان من أهلها البربر .

ولكن العرب سرعان ما أستثمروا — أثناء حركتهم ضد السيطرة التركية في الجيش والادارة الحفصية — الثورات المختلفة التي نشبت ضد الحفصيين ، فظهر لهم دور كبير في ثورة الدعى أحمد بن على عمارة المسيلي ، الذى نجح مؤقتا في ادعاء المهديّة وشرع يطوف البلاد لاختد البيعة ، فكان العرب أول من بايعه وأقتنع بمهدويته لا سيما قبائل دباب ورياح (٨٩) . وبتعزيد العرب بايعه أهل فاس سنة ٦٨١ هـ / (١٢٨٢ م) ودارت مذبحة هائلة بين هذا الدعى والقوات الحفصية وأهتبل العرب الفرصة وأقدموا على ضم القرى انتقاما من السلطة الحاكمة .

(٨٨) العبدري ، الرحلة ، المقدمة ، ص خ ، ص ٣ — ٤ . انظر أيضا : ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧ — ٩ .
(٨٩) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٤٣ — ١٤٥ . الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٣٦ — ١٠٣٧ . عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢١ — ٤٢٨ .

وتكرر المشهد على أطراف تونس العاصمة الى حد دخول أحد زعماء قبيلة الكعوب (هدا ج بن عبد الكعبي) جامع الزيتونة بخفيه ، ولما سألته العامة : « لماذا تدخل المسجد بخفيك ؟ قال : دخلت بها على الملك بقصره » استخفاها منه بالدولة الحفصية ، فما كان من العامة الا أن فتكوا به (٩٠) .

ثم عمد عرب الكعوب من أولاد أبي الليل (٩١) في سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) الى طلب العون من خالد بن أبي زكريا أمير الثغور الغربية وأغروه بالاستيلاء على القسم التترقي من الدولة الحفصية بسبب القبض على بعض أنبياءهم . فلم يتردد خالد بن أبي زكريا في الاندفاع مع الحرب في حركتهم للاخذ بالثأر وتملك البلاد . ولم يكتب لحركته النجاح بسبب وصول أبي يحيى اللحياني من الحج واستيلائه على الحكم في عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م ، بمساعدة العرب أنفسهم . ولم يلبث هذا السلطان الحفصي أن أشرك معه العرب في سلطانه بل أباح لهم حرية التصرف في البلاد وأقطعهم اقطاعات واسعة ليكونوا عوناً له على منافسيه (٩٢) .

وبدخول تونس تحت الحكم المريني ومصاهرة أبي الحسن المريني

(٩٠) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٥٦ .

(٩١) عن دور عرب الكعوب من أولاد أبي الليل وتوراتهم ، ثم علاقتهم بابن تاملجين .

أنظر :

— Georges Marçais; Les Arabes en Berérie Du XI ou XIVE Siecle, Paris 1913, pp. 487—488.

(٩٢) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٣٦ — ١٤٠ .

لابى يحيى بن أبى زكريا (٩٣) واتخاذاه من أبى محمد بن تافراجين (٩٤) وزيراً له ، يعود العرب الى الثورة * وفى هذا يقول الزركشى : « .. ووقف الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين بين يدى المولى ابراهيم ومهد أموره وأحكم دولته ولقب بالمستنصر وكانت سيرة الشيخ ابن تافراجين فى مدته سيرة حسنة مع جميع أهل تونس الا أنه لم يكن له فى أعرابها وطرفها قوة ظهور وأعظم جبايه من سفارة البحر » (٩٥) .

ثم يعود العرب الى الظهور من جديد على مسرح الحوادث ابان الفتن التى نتجت بين ابناء أبى يحيى أبى زكريا بايعاز من ابن تافراجين ، عندما لجأ الى أغفال أخذ البيعة لولى العهد أبى العباس أحمد ونصب مكانه أخاه أبا حنفس . فانحاز عرب الكعوب من بنى سليم الى جانب ولى العهد أبى العباس أحمد ، وانتهى هذا الموقف بقتل ولى العهد وأحد رؤساء الكعوب وهو أبى الهول بن حمزة (٩٦) . فليجأ هؤلاء الى أبى الحسن على المرينى فى عام ٧٤٧هـ — (١٣٤٨م) يستحثونه على ضم افريقية وقد تحقق

(٩٣) يشير ابن القنفذ الى هذه المصاهرة بقوله : « صاهر أبو الحسن المرينى الدولة الحفصية مرتين الاولى على فاطمة ابنة السلطان أبى بكر التى هلكت فى غزوة طريف التى نكب فيها السلطان أبو الحسن سنة ٧٤١ هـ ، وتم زواجها منه فى سنة ٧٣١ هـ . ثم تزوج بنينا ثانية للسلطان هى عزونة شقيقة الفضل صاحب بونة وتم زواجه منها سنة ٧٤٧ هـ (الفارسية ، ص ٢٤ . أنظر أيضا :

— G. Marçais; La Berbérie Musulmane et L'orient Au Moyen Age, Paris, 1946, p. 301.

(٩٤) ينتسب ابن تافراجين الى بربر الموحدين (المصامدة) اذ كان جده من أعوان المهدي بن نومرت وأبو محمد هذا يعتبر أكبر شخصية فى البيت الحفصى فقد تولى منصب الحجابة عندما استبدت بالدولة فى عهد السلطان أبى اسحاق بن أبى يحيى ، حتى أصبح الحاكم الفعلى وباسمه كانت ترد كل مكاتبات الدولة (أنظر : الفرد بل ، نفسه ، ص ١٤٠ — ١٤٦) .

(٩٥) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٩٦) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨٤ — ٨٥ ، ٨٩ .

ذلك بالفعل وتمكن هذا الامير المرينى من دخول تونس في سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٩م) وبسط السيطرة المرينية على البلاد التونسية^(٩٧) .

غير أن أبا الحسن المرينى لم يلبث أن عامل العرب بنفس المعاملة التى سبقه اليها الحكام الاقوياء فقد رفض أن يحتفظوا بحقوق اتاوة الخفارة التى كثيرا ما كان يغالى فيها أشياخ العرب الذين فرضوها على كل مسافر بنواحى اقطاعاتهم نظير تأمينهم لهم ضد أعمال السلب والنهب والغارات . وكان أبو الحسن المرينى مدفوعا فى ذلك بحرصه على فرض هيبة الدولة وسلطانها بدليل اقدمه على وضع حد لسيطرة ابن تافراجين وسطوة الاعراب معا . وبالنسبة لهؤلاء ، فقد بالغ فى انتزاع ما كانوا ينعمون به من سلطان الى حد أنه استعاد الاقطاعات التى كانت بأيديهم وأعاد توزيعها على المرينيين وأهل البلاد ورفع اتاوات الخفارة عن الناس^(٩٨) وأعفاهم منها وعوض العرب عنها بعطايا أو رواتب من ديوان الدولة .

غير أن العرب أنكروا هذا الاسلوب وأسفروا عن نواياهم العدائية ولجئوا الى استخدام العنف ضد الحكم المرينى ، ووجدوا تشجيعا على ذلك من ابن تافراجين . واتفق جل العرب لا سيما الكعوب منهم على تشكيل حكومة جديدة بافريقية يقوم عليها أحمد بن عثمان ابن أبى ديوس آخر أحفاد بنى عبد المؤمن ، وانضم اليهم جيش الزناتيين من بنى عبد الواد . وعند الاشتباك مع الجيش المرينى دارت الدائرة على المرينيين وفر أبو الحسن الى القيروان وهناك تلقى الهزيمة الثانية فى محرم من عام ٧٤٩هـ — ١٣٤٩م بعد حصار لم يتخلص منه الا بعد دفع الخفارة للعرب ضعف ما كان

(٩٧) أنظر عنهم ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٢ .

(٩٨) الوزير السراج ، الحل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٥٦ — ١٠٥٧ .

يدفعها التونسيون وذلك مقابل حمايته حتى يصل الى سوسة ومنها بحرا الى تونس (٩٩) *

وفي تونس استطاع أبو الحسن أن يقرب اليه العرب من جديد فبدأ بأولاد مهلهل وعن طريقهم انصاع بقية العرب وأثباتا لحسن نواياهم وعربونا لطاعتهم له قدموا له سلطانهم الجديد ابن أبي دبوس وهكذا عاد التآلف والتحالف بينه وبينهم فصاهرهم أبو الحسن بأن زوج ابنه أبا الفضل بابنة عمر بن حمزة أحد زعماء العرب ربما كسبا لقلوبهم ولترويض مواقفهم الراضية (١٠٠) *

وهكذا شغلت الدولة الحفصية لفترة طويلة بالدور العربى ، وكاد الدور التركى ينطمس بالمقارنة بالدور العربى ، ومن الغريب أن البديع للوجه السلبى للعرب أصبح يتمثل فى المغاربة المرينيين *

ثم عاد العرب الى سيرتهم السابقة مع عودة الدولة الى التسبب بعد وفاة سلطانها الحفصى أبى اسحاق سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ومن قبله ابن تافراجين سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٥ م) * غير أن هذا لم يمنع من تأديبهم من جديد على يد السلطان أبى فارس عبد العزيز سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) واجبارهم على دفع ضريبة العشر * وتكرر تأديبهم على يد السلطان أبى عمرو عثمان بعد أن تولى السلطة فى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٧ م) خرج فى اثر العرب (١٠١) وقبض على أكابرهم ومنهم : نصر الذواوى ومحمد بن سعيد واسماعيل بن ضرار ومهلهل وأكابر الذواودة (١٠٢) بعد أن احتال عليهم

(٩٩) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(١٠٠) الزركنى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨١ — ٨٥ .

(١) الزركنى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(١٠٢) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ح ١ ، ص ١٠٨٤ .

باعطاء كل شيخ منهم ألف دينار حتى يدخلوا القصر وعندئذ قبلهم بالحديد . فثار أولاد أبى الليل وحاولوا تطويق تونس ، الا أنهم فشلوا في ذلك . كذلك شارك العرب في حوادث عام ٨٩٣ هـ (١٤٩٠-١٤٩١ م) منذ عهد أبى زكريا يحيى حفيد أبى عمرو عثمان ، ففيها أثاروا الفوضى في البلاد واستغلوا فرصة الوباء الذى انتشر فيها فيما بعد لا سيما في عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٦-١٤٩٧ م) وأودى بحياة السلطان نفسه (١٠٣) . ومع نهاية الدولة غلب أثيناخ العرب من جديد في الاستبداد بسلطاتهم على حساب السلطة الحفصية . لا سيما منذ عام ٩٣٢ هـ (١٥٣٣ م) في عهد السلطان محمد بن الحسن عندما استبد أولاد سعيد بالبلاد الامر الذى دعا السلطان الى اسكاتهم بستين ألف دينار (١٠٤) . وقد جسم ابن أبى دينار سطوة العرب في قوله : « ... ان هؤلاء العرب أذاهم بالطبع مثل العقرب ولو قطع ذنبها لا يبطل لدغها ، والى زماننا نحن منهم على وجل نسأل الله أن يحسم هذه المادة » (١٠٥) .

(٤)

دور الجند المغاربة في العلاقات الشرقية

حيث الطبيعة بلاد المغرب وأفريقية بوجه خاص بالمقومات الضرورية لقيام المغاربة بدور بحري هام ، وقد لاحظ ابن خلدون أثر ذلك على تمرس

(١٠٣) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٥٧ . الوزير السراج ، نفسه ، ص ١٠٩٥ (١٠٤)

(١٠٤) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٦١ . انظر اكضا ، أحمد بن أبى الضياف ، اتحاف أهل الزمان ، تونس ، ١٩٧٧ ، ص ١٢ — ١٣ .

(١٠٥) ابن أبى دينار ، نفسه ، ص ١٥٩ . راجع في ذلك ابن أبى الضياف ، اتحاف أهل الزمان ، ص ١٦ — ١٧ .

المغاربة بالامور البحرية فقال : « والساكنون بسيفَ هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن ، فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله ، ولما أسف ما أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية ، مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب ، أجازوا فى الاساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ، ويبيع الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ، فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفاية ، معروفة فى القديم والحديث » (١٠٦) .

وقد أثر امتداد الساحل الافريقى فى طبيعة السكان ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم ، وهو نشاط يكون جزءا لا يتجزأ من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يظهر هذا النشاط فى صورته الحقيقية ابان تبعية بلاد المغرب للخلافة الاموية بالشرق ، ولكنه اتضح بعد أن تطلع المغاربة الى الانفصال عن المشرق الاسلامى (١٠٧) ، فماسوا نشاطهم البحرى الذى بلغ ذروته فى القرنين الثالث والرابع باحتلالهم صقلية وجنوبى ايطاليا ومالطة وسردانية وقورشة .

وفى المشرق الاسلامى ، كان تجنيد المغاربة فى الجيش المملوكية تقليدا متبعا منذ احتدام الحركة الصليبية ، فساهموا مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى المراقبة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر ، فقد

(١٠٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

(١٠٧) فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحكام الحربى والاتصال الحضارى ، ثلاثة أجزاء ، - القاهرة ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

اشترك جماعة منهم في الجهاد مع عساكر نور الدين محمود بن زكى ضد الصليبيين^(١٠٨) . ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة^(١٠٩) . كذلك كان يبذل جهده لاقتداء الاسرى منهم لانهم غرباء لا أهل لهم . واشترك المغاربة في الجهاد بالاسكندرية في بداية قيام الدولة الايوبية ، فأسس لهم صلاح الدين مدرسة ودارا وبيمارستانا ، واشترك كثير من المغاربة في موقعة القبارصة بطرابلس الشام ، وةظل منهم في أول لقاء مغربيان^(١١٠) . وكان الامير يلغا الخاصكى يكثر من توادهم في البحر لاعتيادهم على ذلك^(١١١) . وقد اشترك كثير منهم في الدفاع عن الاسكندرية في وقعة الاسكندرية ، واستشهد منهم عدد كبير ، وكان يلغا الخاصكى يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر .

وفي عام ٧٦٧هـ — ١٣٦٥م قام مغاربة الاسكندرية بدور بارز في مقاومة الغزوة القبرصية على المدينة آنذاك . وكانت هذه الغزوة من أخطر الوقائع التي تعرضت لها الاسكندرية طوال عصرها الاسلامى . وكما جرى استخدام الغزو الاتراك في صفوف القوى الموحدية الحفصية ، قام المماليك لا سيما البحرية منهم باستخدام المغاربة النازلين بالاسكندرية على الاخص في القوى البحرية المملوكية . وظهرت قيادة الامير يلغا الخاصكى عدد من قواعد المغاربة في البحر ومنهم الرئيس ابراهيم التازى . والى جماعة المغاربة المقيمين في الاسكندرية ترجع المشورة الحربية بعدم القتال على الشواطىء بدون جماعة أو غطاء وضرورة التحصن داخل المدينة والقتال

(١٠٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٠١ .

(١٠٩) ابن جبير ، نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .

(١١٠) د . السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ

الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦٠ .

(١١١) النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) ، الامام بما جرت به

الاحكام المفصية في وقعة الاسكندرية ، ص ١١٦ ب .

والمناورة من وراء الاسوار * وكان التاجر عبد الله البنا هو صاحب هذه
النصبحة (١١٢) التي لم يؤخذ بها حتى لا تتعرض مزارات الاولياء والاربطة
المقامة في شبة جزيرة المنار للاعتداء القبرصى (١١٣) .

كان القبارصة في حملتهم على الاسكندرية يتربصون عملا حاسما من
جانب المسلمين، فلما أدركوا عدم اكترائهم للامر، قدموا غرابا الى الساحل،
فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين ، خاضوا في الماء ، وناوشوا من
فيه القتال ، وتمكنوا من الامساك بالغراب في أيديهم ثم طلبوا من الزرقاين
أن يزودوهم بالنار ليحرقوه ، ولكن للأسف لم يهتم أحد بذلك ، لقلة
همتهم وتهاونهم وغفلتهم . وما زال المغاربة ينادون في طلب النفط والنار ،
وأمام صراخهم المتواصل رمى الزرقاؤون بمدفع فيه نار، « كنار الحلفاء ،
فوقع في الماء فانطفأ » ، وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيوف
وسقط منهم عدد كبير صرعى (١١٤) .

ويؤكد النويرى في كتابه « الالمام بالاعلام » أن المغاربة دفعوا
حياتهم ثمنا للدفاع عن المدينة عندما نزلوا الى المياه وأمسكوا القبرصية
وجعلوا أجسادهم عرضة للنيران (١١٥) . ومن بين القواد المغاربة المشهورين
الذين اضطلعوا بمهام عسكرية بحرية هامة الرياس ابراهيم التازى المغربى
الذى شغل منصب رئيس دار الصناعة بالاسكندرية في أيام السلطان

(١١٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى والاندلسى في المجتمع السكندرى
ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١١٣) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٢٨ .
(١١٤) عن تفصيل بقية أخبار الحملة ، راجع : النويرى ، المصدر
السابق ، ص ٧٩ — ٨٤ ب . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٢٩ —
٣٤٤ د . سالم ، د . أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية في
حوض البحر الابيض المتوسط ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣١٢ — ٣١٦ .
(١١٥) النويرى ، نفس المصدر ، ص ١٤٦ ب .

المملوكى الاشرف شعبان * ومع غضب هذا السلطان من الغارة القبرصية وغيرها على سواحل بلاده ، كلف رئيس دار الصناعة ابراهيم التازى بالاغارة على جزر العدو^(١١٦) * وفى ٢٩ رجب من سنة ٧٦٩هـ (مارس ١٣٦٨م) أقلع التازى من ثغر الاسكندرية فى مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل متجها الى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر فغنم سفينة بقلعين للعدو أرسلها الى الاسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازى فى غاراته ثلاثة وعشرين يوما عاد بعدها محملا بالغنائم والاسرى غارتجت الاسكندرية لقدمه ، وخرج أهلها الى موضع منارها لاستقباله ، واصطف الترك المجردة لحراسة الاسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين الى الغرابين القادمة ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان * ودخل الرايس ابراهيم التازى الاسكندرية وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ووجهه لذنبه ، وخلفه يسير خمسة وثلاثون أسيرا حفاة الاقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب^(١١٧) * .

ثم تلقى الملك بطرس لوزنيان مصرعه على يد بعض رجاله سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) ، الا أن موته لم يغير من سياسة قبرص العدوانية نحو مصر والشام نتيجة لرغض سلاطين المماليك ابرام صالح معها * لهذا استمر قراصنتها يغيرون على الشواطىء الاسلامية ، ويجدون من وسائل دفاعها البحرى والبرى خير مقاوم لهم * وحسبنا أن نشير الى تلك المحاولة التى قام بها الاسطول القبرصى لغزو مدينة الاسكندرية من جديد سنة ٧٧٠هـ ، فتصدت له المراكب بقيادة الرايس ابراهيم التازى ، ووسائل الدفاع

(١١٦) د . سالم ، د . العبادى ، تاريخ البحرية ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(١١٧) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٦٣ . د . سعيد عاشور ،

قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

الساحلى من جروح وسهام ومجانيق ، وخاضت معه معركة بحرية ضارية
فقد فيها بعض سفنه وعدد كبيراً من رجاله ، ثم فر هارباً لا يلوى على
شئ^(١١٨) .

ودكر النويرى معلقاً على بطولة ابراهيم التازى المغربى رئيس دار
الصناعة بالاسكندرية : « لان الفرنج ليس بقهرهم سوى المغاربة ، وذلك
لخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم
فى بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً بجوامك
مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخربون جزر كثيرة ،
وصارت الفرنج معهم فى جزيرة »^(١١٩) .

واذا كانت أخبار المغاربة فى القوة المصرية ومعاركها تتناثر فى اشارات
نادرة سجلها النويرى وغيره الا أن الانساره التى أوردها ابن اياس عن
دورهم فى الاسطول المملوكى أيام السلطان الغورى تؤكد تؤكد عدم انقطاع
هذا الدور واستمراره وأهميته عند سلاطين المماليك وسياستهم الحربية ،
يقول ابن اياس : « * * وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملففاً
ما بين أولاد الناس وبعض ممالك سلطانية ، والغالب منهم مغاربة وعبيد
سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من
البنائين والنجارين والفعلاء بسبب تلك الابراج التى أنشأها السلطان فى
جدة وأنشأ الصور * * »^(١٢٠) .

(١١٨) النويرى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ب . د . سالم ، تاريخ
البحرية الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .
(١١٩) النويرى ، نفس المصدر ، ص ٢٧٧ ب . د . سالم ، تاريخ
الاسكندرية ، ص ٣٣٠ .
(١٢٠) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتور
محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

ولا جدال في أن قلة الاشارات المذكورة عن المغاربة كان مرجعها ما أصاب مدينة الاسكندرية من اضلال في القرن ٩هـ — ١٥م بسبب تحويل الطريق التجارى الى رأس الرجاء الصالح ، وما قام به البرتغاليون من السيطرة على الطريق التجارى الشرقى في المحيط الهندى وجنوب البحر الاحمر . لذلك ، عندما اهتم سلطان مصر الملك الاشرف قانصوه الغورى ببناء أسطول كبير في السويس ليتعقب به الفرنجة في البحر الاحمر والمحيط الهندى ، ويحمى التجارة المصرية ، نجده في سنة ٩١١هـ (ربيع الاخر) يستعرض عسكره ويعين فيها ثلاثة تجاريد أنفذ كل منها الى جهة معينة . منها تجريدة بحرية وجهها الى بلاد الهند (١٢١) اشتركت فيها قوة مغربية حسبما أنشأنا آنفا أوكل السلطان قيادتها الى الامير حسين الكردى ، ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى . وخرجت الحملة في احتفال كبير حتى وصلت الى مدينة السويس فاستقلوا منها السفن المزودة بالسلاح ، ثم أبحروا منها الى جدة في جمادى الاخرة عام ٩١١هـ (١٥٠٥م) . وبعد وصولهم اشتبكوا في معركة طاحنة مع يحيى بن سبع أمير ينبع الثائر على الحكومة المملوكية في مصر ، فانهزم وفر هاربا وظلت تلك القوات بفرقها بعض الوقت في جدة لبناء الحصون والاسوار لمراقبة الطريق وقطعه على البرتغاليين بسبب ندرة المنتوجات الهندية الى مصر . وفى ذلك يردد ابن اياس قوله : « ... وكان باش الممالك الذين توجهوا في المراكب الى جدة والتركمان والعبيد الذى بها حسين المشرفة ، وباش المغاربة الذى بها الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى » (١٢٢) .

ووضحت مكانة المغاربة في أحداث هذه التجريدة من تطور النزاع

(١٢١) ابن اياس ، نفس المصدر ، دالصفحة .

(١٢٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ٨٤ — ٨٥ .

المذكور الى صدام بين القائد المغربى على المسلاتى وأمير الحملة حسين الكردى ، وتطور النزاع بينهما الى حد عرقلة الحملة عن تحقيق هدفها ، فأمر السلطان الغورى بالقبض على المسلاتى الذى عاد الى القاهرة مكبلا بالحديد بينما أتم حسين الكردى عمله وانتصر على البرتغاليين فى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) وغنم غنائم عديدة قبل أن يعود البرتغاليون للايقاع بالحملة المصرية ، ويرجع الامير حسين الكردى الى مصر فى عام ٩١٨هـ (١٥١٢م) يجر أذيال خيبة الهزيمة تاركا السبيل أمام البرتغاليين للاستيلاء على مقاطعة مكران فى الهند سنة ١٩١٩هـ (١٥١٣م) ومحاصرة سواكن أهم المراكز التجارية المصرية على البحر الاحمر ، بل وتهديد مدينة جدة نفسها . وظهر دور المغاربة الحربى من جديد ضمن استعدادات السلطان الغورى للرد على تلك الهزيمة . ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن السلطان المملوكى وجد صعوبة بالغة لعصيان الجند عليه فاستخدم الحيلة معهم ليحثهم على الخروج مع الحملة الى أن جند ٦ آلاف أعد لهم ٢٠ سفينة فى ميناء السويس زودها بمجموعة كبيرة من أمهر البحارة منهم عدد كبير من طوائف المغاربة على قيادة الاسطول الرئيس (سليمان العثمانى) الذى أبحر فى رجب عام ٩٢١هـ (١٥١٥م) . ولكن يتكرر ما سبق من صدام بين القواد الى حد قتل الامير حسين الكردى وعودة سليمان العثمانى فى شعبان عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ببعض الاسرى وبقياء رجاله (١٢٣) .

فكان ذلك من ارهاصات سقوط السلطنة المملوكية ودخولها فى ظل الامبراطورية العثمانية حسبما هو معروف من تاريخ نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية فى بلدان المشرق والمغرب على السواء حتى نهر ملوية الى الشرق من أحواز فاس بالمغرب الاقصى .

(١٢٣) اسماعيل سرهنك باشا ، حقائق الاخبار عن دولة البحار ، ج ٢ ، ص ٣٦ . انظر ايضا : محمود رزق سليم ، الاشرف قانصوه الغورى ، اعلام العرب ، ص ١١٥ — ١١٨ .

الباب الثانى

الصلات الحضارية بين الخلافة

والمشرق الاسلامى

الفصل الرابع

الصلوات الاجتماعية

- ١ - أثر الرحلات المغربية الى المشرق *
- ٢ - انخراط المغاربة في سلك الوظائف المشرقية *
- ٣ - موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق *

الصلات الاجتماعية

(١)

أثر الرحلات المغربية الى المشرق

نعددت رحلات المغاربة الى المشرق ولم تنتقطع على مدى مراحل التاريخ الاسلامي . كذلك ، تكاثرت أعداد من استطاب منهم المقام في أقطار المشرق ، وتشكلت منهم أكثر من طبقة اجتماعية بين سكان هذه البلاد . ونقرأ عن المظاهر الاجتماعية لهذا الجانب من العلاقات بين المغرب والمشرق في أوصاف مختلفة جاءت على ألسنة الرحالة المغاربة .

(أ) وصف الرحالة المغربية في عصر الموحدين لموانئ مصر :

١ - الاسكندرية :

من ذلك ما جاء على لسان العبدري في قوله : « ثغر الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة كل عنها ظفر الزمان ونابه ومل منها جيش الحدثان وأحزابه غلم تبذ عليها للزمان ضراعة ولا كست لها في معاملاته سلعة ولا بضاعة ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة بل ثبيرة لحزبه ثبوت البطل وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل ، ولم تصنع أذنا الى ما يوعد به من الخنا والخطل فهى واقفة وقوف الاطواد سامية بطرف غير كليلى وجيد غير متآد ، أخذة من الكفر وأهلية الخنق ، حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق فسامروا الاسف مسامرة الندى للمخلق ودجا عليهم ليل هم أولهم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الاسى واحتدم فخالفوا الندم ، وقالوا عضو لا يفترق . مدينة فسيحة الميدان صحيحة الاركان مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل المنظر وترنو بطرف ساج أحور تبسم عن ثغر كالأقحوان اذا

نور، كأنه لم يغيب عنها شخص الاسكندرية بما ساس فيها من عجائب بمانيها ودير ، ناهيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسناتها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الاتفاق حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها بأسطره الاعلام وصرت به على المهارق الاقلام» (١) .

ويصف ابن بطوطة الاسكندرية بقوله : « ثم وصلنا في أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الاصلية البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحسين وما أثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الفخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها . الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المنرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفه غاليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ووصفوا فى عجائبها فأغربوا ++ » (٢) .

ويستطرد ابن بطوطة فى وصفه هذا ، فيصف مراسيها ومناثرها ، فضلا عن عمود السوارى . ويعجب بأبوابها الاربعة ويعددها قائلا هى : « باب رنيد ، وباب البحر ، والباب الاخضر ويفتح يوم الجمعة فقط فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ، وأخيرا باب سدره واليه يشرع طريق المغرب » (٣) .

(١) العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيجي) الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي) المكنى أبو عبد الله ويعرف بابن بطوطة ، نحفة النظر فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق أحمد العوامري ، محمد أحمد جاد المولى ج ١ ، ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ١٢ . أنظر أيضا : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢ — ١٣ . ابن رشيد السبتي ، الرحلة تحقيق : نجاح صلاح الدين ، ص ١٤٥ .

حظيت الاسكندرية ، ميناء مصر الشمالى بامتداح الرحالة المغاربة ونالت اعجابهم بعمرانها الفسيح واتساع طرقاتها وجمال مبانيها ونضارة معاهدها وقد ساعد على تعظيمها ما كان يلاقيه الرحالة الوافدون عليها من مشاق الرحلة وما كان ينزل بهم على أيدي الاعراب على الطريق ما بين تونس وسوسة وصفاقص وقابس وطرابلس ، وهو ما يعبر عنه العبدري في قوله : « وصحبنا في بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم »^(٤) .

٢ -- عيذاب :

كان ينتجع عيذاب ميناء مصر الشرقية^(٥) أعداد كبيرة من الرحالة المغاربة بهدف الحج ، وقد بلغت عيذاب نهاية القرن ٥هـ — ١١م درجة عظيمة من الازدهار ، وان كان لا يعرف السبب الذى أدى الى تحول طريق التجارة الانسقية الى عيذاب ، والواقع أن عيذاب كانت مركزا هاما للتجارة الشرقية (تجارة الكارم) ، كما كان طريق الحج يمر بها في الفترة ما بين سنتي ٤٥٠ — ٦٦٠ هـ / ١٠٥٨ — ١٢٥٨ م . وربما أجاب ابن جبير في رحلته عن هذا التساؤل أثناء وصفه لميناء عيذاب حين قال عنها في سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٣م : « من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط

(٤) العبدري الرحلة ، ص ١١ .

(٥) كانت عيذاب نقطة الاتصال بين التجارة البحرية والتجارة النهرية وكان مينائها يتميز بعمقه وبخلوه من الشعاب النائية . فكانت ترد اليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تحمل على الابل في الصحراء مسيرة عشرين يوما الى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنتقل الى القاهرة في النيل ، انظر ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ . ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٤ .

ففيها وتقلع منها ، زائد على مراكب الحجاج الصادرة والواردة »^(٦) .

وكانت الضرائب الديوانية المقررة على النشاط الاقتصادي في هذا الميناء تشمل الوافدين من الحجاج أيضا حيث صار يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير .

وكانت ضرائب الميناء تنقسم على أساس « ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها للملك البجاة وهو يعرف بالصدري »^(٧) . وكثيرا ما تعطل سفر الحجاج بسبب خروج ملكها وسلطانها من البجاة ضد سلطان مصر بالاستيلاء على المراكب التي تقلهم الى ساحل جدة^(٨) .

ومثل هذا الخروج على الاعراف المعهودة في معاملة الحجيج كان مثار غضب الرحالة المغاربة وأكثر من عبر عن ذلك العبدري أثناء نزوله بئر الاسكندرية ، اذ يقول : « .. ومن الامر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم ، وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الاجاج ، ويأخذون على وفدhem الطريق والفجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشد له عجبى وجعل الانفصال عنهم غاية

(٦) يؤكد ابن جبير على أهمية أحمال الفلفل الى شاهدها في عيذاب ، وكانت تنتقل الى القاهرة ويبيع الحمل منها بخمسين دينار ، ويبيع نفس الحمل في الاسكندرية بثلاثة أضعاف ثمنه للاوربيين (الرحلة ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٣ .

(٨) هي مدينة كبيره كثيرة الحوت واللبن ، يحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، أهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب تكون عرض العصابة منها اصبعا ، لا يورتون البنات وطعامهم الابان الابل ، ويركون المهارى ويسمونها الصهب (ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٢ — ٤٣) . راجع أيضا : التجبى السبتي ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص ٢٠٥ — ٢٠٨ .

أربى ، وذلك أنه لما وصل المركب جاءت شزيمة من الحرس لا حرس الله مهجهم الخسيسه ، ولا أعدم منهم لأسد الافات فريسة ، فمدوا في الحجاج أيديهم ، وغتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم »^(٩) .

(ب) المظالم على تجار المغرب :

وفى أخبار الرحالة الذين سبقوا العبدري ما يشير الى جشع حرس الديوان بالاسكندرية وشراحتهم الكبيرة فى تقرير المكوس على الوافدين عليها من بلاد المغرب والاندلس . وعندما ذكر ابن جبير مثل هذا الاجراء أثبت وجوده قبل رحلة العبدري بنصف قرن ولم يلق تبعة ذلك على أهل المدينة كما فعل العبدري^(١٠) . وانما أرجع ذلك الى فساد القائمين على ادارة الديوان مسجلا أيضا مشاهداته عن الاجراء الجمركى المذكور ، من حيث حصر أعداد الركاب وتدوين أسمائهم ومعرفة البلدان التى جاءوا منها ، وحصر ما لديهم من أمتعة تمهيدا لتقدير المكس المقرر التى بلغت دينارين عن كل عشرة دنائير أن بنسبة ٢٠٪^(١١) .

ويشرح الاستاذ محمد الفاسى وجهة نظر العبدري لتبرير سخطه فيقول : « . . عندما يقول أهل الاسكندرية فانه يعنى أولا المشرفين على

(٩) العبدري ، الرحلة ، ص ٩٣ ، د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١٠) جاء العبدري فى هذا الصدد بأوصاف متدنية منها القول : « أكثر أهلها رعاى ضرر بلا انتفاع مع سوء أخلاق ومرارة مذاق وقلوب رباها الضغن تربية الاولاد ، جناها الخبر والصلاح . . والغريب بينهم نكرة لا تتعرف أن رواه زادوا الوجوه جهامة ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة ، وجمجموا قولاً — تما لؤوا على كل وصف شان وما زان وتواصوا على تطفيف المكيال والميزان . فان عاملهم غريب لم يلق منهم الا ما يريب ، يتخذونه هدفا ولكل منهم فيه سهم مصيب حتى يخرج من ماله بغير نصيب ، لا ترجا منهم فيئة انابة ولا تلقى منهم فيئة رافة ولا عصابة ولا نفع الغرب فى معاملتهم » . الرحلة ، ص ٩٢ .

(١١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧ .

الديوانة وأعوانهم الذين كانوا يطبقون الاوامر الصارمة الصادرة لهم في معاملة من يرد عليهم من الخارج . تلك المعاملة القاسية ، نظرا لتخوفهم من الاعداء الصليبيين وجواسيسهم خشية تسريبهم اليهم تحت ستار التجارة أو السج أو ما شابه ذلك » (١٢) .

وبيزيد من وضوح صورة هذا الشرح ما ذهب اليه الدكتور سعد زغلول في بيان مراحل فرض تلك المكوس وأسبابها الملحة اذ يقول : « فاذا كانت ملحة في رحلة ابن جبير الاولى فانها بعد الانتصارات التي تحققت على الصليبيين بيدى صلاح الدين ، فان رحلة ابن جبير الاخيرة ، لم يعد لها نفس الالاحاح . أما على أيام رحلة البلوى سنة ٧٣٧هـ — ١٣٣٦م فكانت الحروب الصليبية في الشام قد انتهت منذ مدة ولو أن الاعمال العدائية مع أهل قبرص ورودس لم تنقطع نهائيا » . وعندما يصل هذا الحديث الى عهد الرحالة البلوى ، حيث بلغت الضريبة الجمركية في أيامه ٢٠٪ مما يحمله الحجاج من أموال يقول : « وأغلب الظن أنها كانت أكثر المسائل الحاحا في ذلك الوقت ، بدليل ما يذكر عن النويرى السكندرى اثر مفاوضات الصلح بعد غارة ملك قبرص كانت تتلخص في تخفيض الضريبة على متاجره من الخمس الى العشر ، وأن يعفى حجاج قبرص الى كنيسة القيامة من دفع المكوس » (١٣) .

وبهذه المناسبة أيضا كانت تلك القصيدة التي بعث بها ابن جبير الى

(١٢) العبدري ، الرحلة ، المقدمة ، ص ٥١٥ ، راجع أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥١٥ — ٥٢١ . د . سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٥ — ٢٢٩ .

(١٣) د . سعد زغلول عبد الحميد ، الانر المغربى والاندرلسى في المجتمع الاسكندرى ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٥١ .

السلطان صلاح الدين يمدحه غيها لتخفيفه عن كاهل المسلمين ويذكره بالله
في حقووق المسلمين ومنها :

رفعت مغارم أرض الحجاز
بانعامك الشامل الهامر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر
وقد بقيت حسبة في الظلوم
بمكة من أعلن جاهر
يعنف حجاج بيت الاله ويسطو
بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا
كأنهم في يد الأسر
ويلزمهم حلفا باطلا
وعقبى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر^(١٤)

وربما كان ابن جبير والعبدري في شكواهما من جور موظفى الديوان
ينطلقان بلسان عموم المغاربة ، لا سيما التجار منهم ، وتضرر هؤلاء من ظلم
القباض أو المكاسة ، حتى أن ابن اياس يذكر في عام ٨١٤هـ / ١٥-١٦م

(١٤) العبدري ، الرحلة ، ص ٩٥ .

أنه : « عندما توجه الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق الى الاسكندرية في سنة ٨١٤ هـ فلما دخلها كان له يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث الى العشر ، فارتفعت له الاصوات بالدعاء » (١٥) .

ويضيف الى هذه الصورة صورة الاسكندرية المشرقة كما صورها لنا الرحالة ابن رشيد السبتي ، وقد سمي فيها الاسكندرية « باب المغرب » واهتم بوصف مساجدها بصفة خاصة لانها لفتت الانظار ويبلغ عددها نحو « عشر ألف مسجد أو عشرين ألف مسجد » . ويعدد ما بها من المدارس مثلاً : « المدرسة السلفية ، مدرسة صلاح الدين الايوبى ، مدرسة الابرارى ، دار الحديث النبوية ، مدرسة عبد اللطيف بن محمد بن سند — أحد كبار تجار الاسكندرية » . ومع ذلك نجده يذم مدينة بلبيس كما فعل العبدري بالاسكندرية ، حيث يقول فيها : « فبئس الاهل أهلها ، يا شر ما لقينا من بأسهم والله يجزيهم بسوء صنيعهم ، لقد أنعموا في التفتيش لأسبابنا ، وأغرمونا ما لا نحب من أموالنا ، أنصف الله ظلامهم وأرانا أنوار الخروج من ظلامهم » (١٦) .

(ج) معاملة أهل مصر للمغاربة :

وينضح ضخامة حجم الجالية المغربية في مصر من قول العبدري نفسه في وصف صعيد مصر : « .. وقد سمعت ممن جال في صعيد مصر وريفها

(١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .
انظر أيضا . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٨٦ .

(١٦) ابن رشيد ، الرحلة ، تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسي ، ص ١٤٥ ، ١٥٩ — ١٦٤ .

أن أهلها لا بأس بهم وأنهم أشبه حالا من المذكورين بكثير ، ومع ما ذكرت فقد كاد المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الأرض وسمعتها وكثرة أرزاقها وربما تقاتلوا مع أهل الموضع فغلبوهم ، وقد غشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربيا يملكهم لا محالة ويتحدث بهذا عامتهم وخاصتهم * * « (١٧) .

وبخلاف ما جاء في وصف العبدري من سوء معاملة حرس ديوان الاسكندرية لأصحابه المغاربة ، يذكر في وصف مدينة قوص بصعيد مصر جالس الحاج والتجار المغاربة مع عمدة هذه المدينة يكتب لهم كتب الأمان ويحض على تسيير جميع مطالبهم : « * * فالمجلس أعزه الله ينتهز هذه الفرصة في خدمة المذكورين ، ويقابلهم بالأكرام والجلال ، ويعاملهم بالاحترام ويوصي بهم كل الوصية ويبسط لهم من الانس ما أعلمه من أخلاقه الرضية ، ويظهر الاجتهاد في مصالحهم ، والاعانة لهم والعناية بهم ، غيتقدم الى النواب بمساعدتهم على استئجار الجمال التي يحتاجون الى ثغر عيذاب المحروس * ويكتب المجلس من جهته كتابا ناسفيا الى نوابه بالثغر المذكور يتضمن الوقوف في خدمتهم ، وتسفيرهم في أجود المراكب والتأكيد على الربان في أمرهم ورعايتهم وأكرامهم * ويفصل المجلس في هذا الامر من أنواع التأكيد والمساعدة ما يجد شكره وأجره في الدنيا والآخرة » (١٨) .

(١٧) العبدري ، نفسه ، ص ١٤٨ . راجع أيضا عن أهمية العمدد العربي في صعيد مصر : السبتي (أبو القاسم يوسف التجيبي السبتي ، ص ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، مسفاد الرحلة والافتراق ، تونس ١٩٧٥ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(١٨) السبتي ، مسفاد الرحلة ، ص ١٧٤ .

ولا يتوج هذا الحديث الاخير عن سوء معاملة المغاربة في مصر الا قول
المقرئ ، بعد دخوله مصر سنة ١٢٠٨ هـ / ١٦١٩ م وتزوجه منها وأقامته
بها مدة ، حسبما جاء على لسان ابن الحاجب :

يا أهل مصر وجدت أيديكم
في بذلها في السخاء منقبضة
لما عدمت القرى بأرضكم
أكلت كتبي كأننى أرضة

ومما قاله بلسانه :

تركتم رسوم عزى في بلادى
وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتها بالذل فيها
وقلت لها عن العلياء صومى (١٩)

وينفى أو يخفف هذا القصيد الشعري الهجائي السياسة الرحيمة
التي اتبعت مع المغاربة + ففى عصر صلاح الدين كانت السلطات المصرية
تحن الى ضعف الحال من المغاربة ويتمثل ذلك فى قول ابن جبير : « ومن
أشرف المقاصد أيضا أن السلطان عين لآبناء السبيل من المغاربة خبزتين
لكل انسان فى كل يوم ، بالغاما بلغوا ، وينصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا
أميئا من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم الى ألفى خبزة أو أزيد ، بحسب القلة
والكثرة ، وهكذا دائما ، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة
العين لذلك » (٢٠) .

(١٩) د . سعد زغلول ، الانر المغربى ، ص ٢٥٤ .

(٢٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠ .

وعلى الرغم من سوء معاملة سلاطين المماليك لتجار المغاربة ، الا أن السلطان الغورى كان يحيطهم بعنايته ويتعهدهم برعايته ، ففى سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٦ م « أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين وثلثين ألف دينار وكان سبب ذلك أن تغرى بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى بمصر والاسكندرية فى نظير ما غرمه » (٢١) .

وفى نفس السنة : « نزل السلطان الغورى الى الميدان فوقف على جماعة من المغاربة نحو من سبعين انسانا ما بين رجال ونساء وقد قصدوا الحج فى هذه السنة فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بتسماط » (٢٢) .

وكانت هذه الاعانة تتم فى كثير من الاحيان بغض النظر عن تصنيف المغاربة بين من جاء بقصد الحج أو لطلب العلم ، كما كانت تؤدى أحيانا دون ملاحظة الفرق بين مياسيرهم وفقرائهم . ولقد أشار بعض المقربين الى صلاح الدين عليه بأن يستثنى المياسير منهم من تلك الاعانة لعدم حاجتهم اليها ، وذلك بعد أن تبين لهم عند رؤية بعض القادمين من طرابلس عبر تلك المسالك البرية « وقد ذهبت رسومهم عطشا وجوعا دون النظر الى ما كانوا يحملونه من المال » (٢٣) .

وعندما يذكر ابن اياس أن تجار المغاربة كانوا ضمن مشاهير الناس

(٢١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٢٢) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .

(٢٣) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

الذين صادرهم السلطان الاشراف قايتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، فان في ذلك ما يشير الى عظم ما بلغه تجار المغاربة من ترف ونراء في البلاد . كما نستدل من إشارة نفس المؤرخ ^(٢٤) الى أن مصر كان قد وصلها في عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٥ م ألف وخمسمائة حاج من المغاربة على مدى أنتعاش الزحلات المغربية الى المشرق بقصد الحج والتجارة في آن واحد . ولم تتأثر هذه الرحلات قط باضطراب الاوضاع الامنية في الاقطار التي يمر بها الحجاج غفى شوال سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م جاءت الاخبار من مكة « بأن الاحوال فاسدة وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومي أمير خليص وقد أثبت الامر في ذلك جدا غلماتحقق السلطان ذلك أمر بابطال التوجه الى الحجاز في هذه السنة من مصر والشام وسائر الاعمال قاطبة . وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلم في الدين ، وقد حضر الركب التكروري والركب المغربي ولم يحج منهم أحد في تلك السنة » ^(٢٥) .

(٢٤) ابن اباس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ . ويذكر ابن اباس « في سنة ٨٨٩ هـ حج الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس . بروح الحج وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج (ج ٢ ، ص ٢٢٤) .

(٢٥) ويزودنا ابن اياس بوصف دقيق لما قام به الاعراب ، وقد أبدى مخاونه في أن يتكرر مع الحجاج المغاربة والسودانيين ما حدث سنة ٩٠٨ هـ بالنسبة للركب الشامي والعراقي والمصري وما صنع بالمجاورين بمكة . وهو شبيه بما حدث سنة ٣٠٨ هـ في عصر الخليفة العباسي القاهر بالله لما تغلب عليه القرامطة ، وكان زعيمهم أبو ظاهر خارجيا سفاكا للدماء ، جاهلا . ولما وصل ركب الحجاج من بغداد يتقدمه أمير الركب منصور الديلمي مكة وأقام بها الى يوم الصعود هجم عليهم أبو ظاهر بمن معه من العربان فقتل محارب أمير مكة والديلمي ، ونهبت جميع الاموال بمكة وقتل الحجاج وأسر النساء

ومن مظاهر الصلات الاجتماعية بين المغاربة والمشاركة الاحتفالات التي كان يفيمها الحجيج المغاربة وما كانت تحمله مواكبهم من هدايا حكام تونس الى سلطان مصر . ويتشهد عليها النموذج الخاص بوصول رسول تونس (أبو يحيى زكرياء المسعود أبى عمرو عثمان) الى مصر لدى السلطان الغورى وصحبته « تقدمه حافلة للسلطان قيل انها قومت بعشرة آلاف دينار وهي ما بين قماش فاخر وخيول وسلاح وغير ذلك فأُخْلِج عليه السلطان كاملية صوف بصمور ونزل من القلعة » (٢٦) .

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات الودية توثقت بين تونس ومصر بحيث اتخذت سمات الروابط الاسرية . فكان حرص الحفصيين على أن يعلموا سلاطين مصر بأخبارهم ، مثل ذلك أنه عندما تم لهم الانتصار على الفرنج في جزيرة جربة أعلموا مصر بهذا النصر في ربيع الاول من سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م ، وسجلوا في مكاتباتهم ما غنموه من غنائم وعدد قتلاهم

والصبيان الصغار ، فكان من قتل في ذلك نحو ٣٥ ألف ، وطرح غالب القتلى في بئر زمزم ، وأخذ الذهب والفضة ، وخلق باب الكعبة والحجر الاسود وعري الكعبة ، وبذلك انقطع الحج من بغداد وغيرها من البلاد عشرين سنة ، حتى خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر حيث تم الصلح مع ملك الطائفة وأذنوا للناس بالحج وجعلوا على الحجاج في كل سنة نحو من خمسين ألف دينار تعطى لتمكينهم من الدخول الى مكة . وهذا أول مكس أخذ على الحجاج من سنة ٣٣١ هـ وتلطفوا بالقرامطة حتى ردوا الحجر الاسود وباب الكعبة الى مكانها . (أنظر ، ج ٤ ، ص ٨٩) . راجع أيضا : المقرئ ، المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٩٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٤ ، ٢٤٩ . ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج ٥ ص ١١٠ — ١١٩ . الصابى . (ثابت بن سنان) تاريخ أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١١٣ ، ٧ .

(٢٦) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ .

وأمرهم ، بل « وبعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسراء الفرنج وعليهم آلة السلاح » (٢٧) .

وقد بلغ التأثير المغربى على الحياة الاجتماعية بمصر الى حد أنه فى عام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م « أشيع بين الناس أن السلطان (قايتباى) يتزى بزى المغاربة وينزل الى جامع الازهر ويصلى به » (٢٨) . ولم يكن هذا غريبا أو من قبيل الاشاعة مع كثرة العلماء والفقهاء والمغاربة الذين تولوا عدة مناصب هامة فى الحياة العلمية المصرية .

(د) من مظاهر التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب :

وأتصلا بموضوع الاحتفالات وما حملته من مؤثرات مغربية مظهر من المديح الذى ذكر البعض أنه من مستحدثات القرن السابع الهجرى . ومن رواد هذا الفن فى مصر البوصيرى وابن دقيق العيد الذى وصفه العبدري فى رحلته بأنه : « . صاحب المدرسة الكاملية ، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من علم لا تكدره الدلاء وطيا آسيا . ما يلقي له فى سعة المعارف نظير أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقيير ، وله فى البلاد ذكر شهير . . فهو الآن قطب مصر وعلمها » (٢٩) .

واذا كان البعض يرى أن نشأة فن المديح قد صاحب ركب الدعوة الإسلامية من مطلع تاريخها ، فان المؤكد أن هذا الفن لم يكتسب صبغته الكاملة الا بعد اتصاله بالفكر الصوفى المغربى . ونشهد من القرن الخامس الهجرى قصائد مثل القصيدة المعروفة بالشقراطية لصاحبها

(٢٧) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٢٨) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

(٢٩) العبدري ، الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

الشيخ ابن محمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسى التوزرى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٥٤ م * ثم أن البوصيرى صاحب البردة مصرى المولد مغربى الاصل من صنهاجة حسبما يشهد بذلك لقبه (محمد بن سعيد الصنهاجى) فضلا عن أنه تتلمذ أيضا على أبى العباس المرسى *

وكما عرفت مصر مثل هذه التأثيرات المغربية فى حياتها الاجتماعية ، فقد عرف المغرب الموحدى والحفصى بعض النقائيد المشرقية وفى مقدمتها الاحتفال بالمولد النبوى الشريف * فقد ذكر ابن خلكان فى وفياته أن «ابن دحية السبتي وهو من كبار علماء المغرب فى عصر الموحدين ، رحل الى المشرق فأنشأ له الكامل الايوبى المدرسة الكاملية للحديث فى القاهرة سنة ٦٢٢ هـ ، وولى أمرها من بعده لاختيه أبى عثمان ثم لابنه شرف الدين» (٣٠) ثم يذكر ابن خلكان أنه بعد عوده ابن دحية من مدينة أربل الى خراسان عام ٦٠٤ هـ ، رأى الملك مظفر الدين بن زين الدين مولعا بعمل المولد النبوى عظيم الاحتفال حتى أنه ألف له كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » * وأنتقلت فكرة الاحتفال بالمولد النبوى الى المغرب * وكان العزفيون (أبو العباس العزفى السبتي ، المتوفى عام ٦١٣ هـ وأبنه أبو القاسم) أول من استحدثها فى المغرب نقلا عن المشرق (٣١) *

ويبدو أن الموحدين احتفلوا بالمولد فى أواخر عهدهم * فقد ذكر ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة قبل الاخير (بويغ سنة ٦٤٦ هـ وقتل ٦٥٦ هـ) : « * كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخيـر والانعـام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لانه لما ألف كتابه

(٣٠) ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ط بولاق ، ج ١ ، ص ٤٨١ .

(٣١) د . عباس الجرارى ، الادب المغربى من خلال ظواهره وقضاياها

ج ١ ، ارتباط ١٩٧٩ ، ص ١٤٥ .

(الدار المنظم في مولد النبي المعظم) وبعث به اليه وأشار بذلك الرأي عليه « (٢٢) +

وأستمر هذا التقليد متبعا حتى العصر المريني الى حد أن الشعراء الشعبيين كانوا ينتابرون أمام السلطان المريني فيما كان يقيمه لهذه المناسبة من احتفالات تموج بالشعراء والادباء ورجالات العلم ، وكان الفائز منهم يظفر بمائة دينار وفرس ووصيف وخلعة يخلعها عليه السلطان + أما سائر الشعراء فكان كل منهم يظفر بخمسين دينارا (٢٣) +

وبالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه من شواهد تدل على عمق وتأصل العلاقات المغربية بالشرق الاسلامي عامة ، وفي المجتمع السكندري خاصة نلاحظ أن أهل الاسكندرية مازالوا يستخدمون في لهجتهم المحلية نون الجمع بالنسبة للمفرد المتكلم مثل ذلك ما أورده الاستاذ الجليل الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في بحثه القيم عن مجتمع الاسكندرية في العصر الاسلامي نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر : « نأكل ونشرب ونلعب ونروح ++ » بدلا من : « آكل وأشرب وألعب وأروح ++ » وما يزال أحد أسواق الاسكندرية يعرف حتى عهد قريب بسوق المغاربة وهو من أشهر أسواق الاسكندرية وكان يقوم في قلب المدينة (٢٤) +

(٢٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ +

— Leon L'Africain; Description de L'Afrique; Adrien-Maisonneuve (٢٣) Paris, 1956. pp. 214—15.

(٢٤) د . سعد زغلول ، الاثر المغربي ، ص ٢٠٩ حيث يذكر لنا كيف ضحت المدينة بهذا السوق في سبيل انشاء الطريق الجديد الموصل من « المنية » الى الميناء الغربي . وقد عرف هذا السوق مؤخرا (بسوق سوريا) في طرفه الاخير على اثر العلاقات الخاصة التي قامت مع سوريا عقب الوحدة الاندماجية (١٩٥٨ — ١٩٦١ م) والتي أدت الى ازدهار تلك السوق . ثم تحول الاسم الى اسم « سوق ليبيا » اثر زيادة توثيق العلاقات بين البلدين في سبيل تحقيق (الوحدة الاندماجية) .

وفي سوق المغاربة هذا وبالقرب منه كانت تباع أنواع الثياب والفرش المغربية من : البرانس المخططة أو البيضاء ذات غطاء الرأس المدبب أو بغيره (وهو ما يعرف في العامية المغربية بالقب) ، والملاصق والاختاف الفاسية المطرزة ، والبسط الصوفية بأنواعها الى جانب أنواع الدعام المعروفة في المغرب والتي يستخدم العجيين في صنعها * وأشهر هذه المأكولات « الكوسكوسى » الى جانب الحمصة التي تصنع على شكل حبات كروية صغيرة أقل حجما من حبات الحمص ، أو « الشعيرية » التي تتخذ شكل حبات خيطية في حجم حبات النعير * وكان المتخصصون في بيع كل ذلك رجالا ونساء من المغاربة (٣٥) *

وبالإضافة الى ما سبق ، هناك بعض المنجمين من أصول مغربية يشتغلون بفتح « الكتاب والمذلل » ويتنبأون بالمستقبل ويعرفون مخابى الكنوز (٣٦) ، فكانت لهم في قلوب أهل المدينة السكندرية هبة ورهبة (٣٧) (ولا زال هؤلاء موجودون في المغرب الى الآن بصفة خاصة في مدينة مراكش حيث يتجمع العدد الكبير منهم في ساحة الفنا * وهى أهم ميادين المدينة وتعتبر من أهم المناطق التي يقوم الزوار والسياح بزيارتها على مدار السنة) *

(٣٥) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٣٦) وقد اشتهر هؤلاء بالكذب وقيلت فيهم الامثال ومنها « افتح الكتاب

مغربى كذاب » *

(٣٧) د . سعد زغلول ، نفس المرجع والصفحة .

(٢)

انخراط المغاربة في سلك الوظائف الشرقية

كثر عدد المغاربة الذين رحلوا عن بلادهم وأستقروا في أقطار المشرق الاسلامي وتنوعت وجوه الحياة التي انخرطوا فيها ، وأن كان معظمهم يتستغل بالتجارة ، كما أن عددا من أقطابهم تفرغوا لنشر الفكر الصوفي ، ومنهم أيضا من نال حظوة لدى الحكام والسلاطين فأسندوا اليهم بعض المناصب الرفيعة كمنصب القضاء أو الكتابة * ولقد وصل اليينا أسماء عدد كبير ممن شغلوا هذه المناصب في مصر ، ومنهم من ولى قضاء دمشق شأن القاضي شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السيوسي المغربي المالكي (ت ٨٧٤ هـ) ، وقاضى قضاة المالكية بدمشق ، الذى ولى قضاء الاسكندرية ، وكان « من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور تستى وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء » (٣٨) * .

ومنهم من تخصص في الفقه المالكي ببغداد أمثال الفقيه المحدث بدر الدين أبو على الحسن بن أحمد الزهيرى ، الملقبى ، وكان أفضل علماء عصره ، ولما قدم بغداد رتب فقيها في المالكية (٣٩) * والفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن محمد العربى بن المغربى ، قدم بغداد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م قرأ عليه ابن الدبيثى مجموعة من المناومات النبوية (٤٠) * .

ومن الاسماء المغربية التي لمعت في مناصب القضاء في مصر :

— عماد الدين الكندى قاضى الاسكندرية وعنه يقول ابن بطوطة :

(٣٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٣٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٧٥ .

(٤٠) د . بدرى محمد مهد ، تاريخ العراق ، ص ٤٢٠ .

« •• امام من أئمة علم اللسان • وكان يتعمم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ولم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها • رأيته يوما قاعدا في صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب » (٤١) •

— وشمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام الـريفي التونسي المالكى (٦٣٩ — ٧١٥ هـ / ١٢٤١ — ١٣١٥ م) الذى درس بمدارس القاهرة وناب فى الحكم بالحسينية ، ثم ولى قضاء الاسكندرية ، ولو أن ولايته هذه لم تحمد (٤٢) •

— ومنهم ولدا التنسى : كمال الدين التنسى (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) وأينه محمد اللذين توليا قضاء الاسكندرية ، وناصر الدين أحمد بن محمد جمال الدين ابن عطاء الله (٧٤٠ — ٨١٠ هـ / ١٣٣٩ — ١٤٠٧ م) الذى ولى قضاء المالكية •

— وأبو عبد الله القارىء المالكى المغربى الذى ناب فى حكم الاسكندرية •

— وعبد الله بن محمد بن سهل المرسى المغربى نزيل الاسكندرية الشهير بالشيوخ نهار توفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م (٤٣) •

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد الله المرجانى التونسى الاصل ، الاسكندرانى الوطن (٧٢٤ — ٧٨١ هـ / ١٣٢٤ — ١٣٨٠ م) (٤٤)

(٤١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٥ •

(٤٢) لم تحمد هذه الولاية لاتهامه بأخذ الدراهم فى قضاء الحوائج (أنظر : ابن حجر ، الدر ، ج ٤ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ . د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٦١) •

(٤٣) ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٨٤ •

(٤٤) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٠٧ •

— وأبو عبد الله الدكالي المتوفى بالاسكندرية سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م
وكان « من أعجوبة الدهر في عظمة الزهد والدين وخشونة العيش والسير
على طريقة السلف » (٤٥) .

— وسالم بن عبد الله ابن سعادة بن طاجين القسنطيني نزيل
الاسكندرية (ت آخر ٨٣٠ هـ / ١٤١٧ م) (٤٦) .

— وأبو الطيب محمد بن أحمد بن محمد بن علوان المالكي التونسي
السكندري المتوفى بالاسكندرية في سنة ٧٢٨ هـ / ١٤٢٤ م ، وكان من أكابر
تسيوخ المالكية ، سمع عليه عدد من مشاهير علماء المدينة (٤٧) .

— وأبو بكر بن عبد الرزاق الدكالي المالكي الذي تفقه على يدي محمد
بن يوسف السكندري ، توفي بمكة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م (٤٨) .

— والشيخ شهاب الدين أحمد بن سعيد التلمساني المغربي متولى
قضاء الاسكندرية بعد وفاة قاضيها جمال الدين عبد الله بن الدماميني (٤٩)
— والشيخ خلف بن علي بن محمد المغربي الاصل التروجي المولد ،
السافعي السكندري « ٧٦٠ — ٨٤٤ هـ / ١٣٥٩ — ١٤٤٠ م) الذي سكن
الاسكندرية وأرتفعت مكانته العلمية بها حتى صار شيخ الشافعية
والمالكية بها (٥٠) .

— وأحمد بن محمد بن عمر الصنهاجي السكندري المولد والمنشأ

-
- (٤٥) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٤٣
(٤٦) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .
(٤٧) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٧٧ .
(٤٨) السخاوي ، نفسه ، ج ١١ ، ص ٤٧ .
(٤٩) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٣٥ .
(٥٠) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

والوفاة ، القاهري الحسينى الدار (٧٨٠ — ٨٥٥ هـ / ١٣٧٨ — ١٤٥١ م)
وكان دائم الزيارة للقاهرة وبدأها من سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م ، الا أنه لم
ينس زيارة الاسكندرية ، حيث تولى مشيخة المدرسة البسامية (٥١) .

— ومحمد بن عثمان بن ظافر المغربى البجائى المالكى (٨١٧ — بعد
٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ — ١٤٥٦ م) استقر به المطاف بالاسكندرية حيث طاب
له المقام (٥٢) .

— وأبو محفوظ محرز بن على بن مسعود الحسنى المغربى التونسى
المالكى نزيل الاسكندرية المعروف بابن الرفاء ، ولد بتونس سنة ٧٩٥ هـ /
٢ — ١٣٩٣ م (٥٣) .

— والشهاب أحمد بن الزينى عبد الرحمن العسلونى بن منصور
المقرى الفكيك ، المالكى السكندرى ، الذى نشأ بالاسكندرية وصارت له
امامة الجامع الغربى بها لمدة ٣٥ عاما (٥٤) .

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الله يوسف التونسى الاصل ، المغربى
المالكى ، تلقى العلم بالبرلس والقاهرة ، وحج وزار قبل أن يستوطن
الاسكندرية حيث توفى فى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م (٥٥) .
— وأبو الفضل العز عبد العزيز بن مسلم بن دال المستنانى المالكى
المغربى السكندرى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) (٥٦) .

-
- (٥١) السخاوى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .
(٥٢) السخاوى ، نفسه ، ج ٨ ، ص ١٤٦ .
(٥٣) السخاوى ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٤٠ .
(٥٤) السخاوى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٥٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .
(٥٦) السخاوى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

— وأبراهيم بن سعد بن إبراهيم * الحضرمي الاندلسي المغربي ، عرف بابن الصباغ والحربي ، وكان أبوه من أثرياء تجار الثغر ، وأضطر إبراهيم إلى ترك دراسته بالقاهرة بعد وفاة والده ورحل إلى الاسكندرية ، ولكنه سرعان ما توفي بعده في سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م ^(٥٧) .

ومن بين الوظائف التي أسندت إلى بعض المغاربة أيضا في مصر والشام وغيرها من أقطار الشرق الاسلامي ، السفارات لا سيما إلى الدول الأوروبية ، ومنها سفارة محمد بن محفوط المغربي الذي أرسله السلطان الأشرف قايتباي في ذي الحجة من سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م رسولا من قبله إلى ملك الكتيلان الفرنجي ، وقد قام السفير المغربي بعمله خير قيام وأرسل ملك الكتيلان إلى السلطان قايتباي على يده أي المغربي — هدية حافلة ^(٥٨) .

ومنهم عبد الرحمن بن خلدون الذي قام بدور السفير الممثل لسلطان المماليك فرج بن برقوق إلى تمورلنك عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م ^(٥٩) ولكترة اسناد منصب القضاء إلى العلماء المغاربة بدت وظيفة القضاء في مصر والشام وكأنها قد صارت حكرا على المغاربة بحيث أنه عندما يموت أحد القضاة المغاربة يخلفه قاضي مغربي ، ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله عند تعرضه لذكر وفاة القاضي ابن حريز ^(٦٠) : « * * ولما

(٥٧) السخاوي ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

(٥٩) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق

الاستاد حمد بن ناويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٣٦٦ .

(٦٠) هو القاضي المالكي حسام الدين بن حريز ، وهو محمد بن أبي بكر

بن محمد بن حريز بن أبي القاسم الهاشمي القرشي العلوي الحسني ، مغربي الاصل ، وعنه بقول ابن اياس : « * * ثم انشئ بمنفلوط وولى القضاء بها مدة

مات ولى بعده أخوه سراج الدين عمر فقرر في قضاء المالكية عوضا عن أخيه « (١١) » .

ولقد بلغت شهرة بعض القضاة المغاربة من الانتشار حدا دعا بعض السلاطين الى تقرييهم اليهم ومن هؤلاء القضاة القاضي أصيل الحضري الذي بلغ من الشهرة مبلغا كبيرا ، وأصيل الحضري هذا هو محمد بن ابراهيم بن علي بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق بن عبد الله المغربي (٧٨٨ هـ / ٨٧٣ هـ) وفيه يقول ابن اياس : « كان مالكي المذهب ، وكان عسبر الناس كثير المداعبات والنوادر ، لطيف الذات ، محببا لارباب الدولة ، عاش من العمر مدة طويلة » (٦٢)

ونظرا لما كان يتمتع به هؤلاء المغاربة الوافدين على مصر والشام والمتشرق الاسلامي من تقدير لدى الخاصة والعامة فقد اتخذ بعض سلاطين المماليك منهم مشايخ خاصة لهم ، كما حدث في عهد السلطان قايتباي ، ففي سنة ٨٧٩ هـ : « قرر الشيخ أبو عبد الله القلجاني — أبو عبد الله محمد بن محمد القلجاني التونسي المالكي — قاضي الجماعة في منسيخة تريية السلطان * وقرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون في الخمسة أوقات ، وبنى للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون ، وغير ذلك من وجوه البر المعروف (٦٣) * وكان

كان عالما فاضلا ، جوادا سمحا ، في سعة من المال ، وسمع على ولي الدين العراقي وابن عياش وغيرهما من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الأكبر بمصر . وصفا له الوقت . . وعظم أمره في القضاء » . وكان مولده سنة ٨٠٤ هـ وتوفي سنة ٨٧٣ هـ (بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٦) .

(٦١) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٦٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٦٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

عالما فاضلا في مذهبه المالكي ، وبعد فترة اقامته الطويلة بمصر قفل عائدا الى المغرب حيث مات سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٤ م « (٦٤) .

ويقول ابن اياس عن أحدهم : « وفي جمادى الآخرة من سنة ٨٥٩ هـ توفي الشيخ الصالح سيدي محمد المغربي المجذوب رحمة الله عليه ، ولما مات أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به « (٦٥) .

وشهد ابن اياس لعدد منهم بالعلم والفضل من بينهم تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي الشمتي القسنطيني ، والشيخ أبو عبد الله محمد التونسي الموصلي المالكي ، أحد أكابر علماء تونس ، عاش نحو من سبعين سنة (٦٦) .

(٣)

موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق

كان الموحدون من بداية عهدهم قد جروا على عادة المشاركة في تمييز اليهود وأهل الذمة عامة عن المسلمين . وقصة هارون الرشيد في هذا الصدد معروفة ، عندما أمر في عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م بأن يؤخذ أهل الذمة في بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، فأمر بأن يتخذوا الزنانير في أوساطهم وأن تكون قلائسهم مضرية ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وأن تمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، كما نهى اليهود والنصارى عن الركوب على السرج (٦٧) .

(٦٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٦٥) ابن اياس ، المصدر السابق والصفحة .

(٦٦) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

(٦٧) — R. Brunschvig; La Berbérie, Tom I, p. 409.

وقد ظلت نفس الاوامر مع التشدد في تنفيذها سارية في القرون
الخامس الهجرى ، بل كان أهل الذمة يمنعون من تعلية بيوتهم على أبنية
المسلمين ، وأن ملكوا بيوتا عالية أقروا عليها منعوا من الاشراف منها
على المسلمين (٦٨) .

هذه السياسة التى أتبعها المشارقة مع أهل الذمة طبقت الى حد كبير
في المغرب الاسلامى عندما تشدد الموحدون في تنفيذ أحكام الاسلام ، فنجد
عبد المؤمن يخير اليهود في المغريبين الاوسط والادنى بعد أن افتتحه
لا سيما في بلدتي بجاية والهدية ، أما في الدخول الى الاسلام أو الجلاء
عن البلاد أو القتل + وحدد لذلك أجلا معلوما ، فمن أسلم كان له ما كان
للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ، ومن امتنع عن الاسلام
في الاجل المعلوم حل دمه وماله + فأسلم الكثير وهاجر القليل ، وأعتنق
البعض الاسلام في الظاهر (٦٩) ، ونفذت الاحكام مداراة وخشية من
القتل ثم خرجوا بأموالهم وأهليهم وأثقالهم مهاجرين وعادوا يهودا كما
كانوا .

كانت تلك سياسة الموحيدين منذ بداية عهدهم — عبد المؤمن — حتى
عصر المأمون ، وقد عبر ابن جبير عن اعجابه لسياسة الموحيدين مع اليهود
وتشددهم مع أهل الذمة وعبر ذلك بقوله : « وليتحقق المتحقق ويعتقد
الصحيح الاعتقاد أنه لا اسلام الا ببلاد المغرب ، لانهم — أى المغاربة —
على جادة واضحة كما أنه لا عدل ، ولا حق ، ولا دين على وجهه الا عند
الموحيدين » (٧٠) .

(٦٨) آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٣ — ٨٦ .

(٦٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ .

(٧٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ — ٥٠ .

ومن الجدير بالملاحظة أن الموحدين اعتبروا اليهود والنصارى أعداء للإسلام وأنهم أهل رجس وذنس ويخس ، فأى انتصار عليهم هو انتصار للإسلام . ووضح ذلك عند انتصار الموحدين على النصارى في معاركهم المتعددة وأهمها معركة الارك الشهيرة التى خاضها الخليفة يعقوب المنصور الموحدى فغلت الاصوات بالتهليل والتكبير لهذا النصر (٧١) .

ظل اليهود والنصارى على وضعهم ظاهرة الاسلام باطنه الاذى بالمسلمين بعد عبد المؤمن حتى عهد حفيده يعقوب المنصور الذى أمر فى سنة ٥٩٥ هـ / ٨ - ١١٩٩ م بتمييز اليهود بعمل ما يسميه الزركشى بالشكلة « وجعل قمصهم طول ذراع فى عرض ذراع وجعل لهم برانس وقلانس زرقا » (٧٢) . بل يعطينا المراكشى وصفا أدق للباس اليهودى فى عهده يتسم بالمهادنة حيث يقول : « . . أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى فريب من أقدامهم وبدلا من العمام كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم . فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ، ولم يزلوا كذلك بقية أيامه » (٧٣) .

ويغلب على الظن أن المبرر الرئيسى لهذا التمييز أن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور كان يشك فى اسلامهم ومن مآثور قوله : « لو صح عندى اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولا صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرايرهم وجعلت أموالهم فبيئا للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمورهم ، ولم تنعقد عندنا ذمة

(٧١) ابن عذارى ، البان ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٧٢) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٦ — ١٧ . انظر أيضا عن هذه

الشكلة ، ابن عذارى ، البان ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦ .

(٧٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ .

ليهودى ولا نصرانى منذ قيام المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب
بيعة ولا كنيسة ، انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد
ويقرؤون أولادهم القرآن جارين على ملتنا و سنتنا والله أعلم بما تكن
صدورهم وتحويه بيوتهم » (٧٤) .

ظل وضع اليهود على تلك الحال حتى أيام الخليفة الرابع محمد
الناصر فترسلوا اليه ولم يعدموا وسيلة حتى الاستتفاع ، فأمر لهم
بتغيير الزى الى ثياب صفر وعماهم صفر ، وأستمر الوضع على هذا
النحو حتى عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م (٧٥) . والمعروف أن بعد حياة الناصر
حدث أنهباء فى الدولة الموحدية وأسسها التى أرتكز عليها اليهود فى الحصول
على حريتهم ، وساعدتهم الظروف السياسية السيئة التى كانت تمر بها
الدولة بعد اعتلاء الخليفة المأمون دست الخلافة وانقلابه على الدعوة
الموحدية والتقارب الكبير الذى تم بينه وبين اليهود والنصارى الى حد
استنصاره بهؤلاء على قومه المسلمين الموحدين عندما نكث هؤلاء الاخيريون
ببيعته عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، فأتصل بالملك فرناندو الثالث ملك قشتالة ،
وطلب المساعدة بارسال جيش يعبر به الى العدو لقتال الموحدين ، فأشترط
عليه النصارى شروطا قاسية منها : « اعطاء النصارى عشرة من الحصون
الموحدية بالاندلس المتاخمة لحصونهم وباختيارهم ، وأن يلتزم بببناء
كنيسة للنصارى مع دخولهم الى مراكز يظهرون فيها دينهم ويضربون
فيها نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لا يقبل اسلامه فيرد الى
اخوانهم فيحكمون فيه بأحكامهم » (٧٦) . ولقد أجاب المأمون كل هذه
المطالب ، فأنتعشت أحوال أهل الذمة فى المغرب .

(٧٤) المراكشى ، نفس المصدر ، والصفحة .

(٧٥) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ .

ومع ذلك فقد ظلت هذه الكنيسة قذى فى أعين المراكشيين وجميع المغاربة ، ولم تلبث أن هدمت بعد سنتين ، فاهتمت البابوية فى روما بذلك الموضوع وبأحوال القشتاليين العاملين فى الجيش الموحدى . وذهبت أطماع البابوية الى التفكير فى تنصير ملوك الموحدين ورعاياهم من المغرب والاندلس . بدأت الاتصالات لايفاد البعثات ، والارساليات والرهبان ، وذلك فى عهد البابا اينوسان الرابع ، الذى أوفد رسوله القس لويى فرنانديث دى آين الى مراكش عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م ليكون أسقفا هناك . وسلم القس كتابا يهنئ فيه الخليفة الجديد عمر المرتضى — السعيد — بانتصاره على خصومه ويشيد بالدور الذى قام به المرتزة النصارى فى تحقيق هذه الانتصارات ، ويحثه على الاستكثار منهم ، وينصحه باعتناق المسيحية دين النصارى لكى يفوز على حد زعمه برضى الله ويغنم بركة الكوسى الرسولى . وكتب البابا أيضا رسائل مماثلة الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يوصيهم بتسهيل الاتصال بين النصارى المقيمين بمراكش وأخوانهم المقيمين بتلك المراسى .

وقد توصلنا الى الاحاطة بمحتوى هذه الرسالة من خلال رد الخليفة عمر المرتضى على البابا برسالة مؤرخة فى ١٨ ربيع الاول سنة ٦٤٨ هـ / ٢٠ يونيو سنة ١٢٥٠ م ، حملها الاسقف لويى نفسه الى البابا اينوسان الرابع (٧٧) . ولاهمية هذه الرسالة اخترتها ضميمة للبحث (وهى مكتوبة

(٧٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤١٩ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ط تطوان ، ص ٢٦٤—٢٦٥ السلاوى ، الاسنقصا ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . وأنظر أيضا :

— J. Gonzalez; La Conquistas de Fernando III en Andalucia. Madrid 1946, p. 59.

(٧٧) عبد الوهاب بن منصور ، كتاب الوثائق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

بخط مغربي جميل في أعلاه بين الحمدلة والتصلية والمتن علامة الخليفة
وهي الحمد لله وحده (٧٨) *

ولقد حظى الرعايا اليهود في العهد الحفصي من تاريخ الدولة
الموحدية بحرية كبيرة ويذكر الاستاذ برنشفيك : « ... أنه كان يوجد
حوالي سنة ١٤٠٠ م عدد كبير من صناع الصاغة اليهود في السوق التي
ما زلنا حتى اليوم نجدهم فيها بتونس » (٧٩) * ولدينا الرسالة التجارية
المؤرخة في ٢٠ شوال ٦٢٤ هـ / ٣ أكتوبر ١٢٢٧ م الصادرة من تونس الى
بيزة تؤكد على وساطة اليهود جاء فيها : « ... موصله اليكم عمر بن أبي
الجيد الاسرايلى التونسى وحسره بينوره المنتصر وغيرهما فنحب منكم أن
تنصفوه في جميع من يتعين له عليه من حق وبيده عقود ثابتة ... ويكون
مرعى الجانب عندكم لانه ممن يكرم علينا ... » (٨٠) *

ولقد حظى اليهود الرهادنة بمثل هذه المكانة في تونس الحفصية *
وكان هؤلاء من التجار المتنقلين يأتون من الصين بلدا الى بلد حتى نورمبرج
في المانيا ينقلون السلع والعلوم والكتب والعادات — ولهم في كل مدينة
أسواق تسمى سوق الرهادنة (٨١) ، لا سيما بأفريقية خاصة في القيروان *
وقد ساهم هؤلاء اليهود بوفرة في تجارة الاقمشة والمنسوجات الحريرية
من البلاد الاسلامية والتوابل والادوية والذهب والرقيق على حدودها ،

(٧٨) انظر الملحق رقم ٩

— R. Burnschvig; Op. Cit., p 409

(٧٩)

(٨٠) مسيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رقم ٢٨ ، ص ٨٣ — ٨٥ .

(٨١) عن هذه الدورة عبر أوروبا وسطها وشرقها والحصول على منتجاتها

كسنع مهمة في الترقى أنظر :

— Lopez & Raymond; Medieval Trade, U.S.A., 1961, p. 2931.

وركزوا على الصيرفة (٨٢) *

وكانت لهم مكانة خاصة لدى البلاط الحفصي ، فكلفوا باقتناء نسوع معين من البضائع حققت لهم أرباحا طائلة ، كما كانوا وسطاء تجاريين بين الغرب الاوربي وبين المسلمين في أفثكاك الاسرى ، وقد سهل لهم هذا الاتصال الحصول على حاجاتهم المالية من أقرانهم في البلاد الاوربية أو الاسلامية على السواء ، وقاموا بعمليات الربا التي حرمت على المسلمين وكان من بين هؤلاء اليهود أيضا المترجمون المشرفون على ترجمة المعاهدات التجارية خاصة بين الحفصيين وأوربا . ففى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م عين الطبيب ابن داوود ضمن بعثة دبلوماسية الى تونس من قبل أرغون ، وفى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م كان موشى التونسى كاتباً لبلدية جنوة باللغة العربية (٨٣) *

(٨٢) كان هؤلاء اليهود يجيدون الحديث بعدة لغات : عربية — فرنسية — اسبانية . الخ ، ويرتحلون الى الشرق والغرب والعكس ، وكانوا ينجرون فى الخصبان والجوارى ، والدمشقى وفى أنواع مختلفة من الغراء والسيوف ، ويحطوا رحالهم فى فرنسا ، أنظر :

— Rabinowitz, L.I.; Jewish Marchant Adventurers, London, 1948, p. 166—7.

(٨٢) نجاه باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى من القرن ٤ هـ الى ٨ هـ ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٧ .

الفصل الخامس

العلاقات الاقتصادية

- ١ - الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغرب *
- ٢ - تجارة السودان *
- ٣ - التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية *

العلاقات الاقتصادية

(١)

الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغرب

شهدت العلاقات التجارية بين المغرب والمشرق الاسلاميين فى عهد الخلافة الموحدية ازدهارا واضحا المعالم لم تعرفه البلاد منذ القدم . فكانت كل من الاسكندرية وتونس مركزين هامتين ارتكزت عليهما التجارة العربية الشرقية . فموقع الاسكندرية الفريد على البحر المتوسط عند الطرف الغربى لفرع رشيد أهلها لأن تكون همزة الوصل بين وادى النيل وصحراوات المغرب الشمالية وأقاليمه الساحلية العامرة ، حيث يمر الطريق القديم الذى يصل بين أقصى المغرب (من سبلماسة فى الجنوب الى فاس وتازة) عبر الممر الافريقى الى تونس ثم طرابلس الى الاسكندرية ومنها الى السويس شرقا فالطريق الرئيسى المؤدى الى الحجاز .

وبحكم موقعها الفريد بحرا بحذاء ميناويها الشرقية والغربية كانت بر الامان لجميع الرحلات البحرية سواء للتجارة أو للحج أو بقصد طلب العلم ، كما كانت ملاذا للمغاربة وأهل الاندلس فى فترات الاضطراب التى كانت تشهدها بلاد المغرب والاندلس والتى سبق الحديث عن أمثلة لها (١) .

(١) ابن بطوطة ، نحة النظر فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق : أحمد العوامرى ، ومحمد أحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٤ هذا بالاضافة الى أن الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة تعنى دار الرباط انظر د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٤٦ .

لذلك صارت المدينة مستقرا لكثير من المغاربة والاندلسيين
وغدت وطننا ثانيا لهم (٢) .

أما مدينة تونس ، فقد سبقت الإشارة الى التصور الموحدى
لاقتصادياتها فيما سجله الفاتحون الموحدون في مجموع رسائلهم ، وكانت
بموقعها الساحلى منفذا رئيسيا أيضا للطريق البرى الذى أشرنا اليه .
وبحكم هذا الموقع الساحلى المتوسط فى السيف الجنوبى لحوض البحر
المتوسط ، غدت تونس فى العصر الموحدى مركز جذب هام سياسى وتجارى
فى آن واحد مجدده بذلك دورها القديم ودور الموانى المغربية بوجه عام
فى تاريخ العلاقات التجارية (٣) .

فأجندبت اليها النورمان الصقليين وبنى غانية المبروقيين السى أن
تم طردهم على أيدي الفاتحين الموحدين . كذلك اجتذبت تونس اليها
البيوت التجارية الاوربية التى عقد معها أبو زكريا الحفصى اتفاقياته .
وكانت هذه الاتفاقيات حلقة وصل كبيرة فى تاريخ العلاقات التجارية بين
ميناء تونس الحفصية والاسكندرية المنفذ البحرى الشرقى لدولة المماليك
وقد ساعد على تعميق هذه العلاقات وتوثيق أواصرها ما سبقت اليه

(٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٣) تعرضت المراكز التجارية القديمة مل أوسقه Utica أى قرط
عتيقت بمعنى المدينة العتيقة نميزا لها عن قرط حدثت بمعنى المدينة الحديثة
قرطاجنة ، وتقع على بعد ٣٠ كلم من الشمال الشرقى من تونس ، للدمار بعد
الحروب البونية الثلاثة ولكن سرعان ما أسنردت أهميتها الاقتصادية فى
أعقاب الفتح الاسلامى . فأعبد بناء الموانى العديدة بدور صناعتها ، ومن أهم
هذه الموانى المطة على البحر المتوسط ميناء تونس فى القرن ٧ هـ ، وموانى
بجاية والمهدبة (٩١٥ م) وقابس وسوسة وبنزرت . أنظر : عثمان الكعاك ،
العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ ، تونس ١٩٧٢ ، ص ٣٢ . كذلك
وقعت تونس معظم الوثائق التجارية كما هو واضح من بنود نصوص الملاحق

الاسكندرية في هذا المضمار منذ عهد الفاطميين بحيث غدت موكرا تجاريا عالميا بعد أن كانت مجرد تغر للجهاد أو جهة قتال • واحتفظت الاسكندرية بمركز الصدارة بين الثغور التجارية في حوض البحر المتوسط فتوقفت صلاتها بثغور أوربا وقدمت اليها السفن من بيزنطة ومن المدن الايطالية ، وصارت في القرن الرابع عشر الميلادي قطب الجاذبية في التجارة الصادرة أو الواردة بين الشرق والغرب على السواء • فمما يذكر عن فريسكو بالدي الفورنسي أنه كان يرى « من السفن في ميناء القاهرة في زمانه أى عام ١٣٨٤ م أكثر مما في جنوة أو البندقية » (٤) • فكانت السفن التجارية تصل اليها من جنوة والبندقية وبيزة وأيضا من مرسيليا (٥) •

وينكر هنرى بيرين أن هذه التجارة كان هدفها الربح المادى بالرغم من القيود والتحفظات الدينية النى لم تمنع المدن البيزنطية والايطالية من استبدال سفنها لتجديد الصلات التى كانت قائمة بينهما وبين افريقية في المغرب وبين مصر والشام في المشرق (٦) • بل هناك من يقول بأن الاسكندرية كانت تضم أعدادا لا تحصى من الجنسيات الاوربية داخل أسوارها ، وأنه بالرغم من التحذير السابق للتعامل مع المسلمين فأن تجار البندقية لم يترددوا في النزول بثغر الاسكندرية في فترة مبكرة (من عام ٨٢٨ م) (٧) • وذهب بيرين الى حد القول بأن البحر المتوسط وأن كان قد

(٤) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٢٤ . انظر أيضا د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٥٧—٢٦٣

— W Heyed: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (٥)
Paris, 1885. pp. 53. 92—94.

— H. Pirenne; Mohamet et Charlemagne, Paris, 1937, p. 14. (٦)

(٧) عادل ابراهيم بعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، بغداد، ١٩٨٠ ، ص ٣٨ .

تحول نتيجة ا ظهور الاسلام الى خط فاصل بين الشرق والغرب ثقافيا وسياسيا وروحيا ، فإنه لم يكن كذلك في مجال التجارة والتعامل المادي اللذين أحفظا بنشاطهما في مياهه ومراسيه (٨) .

ومن المعروف أن قطلونية سرعان ما تولت في العلاقات الاسبانية التجارية بالبحر المتوسط دورا متطورا الى حد منافسة المدن الايطالية . واذا كانت معلوماتنا عن علاقاتها بأفريقية في القرن ١٣ م وبداية القرن ١٤ م مائتال طفيفة ، فإن التعامل التجاري القطلوني مع تونس لم يلبث أن ارتفع من ١٠٠ ألف بيزنت الى ٣٠٠ ألف سنويا ، كما أرتفعت تجارتها مع بجاية من ١٢ ألف الى ٢٤ ألف دينار (٩) .

واذا كانت الاساطيل الاسلاميه في الموانئ الموحدية بالمغرب الاسلامي تستهدف أساسا الجهاد العسكري ، إلا أن الامر لم يخل من تجهيز عدد من قطعها على نسق البحرية القطلونية التي مارست ذلك منذ تاريخ مبكر . وليس أدل على هذا القول من العدد الضخم من السفن التي أمر عبدالمؤمن بإنشائها في سواحل العدو والاندلس ، وبلغ عددها زهاء ٢٠٠ قطعة من بينها ١٢٠ قطعة في مرسى المعمورة ، ومائة بالريف ، ومائة بدور صناعة افريقية وثمانون بصناعة الاندلس (١٠) .

— H. Pirenne, Op. Cit , p. 14.

(٨)

(٩) نجات باشا ، التجاره في المغرب الاسلامي ، ص ٧٠ . والبيزننت عملة اسبانية فضيه . أنظر : حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ٣٥ .
(١٠) ابن صاحب الصلاة ، إبان بالامة ص ٢١٣ — ٢١٥ . أنظر أيضا عن البحرية في حوض البحر المتوسط : أرشيالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غريال ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨٧ — ٣٩٩ . أنظر أيضا : د . سالم ، د . العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ وأيضاً :

— A. Julien; Histoire de L'Afrique de Nord, p. 124.

ونكتمل صورة هذه العلاقات التجارية من حيث اتساع مجال نشاطها الى حد أنها شكلت رابطة وثيقة بين المشرق والمغرب وفقاً للموضوعات التالية :

- أ — التجارة بين المشرق الاسلامي والمغرب الاوربي *
- ب — التجارة بين المغرب الاسلامي والمغرب الاوربي *
- ج — التجارة بين المغرب والمشرق داخل العالم الاسلامي * (١١)

لذلك ، فان الحديث عن أحد أقطاب هذه الرابطة التجارية في العصر الموحدى يفى بالغرض الكلى ، لا سيما اذا ما توفرت الوثائق التى نستند عليها فى تصوير الحركة التجارية ، ولقد أستعنت فى ذلك بعدد من الرسائل التجارية تبادلتها الخلفاء الموحدون والحفصيون مع المدن الاوربية التجارية (١٢) * وهى رسائل تتضمن مادة علمية أساسية تسلط الضوء على طبيعة العلاقات مع الثغور المشرقية لا سيما الاسكندرية كما تبرز الرابطة التجارية التى أثمرت اليها (١٣) *

ومن بين تلك الرسائل واحدة ورد فيها ما يلى : « ... من أن أمورهم كانت عندنا جارية على مرادها وسارية مسرى اعتقادهم وأنها الآن حالت عن معهودها وخرجت عن قنونها فى وصول المركب الذى وصل من

— CL. Cahen, Le Commerce dans le Monde Musulman a Son Apogée, UNEF, FGEL, année 1966—1974, p. 36.

— Michele Amari; Documenti Degli Archivi Toscani. (١٢)

وهذه الرسائل مكتوبة بالاطالية والعربية لم تنشر بعد حصلت عليها المغرب من ايطاليا فى عام ١٩٧٥ ، ونحفظ بها اليوم دار الوثائق بالرباط تحت

برقم
A O
4 583
1 bis

(١٣) ، أنظر الملحق رقم ١٠ .

الاسكندرية وما كان منا اليه بعذر يأتى هذا ، عند المشيخة مقبولا لانا كنا بعثنا مركبا الى الغزو فزعبه الضرورة الى دخول الاسكندرية فأكرم هناك وأجرى بحرى العناية وما يسعنا أن نقابل عن ذلك. الاكرام الا بمقتضاه فوصل ذلك المركب فزودناه وباع بمدينة تونس حماها الله » . (١٤)

وتتجسم فى موضع آخر منها صورة العلاقات الموحدية فى هذا الاطار الى حد القول : « ... ونحن نهدي اليهم من السلام أعطره وننثر عليهم درره ونذرف ، بذكرهم مسكه وعنبره ونحضر فيهم كل يوم محضرة لما نعتقد قديما وحديثا من السلاف والاحلاف منا ومنهم ومن أسباب المحبة ومنقدم الصلبة والمودة ... وشجيت بيننا وبينهم أواصر الاتيلاف وأستمرت منا ومنهم المحبة ... » (١٥)

ومع ذلك ، لم يخل أمر هذه العلاقات من مشكلات كانت وراء تبادل مثل هذه المراسلات ، سواء ما كان ينجم من أخطار الطبيعة أو نشاط الجهاد البحرى (القرصنة) غير الملتزم بالتعهدات الرسمية . فنجد احدى الرسائل الموحدية تقول بصدد الظاهرة الاولى (الاخطار الطبيعية) : « ... من مدينة بيشة حرسها الله أنا مركب من تجارنا وأهل قطرنا وأنظارنا أوسقا بالقمح من جزيرة سقلية وأقلعوا يردون (١٦) مدينة طرابلس حماها الله ، فأسقطهم الريح فى أحوازاها وكان الماء قد عجزهم (١٧) فغزلوا الى البر ليستقروا ، فلم يتركهم أهل الموضع الا حتى بعوا (١٨)

(١٤) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٢ هـ فى عهد عبد المؤمن الى أرك بيشة — بيزة — وقناصلتها وقماصتها العامة والخاصة ، ص ٤ — ٥ .

(١٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١ ، ص ٣ .

(١٦) يقصد يريدون .

(١٧) بقصد أعجزهم .

(١٨) يقصد أبتاعوا .

منهم من القمح قليلا ، فلما كان في اثر هذا وصل من مدينة طرابلس غرابا (١٩) معمرا من عند واليها ومقدمها وقبض على القوم وأنهبهم وقبض على الذي وجد في المركب من التجار ونجا بعض منهم في العشارى (٢٠) ، وقذفوا حتى وصلوا الى طرابلس ++ « (٢١) * وقد يترتب على تلك الاخطار الطبيعية قسوة في معاملة التجار في الموانى الافريقية ، وبالتالي تطلب بلدانهم عودة كل التجار وما يحملون من مواد تجارية على أساس : « ++ لا شائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد » (٢٢) *

أما بالنسبة للجهاد البحرى الذى يطلق عليه فى المصادر الاوربية القرصنة ، فان الموحدين قد التزموا الى حد كبير بعهودهم فى علاقاتهم الخارجية ، لذلك ، حظيت جهودهم البحرية بالتقدير فى هذا الشأن وأدى ذلك الى الحد كثيرا من الاعمال البحرية (الجهادية ، القرصنة) الخارجية على موافقتهم * فالاصل فى الحركة التجارية البحرية أن تكفلها موافيق الامن وانحرية بين أحداث الحروب الجهادية والصليبية * كذلك اقتضت علاقات هذه الفترة التزام التجار الاوربيين أثناء اقامتهم فى الموانى الاسلامية مشرقية ومغربية (٢٣) برسوم ذلك العهد وحدوده واتباع مراسمه المتعارفة بحيث لم تكن تضرهم أو تفزعهم المطالب غير المألوفة ، بحيث لم

(١٩) صحتها لغويا غراب *

(٢٠) يعنى بالعشارى الفلك أو الزوارق *

(٢١) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢ ، فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وهى غير مؤرخة وبالعودة الى الترجمة الايطالية وجد التاريخ الميلادى : ٢٣ أبريل ١١٨١ م ، ص ٧ — ٩ *

(٢٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢ ، ص ٩ . أنظر

الملحق رقم ١١ *

(٢٣) أنظر عن استقرار أهل جنوة وبيزة والبندقية فى تونس وبجاية :

— R. Le Tourneau; L'Occident Musulman du Viles a la fin du Xve's.

فى مجلة ALEO ، الحزائر ١٩٥٨ ، ج ١٦ ، ص ١٤٧ — ١٧٦ *

يتعرضوا لاي أذى سواء في البر أو في البحر (٢٤) . وكان الخوف من نهاية
آجال المعاهدات التجارية وعدم قدرة التجار الاوربيين على الاحتفاظ
بمكانتهم التجارية في الموانئ المغربية ، دافعا الى تجديد المراسلات مع
الخلفاء الموحدين . وفي هذا الصدد ، جاء في رد الخليفة الموحدي يعقوب
المنصور : « .. أنه ما زوى له من المشارق والمغرب والاكثاف والارجاء
والرضا عن الامام المعصوم المهدي المعلوم محيي رسوم الدين بعد الدروس
.. مظهر معالم التشريعة بعد ما تناولها الجهل بيد الاضحار والاخفا وعن
خليفته أمير المؤمنين .. ابن أمير المؤمنين .. ابن سيدنا الخليفة أمير
المؤمنين .. من الصلح للقناصلة والاشياخ والاعيان والكافة من أهل بيثة
وجهاتها من بلد العتيق الى قاب قرب والجزائر التي هي سردانية وقرصة
واپلنيزة والبنة وقبرارة ومونت اقرشت وجلية وقرقنة وكل من فيها من
زعمائهم وأعيانهم اطرروان بن تدسك واستتابوه في العقد لهم وعليه ..
فعرف رسولهم المذكور برغبتهم في ادامة الهدنة لهم .. وأنهم ملتزمون لكل
شرط يشرط عليهم ومنتهون الى جميع مايحل لهم .. وأجاب مسئلتهم وأمر
لهم صلح على عادتهم وهدنتهم وعقد لهم السلم الى مدة من خمس وعشرين
عاما من تاريخ هذا الكتاب على الامنة التامة والمعدلة الشاملة العامة ، وأذن
لهم أعلى الله اذنه ووصل انعامه ومنه في الوصول الى بلاد الموحدين أعزهم
الله للتجارة فيها والتجهيز بها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتها وهي
سبتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله ولم ييح لهم النزول بغيرها ولا
الاحتلال بسواها الا لضرورة من صعوبة البحر » (٢٥) .

(٢٤) مبشيل أماري ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٣ ، ص ١٠-١٣ مؤرخة
(وسط الرسالة) في ٢٠ صفر ٥٨٠ هـ / يونيو ١١٨٢ م ، وذلك في عهد يوسف
بن عبد المؤمن .

(٢٥) مبشيل أماري ، المصدر السابق ، رساله رقم ٥ ، مؤرخه في
رمضان ٥٨٢ هـ / نوفمبر ١١٨٦ م ، ص ١٩ — ٢٠ .

وواضح من هذه الرسالة وسابقتها أن الدولة الموحدية حددت أسلوب تعاملها مع التجار الاوربيين كما حددت المراسى التى يدخلونها والاعراف التى يخضعون لها (٢٦) .

ورغم تحديد الموانى والمراسى المغربية التى يجب التعامل التجارى فيها فقط ، الا أن هذا لم يمنع من تعرض سفن التجار الاوربيين لاعتداءات قراصنة أوريبيين ، مثلما حدث فى ميناء تونس عندما تم استيلاء تجار بيزة على مسطحين (سفينتين) هما — الاركليوسه واكرناطة — وأسر ثلاثه مراكب للمسلمين بما فيها من تجار وركاب وتجارة ، وقتل جماعة من المسلمين ، وما ترتب على هذا الاعتداء من انتهاك الحرمات وفضح الحريم وموت البعض غرقا فى البحر ووقوع عدد من الجرحى . ولهذا السبب اتخذ الموحدون اجراءات مشددة لمعاقبة المعتدين بالعقوبة المنصوص عليها فى قوانين الدولة الموحدية طبقا للشريعة الاسلامية ، لكى يكون ذلك الحكم رادعا لغيرهم فلا يتجاسر أحد القراصنة بعد ذلك على التعرض للمسلمين « لا بأخذ ولا مضرة » ، وهذا نفس ما كان يفعله أشياخ وأعوان وتجار جنوة فيمن قصد المسلمين بأذى من أهل بلادهم (٢٧) . كذلك كانت تلك المراكب التجارية تنتقل فى جماعات ، وكثيرا ما كانت تخفرها مراكب حربية لحمايتها مما عسى أن يداهمها من اعتداءات القراصنة (٢٨) .

ولقد أحدث ذلك رد فعل لدى بعض التجار لا سيما البيزين الذين

—Robert S. Lopez; Medieval Trade in the Mediterranean World,(٢٦)
U.S.A., 1961, p. 303—317.

(٢٧) مينيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٦ ، مؤرخة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٢٣—٢٨ .

(٢٨) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ٨٣ . ويؤكد أيضا أن القرصنة من السلوك المتعارف عليه فى تلك الفترة من الزمن حتى أن التجار أنفسهم كانوا لا يتورعون عن تعاطبها كلما سنحت الفرصة بذلك .

فقدوا ثقة الموحدين بهم ، وكانوا يهتمون أصلا بالتجارة ومسالكتها وربط
الغرب وموانئه بالشرق لمزيد من الفائدة والربح السريع ، فبادروا بالسعى
لاسترجاع ثقة الدولة في تعاملهم التجارى . وبعد بحث واستقصاء عنهم
صدر لهم كتاب الامان على أن : « ... يصلوا الى بلاد افريقية حاطها الله
محمولين على الرعاية والعناية محوطين بكاف الكفاية والحماية .. » وحيث
حلوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها في مسالك تجارتهم وترددتهم
بها ومتصرفاتهم لا يعترضهم في شئ منها متعرض ولا يئغضب لهم هذا
الحبل المتين » (٢٩) .

ومما لا شك فيه أنه ترتب على عملية القرصنة ضياع جزء كبير من
التجارة الصادرة من الغرب الى المشرق عبر أوريا وتجارها . الا أن
الموحدين استطاعوا حل تلك القضايا المختلفة بأخذ قيمة ما استولى عليه
القراصنة من اخوانهم المقيمين في الموانئ سالفه الذكر حسب الشريعة
الاسلامية وذلك بحضور القاضى والانسياخ والنسهود بالجامع الاعظم .
واجتهد في معرفة قيمة ما أخذوه من كل تاجر واسترداد قيمته نقدا من بيع
قمح تجار بيزة المقيمين في تلك الموانئ . بل استطاعت الدولة في مواضع
أخرى حل تلك المشكلة عن طريق مراسلة حكام بيزة ليقوموا بأنفسهم
بتوقيع العقوبات على هؤلاء القراصنة (٣٠) . وهناك حقيقة لا بد من الإشارة
اليها ، فعندما كان الموحدون يؤكدون على خطورة عمليات القرصنة ، فإن

(٢٩) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رساله رقم ٧ ، ص ٢٩ — ٣٠ ،
رساله رقم ٨ ص ٣١—٣٢
(٣٠) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رساله رقم ٩ ، مؤرخة في ذى
القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٣٣ — ٣٥ . ولمزيد من تلك العقوبات عن طريق
الانصال الدبلوماسى راجع :

الامر كان يعنى فى نظرهم أيضا تأمين الطريق التجارى عموما بين المغرب والمشرق . وهذا واضح من خلال ما ورد فى احدى الرسائل بأن معظم ركاب سفن القرصنة التى أخذت من مرسى مدينة تونس كانوا من أهل تونس وبواديها ، وحجاج مغاربة كانوا قد خرجوا من المغرب متوجهين الى المشرق عبر الاسكندرية ، بالرغم من نفى الرسالة لذلك : « ... ولم يكن فيه من أهل الاسكندرية الا رجل واحد ولم يكن معه الا شيء يسير » (٣١) .

وقد حاولت الدولة الموحدية من ثغورها المغربية القيام بدور رئيسى لحماية طرق التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط الغربى ، ورائدها فى ذلك القول المأثور الوارد فى احدى الرسائل : « ... يعز من والاه ويذل من عاداه ويحفظ من تمسك بعهدده وذمته وحافظ على صنائعه الجسيمة » (٣٢) . كما كان رائد الموحدين فى هذه العلاقات التجارية ما سبق من معاملات انتظمت فى الموانئ المشرقية ، وعلى حد قول رسالة أخرى : « ... الواصلون بكتابنا هذا اليكم على ما سلفت به عوائدهم من التصرف فى تجارتهم والتغلب فى بضاعتهم ، وعاملناهم فى جميع أموالهم بما توجه ... الذمة لهم ووصينا بأن أ ... بلوا بالخير فى كافة أمورهم ... » (٣٣) ، حتى لا تكون أقل من مثيلاتها من الموانئ المشرقية (٣٤) .

(٣١) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١١ ، ص ٣٨ — ٤٢ .
وبها توصيلات عن عملية القرصنة وأنها بالركاب مع تقدير قيمة ما نهب من كل راکب .

(٣٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٣ ، مؤرخة فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ / يونيو ١٢٠١ م ، ص ٤٥ — ٤٧ .

(٣٣) ميشيل أمارى ، المصدر السابق .

(٣٤) ميشيل أمارى ، نفسه ، رسالة رقم ١ ، ص ٤ — ٥ . والوارد فيها ذكر الاسكندرية .

(٢)

تجارة السودان

(أ) الطرق التجارية في بلاد المغرب :

كان الطريق التجارى البرى الى قلب القارة الافريقية من أهم المسالك الافريقية بسبب الوحدة التضاريسية لبلدان المغرب التى تؤلف حاجزا دابيعيا مانعا تيسر سبل الاتصال شرقا ويعسره جنوبا . لذلك كانت المسالك المؤدية الى بلاد البربر والمعابر الموصلة الى المغرب تمتد من المشرق الى الغرب وبالعكس . وكانت هذه المعابر فى حد ذاتها الطرق التى كانت تسلكها القوافل التجارية ما بين الشرق والغرب (٣٥) .

وعلى جانب هذه الطرق أقيمت الرباطات ووقفت عليها أوقاف كثيرة فى افريقية (٣٦) ، ثم أقيمت الحصون وأنشئت القلاع لحماية البلاد ، وفى ظل هذه الحماية وتوفر وسائل الحياة فى هذه الطرق كان التجار يقبلون على التعامل التجارى بقدوم ثابتة ، وكان ذلك مقدمة لاقامة مراكز التجارة والاسواق واختطت المدن ساحليا وداخليا (٣٧) .

ومن الجدير بالذكر أن مسلكين هامين كانا يخترقان بلاد المغرب مع الاتجاه الطبيعى للتضاريس من الشرق الى الغرب :

١ — طريق الهضاب المرتفعة أو ما يعرف بمنطقة شط الجريد باقليم تونس ويدور حول جبال الاوراس بحيث يمر بحوض الطرف وبممر

—H Pirenne; Les Villes qu Moyen Age, Essai d'histoire Economique (٣٥) et Social. Bruxelles, 1927, pp. 120—123.

(٣٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٩ .

(٣٧) نجاه باشا ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

الحضنة ثم مر تازة بالشمال الغربى من بلاد المغرب * وكانت القيروان وما أضيف إليها من بلدان الساحل التونسى متصلة بهذا الطريق الذى يتفرع منه طريق ثانوى نحو بجاية فى الشمال ونحو بسكرة وورقلة فى الجنوب *

٢ — (أ) طريق القصور ويلى الطريق الساحلية التى تبدأ من مصر مرورا ببرقة وطرابلس ثم تتبع السفح الجنوبى من الاطلس الصحراوى فى اتجاه الجنوب الغربى من المغرب الاقصى * وتتمثل أهمية هذا الطريق فى ربط المسالك الصحراوية بالاندلس وجزر البحر المتوسط ، ومن أهم مدنه تاهرت وورقلة وسدراتة ومزاب وهو ما يعرف أيضا بمنطقة المغرب الاوسط *

(ب) مضيقات الاطلس المغربى أو ما يعرف بمنطقة المغرب الاقصى بواجهاتها البحرية ، ومن أهم مدنها القديمة مدينة أودغست على طريق تجارة هامة هى الذهب والملح والرقيق من بلاد السودان ، وفاس وسجلماسة^(٣٨) وتكرور وأهميتها لمعدن الذهب ، وأغمات ومراكش وسوس ونول ولمطة على ساحل المحيط * وهذه المدن الاخيرة هى نهاية القوافل التجارية المنبعثة الى السودان ، ومن هنا كان انشاء شبكة من المدن شكلت عبر اتصالها فيما بينها العمود الفقرى

(٣٨) هناك نشابه كبيرا جدا بين الفروان وسجلماسة فى مناخهما الصحراوى ، وفى مدى أهمية كل منهما ، فالقيروان مركز هام فى افريقيّة ، وسجلماسة مركز للقوافل التجارية على باب الصحراء القادمة من السودان : انظر :

التجارى الاسلامى بين المغرب والمشرق كما كانت تخرج
منها دورة التيارات العظمى للتجارة^(٣٩) *

لذلك أوجدت هذه المسالك مع وحدتها الجغرافية وحدة اقتصادية
ووحدة عمرانية تمتد من الجنوب الغربى من بلاد السودان الى القارة
الاوربية فى الشمال ومن الجنوب الشرقى المغرب فى الشرق الى الصين فى
الشرق الاقصى *

وعبرت القوافل هذه المسالك مخترقة الصحراء عبر طرابلس الى
أجدابية ومنها الى الاسكندرية حيث تتفرع عبر صعيد مصر الى عدد من
المدن والتغور على البحر الاحمر ومنها الى جزيرة العرب وعدن الى المشرق
الاقصى * ومن الاسكندرية يتجه فرع آخر الى ثغور الشام ببغروت وصور
وصيدا ، ومنها بالطريق البرى حتى جزيرة فيلكة الى ايران والهند والصين *
وكانت فيلكة مركز تجمع هائل للمواد الآسيوية *

كانت هذه المسالك البريه واضحة المعالم وتنقسم الى مسافات تقدر
بالمراحل والاميال والفراسخ * فطول المسافة على سبيل المثال من القروان
الى السوس الاقصى على المحيط الاطلسى ألفان ومائة وخمسون ميلا^(٤٠) *
وكثيرا ما كان يتولى حراسة الطرق التجارية رجال أشداء من نفس القوافل
التجارية * وتعود أهمية هذه المسالك الى القيمة العالية للسلع المنقولة
عبرها وأهمها الذهب والعبيد *

(٣٩) د . الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامى ، الحياة الاقتصادية
والاجتماعية (ق ٣ — ٤ هـ / ٩ — ١٠ م) تونس ١٩٧٧ ، ص ١٣ — ١٩ .
(٤٠) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٨٩ .

(ب) تجارة الذهب والملح :

أما الذهب فقد طرأ تحول على طريق تجارته القديم بين بلاد السودان والمنسرق • فقد أهمل الطريق التجارى الذى يربط بين غانة ومصر عبر بلاد النوبة^(٤١) لما كان يمثله من خطر على القوافل ، وهذا الخطر يتمثل فى الثورات والانتفاضات التى كان يقوم بها الاعراب رفضا لدفع الجزية وخروجا على الاحتكار الايوبى والملوكى للمواد التجارية الهامة ومنها الذهب •

لذلك أصبح الطريق الرئيسى لتجارة الذهب هو طريق السودان الغربى عبر مراكزه التجارية مثل تمبكتو وتكرور^(٤٢) الى مسالك أعالي السنغال والنيجر ثم مراكز غربا ، ومنها الى تونس ثم طرابلس ومصر • وفى ذلك يقول الادريسي : « • أن السودان بلاد التبر وأنه أكبر غلة عند السودان ، وأنهم عليها يعولون صغيرهم وكبيرهم^(٤٣) • فكانت القوافل التى تسير فى الصحراء الكبرى الآتية من الجنوب تحمل الذهب والعبيد ، وكان الحمالون يحماون الملح ويعودون بالذهب •

(٤١) لموقع غانة فى شمال وادى الذهب أعالي النيجر والسنغال ، فهى تعرف بأسم أراضى الذهب • ويرجع نراؤها الى تحكمها فى تصدير الذهب الى الشمال وسقايضته بالملح والمواد الاخرى فى الجنوب • وأصبحت تجارة الذهب الشريان الرئيسى فى حياة هذه المملكة ، انظر :

— Roland Oliver; A Short History of Africa, London, 1970, p. 61.

وعن علاقة مصر ببلاد النوبة من عام ٦٥١ هـ انظر أيضا :

— R. Oliver, Op. Cit., p. 70.

(٤٢) د • ابراهيم على طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣

ص ٧٤ — ٧٥

(٤٣) الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن الشريف الادريسي)

٥٤٨ هـ / ١١٥٩ م ، نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، ط د وزى ، ليدن ١٧٦٦

ص ٨ •

وكانت طرق القوافل الى كانم وغانا في الغرب محل اهتمام خاص من حكام القاهرة الذين اعتمدوا على الذهب المستورد منها لسك دنائيرهم فحسنوا العديد من الحملات والغارات العسكرية لتأمين طريق الذهب ، لكثرة تعرض التجار لعبث اللصوص في هذا الطريق وتحوله الى الطريق المارة بالمغرب^(٤٤) * ويذكر ابن خلدون علاقة مصر بمملكة مالي عبر تجار الذهب فيقول معتمدا على رواية نسفاوية من عصر ماري جاطه بن مانسا ملك مالي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري : « * * انه بذر وأسرف واضطر الى بيع حجر الذهب الشهير الذي كان في ذخيرة مملكة أسرته وهو حجر يرن عشرين قنطارا منقولاً من المعدن من غير علاج بالصناعة ، ولا تصفية بالنار ، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين الى بلده وابتاعوه بأبخس ثمن »^(٤٥) *

وكان هؤلاء التجار قد سلكوا الطريق القديم المارة بالقيروان وبلاد الجريد وورقلة وتاهرت وتلسان وفاس وسجلمانه ، وكلها مراكز تجارية نشيطة كانت تتجمع فيها كميات هائلة من الذهب * ولم يقتصر التجار الذين يتعاملون مع تلك المراكز التجارية المؤدية الى السودان الغربى لتجارة الذهب والمواد الاخرى على تجار مصر بل تعداهم الى تجار العراق والشام^(٤٦) *

(٤٤) ظلت مالي وغانة تتصدران نجاره هذا الطريق طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين حتى ظهور الحفصيين ، لنظهر في عهدهم مملكة كانم في السودان الاوسط في لقرن ١٣ م وامتدت سلطاتها حتى فزان ، مما أوجد علاقات واسعة بينها وبين الحفصيين في تونس . انظر :

— R. Oliver, Ibid., p. 91.

(٤٥) ابن خلدون ، العبر ، ط بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٤١٨ . انظر :

الملحق رقم ١٧ .

(٤٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٤ .

وكانت المراكز التجارية الواقعة على نفس الطريق تصدر بضائع أخرى غير الذهب والعبيد أهمها : الحبوب وزيت الزيتون^(٤٧) واللحوم والقطن والخشب والملح والتمر والعسل والسكر والنحاس المصنوع والشموع والجلود والزئبق (له أهمية في صناعة الذهب) وغيرها * فكانت سجلماسة تصدر الى السودان أنواع التمور والزبيب والنحاس المصنوع والمنسوجات السجلماسية الشهيرة ، ويعود التجار بالتبر والرقيق * كذلك كان الملح من أهم ما يحمله التجار السودانيون ، وفي هذا يقول ابن حوقل : « وربما بلغ الحمل من الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار * »^(٤٨) *

وكما سبق الاشارة ترجع أهمية مالى السودانية الى ضخامة ثروتها التى تدفقت عليها من حقول الذهب الواقعة في منطقة ونقارة وتشتمل على أربعة مناطق :

- ١ — بامبوك الواقعة بين السنغال الاعلى وفرعه فاليم *
- ٢ — بور عند التقاء النيجر الاعلى براغده تنكسو *
- ٣ — لوبى عند أعالي نهر فولتا *
- ٤ — أسانتي داخل جمهورية غانة الحديثة *

وفي هذه الاقاليم وغيرها يستبدل الملح بالذهب لعدم وجود الملح بها عن طريق التجارة الصامتة^(٤٩) *

(٤٧) ليفى بروفنسال ، سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلسوناريخها القاها عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، ترجمها د . محمد عبد الهادى شعيرة ، د . عبد الحميد المهادى ، مطبوعات كلية لاداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ ، ص ٩١ (٤٨) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ . وعن سجلماسة أنظر أيضا : ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ط بيروت ١٩٤٨ ، ص ٥٦ . (٤٩) د . أبراهيم طرخان ، المرجع السابق ص ٦٥ . انظر الملحق رقم ١٧

ورغم وجود هذا المعدن وثراء مالى الذى اكتسبت به شهرة تجاوزت بلاد المغرب الى أوروبا الى حد أن بعض الكتاب كتب يقول : « لا يوجد هناك شعب أثرى من الماندنجو فى الذهب والفضة * » (٥٠) .

وتنان الذهب فى مالى سهل الاستخراج لكثرة توفره قريبا من سطح الارض ، وقد استخدم سادات مالى رعاياهم الوثنيين فى أعمال الحفر والتنقيب لمهارتهم فى ذلك العمل * وارتبط استخراج الذهب بمحاولة انتشار الاسلام بين هؤلاء العمال الذين كانوا يتوقفون أحيانا عن العمل فى هذه المناجم ، اذ لك يتسامح سادة مالى معهم حتى يضمنوا استغلال مناجم الذهب لكونه المصدر الرئيسى لثروتهم وتجارته (٥١) .

ولذهب مالى أهمية كبرى فى علاقاتها مع المغرب والمشرق على السواء ويتضح ذلك من المرحلة التى قام بها كنكن موسى ملك مالى عام ٧٢٤هـ — ١٣٢٤ م للحج فبهر به مصر والحجاز بل والعالم الاوربى * ومهما كانت أسباب ذلك الحج وتلك الرحلة (٥٢) ، فقد سلك الملك المالى طريقه عبر طريق القوافل الغربى من منحنى النيجر الى المغرب عن سجلماسة ومنها الى مراكش ثم الطريق الشمالى عبر جبال الاطلس الى تونس مما أتاح للتجار الاوربيين مشاهدة هذا الموكب وهو فى طريقه الى القاهرة (٥٣) . ولقد تعددت

— Bovill, E.W.; The Golden Trade of the Moors, London, 1961. (٥٠) pp. 194—5.

ويفسر د . طرخان معنى شعب الماندنجو فيقول : « ينقسم الى مائى بمعنى السيد أو مركز أقامة السيد أو العاصمة ومعنى آخر أن ما — الام ، ودنج — الطال ، فبذلك يكون ابن الام ، وذلك له أهمية فى النسب الى الام لدى هذا الشعب . نفس المرجع ، ص ٢٧—٢٩ .

— Bovill, Op. Cit., p. 87. (٥١)

(٥٢) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٥٣) د . طرخان ، نفسه ، ص ٨١ .

الروايات بشأن أحمال الذهب التي صاحبت هذه الرحلة في طريقها الى مصر * ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : « ان منسا موسى كان قد أعد لنفقته من بلاده ، فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قنطير » (٥٤) .

وقد استقبل الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر تلك القافلة بحفاوة بالغة عند وصولها ، وعهد السلطان الناصر محمد الى المهندس أبى العباس أحمد بن على الخاقانى لمرافقته خلال اقامته بالقاهرة ، وقد لاحظ هذا المهندس كميات الذهب الكبيرة التي كان ينقلها ملك مالى فقال : « لم يترك — أى منسا موسى — أميرا ولا رب وظيفة سلطانية ، الا بعث اليه بالذهب » (٥٥) .

وقد رد سلطان مصر على تدفق هذه الكمية الضخمة من الذهب في القاهرة مهدبة حافلة تتمثل في : « طرد وحشى على مفرج اسكندري ، وكلوته زركش ، وكلاليب ذهب ، وتسانس بحريير ورقم خليفتى ومنطقة ذهب مرصعة ، وسيف محلى ، منديل مذهب خزوفرسين ملجمين مسرجين وأعلام » (٥٦) .

(٥٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .
(٥٥) المقرئى ، الذهب المسبوك فبمن حج من الخلفاء والملوك ، نشر د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .
(٥٦) طرد وحشى : هو نسبج كان يعمل بدار الطراز بالاسكندرية ويزدان بدوائر أو رسوم بداخلها صور نميل مناظر لصيد الوحوش . والمفرج الاسكندري : هو نوع من النسبج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة بالكلاليب . أى القلائس المطرزة بأبازيم محاطة بحافة القلائس . والتسانس بحريير : هو نسبج حرييرى موج بالذهب وهو نفسه المنمر . ورقم خليفتى : أى مكتوب على هذا النسبج القاب الخليفة بالحرير الباهر الملون . ومنطقه ذهب مرصعة : أى حزام من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة .

وشجعت كميات الذهب الوفيرة التي تدفقت على القاهرة الحركة التجارية في مصر حتى أن أحد التجار المصريين باع لاحد أتباع منسا موسى نوبا بخمسة دنانير وهو لا يساوى أكثر من دينار واحد * ولقد بهرت الانواب المصرية الجميله وحسانها أتباع منسا موسى فأقبلوا على الشراء حتى انخفضت قيمة الذهب وسعره لكثرة سيولة الذهب في أيادي التجار واغراق الاسواق بالذهب السودانى ، ولم يرتفع سعره الا بعد سنوات عدة (٥٧) *

وشمل هذا البذخ السودانى البلاد المشرقية خاصة الحجاز في موسم الحج ويعلق السعدى على صدقات الملك المالى في الحجاز : « * * ومع قوته واتساع ملكه ، لم يتصدق في الحرمين بأكثر من عشرين ألف ذهب ، مع أن اسكيا الحاج محمد ، ملك سنغى تصدق بمائة ألف ذهب » (٥٨) * وتكررت له — منسا موسى — التكرمة والعطاء في طريقة العودة أيضا وفي ذلك يقول المقرئى : (وأنعم عليه السلطان بخيول وجمال » (٥٩) *

وبجانب شهرة مالى في الذهب كانت تتميز بخصوبة أراضيها ووفرة

انظر : ل . ١ . ماير ، الملابس الملوكية ، ترجمة صلاح الشيتى ، مراجعة وتقديم ، د . عبد الرحمن نزمى أسماعدل ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٧ ، ٣٨ ، ٥١ — ٤٣ ، ٩٩ ، ١١٤ . انظر أيضا : ديماندا ، الفنون الاسلامية ، تقديم : د . أحمد فكرى ، ص ٢٥٠ . راجع أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٢٦ — ٥٢٨ .

(٥٧) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .
(٥٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (ت بعد عام ١٠٥٥ م) : تاريخ السودان حقيقه ونشره : هوداس وينوا ، باريس ١٩٠١ ، ص ٧ .

(٥٩) المقرئى ، الذهب المسبوك ، ص ١١٣ . انظر أيضا :
— Davidson, B.; Old Africa Rediscovered, London, 1959, p. 91.

محاصيلها الزراعية وكثافة سكانها (٦٠) .

وقد وصلت الى السودان الغربى والاوسط بفضل علاقات مالى التجارية معها كميات وفيرة من حبوب مصر وخضرواتها وحيواناتها المستأنسة . مثل الثور والغنم والماغز والحمار النوبى المستأنس والدجاج المستأنس ومن الخضروات والحبوب القرع والقلقاس والفلول والبازلاء والذرة العويجة أو الدخن (٦١) .

واستوردت مالى من المشرق أيضا المصنوعات المختلفة مثل السيوف الدمشقية والحريير كما استوردت الثياب المصرية والخيول بكميات كبيرة (٦٢) . ولزيادة حجم التجارة التى تغلت سكان مدينة تكدة المالية — احدى ولايات مالى — يقول الرحالة ابن بطوطة : « شغلتهم التجارة ، يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب » (٦٣) .

ومدينة تكدة — وهى أكرا — من مدن مالى الهامة ، وهى مركز تجارى رئيسى فى طريق القوافل وتتقاع بين جاو وأير على طريق الحج عبر الصحراء ، كانت على علاقة وثيقة تجارية مع ورقلة ومع مصر ، ويذكر أن هناك قافلة خرجت من مالى العاصمة نحو مصر عن طريق تكدة بلغ تعدادها ١٢ ألف جمل . واستوردت مصر النحاس من مالى كما استورده المغرب أيضا (٦٤) .

ولما كانت للذهب أهميته فى التجارة المشرقية المغربية ، كانت للملح

(٦٠) الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٦١) د . طرخان ، دوله مالى ، ص ١٣٧ .

(٦٢) أريسيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٠ — ٢٦٣ .

(٦٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ . أنظر أيضا :

Bovill, Op. Cit., p. 128.

Bovill, Ibid.

(٦٤)

أيضا تجارته الرابعة ، ويصف ابن بطوطة في رحلته ضخامة كميات الملح الموجودة في مناجم تغازة فيقول : « .. قرية لا خير فيها ، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر فيها إنما هي رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه في الأرض ، فيوجد فيه ألواح ضخام متراكبة ، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الحمل منها لوحيد ، ولا يسكنها الا عبيد مسوفة — احدى قبائل البربر — ويتعيشون بما تجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ، ومن لحم الجمال • ويصل السودان من بلادهم الى تغازة ، فيحملون منها الملح ويبيع الحمل منه في ابوالاتن عشرة مثاقيل الى ثمانية مثاقيل ، وبمدينه مالى بثلاثين مثقالا الى عشرين ، وربما انتهى الحمل الى أربعين مثقالا » (٦٥) • ويخال ابن حوقل في ذكر تمن حمل الملح فيذكر أن حمل الملح بلغ في بعض بلاد السودان الاخرى في غربى افريقية ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مثقال أو دينار (٦٦) •

ويضيف ابن بطوطة أن الملح كان عمله يتصارف ويتعامل بها أهل السودان كما يتصارفون بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعاً ويتبايعونه ، ويذكر أن قرية تغازة على حقارتها كان يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر (٦٧) •

وعن هذا الطريق التجارى ومدنه يتحدث البكرى عن سلجماسة وسكانها فيقول : « ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزافا عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددا » (٦٨) • وفي حديثه عن مدينة أودغست كمركز تجارى شهيرة فى الذهب والملح والعبيد يقول : « .. ويتجهز الى

(٦٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ •

(٦٦) ابن حوقل ، صوره الأرض ، ص ٩٨ •

(٦٧) ابن بطوطة ، نفس المصدر •

(٧٨) ابن حوقل ، نفس المصدر ، طدى سلاين ، الجزايرة ، ١٨٥٧ ، ص

١٧١ •

أودغست بالانحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة ،
ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم ، والذهب
الابرز الخالص خيوطا مفتولة • وذهب أودغست أجود ذهب أهل الارض
وأصحه » • ويضيف : « انه كان للرجل الواحد من سكانها ألف خادم
وأكثر » (٦٩) •

وكان لسكان السودان طريقة خاصة في التعامل مع التجار الاجانب
سبق أن عرفناها بالتجارة الصامتة^(٧٠) ، عرضها المسعودي فيقول : « أن
فن البيع والشراء فيما كان وراء سلجماسة من أرض المغرب ومثلها بأقصى
خراسان قوم يبتاعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع
ثممه أعمدة من الذهب ، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ،
وان شاء أخذ متاعه وترك الذهب » (٧١) •

وقد تعدى أثر حركة تجارة الذهب هذه على البلدان الاسلامية المارة
بطريقها من المغرب غربا الى مصر والحجاز شرقا لتشمل الحركة النقدية
نفسها • فمع تدفق الذهب والفضة كانت الدورة النقدية عادة مرضية •
وكان نضوب الذهب ينتسب غالبا في كارثة اقتصادية تظهر في قلة العملات
الجيدة وتغيير سعر العملة ووزنها ومن ثم تقع حالات غش وكساد وقد
يؤدى الامر الى أزمات اقتصادية أو مجاعات تعم بلاد المغرب والشرق
على السواء •

ويذكر القلقشندي عن مسالك الامصار : « أن معدل سعر القمح
٥٠ درهما لكل قفيز وأن التسعير كان أرخص » ويضيف : « أنه كثيرا ما يكون

(٦٩) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص ١٥١ ، ١٥٩ .
(٧٠) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩١—٩٢ .
(٧١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٢—٩٣ .

الرطل الافريقى من لحم الضأن بدرهم ، ويرخص اللحم فى الربيع ، وتباع الدجاجة الطيبة بدرهمين جديدين « (٧٢) * كما يظهر من كلام القلقشندي أن ظروف العيش فى افريقية كانت مماثلة لمصر والمغرب لقرب البلدين وتأثرهما بطريق التجارة المذكورة .

وكان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبى والدرهم الفضى وربما استعمل المنقال الذى له نفس وزن الدينار ، وكذلك الاوقية التى لها نفس وزن الدرهم (٧٣) * .

وقد عرف، الموحدون صرف العملة من نصف الدرهم والربع والثلث والخراريب * ويتضح لنا ذلك مما أورده عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن وفادة صاحب بجاية — يحيى بن عبد العزيز الصنهاجى — الى مراكش يقول : « * ان يحيى بن عبد العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقلا، يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة وعبيدى فى كل يوم يتسكون الى ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لكفة الصرف * وذلك أن عاداتهم فى بلاد المغرب يضربون أنصاف الدرهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فتستريح الناس فى هذا ، أو تجرى الصروف فى أيديهم فتتسع بيعاتهم * فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله : « قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل » (٧٤) * .

وكانت هذه العملة الموحدية سواء من الفضة الخالصة أو الذهب الابريز الحبيب يتعامل بها الاندلس ، وكان الدرهم مربع الشكل تزن الاوقية

(٧٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ح ٥ ، ص ١١٥ .

(٧٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٦٥ .

(٧٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٤ .

منه سبعين درهما مع اختلاف الكتّابات عليه (٧٥) *

وهناك وصف لاوجه الصرف في الدولة الموحدية وبصفة خاصة في عهد يعقوب المنصور ، ففي احدى احتفالاته بالنصر كان يقوم بتوزيع الاكسية أو الاعطيات أو ما يسمونها البركة الحافلة من الذهب والدراهم ، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان يقدم : « لكل فارس عشرون دينار والاعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ، ولاشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ، وللساير عساكر العرب عشرون دينار لكل فارس » (٧٦) *

والمقصود بهذا الدينار هو الدينار اليعقوبى حسب ما ذكره الاستاد التازى محقق (كتاب المن) ، ومع صعوبة اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار فإنه قياسا على ما ذكره لويس ماسينون كان الدينار الموحدى يزن بالذهب ٧٣٩ر٤ جرام (أى بزيادة ٧٠٤ جرام على الدينار الشرعى) (٧٧) *

(ج) تجارة الرقيق :

وتأتى عبر المسالك تجارة الرقيق التى ظهرت كنتيجة متزايدة للايدى العاملة فى المناجم والصناعات المعمارية المتعددة * وكان حل مشكلة الايدى العاملة ينم عن طريق الاستكثار من الرقيق ، على الرغم من أن الاسلام حرم الرق ودعا الى المساواة فى الحقوق بين المسلمين ولا فرق بين عربى

(٧٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ١٤٣ .

(٧٦) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ .

(٧٧) — Luis Massignon ; Le Maroc dans les Premières années du XVI^e Siècle, Paris 1906 pp. 102—3.

أنظر أيضا : ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥٢ وأيضا : دائرة المعارف الاسلامبة النشرة الفرنسية ١٩٦٢ ، فصل دبنار ، ج . ميلز G. Miles ، ج ٢ ، ص ٣٠٥—٣٠٦ . أنظر أيضا : محمد الصبحى ، انبلاج الفجر عن المسائل العشر ، ط الرباط ١٩٤٠ ، ص ٩—١٨ .

على أعجى الا بالتقوى ، وقضت القوانين الاسلامية فى غالبيتها على عتق
الرفيق فتنأقست أعدداهم ، وكان اقتناء الرقيق يتم عن طريق الاغارة على
البلدان المجاورة أو عن طريق الشراء • واشتهرت مناطق ثلاثة بجلب العبيد
وتزويد المسامين بما يحتاجونه منه :

١ — منطقة أوربا الشرقية والوسطى (الصقالبة) ومن أكبر تجارهم
البنادقة الذين كانوا يصدرون أعداد كبيرة منهم الى العالم الاسلامى
الشرقى والغربى (٧٨) •

٢ — بلاد الترك التى أمدت الدولة الاسلامية بالجنود والمرترقة (٧٩) •
٣ — بلاد السودان أو الزنوج وهى المنطقة المدارية لحزام السافانا
الافريقية • وكان عبيد تلك المنطقة مرغوبا فيهم لاتقانهم الاعمال المنزلية •
ومناطقها القديمة مثل النوبة والحبشة ، وسواحل افريقيا الشرقية ،
وحديثه مثل السودان • وأصبحت بلاد السودان المصدر الاول لتجارة
الرقيق ابتداء من القرن ٤ هـ •

وقد ازداد استخدام العالم الاسلامى للرقيق بعد التوسع التجارى
المعتمد على أنواع العملات الذهبية بوجه خاص حتى أن استيراد العبيد لم
يقتصر فقط على الامراء والاسرات الحاكمة أو الدولة ، بل تعداها الى
الطبقات الاجتماعية القرية خاصة التجار لما تحتاجه من عمال وحراس ،
فأصبح العبيد القوة المنتجة الاساسية فى جميع الميادين الاقتصادية •

(٧٨) د. مختار العبادى ، الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية،
مدربد ١٩٥٣ ، ص ٨—١٠ •
(٧٩) د. مختار العبادى ، قدام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام ،
بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤—٦١ •

ولاهمية هذه التجارة خصص لها أسواق في المدن الاسلامية ، وعرفت هذه الاسواق باسم — سوق البركة — كما هو في تونس * وقام عليها وسطاء كما سبق الذكر خاصة من الاوربيين النصارى واليهود * وتصدرت البندقية وتجارها النخاسة الاوربية ، التي تنقلها الى موانئ شرق البحر المتوسط (٨٠) *

اما أهم مصادر الرقيق في بلاد المغرب فمن أفريقيا السوداء ، وكانت تجارة الرقيق مربحة لا سيما اذا كان الرقيق قوى البنية سليم الحواس (٨١) * ويذكر الاصطخري الرقيق السود في جملة صادرات المغرب والاندلس الى الشرق الاسلامي : « والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الاندلس والجواري المثلثات ، تأخذ الجارية والخدام من غير صناعة على وجوهها بألف دينار وأكثر ، تقع منها اللبود المغربية والبغال للسرّج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحريير والسمور » (٨٢) *

وقد راجت أسواق النخاسة رواجاً تعبر عنه الدراسات الاحصائية لتجارة الرقيق حتى نهاية القرن ١٥م فوفقاً لهذه الاحصاءات بلغ عدد الرقيق نحو ٩٠٠ ألف عبد (٨٣) ، وان اختلف في تقدير عددهم ، ويسجل فيليب كورنتين Philip D. Curtin عدد العبيد المصريين من أفريقيا الى أوروبا في الفترة من عام ١٤٥٨ الى ١٤٦٠ يتراوح ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ عبد سنوياً * ومن عام ١٤٥٠م الى ١٥٠٠م الى ٣٥ ألف عبد (٨٤) *

(٨٠) — R. Oliver, Ibid.

(٨١) — Philip D, Curtin: The Atlantic Slave Trade, London, 1969, pp. 16—19.

(٨٢) السفن هو جلد خنسن غليظ كجلود التماسيح يكون على قوائد السيوف * أنظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٣٧ *

(٨٣) — R.R. Kuczynski, Population Movements. Oxford, 1936, p. 12.

(٨٤) — Philip D. Curtin, Op. Cit., p. 17.

وقد حاول ملوك السودان عرقلة تجارة الرقيق والتضييق على النخاسين المغاربة الامر الذى دعا حكام المغرب الى توجيه لون من العتاب الى حكام السودان ، ويتمثل ذلك فى رسالة مؤرخة من الامير أبى الربيع سليمان الموحدى جاء فيها : « نحن نتجاوز بالاحسان ، وان تخالفنا فى الاديان ، وننفق على السيرة المرضيه ، ونتألف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة * وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها ومعين على النعمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من فى جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكننا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغى أن ننهى عن خلق ونأثى مثله والسلام » (٨٥) .

(٣)

التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية

اقتضت العلاقات الجارية القائمة بين الغرب من ناحية والغرب الاسلامى من ناحية أخرى وبينهما وبين المشرق الاسلامى بوجه عام ، تنظيما لوجوه المعاملات المالية والتجارية * ولذلك عرفت الثغور الموحدية شأنها فى ذلك شأن الثغور المشرقية الاسواق المسورة ، والفنادق التجارية (الوكالات) والدواوين الجمركية * ويمكننا أن نقف على الاطار التنظيمى الموحدى لوجوه المعاملات التجارية والمالية والادارية المتصلة بحركة التجارة داخل الاراضى التابعة لهم من خلال ما ورد فى الرسائل الموحدية اننى سبق الاشارة اليها *

فهناك كتب الامان التى أصدرتها الدولة الموحدية من تونس والتى شجعت التجار على الوفود اليها والاستغلال بالتجارة فيها * ويتمثل ذلك فى نص احدى الرسائل التى نطالع فيها : « * * * من عثمان الترجمان فى تونس الى باننس ابن كرسى يعلمك أنه قد عز على كنير لم تكن حاضر حقا نخلص لك رحلك * * ولكن تجى أن أرات فما ترا الا خير ولا تفزع لا أنت ولا كل من بجى معك فان ما تروا الاخير * والسلع رخيصة وكل ما تريد بعمل لك وكل من خلا من أصحابك فى تونس شئ فيجى يأخذه وما يمر لاحد شئ * وان أراد سعيير وقرسطان واكرييسان المجى فيجوا فما يعمل معهم الاخير * وأن الشيخ أبو الحجاج وصل الى تونس وهو صاحب الديوان وما يعمل معكم ومع غيركم الا خير فلا تخاف من أحد » (٨٦) *

وأبرز الشخصيات المنظمة للحركة التجارية فى النغور الوكيل التجارى، وتؤكد بعض الرسائل أن الوكيل كان يتولى أيضا حصر التجار الاحياء والاموات منهم على السواء لمعرفة ما عليهم من ديون وما لهم وتعتبر نصوص احدى الرسائل عن ذلك : « * * بحضور وكيل البينسانيين وهو قسموم فى مدينة تونس حيث قال : فنحب منك أن تفحص عن أصحابى من مات منهم ومن هو حى * * قد اتخذ عندى وما بقى لى عنده * * وما لكم كله موقوف ما أخذ منه أحد شيئا » (٨٧) *

ويقوم الوكيل، بالاضافة الى عمله المذكور بحل المشاكل التى غالباً ما تحدث بين التجار الاوربيين والمغاربة من غش فى التعامل ، أو تهرب

(٨٦) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ١٦ ، ص ٥٣-٥٤ وهى غير مؤرخة .

(٨٧) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١٥ ، ص ٥٢ .
ورسالة رقم ١٠ ص ٣٦-٣٧ . أنظر نفس المعنى فى : نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٥٣ . أنظر أيضا :

الاوربيين من دفع أثمان ما يقومون بتسرائه من التجار المغاربة ، أو بدفع مبلغ قليل في الديوان لا يوازى قيمة ما اشتراه التجار . فهناك اشعارات تحدد أوصاف هؤلاء التجار أمثال : « رجال جياذ ، من خيار التجار » من أجل جذبهم لسداد ديونهم للتجار المغاربة عبر كتب مكتوبة موكلة من قبل هؤلاء التجار المسجلين أمثال : « فرسطان ، ففيان ، بلناط كرك ، وألبان » (٨٨) .

ومثل هذه الاعمال اقتضت أن يكون هؤلاء الوكلاء محل ثقة وأهل للامانة الموضوعة فيهم ، لكونهم الواسطة في حل المشاكل المالية وسداد الديون واجادتهم أسلوب التحاور على أساس أنهم ليسوا في حاجة الى وصية ولا زيادة في التأكيد على أداء الامانة والاعتراف بالحق (٨٩) . وعلى حد قول 'رسالة المشار اليها من قبل : « فما لكم موقف على وجه الامانة لم يغير فيه شيء . . . وعثمان المهدوى باكرس بادر اليه في ثمن النحاس فانه مسافر الى الاسكندرية » (٩٠) .

وكما اقتضى حجم هذه المعاملات التجارية قيام الوكيل بوظيفته ، فان استكمال أعمال الوكيل اقتضت أيضا وجود شهود عدول معروفين للطراف جميعا (٩١) . فضلا عن تراجمة معتمدين لهذه العلاقات ، وكما هو واضح من

(٨٨) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٩ ص ٦٠—٦٢ .

(٨٩) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٠ ، ص ٦٣—٦٤ .

(٩٠) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٨ ، ص ٥٧—٥٩ .

انظر الملحق رقم ١٥

(٩١) من هؤلاء الشهود « محمد بن القاسمى الريحى ، أحمد بن عبد الواحد الرساطى ، عبد الكريم بن عبد المؤمن اللخمى ، حسن بن على الترجمان عثمان بن أبى بكر ، قاسم بن على ، سفيان بن هلال ، أحمد قطران ، وعبد الرحمن بن أبى الطاهى النعمى » . انظر : ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٢ ، ص ٤٣—٤٤ .

نص الوثيقة السابقة فإن الأمر اقتضى أن يكون هؤلاء معروفين على أوسع نطاق من تونس غربا الى الاسكندرية شرقا * وواضح من التطور الذى طرأ على معنى الترجمة أن صاحبها قد صار له شأن لا يقل عن شأن الوكيل التجارى ، فبعد تولى الناصر محمد الشيخ أبو حفص امارة تونس ، ظهرت بجاية مننذا تجاريا هاما نافس تونس والاسكندرية فى نطاق حركة التبادل التجارى * وفى هذه المرحلة صار محظورا على التجار فى بلاد المغرب الا اذا كانوا منبئين فى الديوان أو كما يذكرون « نترجم فى الديوان » * وبناء على هذه الترجمة كانت تكتب لهم عقود تبيح البيع والشراء ، بشرط أن تكون هذه العقود مشهود على صحتها ، وموافق عليها من المسؤولين ، لأنها تسمح لأصحابها فقط أن يدللوا على بضائعهم فى الحلقة التجارية ، ومن ثم الترويج للبضائع الاوربية والمشرقية على السواء ، مما تسكل وجها آخر من وجوه حلقة التبادل التجارى فى هذه العلاقات التى لم تخل من الوسيط أو الدليل التجارى المشرقى النمامى والعراقى والمصرى والاوروبى من جنوة والبندقية وبيزة وسردانية وقبرص والمغربى والتونسى والطنجى والتمسانى والبجارى * ويذكر فى أهمية وجود تلك الدلالة الموثقة : « * من أحمد بن تميم المترجمان ببجاية الى لبنارت فليول الفرناج * أن تكلم الاشياخ والاعيان أن يكتبوا كتابا للقاييد أو السداد موفق بن عبد الله أن نكون كما جرت عوايدكم نترجم فى الديوان ونعدل فى الحلقة » (٩٢) .

ولهذا السبب فافنا نلاحظ أنه عندما يتردد ذكر الموانى المشرقية المختلفة فى إحدى الرسائل الموحدية ، فإن الأمر لا يرد اعتباطا وانما يدل

(٩٢) عن الديوان وأصله المشرقى الفارسى ، فهى كلمة بمعنى دىوان الجن ، ودان علامة الجيع ، فالديوان هو جمع الجنون . ولا زالت كلمة ديوان بمعنى قمرق موجوده بتونس . أنظر : عثمان الكعاك ، العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ ، ص ١٣٦-١٣٧ . راجع : ميشيل أمارى ، نفس المصدر رسالة رقم ٢٥ ، وهى مؤرخة بتاريخ ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ص ٧٥-٧٧ .

دلالة واضحة على الوجود المترقى في أكثر من وجه من وجوه حركة التجارة الموحدية * ونلمس ذلك في رسالة موحدية أخرى جاء فيها : « * أفلعنا من بيروت ومعهما بعض البضاعة ، وعبرا على قبرص واشتروا منها باقى بضاعتهم ودخلا الديار المصرية آمانين * » * ورغم هذه المعاملة الحسنة الا أنهم يعلمون السلطات الحفصية بأنهم مظلومين ويطلبون الرحمة لاطلاق سراحهم وما هم الا عبيد هذه الدولة وداخلين في طاعتها والرأى لها » (٩٣) *

ورود اسم قبرص في هذه الرسالة له مغزى هام ، فاذا كانت بيزة قد تصدرت معظم الصلات التجارية في العهد الاول من الدولة الموحدية المؤمنية ، فان جزيرتى قبرص وسردانية ستقومان بدور تجارى هام يرجع اليه أعظم الاثر في تطور هذه الصلات التجارية ويكمل وحدة البحر المتوسط تجاريا — شرقه وغربه وتسماله — ويؤكد العلاقات التجارية الودية بين تلك الجزر والمسلمين العبارة التالية الواردة في احدى الرسائل : « * * أن يكون مثل غليا لم مركبس المجاور له في سرادانية فانه لم يعامل المسلمين الا بالخير والكرامة ويحسب ذلك أكرمناه فيمن يصل من عنده ويأتى من جهته ، فاعلموا ذلك واعلموا بحسبه » (٩٤) *

(ب) الفنادق :

جرت العادة في المغرب الاسلامى في العصر الموحدى والحفصى أن ينزل التجار ، سواء من الاوربيين أو المشارقة ، بضائعهم في مستودعات

(٩٣) ميثيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢٣ ، غير مؤرخة ، ص ٧١ .

(٩٤) ميثيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ٢١ ، مؤرخة بتاريخ ٥٩٨ هـ ، ص ٦٥-٦٨ .

كبيرة عرفت بالفنادق ، وكانت البضائع تسجل في دفاتر خاصة فيسهل تقدير المكوس المقررة عليها بنظام الدلالة السابق الاشارة اليه .

ولم يكن الهدف من انشاء الفنادق^(٩٥) في المغرب يختلف عنه في المشرق ، وكما هو معروف فان مصر قد تصدرت بلدان المشرق في هذا المجال بسبب موقعها المتميز حسبما سبق الذكر .

ومن أهم فنادق مصر في تلك الفترة (وتسمى بالخانات) الفندق الذى بناه تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين وقد عرف باسم « فندق الكارم » نسبة الى التجار الكارميين^(٩٦) المقيمين في الفسطاط المرسى الرئيسى آنذاك لسفن النيل . وكان سوق العطارين بالاسكندرية المقر الرئيسى لنشاط الكارميين التجارى في هذا الثغر^(٩٧) .

وشهدت الفترة ما بين عامى ٤٩٠-٦٩٠ هـ / ١٠٩٦-١٢٩١م تزايد في حركة التبادل التجارى بين مصر والشام مما اقتضى انشاء المزيد من الخانات المخصصة للتجار الشاميين والعراقيين القادمين الى مصر أو العائدین منها الى الشام^(٩٨) .

وكان من الطبيعى أن يترتب على رواج حركة التجارة المشرقية ازدهار

(٩٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٩ ، مؤرخة بتاريخ ٧١٣ هـ ، ص ٨٦-٩٧ وعن هذه الفنادق أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٠٥-٥٠٦ . د . سالم : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، مجلة المجلة ، العدد ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ٥٧ .

(٩٦) هم نجار مسلمون ، ظهوروا لأول مرة في القرن الخامس الهجرى (١١ م) وكانت لهم مكانة خاصة في المجتمع التجارى الاسلامى ، وقد تميز الكارمية بالكفاءة والمجازفة في المشروعات التجارية الكبرى . أنظر : د . سالم تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٠٦-٥٠٩ ، ٥١٩-٥٢٠ . (أنظر عنهم : عادل أبراهيم يعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، ص ٤١) .

(٩٧) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٩-٥٢٠ .

(٩٨) عادل أبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

عمراني واقتصادي لمدينة مكة المكرمة ومينائها جدة لا سيما في المناسبات الدينية ، ومن ثم دخل التجار المغاربة طرفا في هذه الحركة التجارية ووجوه نشاطها الاقتصادي . كذلك تعددت الفنادق التجارية في بلدان المغرب بحكم تعدد الاسواق التي عرفت مراكزها الاقتصادية منذ القدم . فيذكر البكري أسواق سوسة وأسعارها المعتدلة^(٩٩) . وما كان في تلك الاسواق من مؤسسات تجارية يزدهم فيها تجار البلد والتجار المتنقلون^(١٠٠) . كما ذكر البكري أيضا أسواق أودعست وتجارها المزدهرة : « يجتمع فيها خلق عظيم فلا يكاد يسمع فيها المرء صاحبه لكثرة اللغط والغوغاء »^(١٠١) .

ومن أسواق المغرب المعروفة سوق أغمات وريكة وكان ينعقد يوم الاحد وسوق أصيلة يوم الجمعة . كما كانت تقام فيها ثلاث أسواق موسمية احداها طيلة شهر رمضان والثانية في العاشر من ذي الحجة أي يوم عيد الاصحى والثالثة يوم عاشوراء ، فيؤمها التجار من كافة أنحاء البلاد وينصبون خيامهم ويعرضون فيها بضائعهم الى أن أنشئت بالتدريج أبنية خاصة تتجمع فيها مؤسسات تجارية هامة^(١٠٢) . فاذا بالاسواق نفسها تمثل مدينة صغيرة عتيقة مزودة بأبواب ومتاريس تغلق ليلا وتفتح نهارا ، ومما يذكر بهذه المناسبة أن الحفصيين كانوا لا يسمحون باقامة أسواق دباغة أو صباغة أو دباغة الحياكة الرائجة داخل المدينة تفاديا للروائح الكريهة التي تنبعث منها . فكانت أسواق الدباغين والصباغين تقام عادة خارج المدينة^(١٠٣) .

(٩٩) البكري ، المسالك ، ص ٣٤ .

(١٠٠) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .

(١٠١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(١٠٢) نجاة باتنا ، المغرب الاسلامي ، ص ٥٤-٥٥ .

(١٠٣) محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي ، ص ١٧١ .

(ج) العملات :

أما فيما يتعلق بالعملات المتداولة في الاسواق فقد كان أساس النقد الموحدي الدرهم المربع الذي سكه المهدي محمد بن تومرت وكانت نقوشه على النحو التالي :

الوجه الاول :

الله ربنا

محمد رسولنا

المهدي امامنا

وعلى الوجه الآخر :

لا اله الا الله

الامر كله لله

لا قوة الا بالله (١٠٤) .

ويأتى عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي ليغير من الدرهم الفضي الى الدينار الذهبي ، ومن الشكل المربع الى المستدير ، وان لم يلغ التربع النهائي (١٠٥) . وكان نقوش الدينار على النحو التالي :

الوجه الاول :

- في حافة الدائرة : أبو محمد عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين .
- وفي داخل المربع الصغير : المهدي امام الامة الاسلامية بأمر الله .
- وفي داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة .

(١٠٤) ملحق رقم ١٨ .

— Rachid Bourouiba; Abd El Mu'min, p. 77—9.

(١٠٥) د . حسن حسنى عبد الوهاب ، النقود العربية في تونس ، تونس ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

وعلى الوجه الآخر :

في حافة الدائرة : باسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد
وعلى آله وسلم تسليما •

وفي داخل المربع الصغير : لا اله الا الله محمد رسول الله •

وفي داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة^(١٠٦)

واقترنت الدولة الحفصية منذ البداية بسنن الموحدين في سك
مسكوكاتهم شكلا وكتابة ولم يتخذ عنها الا أواخر أمرائها اذ أنهم قلدوا
— آخر القرن العاشر الهجري — نقود الاتراك العثمانيين^(١٠٧) •

وجاءت نقوش الدينار الحفصي على عهد أبو زكريا يحيى على النحو
التالى :

الوجه الاول :

الطوق : الامير الاجل — أبو زكريا يحيى — ابن أبى محمد — ابن
أبى حفص •

الوسط : المهدي امام

(١٠٦) انظر الملحق رقم ١٨ وانظر :

— Luis Massignon; Le Maroc, p. 102—3

وراجع أيضا ابن صاحب الصلاه ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ • محمد
الصبيحي ، أنبلج الفجر ، ص ٩—١٨ • وانظر أيضا :

— Rachid Bourouiba, Abd El-Mu'min pp. 77—97.

وانظر أيضا لنفس المؤلف :

— Six Dinars Almohades Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd.
Bulletin d'Archéologie Algérienne. Tom II, pp. 271—291.

وأيضا :

— Monnaies et Bijoux Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd. Actes
du II^e Congrès d'Etudes Nord-Africaines, 1970, pp. 67—77.

(١٠٧) د • حسن حسنى ، النقود العربية في تونس ، ص ٣٥ •

الامنة القائم

بأمر الله

والوجه الآخر :

الطوق : باسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على محمد — وعلى
آله •• وسلم تسليما

الوسط : لا اله الا

الله محمد

رسول الله

ورغم استدارة الدينار فان الكتابة الطوقية ، حشرت في مربعات تشبه
كوشات العقود ، ولم تذكر التاريخ ، وتذكر أحيانا أسماء المدن (١٠٨) •

ولما وصلت بيعة مكة الى المستنصر الحفصي في سنة ٦٥٧ هـ —
١٢٥٨ م نراه يرسم على ديناره المسكوك في تونس ما يلي :

الوجه الاول :

الطوق :

المؤيد — بنصر — الله — المنصور — بفضل الله — أمير المؤمنين •

الوسط :

أبو عبد الله محمد •

بن أمير المؤمنين •

تونس •

والوجه الآخر :

الطوق :

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا محمد — لا اله الا
الله — محمد رسول الله *

الوسط :

المهدي خليفة *

الله الشكر لله *

والحول والقوة بالله (١٠٩) *

وقد ظهرت في القرنين السادس والسابع للهجرة مشكلة أمام المدن التجارية الاوربية تخص قيمه الدينار لما يعترضه من ارتفاع مستمر بالمقارنة بالعملات الاخرى (١١٠) * وأمام تلك المشكلة حاولت الدولة ضرب أنواع أخرى من العملات منها المزيف أو ضرب أنواع غير جيدة من العملات أثارت ثائرة الناس فتراجعت أمامها السلطات ، وهذا ما حدث في تونس عام ٥٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م عندما ضربت الحناديس أى الفلوس النحاس التي ألغت في شوال من نفس السنة (١١١) *

(١٠٩) د . حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ١٤٣ .
(١١٠) المعروف أن لفظ Mancus الذى أطلق على العملة الذهبية القديسة المتداولة في التعاملات الإيطالية والفرنسية والاسبانية نعى العملة بصفة عامة والدينار العربى بصفة خاصة . وقد ظل تجار المسلمين يتعاملون بالدينار الذهبى رغم اختلاف أوزانه حتى العهد المرابطى ، وقد أدى التزام المسلمين في معاملاتهم التجارية بالدينار الى اقدماء الدول التجارية الاوربية منذ بداية القرن ١١ م (٥ هـ) على سك عملات ذهبية في اسبانيا المسيحية . فكان هناك الدينار القسطنطى والليونى والبرتغالى . ثم أنتشر نظام العملات الذهبية من اسبانيا الى جنوب ايطاليا وصقلية . أنظر :

— Gabriel Le Bras, C.F.H. of E., p. 586—589.

(١١١) ابن نفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ .
وعن هذه الحناديس بقول د . حسن حسنى : « وأستحدث السلطان (المستنصر بالله الاول) سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق ، تسهلا على الناس في المعاملات . . ولما لحقها سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرمها وصوغها . وسمى سكته التى

وأدى نقص العملة الذهبية (كما حدث في سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م) الى ظهور تغييرات متكررة في النظام النقدي (١١٢) ، لذلك ، كان الالتجاء الى العملات الاجنبية التي تعوض الدينار الاسلامي . فظهرت في عام ٦٥٠هـ — ١٢٥٢م في جنوة العملة الجنوبية المذهبة ، وفي نفس السنة ظهر الفلورين الفلورنسي ، وكان وزنها ٣٥٠ جرام وهما يعتبران أكثر وزنا من وزن الدينار الموحدى الذى كان يزن ٢٣٣ جرام بالمقارنة بالدينار المرباطى الذى كان يزن ٣٨٨ جرام ، وكلها من الذهب الخالص ، هذا بالاضافة الى الدوكا البندقى والبيزنطى البرشلونى (١١٣) .

وكان انخفاض قيمة الدينار منذ القرن ٤هـ (١٠م) واختلاف وزنه وعياره بحسبه المكان والزمان سببا في استخدام العملة الجنوبية بكثرة خاصة في شرق البحر المتوسط وغربه . والى جانب الدينار ظهر الدرهم

استحدثنها (بالهندوس) معنى السوداء . ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الرب ناقصة في الوزن ، وفسا فيها الفساد ، وأشد السطان في العقوبة عليها ، فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن يتناولها ، وأعلن الناس النكير في شأنها وتنادوا بالسطان في قطعها ، وكبر الخوض في ذلك ووقعت الفتنه ، فأزال السطان تلك السكة وعفا عنها . النقود العربية في تونس ، ص ٣٧ . (١١٢) دائرة المعارف الاسلامية ، النشرة الفرنسية ، فصل سكة ، ج ٤ ، ص ٤٤١ . أنظر أيضا :

— E. Strauss; Prix et Salaires à L'époque mamlouke, etude sur L'etèt Economique de L'Egypte et de la Syrie à la fin du Moyen Age.

في مجله الدراسات الاسلامية ، باريس ١٩٤٩ ، ص ٥٤

— G. briel Le Bras; Op. Cit., p. 590—592 (١١٣)

والدوكا عملة ذهبية استخدمت في معظم أوروبا ، قيمتها حوالى ٣ سلنات وأستخدمت في عهد الدوج وندولو في البندقية الدوكات الذهبية وكانت تعادل ٩ سلنات . أنظر :

— New English Dictionary, Vol III, p. 699.

والبيزنطى عملة أسبانية فضية .

الموحدى وكان وزنه فى بداية القرن ٥هـ (١١م) ١٥ جرام ، وهو أقل بكثير عن مثيله المرباطى الذى كان يزن ٢ جرام (١١٤) .

ورابطا بهذه المشكلة ، فقد وجهت الى اليهود منذ منتصف القرن ٥هـ (١٣م) التهمة بادخال الخل فى الدورة النقدية لما كانوا يقومون به من صهر نقود الفضة (١١٥) .

ويؤكد الاستاذ برنشفيك على الدور الهام الذى لعبه اليهود فى توثيق علاقات المغرب الاسلامى بالشرق عبر أوروبا من خلال تلك الوثائق التى سجلت فيما سجله أن المركبين سان جيل وسان فرنسوا شحنتا بمختلف أنواع البضائع وكانت نسبة كبيرة منها لحساب بعض اليهود وكانوا كسائر التجار المرسلين يصدرون الى افريقية عملة الفضة والجلود والحريز وعلى الخصوص عود القرنفل والزعفران (١١٦) .

(١١٤) دائره المعارف الاسلاميه ، فصل درهم ، ميلز ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ وأنظر أيضا :

— Babriel Le Bras, Op. Cit., p. 298.

(١١٥) عن دورهم فى الحياه التجارية وتقربهم للسلطة الحفصية ، أنظر : ميشيل أمارى ، رسالة رقم ٢٨ ، ص ٨٣—٨٥ . ملحق رقم ١٦ وأنظر أيضا :

— Brunschvig; La Berberie, Tom I,

(١١٦) أعتمدت الدولة الحفصية أيضا فى دخلها هذا على الجباية الداخلية خاصه من الارباغ والبدو على يد وزارة خاصة تعرف باسم وزارة العمود ، أنظر ، العامرى ، تاريخ المغرب ، ص ٢٠—٢٢ ، ١٧٣—١٧٤ . وغالبا ماكانت هذه الضرائب سبب مشاكل بين الحكومه والقضاة والمكاسين ، مثل ما حدث فى عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز ، على يد قاضى القيروان أبو عبد الله بن شعيب عندما شكوا اليه القبروانيين من ظلم المكاس بسبب فداحة المكس حيث قال : « ليس فى الشربة مكس » وضرب المكاس وطيف به فى شوارع المدينة ، وبرقع الامر الى السلطان الحفصى أمر بعزل القاضى وقال : « هذا لا يصلح للولاية » . فأخذت الدولة تدابير أخرى لحل تلك المشاكل حيث أمر السلطان نفسه باسقاط صريية المكس من الاسواق التالى ذكرها ومقدار مكسها :

ولم يكن غريبا على الدولة الحفصية التي كان النشاط التجاري بها يمثل جزءا كبيرا من دخلها حتى أنها خصصت له ادارة خاصة تعرف بالادارة القمرقية المعتمدة في ميزانيتها على الدخول الوفيرة الناتجة من التجارة والقرصنة . فكانت تعمل على تشجيع التجارة ، وتعفى الحبوب من الضريبة ، وتمنح التجار الاجانب حقوق التصدير للبضائع ، معفاة من الضرائب ان كانت بضائعهم الى تونس تتساوى فيها قيمة الواردات مع قيمة الصادرات . أما اذا زادت قيمة الصادرات على الواردات فتكون نسبة الضريبة ٥٪ ، وتعفى هذه الادارة الصفقات التي تعقد داخليا مع الاجانب من الضرائب . وكانت تشجع البضائع المحلية لتتنشط حركة الانتاج ، وتمنح تسهيلات كبيرة في تصدير بضائعها ذات القيمة العالية خارجيا ، حتى أن دخل القمرقية في العهد الحفصي كان يقدر سنويا بنحو ١٧٠ ألف دينار . وهو وان كان غيبه مبالغة الا أنه يسجل مدى أهمية هذه الادارة وانتعاش التجارة بتونس (١١٧) .

— سوق الرهاده — ٣ آلاف دينار ذهبا كل سنة .
— كثر من اشترى شئنا من أنواع الامنة واللباس بفرم نصف عشر الدينار .
— رجة الطعام = ٥ آلاف دينار — رجة الماشية = ١٠ آلاف دينار
— رجة الزيتون = ٥ آلاف دينار — رجة العطارين = ١٥٠ ألف دينار
— فندق الادام = ٥٠ ألف دينار — فندق الخضر = ٣ آلاف دينار .
— فندق الفحم = ألف دينار — فندق الملح = ١٥٠٠ ألف دينار .
— مجيى الاعمدة = ألف دينار — سوق القشاشين = ٢٠٠ دينار .
— دار الشغل = ٣ آلاف دينار — رزمة الصابون ٦ آلاف دينار .
— فندق البياض = ١ ألف دينار — سوق الصقارين = ٥٠ دينار .
— وعلى الطرب والمطربين ومنهم العزافين = ٥٠ دينار . وكذلك
المخنئين في الحفلات والفخارين وحنى الحانات لبيع الخمر .
انظر :

— Brunschvig, Ibid, Tom II, p. 239.

— Brunschvig, Op. Cit., p. 241.

(د) المعاهدات التجارية وموادها :

هذا وقد أبرمت الدولة عددا من الاتفاقيات التجارية والمعاهدات ، أو تبادلت بعض الرسائل ، حسب الظروف السياسي والاقتصادية مع بعض البلدان والتي تمنحها امتيازات خاصة تصل أحيانا الى حد الاعفاء من الضريبة المعروفة بالقبضة ، وقد ورد ذلك في رساله ترجع الى عهد عبد المؤمن حررت على يد عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبي خراسان الى أرك بينسة . « . . وأما أمر القبضة التي تؤخذ من التجار وجرت به العادة فقد هونأها وأمرنا بلطفها ورتحننا لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة ولم يتفق له معها أنه معافى فيها مرفوع عنه الواجب واللازم في أمرها يعيدها الى بلده على غرضه مراده . . » . وتؤكد نفس الرسالة على اعفاء بعض المواد كالخشب : « . . وقد تركنا لتجاركم جميع ما يخرجون من الشب وأعفيناهم من الواجب فيه . . » (١٢١) . وهناك نظام آخر للاعفاء اذا تم البيع فيما بينهم على ظهر المركب أو عند وصول المراكب الى احدى الموانئ المسموح بالرسو فيها ولم تنشأ المركب تفريغ أو بيع بضائعها فيسقط عنها العشر (١٢٢) .

وهناك من النصوص الواردة في معاهدة أبرمت بين الدولة الحفصية وبيزة ما يشير الى أن أبي فارس عبد العزيز الحفصي وقع في عام ٨٠٠ هـ — ١٣٩٧م بينه وبين تجار بيزة معاهدة طويلة الاجل تقضى باعفاء صادراتهم من الذهب والفضة والاحجار الكريمة من أداء الضريبة المقررة ، كما أعفيت من نفس الضريبة صادرات افريقية من الرصاص ، مما أدى الى انخفاض

(١٢١) ميشيل أماري ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخة في شهر جمادى الاولى سنة ٥٥٢ هـ ، في عهد عبد المؤمن ، ص ٦ — ١ .
(١٢٢) ميشيل أماري ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٥ ، ص ٢١ .

مقدار الذهب الداخل الى افريقية (١٢٣) *

وقد توفرت لدى مجموعة من المراسلات التجارية المتبادلة بين
الحفصيين وبيزة ذيلت رسالتى بنصوص بعضها لاهميتها المباشرة
بالموضوع * وتتضمن هذه المراسلات عقودا أساسية — تجارية :

— من أبى يحيى زكريا الى المسؤولين فى بيزة ينهى الى علمهم عقد
صلح لمدة ١٠ أعوام شمسية متوالية من جمادى الاولى سنة ٧١٣هـ —
١٤ سبتمبر ١٣١٣م على شروط وأسس (الرسالة رقم ٢٩ — طويلة تمتد
من ص ٨٦ — ٩٧) *

— عقد تجارى من عهد أحمد بن تفرجين لمدة ١٠ أعوام شمسية من
١١ ربيع الثانى ٧٥٤هـ — ١٦ مايو ١٣٥٣م على أسس وشروط (الرسالة
رقم ٣٠ — طويلة أيضا تمتد من ص ٩٨ — ١١١) *

— عقد صلح وتفويض بالعمل المشروط طول حياة السلطان — أبى
هارس عبد العزيز — من تونس فى ربيع الاول ٨٠٠هـ — ١٤ ديسمبر
١٣٩٧م (الرسالة رقم ٣٤ ، من ص ١٢٣ — ١٣٦) *

وبين هذه العقود تشابه واضح فى الاسس والشروط كأساس للعلاقات
التجارية والدينية والاجتماعية ، وتقدير مدى العقوبة على المخالفات لتلك
الشروط (١٢٤) *

وللاسف لم يرد ذكر المشرق الاسلامى فى هذه المراسلات الا فى
انسارات مادرة * ومع ذلك ، فان الحركة التجارية بين المغرب والمشرق

(١٢٣) أنظر الملحق رقم ١٥ ،

(١٢٤) أنظر الملحق رقم ١٦ .

الاسلاميين في العصر الموحدى تبدو أكثر وضوحا من استعراض أنواع السلع الرئيسية المتبادلة .

فأسواق الحبوب التي راجت داخليا بين الحواضر والمدن تركزت في ثلاثة نيارات : أولا : من مصر نحو ليبيا وبرقة غربا . وخليج عدن والخليج العربى شرقا ومنها الى بغداد ، ثانيا : بلاد الشام ومنها نحو الجزيرة العربية ثم الى بغداد ، ثالثا : شمال أفريقيا كله من القيروان الى باجة وتونس حيث يخرج حوالى ألف حمل جمل ، وقمح المغرب نحو الاندلس وصقلية ، وبالطريق البرى في اتجاه سجلماسة جنوبا نحو الصحراء .

ويعتبر الزيتون من أهم الصادرات الافريقية خاصة في تونس . وهو من أهم المحاصيل الزراعية في حوض البحر المتوسط وله دور اقتصادى هام في حياة شعوب تلك المنطقة . ويزرع في مناطق الكثافة السكانية في تونس وصفاقص التي تعتبر من أهم الموانئ لتصدير زيت الزيتون الى مصر والمغرب وصقلية بحيث كانت السفن تقصد صفاقص « فترسى في أحوالها عند الجزر ثم تصلها وقت المد حاملة اليها التجار والاموال من كل جهة قصد ابتياع زيتها » (١٢٥) . وتعتمد على هذا الزيت صناعة الصابون وزيت التجميل وأهم مراكزه ليبيا وافريقية ومنها كانت تسوق في الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

ومع فترات الاضطرابات في تونس ، حلت البندقية محلها في نقل الزيت الى مصر وجزيرة كريت ، وذكر شاهد عيان في رحلته أن « السفن الايطالية كانت تحمل الزيت من جزيرة جربة الى الاسكندرية » (١٢٦) . ولتوافر انتاج تونس من الزيتون انخفض سعره فقد ذكر ابن حوقل :

(١٢٥) نجاة باتسا ، التجارة في المغرب الاسلامى ، ص ٤٥ .

— Brunschvig, Op. Cit., Tom II, p. 262.

(١٢٦)

« كان يباح ستون وسبعون قفيزا بدينارا » (١٢٧) • ولا تزال زراعة الزيتون وزيته تلقى من العناية والرعاية بهذا الاقليم أكثر من أى اقليم فى البحر المتوسط •

ويلى الزيتون فى مجموع الثروة الزراعية المصدرة الكروم الطازج أو المجفف وأجود أنواعه بدمشق وصعيد مصر ومالقة فى الاندلس ، وكانت معاصره منتشرة فى مناطق كثيرة من المغرب ومصر ورغم تحريم الاسلام للخمور ، والتى كانت تصدر من الساحل الافريقى ودمياط الى أوربا (١٢٨) •

وتعتبر التمور من الحاصلات الزراعية الهامة التى تداولتها التجارة البحرية ، فهو ذات منبت عراقى ، وأدخل مع الفتوح الاسلامية الى الشام ومصر والجنوب التونسى حتى الصحراء المغربية ومنها الى الاندلس • وتعتبر بلاد الجريد من أهم مناطق تصديره ، ويذكر البكرى فى تمر توزر : « وائنتاجها من التمور أخصب الانتاج بافريقية ويخرج منها كل يوم ألف حمل الى كافه الجهات » (١٢٩) • ولكثرة الانتاج كان يباع أحيانا وقر الجمل بدرهمير « وفى وادى درعة يكون التمر رخيصا جدا ، حتى ربما بيع فى بعض السنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار » (١٣٠) •

ولعب التمر أيضا دورا هاما فى التجارة الصحراوية حيث كان يحمل

-
- (١٢٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٧ •
(١٢٨) ابن ممتى ، كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٢١ • وأنظر أيضا : القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ • وراجع أيضا : د . محمد عبد الهادى شعيرة الاسكندرية ، من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ١٩٤٩ ، ص ٩٠ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٩٦ •
(١٢٩) البكرى ، المسالك والممالك ، ص ١١٨ •
(١٣٠) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٢١ ، آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ٣٠٣ •

في القوافل التي تسير من شمال افريقيا الى بلاد السودان عبر الصحراء ، وكانوا يعودون بسبب العبيد والذهب ، وكان أكبر مركز لتجارة التمر مدينة سجلماسة الواقعة في جنوب مراكش (١٣١) .

كان الشمع من المواد التي تصدرها افريقية من تونس بكثرة ، ويليها الملح الذي كان يصدر بكثرة الى السودان وأوربا ، واحتكرت البندقية تجارة الملح بدليل ما صرح به أحد نوابها بتونس سنة ٧٩٣هـ — ١٣٩١م مخاطبا السلطان أبي العباس الحفصي قائلا : « ان جمهوريتنا لا تريد أن تستورد من بلادكم غير الحبوب والملاح » (١٣٢) . وقد التزمت البندقية عن طريق الاتفاقات بتوريد الرصاص من تونس مع الاعفاء من الضرائب .

ونضيف الى تلك المنتجات الزراعية والصناعية التي كانت من السلع الرئيسية للتجارة بين المغرب الاسلامي والمشرق تجارة التوابل والشب . وكانت تستورد من الشرق عبر مصر وتحفظ في الفنادق قبل تصديرها الى أوربا ، وكانت لها سوق نافقة في الغرب الاوربي فهي تصلح للطعام ولصناعة العطور والصباغة والصيدلة وفي مقدمتها حب الفلفل والزنجيل والقرفة (الدارصيني) وهي مواد لا غناء عنها . وكان حب الفلفل (أو كما يسمونه المغاربة ابزار) يستخدم لشدة الاقبال عليه كعملة في المفاوضات . ومن بين السلع الاسلامية المطلوبة الزعفران والنيلة ويستوردان من الهند والعراق والشام وبلاد الجريد . واستعمل المغرب الاسلامي — القرمز وكان يصدر منها الى الاندلس (١٣٣) .

(١٣١) المقدسي ، احسن النقايس ، ص ٢٣٠ . الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

— Brunschvig, Op. Cit., p. 203.

(١٣٢)

(١٣٣) نجاه باثسا ، المرجع السابق ، ص ٦٥ . ولبيان مدى أهمية تجارة الفلفل يذكر السفير البندقي للسلطان الفوري رعاية التجار البنادقة المقيمين في دمشق بسبب ما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمراء الشام ويقول :

ومن مواد تجارة المغرب مع المشرق سمك التن ويصاد في سواحل المغرب واسبانيا المقابل لها ، وخصوصا في مدينة سبتة حيث يجفف ويبيع . كذلك كان الطين — والمقصود به تين — يحمل الى مختلف البلاد دانيها وقاصيها . ويعتبر من أغلى الهدايا حيث كان يتحف به الملوك والاشراف الكبار ، وكان الرطل منه يباع في مصر والمغرب بدينار . وكذلك كان يصدر من المغرب الى المشرق بصفة خاصة من طليطلة الى مصر والشام والعراق (١٣٤) .

وكان الاوربيون يتجرون في ملح النوشادر كمادة كيماوية هامة مصدرها العراق وينتقل عبر الشام ومصر وصقلية ، ثم الزئبق الذي يكثر وجوده في المغرب ، ويتفر في مدينة قرطبة بالاندلس (١٣٥) . ويزيد الدمشقي . « ان أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذي بقرب طليطلة » (١٣٦) .

يضاف الى ذلك التسب ، الذي أعفى بسبب أهميته من الضرائب . وكان المرجان من المواد الهامة في تجارة غرب المتوسط الى المشرق ، وكان يجاد من سبتة وما حولها ، وهو صعب الاستخراج ، ولكن ما يستخرج ذو قيمة مادية تساوى من العشرة دراهم الى العشرة آلاف درهم (١٣٧) .

« .. ومن ذلك فرض الجمارك على نجارنا شراء ٥٣٠ حملا من الفلفل بسعر مرتفع علاوة على حملتنا العادية وهذا اجراء لا يمكن احتماله لانه سبب لنا خسارة فادحة لتجارتنا » . انظر ، نعيم زكى فهمى سليمان ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٦٨ ، ملحق رقم ٦ ، ص ١٨ — ١٩ من الملاحق (تعليمات الى السفير بندرينو سانودو — سفير البندقية الى السلطان الاشرف قانصوه الغورى ، ٢٥ أكتوبر ١٥٠٢ البندقية) .

- ١١٢٤) آدم ميتر ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ — ٣١١ .
- ١١٣٥) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ — ٢١٣ .
- ١١٣٦) الدمشقي ، محاسن التجارة ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ ، ص ٢٩ .
- ١١٣٧) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

وكانت السفن الاوربية تصل الى ميناء الاسكندرية ودمياط محملة بالفراء والجوخ وتعود موسقة بالبخور والخزف والاقمشة^(١٣٨) . ومن المواد الهامة الخشب اللازم لصناعة السفن وأعمال النجارة والاختشاب كمادة تجارية هامة كانت تتجمع في مدينة الاسكندرية خاصة خشب الصنوبر ومنها توزع الى مصر والشام وصقلية والثغور المتوسطية . ومن أفضل أنواع الاختشاب المستوردة الاختشاب الصنوبرية التي كانت تستقطع من غابات في طرطوشة وقصر أبي دانس بالاندلس ، ولخشب الصنوبر حمرة خاصة في لونه ومن جودته لا يتأثر بالسوس^(١٣٩) . وقد اختصت الدولة الموحدية في استيراده للمصالح الهامة مثل البحرية وكان الفائض يعرض للبيع بسعر تحدده الدولة داخليا .

وكان حظ العالم الاسلامي من المعادن قليلا^(١٤٠) ، ولضرورته في تنقية المياه وغير ذلك من الاحتياجات اهتمت الدولة باستيراده سواء كمادة خام أو مطروقا ، وكانت أهم مصادره الهند في الشرق كما كان يتوفر في اسبانيا وبعض الاقطار الاوربية . ومن أشهر المصنوعات الفولاذية السيوف الهندية والسيوف الافرنجية ، التي كانت ترد الى العالم الاسلامي عن طريق الاندلس وأوربا^(١٤١) .

ويصدر زيت الزيتون من المهديّة الى جميع بلاد المشرق ، ومن

(١٣٨) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٦ — ٥١٧ .
(١٣٩) الحمري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٨ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٤ ،
١٤٥ ، ١٦١ ، ١٨١ . د . عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية في
المغرب والاندلس ص ٥٧ — ٥٨ .

(١٤٠) د . عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(١٤١) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ،
ص ٢٠ .

صفاقص وقابس وبرقة^(١٤٢) . الفستق من قفصة الى مصر والاندلس
وسجلماصة ، والجوز من سطيف الى مصر . الثياب والعمائم السوسية ،
الثياب الحريرية من قابس والصوفية من أغمات وريكة^(١٤٣) . وتعود
المراكب من الاسكندرية والمنرق محملة بجلود النمر والبقر الواردة من
برقة^(١٤٤) . وكان يحمل من طرابلس الى مصر الكتان والعسل والقطران
والسم^(١٤٥) . يضاف الى ذلك المراكب المحملة بالزيت من اشبيلية نحو
سلا والاسكندرية ثم المشرق . ومن جيان الزعفران ، الوبير والجلود ومن
سرقسطة الفراء ، ومن المرية أقمشة الحرير ، ومن شاطبة الورق ، ومن
قرطبة الزئبق ومن شواطئ الاطلس العنبر^(١٤٦) .

(هـ) سلاطين الممالك ودورهم في العلاقات التجارية :

وحرص سلاطين الممالك على تشجيع النشاط التجارى من ميناء
الاسكندرية في كافة الاتجاهات ، وظهر هذا واضحا من الامان الذى أعلنه
السلطان قلاوون وجاء فيه : « .. ومن يؤئر الورود الى ممالكنا أن أقام أو
تردد .. فليعزم عزم من قدر له في ذلك الخير والخيرة ، لانها في الدنيا
جنة عدن لمن قطن ومسلة لمن تغرب عن الوطن .. فمن وقف على مرسومنا
هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ

(١٤٢) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩ . ابن حوقل ، المصدر
السابق ، ص ٧٢ .

(١٤٣) الادريسي ، نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(١٤٤) الادريسي ، نفس المصدر ، ص ١٢١ .

(١٤٥) الادريسي ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(١٤٦) الادريسي ، نفس المصدر ، ص ١٣٦ ، ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٣ .

وأنظر أيضا : العذري (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلاي) ت ٤٧٨ هـ /
٩٨٨ م) ، برصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك
الى الممالك ، نشر عبد العزيز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٢٢ ، ٩٥ . د .
سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٦٢ — ٦٤ .

الاهبة في الارتحال الينا ليجد الفعال في المقال أكبر ويرى احسان يقابل في الوفاء بهذه العهود بالاكثر « (١٤٧) * فكثر وفود التجار من الشرق والغرب على السواء بدليل عقد عدد كبير من المعاهدات التجارية مع الجمهوريات الايطالية وصقلية وقستالة وأرغونة غربا ، بل ومع جزيرة سيلان شرقا (١٤٨) * .

ويمكن أن نستنتج توثق العلاقات الودية بين الدولة الحفصية ومصر المملوكية من الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك في مصر والحفصيين في تونس ، بحيث قامت الدولة الحفصية بدور الوساطة لدى مصر لصالح التجار الاجانب من أجل تحقيق مطالب تجارية للفرنج الفرنتيين في المراتى المصرية أسوة بما حصل عليه البنادقة من امتيازات (١٤٩) * مع خضوع هؤلاء للتنظيمات التجارية في مصر ومع تعهد مصر بتوفير الامن في اطار ما هو من علاقات تجارية * .

-
- (١٤٧) المقرزى ، السلوك ، ح ١ ، ص ٧١٣ .
(١٤٨) مبشيل أمارى ، المصدر السابق ، انظر :
١ — رسالة رقم ٣٧ موقعة بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٤٢٢ م في عهد السلطان برسباى ، ص ١٦٥ — ١٦٨ .
ب — رسالة رقم ٣٩ موقعة بتاريخ ٢٣ ذى الحجة ٨٩٤ هـ في عهد السلطان قانباى ، ص ١٨١ — ١٨٣ .
ج — رسالة رقم ١٤ موقعة بتاريخ ١٠ جمادى الثانية ٩٠١ هـ / ٢٦ فبراير ١٤٩٦ م ، في عهد السلطان قانباى ، ص ٢١٠ — ٢١٣ .
د — رسالة رقم ٤٢ موقعة بتاريخ ١٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ . ، في عهد السلطان قانصوه الغورى ، ص ٢١٤ — ٢١٧ .
(١٤٩) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٧ حيث يقول :
« . . وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنوة أعمالهم التجارية في مصر والشام عام ١٤٧٤ م وفتحت الوكالة الجنوبية أبوابها ، وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية وببيروت ودمشق وأعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم » . انظر ملحق رقم ١٩

الفصل السادس

الصلات الثقافية والفنية بين

الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى

- ١ - الاصول الفكرية للدعوة الموحدية
- ٢ - غقهاء الفكر الصوفى المغاربة فى المشرق *
- ٣ - علماء مغاربة عادوا الى المغرب *
- ٤ - الصلات الفنية *

الصلات الثقافية والفنية بين الخلافة الموحدية

والمشرق الاسلامي

(١)

الاصول الفكرية للدعوة الموحدية

(أ) أسس الدعوة :

تضاربت الآراء حول ما ألفه صاحب الدعوة الموحدية من مصنفات تتعلق بالاصول الفكرية لتلك الدعوة * ومع ذلك فان الخط الرئيسي في فكر ابن تومرت ينتظم فيما أعلنه من ايثاره للمذهب الاشعرى المرشدى وأخذه بعصمة الامام عند فرقة الامامية *

وكان ابن تومرت قد التقى في الرحلة المشرقية بكل من الشيخين الهراس والطرطوشى^(١) ، وعلى حد قول ابن خلدون التقى في المشرق بأئمة الاشعرية » واستحسن طريقهم في الانتصار لعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية * * وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه في الآى والاحاديث * * وحملهم بالاخذ بمذاهب الاشعرية في كافة العقائد * * وفي ذات الوقت ، يشير ابن خلدون في معرض حديثه عن ابن تومرت الى رأيه في عصمة الامام فيقول : « * * وكان من رأيه بعصمة الامام على رأى الامامة من الشيعة ،

(١) الهراس : هو أبو الحسن على بن محمد بن على الفقيه الشافعى ، كان يدرس بالنظامية ببغداد توفى سنة ٥٠٤ هـ . والطرطوشى : هو أبو بكر محمد بن الوليد ولد بطرطوشة بالاندلس سنة ٤٥١ هـ ، رحل الى المشرق للعلم سنة ٤٧٦ هـ وجال ببغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وأستقر فى الاسكندرية وأقام بها حتى وفاته بها سنة ٥٢٠ هـ . أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

وألف في ذلك كتابه في الامامة الذي افتتحه بقوله أعز ما يطلب « (٢) .

ومن المعروف أن القرن الخامس الهجري الذي بدأت في نهاية رحلة ابن تومرت الشرقية قد شهد بالذات معارك انتصار وهزيمة المذهب الشافعي أمام المذاهب الاخرى . ومن هذا المذهب الشافعي انبثقت الاتسعية المرشدية . فعلى يد أبي زرعة محمد بن عثمان الدمشقي (ت ٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) غلبت الشافعية على الشام بعد أن كانت غالبية أهل دمشق على المذهب الاوزاعي . كما تغلبت الشافعية أيضا على الحنفية في العراق على يد أبي بكر الشاشي الفقيه الشافعي المعروف بالقفال (ت ٣٦٥ هـ - ٩٧٨ م) . وكانت الشافعية قد سبقت بهذا النصر الى مصر منذ القرن الثاني الهجري حيث تغلبت على المذهب المالكي ، غير أن نصرها هذا لم يكن نهائيا . فقد تقاسمت المالكية والشافعية حلقات الفقه في مصر في المسجد الجامع فكانت لكل منهما خمس عشرة حلقة ، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات (٣) . ثم قدر للمذاهب السنية المذكورة أن تنسحب الى خارج أطراف الحاضرة المصرية زمن الفاطميين . فاحتفظ الصعيد بمذهبه المالكي ، وكان للمالكية بالاسكندرية مدرستها أيضا . بينما استثمر الشافعية في ريف مصر عموما الى أن تمكن الايوبيون من الانتصار لمذهبهم الشافعي نهائيا .

وإذا كانت المالكية في المشرق لم تحظ بمركز الصدارة في الفقه الاسلامي وكان نصيبها لايزيد في قليل أو كثير عن المذاهب الفقهية الاخرى، وكان للمذهب الشافعي الغلبة بين المذاهب السنية الاخرى ، فان المذهب

(٢) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ص ٢٤ .

المالكي لم يترك في الغرب الاسلامي مكانا لمذهب آخر، ويعبر المقدسي عن ذلك بقوله : « أما في الاندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك ، فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، فان عثروا على معتزلي أو نيسيعي أو نحوهما ربما قتلوه » (٤) .

فهل كان تعدد المذاهب في المشرق الاسلامي وراء الثورة المذهبية في فكر ابن تومرت ، أم أن الاحتكار المالكي للفقه المغربي كان المنطلق لهذه الثورة ؟

وأميل شخصيا الى الأخذ بالشطر الثاني من السؤال استنادا الى أن الثورة المذهبية التي ذهب اليها المهدي في منهجه الفقهي قد استمدتها في المشرق من مذهب الاشاعرة المرشدية الذي لم يسبق للمغاربة أن ألما به . ثم ان علم الكلام الذي بنى عليه ابن تومرت دعوته رأى فيه فقهاء المالكية سببا لاختلال العقيدة كما رأوا عدم الخوض في التوحيد والاقتداء بالسلف في قبول النصوص على علائها واقرار المتشابهات كما جاءت والايمان بها كما هي (٥) .

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ . وعن وصول المذهب الشافعي الى المغرب وتقلصه من الاندلس نذكر : « . . في منتصف القرن ٣ هـ على يد قاسم بن سبار القرطبي (ت ٢٧٦ هـ) حيث سعى بعض العلماء الى نشره أمثال بقى بن مخلد (ت ٢٧٢ هـ) ، ومع زيادة رحلة الشافعيين من المشرق الى الاندلس أدى الى انتشار المذهب خاصة على عهد الحكم المستنصر الذي كان يشجعهم مثل : أبي الطيب محمد بن أبي بردة (ت ٢٧١ هـ) ولكن أمام سيادة المذهب المالكي ومحاربة فقهاء لهؤلاء الوافدين ، تقلص المذهب الشافعي الى حد كبير ، وربما أدى ذلك الى رحيل الشافعيين عن طريق المغرب بعد اضطهادهم أو التجائهم الى المغرب . أنظر : أنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٣٦ . راجع أيضا ، د . عباس الجراري ، الموحدون ، ص ١١٠ .

(٥) الجراري ، الموحدون ، ص ٨٦ .

وبذهب بعض الباحثين الى أن هذه الاوضاع أدت الى قيود فرضتها الدولة حفاظا على مكاسب تلك الطبقة الناشئة ، مما دعا الى اتخاذ تدابير صارمة أفقت بها علماء المالكية ، منها احراق كتب الغزالي لا سيما كتاب « احياء علوم الدين » لاشتغاله على كثير من المسائل الكلامية ، ومنها الزام الامير المرابطى (على بن يوسف بن تاشفين) بهذه الفتوى الى حد التهديد بسفك الدماء ومصادرة مال من يضبط عنده هذا الكتاب^(٦) .

على أن ثورة ابن تومرت الفقهية ما تلبث أن تقتصر على خصومها فقهاء المالكية ، ويجيء هذا الانتصار مخالفا لما حدث في الشرق عندما تذبذب ميراث النصر والهزيمة للشاعرة في معاركهم التي خاضوها ، ولهذا فان الثورة الموحدية تعنى من الوجهة التاريخية حادثا خطيرا أصوله أعمق من مجرد العلاقة الفقهية بين المذهبين وانما تمتد الى أعماق الفكر المذهبي في المجتمعات المغربية وترتكز أساسا على ما قام من علاقات مذهبية في تاريخ المغرب الاسلامى حتى انتصار المالكية وتغلبها على غيرها من المذاهب .

(ب) الاعتزال :

ولعل أول خيط في الاصول المذهبية لدعوة ابن تومرت ما يتعلق بفكر:

(٦) اصدر هذه الفتوى المذكورة فقهاء الاندلس وعلى رأسهم ابن حمد بن قاضي قرطبة ، وان كان بعض فقهاء المغرب لم يسابروهم فيما ذهبوا اليه من انكار فكر الغزالي . ومن بين هؤلاء الفقهاء المغاربة أبو الفضل بن النحوى الذى رأى أن الغزالي ساعد الدولة المرابطية ووقف الى جانبها . (المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٢ — ١٧٣) . وأنظر أيضا : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٤ ط بيروت ١٩٦٧ ، ص ٥٩ . ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٦ . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ . مجهول الحل ، ص ٨٥ . وأيضا : د . سالم ، المغرب الاسلامى ، ص ١٣٨ . د . سالم ، المغرب الكبير ، ط ١٩٦٦ ، ص ٧٣٨ — ٧٣٩ ، ٧٤٢ — ٧٤٥

الاعتزال عامة وطوره المغربى على وجه الخصوص • ويظهر ذلك واضحا من الربط بين المدخل الى تحقيق الدعوة الموحدية ومقوله شبخ المعتزلة واصل بن عطاء فى قول لاحد دعائه : « • الزم سارية المسجد سنة تصلى عندها حتى يعرف مكانك ، ثم ائت بقوله الحسن سنة ، ثم اذا كان يوم كذا ركزا من شهر كذا فابتدىء فى الدعاء للناس الى الحق » (٧) •

انتشر الاعتزال فى المغرب الاقصى منذ فترة مبكرة على يد عبد الله بن الحارث مبعوث واصل بن عطاء (٨) ، وأكبر دليل على ذلك قبيلة أوربة التى كانت على مذهب المعتزلة • ثم انتشر المذهب خصوصا فى افريقية «تونس» التى أصبحت مركزا للدعوة (٩) فى هذا العصر • ولم ينتشر الاعتزال بين عموم البربر لاحجامهم بطبعهم عن تقبل التأويلات النظرية والتدقيقات العقائدية التى جاء بها المعتزلة (١٠) ، هذا فضلا عن اتهام المالكية

(٧) البلخى ، مقالات اسلامية فى كتاب فضل الاعتزال ، ص ٦٧ . محمود اسماعيل ، المعتزلة فى المغرب ، ص ٢ — ٤ .

(٨) ويورد الشهر ستانى فى الملل والنحل عن المعتزلة ما يلى : « • وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة فى بلد ادريس بن عبد الله الحسنى الذى خرج بالمغرب فى أيام جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية ، واعتزالهم يقوم على أربعة فواعد : الاولى بنفى صفات البارئ تعالى من العلم والقدرة والادارة ، والحياة ، والثانية القول بالقدر ، والثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين والرابعة قوله فى افريقين من اصحاب الجمل واصحاب صفين • أن أحدها مخطيء لا بعينه ، وكذلك قوله فى عثمان وخاذليه أن أحد الفريقين فاسق لا محالة كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا بعينه » (ج ١ ، ص ٥٧ — ٦١) •

(٩) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١١٨ .

(١٠) محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٧ .

بالزندقة^(١١) . ولكن مراكز المعتزلة نمت في المغرب الاقصى (الدار البيضاء ، طنجة ، وليلى ، أيزرج)^(١٢) الى حد أن اتسمت — على حد قول د . محمود اسماعيل — بسمات الامارات المستقلة . وبلغ عددهم وفقا للاحصاءات التي أوردتها المؤرخون الى ٣٠ ألف معتزلي^(١٣) . وقد دفع الاعجاب بهذه القوة المغربية الاعتزالية شاعر المشرق صفوان الانصارى المعتزلي الى الاشادة شعرا بزعيم واصلية المغرب فيقول :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة

الى سوسها الاقصى وحلف البرابر.

رجال دعاة لا يقل عزمهم

تهكم جبار ولا كيد مكر^(١٤) .

وإذا كان المعتزلة في تونس قد تعرضوا لمحنة كبيرة لصالح المالكية التي تأخذ بظاهر القرآن وترفض التأويل وقرار المتشابهات ، الا أن المالكي في رياض النفوس يؤكد ميل بعض فقهاء المالكية لمبادئ المعتزلة . وبلغ الصراع الفكري بين الطرفين مداه فكفروا بعضهم بعضا ، وتبرأ المعتزلة من مخالفيهم حتى ولو كانوا آباؤهم أو أبنائهم^(١٥) ، ولكن محنة الاعتزال في افريقية يعوضها انتصار أصحاب المذهب في الشرق حيث أصبح الاعتزال

(١١) حسين مؤنس ، مقدمة رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٠ — ١٣ . الدباع ، معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ١١ . آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، تعريب د . أبو ريدة ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(١٢) د . سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٣٧ . وايزرج : مدينة تلي تاهرت .

(١٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

(١٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥ . محمد بن تاويت ، الصادق عتفي ، الادب المغربي ، ص ١٦٠ .

(١٥) المالطي ، التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ، ص ٤٢ . المالكي رياض النفوس ، ص ١١٤ ، ١٢٠ — ١٢١ .

مذهب دولة بنى العباس الرسمى فى خلافة المأمون والمعتصم والواثق *
ولما كان الاغالبية فى افريقية يتبعون بنى العباس سياسيا ، فقد كان طبيعيا
أن تتبع امارتهم الخلافة العباسية روحيا ومذهبيا ، فيسود المعتزلة وترداد
قوتهم عن طريق الرحلات وتقليد المناصب ، فدارت الدائرة بذلك على
المالكية وتسيخهم سحنون ، واستند تنسيعهم عليه لتمسكه بالقول بعدم خلق
القرآن حتى قرر فى النهاية « ألا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره » (١٦) .
ولم يبدأ انحسار هذا المد الاعتزالى الا منذ أن اعتلى المتوكل ٣٢ هـ /
٨٤٧ م) دست الخلافة العباسية اذ كان سلفيا متشددا فى تطبيق السنة ،
وأمتحن المعتزلة أئسد الامتحان ، سواء فى داخل الخلافة أو فى الولايات
الى أن استند بهم الامر وأنتهوا الى الفقر والتشرد فأضطروا الى التخفى
والتستر (١٧) .

ولم يخن المغرب الاوسط بمنأى عن خضم أحداث المعتزلة ، فقد
شهدت فترات من تاريخه وقائع الخلاف والتقارب بين المعتزلة وبين
الاباضية الرستمىة * ومن الموضوعات التى شارك الاباضية فيها رأى
المعتزلة موضوع خلق القرآن وتآويل بعض آياته (١٨) ، أما ما يتعلق
بموضوعات أوجه الخلاف فمنها مسألة القدريية (١٩) . وزاد فى هذا الخلاف

(١٦) الديباغ ، معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٨٦ — ٨٨ .
(١٧) الخشنى ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢٥٧ . محمود اسماعيل ،
المرجع السابق ، ص ١٨ — ١٩ .
(١٨) بل ، الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ، ص ١٤٣ . نلليـنو ،
بحوث فى المعتزلة ، ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .
(١٩) انشهرسنانى ، الملل والنحل ، ص ٤٩ — ٥٠ . انظر أيضا : صالح
باجة ، الاباضية بالجريد ، تونس ١٩٧٦ ، المقدمة .

بين فرق المعتزلة الواصلية والاباضية الرستمية ظهور فرق أخرى باطنية اتخذت موقفا عدائيا من الامامة الرستمية عرفت بالاباضية الوهبية بسبب ثورتها على الاوضاع السياسية والاقتصادية . وقد شارك الاباضية الوهبية في ثورتها على تلك الاوضاع معتزلة المغربين الاوسط والاقصى . غير أن الغلبة كانت في النهاية للاباضية فكسرت شوكة المعتزلة وظلوا مابين مهاجر الى المغرب الاقصى أو باق في تاهرت (عاصمة الاباضية الرستمية) الى أن حل الضعف بالامامة الرستمية ، فعادوا الحرب الكلامية مع المعتزلة ، وعلى حد قول المؤرخ ابن الصغير المالكي المعاصر لتلك الاحداث اذ يقول : « اجتمعت المعتزلة والاباضية بنهر مينة لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة » (٢٠) .

ولم يختلف دور معتزلة المغرب الاقصى عن اخوانهم في المغربين الادنى والاوسط ، وكما سبقت الاشارة لم يكونوا بعيدين عما كان يجرى في المشرق . وأكثر من ذلك ، فقد ارتبطوا بدعوة جديدة هي الدعوة العلوية التي قامت عليها دولة الادارسة العلوية (الشيعية الزيدية) التي قامت في عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م على يد أبو العلاء ادريس بن عبد الله الاكمل بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بعد هروبه من معركة فخ عام ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م على عهد الخليفة الهادي العباسي ، ونزوله على قبيلة أوربة التي ساعدته وناصرته وأخذت له البيعة في مدينة ويلي . وتمكنت

(٢٠) ابن الصغير المالكي ، أخبار الأئمة الرستميين ، ص ٥٦ . ولقد دخلت هذه الفرق من الخوارج سواء الصفورية منها (نسبة الى زيادة بن محمد الاصفر) أو الاباضية (نسبة الى عبد الله بن أباض) الى المغرب في القرن الثاني من الهجرة وأسسست دولتهما وأصبح مذهبهما أكثر انتشارا بين قبائل المغرب ، (أنظر : د . مخنار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٤ — ٤٨ . محمد بن عبد السلام بن عبود ، تاريخ المغرب ، ص ٩٣) .

دولة الادارسة من بسط نفوذها من عاصمتها فاس على جل المغرب الاقصى وزاومت جيرانها من بنى يفرن وأنتزعت منهم مدينة تلمسان • ويفسر بعض الباحثين سرعة التفاف البربر حول الادارسة على هذا النحو بحيث تمكنوا من تأسيس دولتهم ، وبالرغم من حداثة عهد هؤلاء البربر بالاسلام من منطق تعظيمهم لآل البيت ، ولكن يضاف الى هذا التفسير ما يتعلق بالتقارب الفكرى بين الادارسة وما سبق من فكر اعتزالى فى —رقهم المتناثرة فى أرجاء المغرب •

بل أن دولة الادارسة ذاتها أصبحت بدورها موطئا للمعتزلة ، فقبيلة أوربة التى ساندتها كانت تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل نفسه والد ادريس الاكبر كان يعتبر فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (٢١) • هذا فضلا عن أن التقارب بين اسحاق الاوربى والامام ادريس الاكبر يمكن تفسيره على أساس أن الاول على حد قول جولتسهير: « يئثق على ما أقره الشيعة من أن الامام المستور ينتمى الى مدرسة العدل والتوحيد أى الى مذهب المعتزلة » (٢٢) • وبغض النظر عن مدى صحة القول بتشجيع الدولة الادريسية ، فإن الاعتزال تبعا لذلك الرأى نلل قائما فى المغرب على اتصال بالاعتزال فى المغربين الآخرين ، ومن ثم بمعتزلة الشرق الى أن تغلب التشيع بقيام الدولة الفاطمية (الشيعة الامامية) عام ٣٩٦ هـ / ٩٠٠ م •

(٢١) مختار العبادى ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢٢) جولتسهير ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ، ص ٢٢٢—٢٢٣ .

ج - التشيع :

هناك من الباحثين من يرفض الاخذ بسمة التشيع أو حتى سمة الاعتزان في الدولة الادريسية ومنهم د . عباس الجراري (أستاذ الادب والفكر المغربي بكلية آداب الرباط) . ويميل هذا الباحث الى اعتبار الادارسة أصلا من السنة المالكية وأنهم أخذوا في تشكيل حركتهم السياسية داخل نطاق الاعتزال ، وعلى حد قوله : « وان كانت تعتبر هذه الحركة اعتزالية ، ولكن الذي لا شك فيه أن الادارسة لم يكونوا من المعتزلة ولا من الامامية الاسماعيلية ولم يكن لهم مذهب معين في الشيعة وأنهم لذلك لجأوا الى السنة والى المالكية خاصة » (٢٣) .

وأيا ما كان الامر ، فان التشيع لم يلبث أن أنتشر في ربوع المغرب (٢٤) وقد فسـر البعض هذه الظاهرة على أساس العصبية بأنها ترجع الى بغض القبائل البربرية للعرب ، كما فسرها آخرون على أساس مادی (اقتصادي) بأنها ترجع الى تذمر قبائل كتامة من حكم الاغالبة والعباسيين ، أو اجتماعي بأنها نعزى الى سلوك الداعية الفاطمي وسيرته في التنكشف والزهد والحفاظ على مكارم الاخلاق والنهي عن قبيح العادات والاتجاه الى لبس الخشن وفنيل من الطعام الغليظ . ويستند أصحاب هذا الرأي الى أن عبيد الله المهدي اعتمد على عصبية القبائل والجند الصقالبة وولاهم مركز الصدارة في دولته (٢٥) .

(٢٣) الجراري ، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية ، ص ٩٥ .

(٢٤) الجراري ، المرجع السابق ، ص ٩٥-٩٦ .

(٢٥) محمود اسماعيل ، المالكون والشيعة في افريقية ، ص ٦-١٠ .

غير أن سلوك الاعتزال أو التتسيع وإن كان قد صادف هوى البربر من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية وأرضى عندهم النزعة العصبية التي أستتسعروها في علاقتهم بالقبائل العربية ، إلا أن الامر سرعان ما تحول الى مشكلة في تصورهم الفكري للإسلام وتفسير نصوص شريعته . وكان من العسير عليهم أيضا ادراك التفسير المذهبي الباطني للسلطة عند الشيعة من حيث أن الامام يستمد سلطته من الله — مباشرة وأن روح الله تحل في الائمه . وأستدعى الامر وقتا كافيا لتقبل المعنى الظاهري من هذا التفسير الذي يجعل للامامة الفاطمية أساسين :

أ — العلم الدني أو الالهي الموروث عن النبي — صلى الله عليه وسلم — عن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده الى الفاطميين . ومن ثم القول بالامام المعصوم من الخطأ لما ورثه عن النبي من علوم دينية ، علم الظاهر وعلم الباطن أى ظاهر القرآن وباطنه ، وهما ما علمهما النبي لعلي بن أبي طالب الذي أطلع بالتالي على خفايا الكون والسر المكنون من هذين العلمين اللذين توارثهما من بعده الائمة الفاطميين على التوالي ، فظهر الامام بينهم معلما أكبر (٢٦) .

ب — الأساس الثاني يتعلق بمسألة الوصية أو النص على ولاية العهد التي يعبر عنها د . العبادي بقوله : « أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضة

(٢٦) مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٥١ . انظر أيضا قول الغزالي في كتابه فضائح الباطنية للرد عليهم : « أما الباطنية فانما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري في الظاهر مجرى الابواب في القشور وانما بصورها توهم عند الجهال الاغنياء صورا جلية وهي عند العقلاء والاذكياء رموزا واشارات الى حقائق معينة ، نشر د . عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١ — ١٧ .

لامامة أبى بكر وعمر ، وتقرى كما يرى الشيعة عموما أن عليا أحق بالخلافة بعد النبى عن طريق النص عليه بالاسم . فالامامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الامة ، وإنما هى ركن الدين والاسلام ولا يمكن للنبي أن يتركها للامة ، بل كان عليه تعيين امام لهم معصوبا من الخلأ ، وأن عليا هو الذى عينه النبى اماما بعده « (٢٧) .

ان التفسير التاريخى المنطقى لعلاقة البربر بدعوة التشيع ، وقبضها دعوتى المعتزلة والخوارج ، يمكن تعليله بأنه كان قبولا من النمط الاجتماعى فى علاقات السلطة القبلية عند البربر . وهذا ما يفسر أخذهم أيضا فى هذا الددد بشعائر التقديس الحركية مثل الركوع فى حضور الامام وتقبيل الارض بين يديه . ومن نفس المنطق كان رفضهم للتشيع وأنضمامهم الى فقهاء المالكية فى الثورة على الشيعة ، عندما أثقل الفاطميون بنظمياتهم الاقتصادية على الاهالى (ضريبة التصنيع) ، وعندما تعدوا بنزاعهم حدود الصدام مع المالكية الى الصدام مع الخوارج الرسميين والمدراريين والادارة فضلا عن الاغلبة ، وأستندوا فى ذلك

(٢٧) فى ذلك يقول د . العبادى : « ويستشهدون فى ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع حيث قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والى من والاه وعاد من عاداه ، وقوله : على منى بمنزلة هارون من موسى » . ثم يتعرض لنشأته فكرية الوصية : « ولقب على بالوصى ، بينما لقب من جاء بعده بالائمة ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتبة الامامة وتلى مرتبة النبوة . وانتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة ، وقالوا أن الامامة تنتقل من الآباء الى الأبناء ولا تنتقل من أخ الى أخ بعد انتقالها من الحسن الى الحسين . فالأب ينص على ابنه فى حياته ، ولا يقوم النص فى الامامة على أساس تولية الابن الأكبر ، فالامام يستطيع أن ينص على أى ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لانه يتلقى علمه ووحيه من الله » (المرجع السابق ص ٥٣-٥٤)

أساسا على عصبية قبائل كتامة وأحتراف الجندية عند الصقالبة (٢٨) *

د - أنتصار الفكر المالكي :

ومع فقدان البربر للنمط الاجتماعي من جانب الثورة المذهبية للشيعه والمعتزلة ، ولم يتبق من هذه الثورة سوى الجانب الفكرى ويتعلق بتفسير سلطة الامامة والشرعية * وهنا يغدو الفكر المالكي وثورته السلفية أكثر قبولا وأقل تعقيدا - الامر الذى أتاح للمالكية خط انتصارها التاريخى على دعوات اعتزالية وخارجية و شيعية ، ارتبطت جميعا عند البربر بالنمط الاجتماعى فى أصول فكرهم البسيط *

وقدر لتاريخ المغرب أن يشهد فى حقبة التالية معالم انتصار المالكية التى بلغت أوجها على أيدي المرابطين * ولكن فى نطاق ما حمله البربر من ميراث الدعوات المذهبية المذكورة ، وما انصهر منها فى حياتهم البيئية أو الاجتماعية ، كما قدر لهذا التاريخ أن ينسج أيضا الانتكاسة الكبرى التى تعرضت لها المالكية ببعث ميراث الفكر الخارجى والاعتزالى والشيعى فى الدعوة الموحدية * وفى كلا الحالتين ، لم يكن يهم البربر من فكر هذه المذاهب غير الجانب الاجتماعى فى مبادئها حسبما أشرت *

وهكذا كان السبيل الاول والطبيعى الى أنتصار المالكية على الشيعة الفاطمية حيث ذهبت فى هذا السبيل الى حد الانحياز لثورة أبى يزيد بن

(١٨) محمود اسماعيل ، المالكيون والشيعة ، ص ١٠-١١ . ويذكر الدكتور محمود اسماعيل بعض تلك الاحكام الممثلة فى « اسقاط الرجم عن المحضين فى الزنا ، واسقاط الصلاة خير من النوم من الآذان وازافة حى على خبر العمل وعلى خير البشر ، والصلاة بالعلامة والفطر بها لا الرؤية ، وتحليل المطلق ثلاث واسقاط ايمان الحرج » .

كيداد الخارجى (٢٩) . على أن السند الأكبر فى هذا الانتصار جاء من طريق آخر هو الطريق السياسى عبر الدولة الاموية فى الاندلس ، ففى هذا العهد تحول الصدام بين المالكية والشيعة من خلاف كلامى مذهبى وصدام قبلى اجتماعى بين أنصارها الى صدام سياسى ثم عسكرى مساح (٣٠) .

وفى هذا الصراع اعتمد الامويون فى الاندلس على قبيلة زناتة المناهضة لقبيلة كتامة التى أعتمد عليها الفاطميون ، فعمل عبد الرحمن الناصر على استمالة زناتة وبنى صالح أصحاب نكور وأتخاذها سلاحا يشهره على الفاطميين وأنصارهم صنهاجة وكتامة (٣١) . وواضح من انتقال الخلافة الفاطمية الى المشرق منذ (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) والتحول بسلطان دولتها الى مصر أن الانتصار فى النهاية كان من نصيب الخلافة الاموية والمذهب المالكى فى الاندلس والمغرب . وفيما يتعلق بالجانب السياسى لم يترك من النفوذ الشيعى فى بلاد المغرب غير ما كانت تمثله

(٢٩) هو أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى الخارجى ، ثار على الدولة الفاطمية فى الفترة من ٣٢٢ هـ الى ٣٣٦ هـ . وكانت له علاقات مع الخليفة الاموى بالاندلس (الناصر) الى حد تبادل السفارات مع الخليفة عبد الرحمن الناصر ورغم ذلك فشلت تلك الثورة وانتهت بقتل صاحبها فى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م (انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١٩-٣٢٢ . د . سالم ، المغرب الكبير ص ٦٢٢-٦٣١) .

(٣٠) د . محمود على مكى ، التنسيع فى الاندلس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤ ، المجلد الثانى ، ص ١١٢-١١٥ .

(٣١) د . سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨٦-٢٨٨ . د . أحمد مختار العبادى ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، مقالة بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ، ص ٢٠٥ .

امارة بنى زبرى فى الطور الاول من حكمها • بينما قابل النفوذ الشيعى لبنى زبرى فى هذه المرحلة سيطرة زناتة على المنطقة الواقعة ما بين ملوية وطنجة وهى ما تعرف بالريف • ثم كان من أمر قطع بنى زبرى الخطبة الخليفة الفاطمى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م والتحول بالدعاء للخليفة القائم بأمر الله العباسى وتحول المغرب الى المذهب المالكى •

عاد المذهب المالكى يسيطر من جديد على مسرح الاحداث فى أنحاء بلاد المغرب (٣٢) • بل صارت له فى الارض المغربية دولة كبرى هى دولة المرابطين وأملاكها فى الاندلس ، ولم تعد المالكية المغربية كما كانت مذهباً لعدد من القبائل تتطلع الى حماية امارة محلية فى أحد أطراف المغرب ، أو الى الاندلس أو حتى الى الخلافة العباسية البعيدة فى بغداد ثم فى القاهرة وفى ظل الحماية السياسية التى تكفلها دولة المرابطين القوية ، لم يعد فقهاء المالكية بعد أن امتدت دولة المرابطين الى الاندلس يرتبطون كما كان العهد فى الماضى بروابط اجتماعية مع القبائل • وعندما يمضى من عمر الدولة المرابطية أكثر من قرن لتنهيار أمام ضربات الموحدين لانكاد نعثر فى المصادر التاريخية على دلائل لتفسر عوامل انهيارها السياسى ، وعندئذ نجد ملامح هذا التعليل ممثلة فى علاقات البادية التى وقع على قبائلها كاهل اندلاع الثورة الموحدية وأنتصارها السريع على الدولة المرابطية • وقد سبقنا الإشارة الى أن المالكية والخوارج قد تحالفوا فى ثورة يزيد بن مخلد اليفرنى ضد الاسماعيليين العبيديين • وبعد هذا العمر الطويل

(٣٢) عن سيطرة المالكية انظر : الخشنى ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، الدباع ، معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٦٦ ، ٨٧ — ١٥٥ •

من تحول الملكية الى مذهب رسمي للدولة المرابطية على حساب المذاهب الاخرى بين قبائل البادية المغربية ، مالت هذه المذاهب الى التعمق أكثر في الحياة الاجتماعية للقبائل وأنتهت الى منظومة جمعت ميراث هذه الاصول المذهبية والاجتماعية • وفي هذا الصدد ، كانت قبيلة مصمودة أنموذجا مثاليا للثورة على الحكم المرابطي انطلاقا من الميراث المذهبي الاجتماعي المذكور • فهم أصلا من الروافض البجلية الشيعية المنسوبين الى عبد الله البجلي الرافضي الذي كان قد قدم الى السوس ونشر هنالك مذهبه الذي توارثته أجيال القبيلة من بعده (٣٣) • وقد سار فيهم يوسف بن تاسفين المرابطي في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م وقتل منهم خلقا كثيرة وأخذ أموالهم فبيئا للمرابطيين ، وأمرهم « باقامة العدل وأظهار السنة فيها وألزمهم الزكاة والعشر وأسقط ما سوى ذلك من المغارم المحدثه » (٣٤)

هـ — الفكر الموحدى التومرتي :

وعلى هذا النحو كان فكر ابن تومرت خلاصة هذا الميراث سواء في بادية موطنه و في غيرها من بوادي الشمال الافريقي التي مر بها في رحلته المشرقية ، ووقف على ذلك أيضا في ريف مصر حيث ساد المذهب الشافعي بينما كانت الملكية في خارج البوادي والقرى ، المذهب الرسمي لاجتمع المرابطيين في مراكش • وهكذا اجتمع هذا الميراث الفكري والاجتماعي الذي

(٣٣) انظر كيف دخلت قبائل صنهاجة وبطونها في الدعوة المرابطية حتى أسلمت اسلاما تاما . ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤—١٢٦ ، وأهمها لتونة الذي أراد لها الله أن تملك أمرهم على المغرب والاندلس ، ثم كيف تم فتح بلاد المصامدة الروافض ص ١٢٨—١٢٩ . وعن سقوط الدولة المرابطية وأسبابها انظر : د . سالم ، المغرب الكبير ، ط بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٧٤٢ — ٧٤٤ .
(٣٤) ابن أبي زرع ، نفس المصدر ، ص ١٢٩ .

خرج به ابن تومرت في رحلته المشرقية الممتدة زمنيا ، ويصبح الفكر الموحدى في النهاية حصيلة طبيعية لهذا التراث ، ومن ثم تنتفى الدهشة المنطقية المحيطة بانتصار الثورة الموحدية وسقوط الدولة المرابطية (٣٥) . وكانت الاضافة المشرقية الواضحة في هذه الثورة ما يتعلق بفكرة الخلافة أو الامامة التى أطلقها ابن تومرت في طليعة ثورته بل ربما كانت المدخل الرسمى الى الصدام مع أمير المسلمين فيما جرى من حديث بين ابن تومرت وعلى بن تاشفين . فالصورة المشرقية للخلافة الاسلامية التى وقف عليها ابن تومرت لا تحتاج الى مزيد من الحديث أو التعليق . ومع واقع التردى في هذه الصورة ، ظل أمراء المرابطين يتمسكون بلقب أمير المسلمين وما يحمله من تبعية روحية للخلافة المشرقية (٣٦) .

وقد تكون أصول الاضافة المذكورة ممثلة في فكر البادية المغربية ، ولعل هذا يتضح في مخاطبة أشياخ قبيلة ابن تاشفين لزعيمهم بقولهم له : « أنت حليفه الله في أرضه وحقق أكبر من أن تدعى بالامير بل ندعوك بأمرير المؤمنين » . فقال لهم : « حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به حلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة لانهم ملوك احرمين مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : « لا بد

(٣٥) عن سقوط الدولة المرابطية يرى د . سالم في تحليل المراكشى لحالة الضعف التى أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذى طرأ على آخر دولة على بن يوسف نتيجة بخاذلهم وتواكلهم وطاعتهم للنساء أنه قاله ظالة وتحامل صريح وتجاهل لحقيقة الاوضاع السياسية ، وهذا يبرر تحيز المؤرخ المراكشى للمصامدة الموحيدين وببلة الى قضيتهم (المغرب الكبير ، ص ٧٤٢) .

(٣٦) حسن محمود ، قيام الدولة المرابطية ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ . عباس الجرارى . وحدة المغرب المذهبية خلال الناريخ ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ص ١٨ — ١٩

من أسم تمتاز به » (٣٧) * وتمت الخطبة له بذلك على منابر العدوتين وأمر عماله بذلك فكتب ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين الى الاتسياخ والاعيان والكافة من أهل فلانة أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته * أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسر ، وواهب النحر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وأنا كئبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، في منتصف محرم سنة ست وسنين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم ، وهدانا وهداكم الى سريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأبنا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أفراد القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليحلبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى والله ولي العدل بمنه » (٣٨) .

ولكن الاخذ بهذه التبعية للخلافة العباسية في بدء قيام الدولة المارابطية وأيام قوة الدولة العباسية شيء والاستمرار فيها شيء آخر . بعد تحلل قوة هذه الدولة العباسية * وجاءت فكرة المهدي ابن تومرت بشأن نسبه النبوى تبطل الحجة المالكية التي جعلت يوسف بن تاشفين

(٣٧) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ط الدار البيضاء ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣٨) مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ٥٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ . مجهول ، الحل الموشية ، تحقيق علوس ، ص ١٧ — ١٨ .

لا يقدم على التأقّب بالخلافة لانه ليس من السلالة النبوية * وأستكمل
ابن تومرت منظومته حين أننتقل بالاشعرية من اطارها الفقهي المذهبي
الى تعاليم المرشدة الموحدية الملزمة في التطبيق الى حد التمييز ، والبالغة
في التفسير الى حد القول بعصمة الامام *

يقول ابن تومرت عن منطق « المرشدة » في صفات الله ومن ثم في
مضمون العلاقة بين الامامة والرعية : « اعلم أرشدنا الله واياك أنه وجب
على كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه خلق العالم بأسره
العلوى والسفلى والعرش والكرسى والسموات والارض وما فيها وما
بينها وجميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة الا بأذنه ليس معه
مدبر في الخلق ولا شريك في الملك حتى قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ،
عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ،
يعلم ما في البر والبحر ، ما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات
الارض ولا يظلم ولا يابس الا في كتاب مبين أحاط بكل شيء علما وأحصى
كل شيء عددا ، فعال لما يريد ، قادر على ما يشاء ، له الملك والغنى وله
العزة والبقاء ، وله الحكم والقضاء ، وله الاسماء الحسنی ، لا دافع لما
قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء
ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، ليس عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة
منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، موجود
قبل الخلق وليس له قبل ولا بعد ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا شمال
ولا أمام ولا خلف ، ولا كل ولا بعض ، لا يقال متى كان ولا أين كان ، ولا
كيف كان ولا مكان ، كون المكان ودبر الزمان ، لا يتقيد بالزمان ولا
يتخصص بالمكان ، لا يلحقه وهم ولا يكفيه عقل لا ينحصل في الذهن ولا

يشتمل في النفس ولا يتصور في الوهم ولا يتكيف في العقل لا تلحقه
الاهوام والافكار ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (٣٩) *

وفيما تلى ذلك من أخبار نشأة الدعوة الموحدية ووقائعها الادارية
والحربية والقبلية ، ينحصر أكثر الجانب الفقهي المذهبي من دعوة التوحيد
النومرتية : فيندو هذا الجانب مجرد تسكل نظري أحاط بالميراث المذهبي
— الاجتماعى عند بربر البوادي المغربية * وبذلك ، تتأكد نهاية الاشعرية
كمذهب فقهي مشرقى وأثر مذهبى من آثار رحلة ابن تومرت المشرقية ،
وتبدو في تاريخ الحركة الموحدية مجرد مذهب فقهي مرحلى استهدف
مقارعة المذهب المالكي فقهيًا أو مجرد فرع من الفروع التى أخذ منها الفكر
الموحدي في تفاصيل حركته التاريخية *

لذلك فان مؤرخا مثل ابن أبى زرع ، وقف من الحركة الموحدية
موقفا عدائيا ، يصورها بقوله : « ++ فصار هذا التوحيد عند المصامدة
كالقرآن العزيز ، لانه وجدهم قوما جهلة لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا
ولا من أمر الدين ، فأستهوهم بكيده ، وغلبهم بعذوبة لفظه +++ حتى
كانوا لا يذكرون غيره ، ولا يمثلون أمرا الا أمره ، يستغيتون به في
شدائدهم ، ويتبركون بذكره على موائدهم ويقولون هذا الامام المعلوم
المهدى المعصوم على منابرهم ، فدخل الناس في طاعته أفواجا ، وأتخذوا
سنننه شريعة ومنهاجا ، فرتب العشرة والخمسين وتمكن في الملك أى
تمكين * وسمى العشرة من أصحابه السابقين الاولين وجعل الخمسين
للرأى والمشورة ، وعقد لنفسه الامامة والنظر للمسلمين » (٤٠) *

(٣٩) محبول ، الحل المونسة ، ص ٩٦ . كتاب الوثائق ، ج ١ ، وثيقة رقم
٧٨ ، ص ٢٢٧ . اس القنفذ ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص ٢١١ .

وهناك من المؤرخين من وقف من نفس الحركة موقفا عكسيا (٤١) لابن أبى زرع ومنهم ابن خلدون الذى صور الدعوة الموحدية بقوله : « ويلحق بهذه المغالاة الفاسدة والمذاهب الفاشلة ، ما يتناقله الرأى من غفهاء المغرب ، من القدح فى الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبس ، فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنص على أهل البغى قبله ، وتكذيبهم لجميع مدعياته فى ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من أنتسابه الى أهل البيت . وأنما حمل الفقهاء على تخذيبه ماكن فى نفوسهم من حسده على شأنه فأنتهم لما رأوا فى نفوسهم مساهضة فى العلم والفتيا والدين بزعمهم ، ثم أمتاز عنهم بأنه متبوع الرأى مسموع القول ، موطأ العقب ، نقموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح فى مذاهبه والتكذيب لمدعياته . وأيضا فأنتهم كانوا عليه من السذاجة وأنتحال الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى دل فى بلاده وعلى قدره فى قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ، وبقموا على المهدي ما جاء به من خلافتهم والتثريب عليهم والمناسبة لهم ، تشييعا للمتنونة وتعصبا لدولتهم . ومكان الرجل غير مكانهم وحاله غير معتقداتهم . وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف أجهته فقاءهم ، ونادى فى قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فأقتلح الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية . وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها

(٤١) من بين من امتدح مذهب ابن تومرت من الفقهاء الشيخ السنوسى فى قوله : (أجمعت الائمة على صحة هذه العقيدة وأنها مرشدة رشيدة ولم يترك أحسن منها وسيلة ، نفعنا الله وأباك بعقد عقيدتها الجليلة » (أنظر : ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢١٠) .

الا خالقها • قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم الهلكة وتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة • حق علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا ، حتى الولد الذي ربما تجنح اليه النفوس وتتخادع عن تمنيه • وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجلة ؟ ومع هذا غلو كان قصده غير الصالح لما تم أمره وأنفسحت دعوته سنة الله التي قد خلت في عبادته » (٤٢) •

وتتأكد هذه الصورة التي قدمها ابن خلدون تطابق ما نذهب اليه من تعدد الفروع — مذهبية وأجتماعية — التي أخذت منها الدعوة الموحدية وحركتها التاريخية • وظهر ابن أبي زرع كما رأينا وكأنه اكتفى من الصورة المذكورة بوجهها المعتم في نظره • وأقترب من هذا التفسير باحث مغربي (٤٣) • جعل مبدئي العصمة والامامة ، ومن ثم فكرة المهدي بوجه عام في الدعوة الموحدية ، من أصول الاتجاه السياسي لا المذهبي عند ابن تومرت •

وفي نطاق نفس التفسير يمكن قياس حجم الاختلاف في الرأي بين الانسانيد حول مسألة الاخذ بعصمة الامامة في المهدي الموحدية ، من حيث الميل في التفسير الفقهي عموما الى الاخذ بالظاهر حسبما ذهب ابن حزم ، ومن حيث وصل التفسير بالعصمة فيما كان يعن من أمور في التطبيق حسبما نقرأ من أخبار ابن تومرت وأحداث ثورته على السنة

(٤٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٤ . وأنظر أيضا عن نفس النص في : عبد الله جنون : النبوغ المغربي ، ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٤٣) الجراي ، الموحدون ثورة سياسية ، ص ١٠٣ .

المؤرخين * وفي هذا الصدد ، يصل الباحث المغربى المذكور الى حد الدفع عن المهدي الأخذ بعصمة الامامة استنادا الى وجود آثار في فكر ابن تومرت لمذهب ابن حزم الظاهري الذي لا يرى بهذه العصمة في القول :

« أنه يقع من الانبياء السهو من غير قصد ويقع عنها أيضا قصد التئىء يريدون به وجه الله تعالى والتقريب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى الا أنه لا يقرهم على ذلك ولا يدائر وقوعه منهم ويظهر عز وجل ذلك لعباده ويبين لهم » (٤٤) * وسبق الى هذا الرأى المستشرق الاسباني أنخل جنثالت بالنتيا في قوله : « وقد مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين الى مذهب ابن حزم اذ وجد فيه ما يؤيد دعوته ووصل نفر من فقهاء الحزمية الى كبار المناصب » (٤٥) * كذلك رأى جولد تسيهر (٤٦) تأثر المهدي بابن حزم من خلال التشابه الكبير في مواقفهما من الملكية ومن صفات الله وأعمادها على الظاهر في مسائل كثيرة * ومع ذلك ، فان عصمة الامامة عند ابن تومرت يؤكدھا آخرون مثل صاحب « المعجب » (٤٧)

(٤٤) ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ج ٤ ، ص ٢ — ٣ .

(٤٥) أنخل جنثالت بالنتيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٢٣٨ .

(٤٦) عن الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٩ . وتظهر سلفية ابن تومرت الظاهرية في مواضع منها حديثه عن أسماء الله الحسنى التى لا يجوز فيها فى رأيه قياس أو اشتقاق أو اصلاح ، فعنده أن : « أسماء البارى سبحانه موقوفة على اذنه لاسمى الا بما يسمى به نفسه فى كتابه أو على لسان نبيه لايجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح فى أسمائه ويسمى المخلوق فقيها سخيا لعلمه وكرمه ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ، ويسمى المخلوق راميا قائلا لرميه وقتلته ، ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمى المخلوق زيدا وعمرا يولد ليس له اسم فيصطلح عليه اسمه وليس للمخلوق أن ينحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه فى كتابه ، ما نفاه عن نفسه فى كتابه نفاه عنه ، وما أثبتته لنفسه أثبتته له من غير تبدل ولا تشبيه ولا تكييف بسميه بأسمائه الحسنى ويدعوه بهما » (أنظر ، البيذق ، أخر ما يطلب ، فصل فى أسماء الله تعالى ، ص ٢٣٧) .

(٤٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٢ .

وصاحب « الاستقصا » . وهذا الاخير قد وصف ابن تومرت قائلا : « أنه هأمور بنوع من الوحي والالهام . . وعليه نزعة خارجية . . وييشر الى الكوائن الآتية » (٤٨) . وفي هذا الصدد ، يذكر البيهقي أن المهدي كان يردد على طالبته « انما الله اله واحد ، والرسول حق ، والمهدي حق ، فاقرأوا حديث أبي داود تعرفوا الامر ، وعليكم بالسمع والطاعة » (٤٩) كما يذكر أيضا أن المهدي قال لاتباعه « لو شئت لعددت خلفائكم خليفة خليفة » (٥٠)

والنظار عموما في الدعوة الموحدية وأصولها الفكرية أن ابن تومرت كقاعدة كان يقرن أقواله وأفعاله بسمات الصوفية في ميراث بيئته . فعرف عن مهدي الموحدين أنه كان يلبس العباة المرقعة والملابس الصوفية ، وتسمى بالعبد الفقير الى الله (٥١) ، ومال الى التقشف في مأكله أيضا لا يزيد عما تقدمه له أخته من رغيف بقليل من سمن أو زيت ، ولم يتغير عن هذه الحياة حتى عندما أقبلت عليه الدنيا . وساءه جدا عندما شاهد أصحابه يوما يتنافسون على ما كسبوه من غنائم ، فأمر بجمع الغنائم

(٤٨) السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٤٩) البيهقي ، أخبار المهدي ، ص ١٧ .

(٥٠) البيهقي ، نفسه . ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٨ وقد قال المهدي عن أمائه : « . . ما من زمان الا وفيه امام ، قائم بالحق في أرضه من آدم الى نوح ، ومن بعده الى ابراهيم » قال الله تعالى : « أنى جاعلك للناس إماما ومن ذريتى قال لا ينال المهدي الظالمين » . سورة البقرة آية ١٢٤ . أنظر أيضا : نجاح صلاح الدين القابسي ، رحلة ابن رشيد السبتي ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٨ ، ص ٥ .

(٥١) السلاوي ، المصدر السابق . آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، أنظر : أيضا :

وأحراقها جميعا ، وقال لهم : « من كان يتبعنى لاجل الدنيا فليس له
عندى الا ما رأى ، ومن يتبعنى للاحره فجزاءه عند الله » (٥٢) وكان دائما
ما يتمثل بهذا البيت :

تجرد من الدنيا فانك انما
خرجت الى الدنيا وأنت مجرد
وتمسك بقول أبى الطيب المتنبى عن الموت :
إذا غامرت فى شرف مـروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير
كطعم الموت فى أمر عظيم (٥٣)

وبلغ ابن تومرت فى تنسكه الصوفى الى حد أن ظل حصورا لا يأتى
النساء حتى أنه كان « شديد التقشف والزهد والورع ، لم يلبس قط سوى
تياب الصوف من قميص وسراويل * ولا يقبل على شئ من متاع
الدنيا » (٥٤) . ويقول ابن خلدون : « هو بحالة من التقشف والحرص والصبر
على المكارهه والقتل من الدنيا » (٥٥) . لذلك جاءت مؤلفات ابن تومرت فى
نفس المجال ، وعلى حد قول صاحب الحل الموشية : « انه ألف لهم كتابا
سماه بالتوحيد باللسان البربرى وهو سبعة أحزاب بعدد أيام الجمعة
وأمرهم بقراءة حزب واحد منه اثر صلاة الصبح بعد الفراغ من حزب

(٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٥٣) ابن تغرى بردى ، نفسه .

(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٥٢ (طبعة بيروت) .

(٥٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق ، ص ٢٢ . أنظر أيضا :

— Amedroz, Op. Cit., p. 558.

القرآن • وهو يحتوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايمان بما يجب الله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز على المسلم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ووافي بينهم وألف كتابا سماه بالتقواعد وآخر بالامامة» (٥٦) • ومن ثم فقد تسمى العارفون بتعاليم كتاب التوحيد بالموحدين وقال لهم المهدي من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد ، وانما هو كافر لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته •

وكانت الواقعة الحربية التاسعة في تاريخ حروب الموحدين والمرابطين، المعروفة باسم البحيرة (٥٢٤هـ — ١١٣٠م) مناسبة أظهرت بشكل واضح ما تضمنته الدعوة الموحدية أصول فكرها في الميراث المذهبي الاجتماعي (٥٧) •

فالهزيمة الفادحة التي تلقاها الموحدون في هذه الواقعة ، وأعقبها موت المهدي بعد ثلاث سنوات ، قد استدعت أكثر من أى وقت مضى ذلك المسلك السياسى — المشار اليه عالياً — فى الاستناد الى القول بعصمة الامامة والى مساييرة فكرة الميراث البيئى للمقولات الشعبية الغيبية المتداولة فى معتقدات البوادرى المغربية عامة وبين تجمعاتها الصوفية التقليدية على وجه الخصوص •

وترتبط نهاية حياة المهدي ابن تومرت بحوار الفكر البيئى أو الغيبى عن مونه ، مما يعنى ارتباط فكر العقيدة الموحدية بالتراث البيئى للقبائل المغربية • ومن ثم تبلغ تعاليمه المرشدة بين الموحدين درجة القدسية تلى

(٥٦) مؤلف مجهول ، الطل ، ص ٨٩ — ٩٠ •

(٥٧) الببذق ، أخبار المهدي ، ص ٣٨ •

درجة القرآن في الاسلام عموما ، بحيث أصبح قبره في تينمل قبله هؤلاء ، يهرعون اليه في أزماثهم ، ويتبركون بأثره ، ويشفعون به في أوقات شدائدهم : وصار يقينا بذلك أن درج المهدي الموحدي في قائمة المهديين في تاريخ الاسلام ، فهو يعد المهدي المنتظر الثاني بعد عبيد الله الفاطمي (مهدي سجالسة) (٥٨) .

ومع ذلك ، فقد كان لهزيمة الموحدين في وقعة البحيرة جانب قبلي يتعلق بما يعرف بالتمييز ، حسبما أوردناه آنفا عندما تعرضنا للاحداث السياسية والحربية وأثرها في قيام الدولة الموحدية . وقد تبين لنا عند حديثنا عن التمييز أن الامر بالنسبة للقبائل يتعلق أيضا ببذور قوية ذات طابع اجتماعي حملها الميراث الفكري المغربي الذي استمدت منه الحركة الموحدية دعوتها واستيقظت في اطاره قبائلها باسم الثورة المذهبية على فقهاء المالكية والثورة السياسية على الحكم المرابطي .

وهذا يعنى أن الاصل في الثورة الموحدية وفي التفاف القبائل المغربية حولها لم يكن يستهدف الاخذ بمذهب من مذاهب الشرق الفقهية كما يعنى أن الوضع السياسى والمذهبى للخلافة الامامية في الشرق لم يكن الدافع الذى جمع هذه القبائل للخروج وراء الموحدين في حرب جهادية تتفجر أساسا في حياة ابن تومرت ضد المرابطين وفقهاء مذهبهم المالكي . كذلك لم يكن الخلاف في التفسير الفقهي بين ما ذهب اليه المالكية وما جاءت به المرشدة الموحدية السبب في صمود المصامدة وراء الموحدين بعد نكستهم

(٥٨) بويح مهدي سجالسة في سنة ٢٩٧ هـ أى قبل مبايعة ابن تومرت بنحو مائة وثلاث وتسعين سنة ، في سنة ٥١٥ هـ (أنظر ، الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٥) .

الكبرى في وقعة البحيرة + وأغلب الظن أن هذه الدوافع في مجموعها تلاقت مع ما كانت تحمله البوادي المغربية وقبائلها من ميراث الفكر الذهبي الاجتماعي في المغرب الرافض للاحتكار المذهبي المالكى ومن ثم للحكم المربطى وما كان يحمله من سلبيات اجتماعية + لذلك ، جاء فكر الموحدين ترجمة صادقة لهذا التلاقى فيما رأيناه من تسااهد لم تبعد كثيرا عن أصول هذا الفكر +

(٢)

فقهاء الفكر الصوفي المغاربة في المشرق

(أ) مدرسة الاسكندرية السنية :

لم تكن قواغل الحج المغربية في القرنين الخامس والسادس تستهدف مجرد أداء فريضة الحج وانما اقترن هذا الهدف بفكرة الجهاد والاعتقاد بأن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، وأن من يموت أثناء مقامه بها يعد شهيدا + لذلك جذبت الاسكندرية عددا كبيرا من علماء المسلمين عامة ، ومن علماء المغرب والاندلس خاصة + ولم يكن هؤلاء العلماء يكتفون بأخذ العلم وتلقيه أو سماعه بل شاركوا في التدريس ، وترأسوا حلقات الدرس وبالتالي ذاع صيت الاسكندرية كمركز لعلوم الحديث والفقه على المذهبين الشافعى والمالكى على عكس ما كان يتوقع من شهرة الاسكندرية كمركز للشييع في عهد الدولة الفاطمية (٥٩) +

وفي هذا الصدد ، بلغ النفوذ المغربى في مدرسة الاسكندرية الى حد

(٥٩) د . سعد زغلول : الاثر المغربى في المجتمع السكندرى ، ص ٢٢٩ .

التمكين من نقل مكتبتها الى المغرب وهى المكتبة التى كان عماد الدولة ابن أبى الفضل بن المحترق^(٦٠) قد أثرها بعدد ضخم من الكتب * وكان نقلها الى المغرب بعد وفاته : « مما يعنى أن علماء المغاربة والاندلسيين كان لهم بالاسكندرية شأن وأى شأن »^(٦١) * فهل لنا وقفة أمام الترجمة لعدد من هؤلاء العلماء ؟

فمن أهم من برز من شيوخ الاسكندرية وأعلامها فى هذا العصر الفاطمى عالم أندلسى ينتسب الى نغر طرطوشة وأعنى به الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الاندلسى نزيل الاسكندرية المعروف بابن أبى رندقة * ولد فى عام ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م فى مدينة طرطوشة ، ورحل الى عدد من المدن الاندلسية الكبيرة للاستزادة من العلم ، فذهب الى سرقسطة واتصل بكبير علمائها القاضى أبى الوليد الباجى^(٦٢) وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجاز له *

غادر الطرطوشى وطنه فى سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٥ م ليبدأ رحلته الى المشرق فى الخامسة والعشرين من عمره أولا لاداء فريضة الحج ثم لتلقى العلم الاسلامى فى المشرق * فرحل الى مكة حيث أدى الحج ومنها الى

(٦٠) المقرئى ، الخطط ، ط مصر ، ١٣٢٤ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٦١) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٦٢) العماد الاصفهانى ، فريدة القصر ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ . المقرئى ، نفح ، ج ١ ، ص ٥٠٩ . راجع أيضا : د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ . د . جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٥٠ - ١٠٠ ، وكتابة : أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، فى سلسلة أعلام العرب عدد ٧٤ ، لسنة ١٩٦٨ .

بغداد حيث كان يحكم نظام الملك — الذي يعتبر أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم هي المدارس ، وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التي حملت اسمه ، وقد شهد الطرطوشي نظامية بغداد وهي في أوج عظمتها ، وتتلذذ رغم مالكيته على يد معظم فقهاءها ، وجلهم من الشافعية ومنهم أبو حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي^(٦٣) .

وكان من الطبيعي أن يتأثر أثناء اقامته في بغداد والبصرة بهؤلاء الفقهاء والزهاد وعنهم أخذ نزعته في الزهد والورع والتقشف حتى عده من كتب عنه واحدا من أقطاب المتصوفة الزاهدين .

ثم ترك العراق فيما يقرب من سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٩٥ م وهو في سن الثلاثين الى الشام ، وجال بعدها في عدد من المدن الشامية آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ورحل عنها سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٧ م وهو في سن الأربعين الى الاسكندرية . وفيها عاصر الطرطوشي محنة مصر على يد الوزير الافضل شاهنشاه بدر الجمالي عندما قتل نزار بن المستنصر الفاطمي ، وما صاحبها من عدم اقامة الشعائر الدينية ، ومنها عدم اقامة صلاة الجمعة في مساجدها خوفا من الفتن .

حاول الطرطوشي اصلاح الاحوال بمقابلته الشهيرة للملك الافضل شاهنشاه . ثم عاد بعدها الى الاسكندرية فيتحذرها منزلا ويبدأ فيها نشاطه الفكري الذي عارض به مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد قاضي المدينة بسبب ترفه وبذخه واقباله على الدنيا ، ثم اعتقله الافضل وحدد اقامته حتى مقتل الافضل في سنة ٥١٥ هـ —

(٦٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، المقرئ ، نفح ، ج ٢ ، ص ٢٩٣

١٢١١م * فلما تولى المأمون البطائحي الوزارة أطلق سراحه ، فعاد الطرطوشي الى الاسكندرية حيث انكب على تأليف أهم كتبه «سراج الملوك» الذى استغرق منه سنة كاملة من شوال ٥١٥هـ الى شوال ٥١٦هـ / ١١٢١ — ١٢٢م (٦٤) *

كان الطرطوشي أديبا وشاعرا (٦٥) ، فأנסاع فى الاسكندرية علما وفيرا وتتلذذ على يديه عدد كبير من الفقهاء من أهل الاسكندرية والوافدين اليها لا سيما من المغاربة * وكان قد كتب الى يوسف بن تاشفين يدعوه الى تحرى العدالة والدين ، كما كتب اليه القاضى عياض من سبته وطلب اجازته بجميع رواياته ومصنفاته ، فأجازته رغم عدم رؤيته ومقابلته * وحرص محمد بن تومرت على مقابلته والاخذ عليه أثناء رحلته المشرقية ، وتوفى الطرطوشي فى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٧م (٦٦) *

وكان كتاب « العوفية » من الذخائر العلمية التى عرفت خزائنها سلطان المغرب عن مدرسة الاسكندرية ، وعلى حد قول صاحب الديباج المذهب : « ولما قدم من المغرب ابنا الامام أبى زيد وأخوه نسخاه وأنفق على نسخه مالا عظيما . وهو الآن فى خزانة سلطان فاس بالمغرب » (٦٧) * والمعروف أن مؤلف « العوفية » هو نفيس الدين أبو الحرم المكي ، والعوفية هى نسبة

(٦٤) العماد ، فريدة القصر ، ج ٢ ص ٢٩٠ . وراجع ترجمته فى : ابن بنسكوال ، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس ، مجلد ٢ ، مدريد ١٨٨٣ ، ص ٥١٨ أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٣ .
(٦٥) العماد ، فريدة القصر ، ج ٢ ، ص ٢٩١ — ٢٩٢ .
(٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .
(٦٧) ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ص ٩٥ — ٩٦ .

الى أبيه أبى الطاهر بن عوف^(٦٨) الذى كان أول من درس فى المدرسة الصوفية أو الحافظية الفاطمية^(٦٩) وحظى أبو عوف بمكانة مرموقة لدى صلاح الدين الايوبى الذى أصدر له سجلا خاصا جاء فيه « * فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة واعزازهم ، والاشتغال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخى على منافعهم * »^(٧٠) * ومن هؤلاء التلاميذ المذكورين فى السجل عدد كبير من المغاربة ، بل أن ابن عوف نفسه كان ممن تتلمذ على يد الطرطوتى فى نفس المدرسة * ومن الجدير بالذكر أن الطرطوتى تزوج خالة أبى الطاهر بن عوف^(٧١) * .

ومما لا شك فيه أن الاثر الذى أحدثته المدرسة الفقهية السكندرية على تلاميذها يتضمن مؤثرات اسلامية شرقية بسبب اشتراك الفقيه العالم الحافظ أبى الطاهر أحمد بن محمد السلفى^(٧٢) فى التدريس بها فى المدرسة

(٦٨) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٨ . حسن حسنى عبـد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٣ ، الشيال : أعـلام الاسكندرية ، ص ١١٢ — ١١٥ .

(٦٩) أسسها الوزير رضوان بن ولختى فى ثغر الاسكندرية فى سنة ٥٧٢هـ (١١٣٨ م) فى خلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقيه أبو طاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر . د . سالم ، المرجع السابق .

(٧٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩ . وقد نشر النص بكامله د . جمال الدين الشيال فى : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢١٢ — ٢١٣ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٣ .

(٧٢) ينتسب السلفى الى جده الاخير ابراهيم سلفه ، وسلفه بمعنى ثلاث شفاه لان شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين غير الاصلية ، وأن هذا اللقب فارسي الاصل ، لانه مركب من كلمتى « سى » بمعنى ثلاث و « لبة » أو « لفة » بمعنى شفة . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الاعبان ، ترجمة رقم ٤٤ ح ١ ، ص ١٠٧ ، العبدى ، الرحلة ، ص ١١٤ . أنظر عنها : الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٣٢ . أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٩ .

المنسوبة اليه وهى المدرسة السلفية أو العادلية نسبة للوزير العادل على بن السلال *

وقد نتلمذ فى المدرسة السلفية عدد كبير من علماء المغرب والاندلس منهم :

— أبو العباس أحمد بن عمار النابلى ، ذكر السلفى أنه كتب عنه شيئا من الحديث (٧٣) *

— أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتى من أهل تاهرت حيث قال السلفى فى ترجمته : « كان من الفضلاء فى الفقه والادب ، وله شعر ، وكتب عنى من الحديث كثير سنة ٤٥٢٧ بعد رجوعه من الحجاز » *

وقال أنه روى هذه الاحاديث التى سمعها فى المغرب بعد عودته اليه ، قال : « ثم رجع الى المغرب وروى عنى هناك » *

— وأخذ عنه من علماء الاندلس أبو الوليد يوسف بن الفضل القبذاقى (٧٤) *

— وتلميذ رابع عرف لكثرة رحلاته بالسايح ، وهو أبو محمد عبد الله أبى الطيب الينوشى ، مغربى الاصل ، لقى فى سياحاته المتعددة شيوخ المغرب بمصر والشام والعراق والحجاز ، فصحبهم ، ثم استوطن الاسكندرية وأخذ فيها عن السلفى فى أحاديثه (٧٥) *

— ومن تلاميذه أيضا فى الاسكندرية مؤرخ مغربى ، هو أبو الحسن

(٧٣) هو من نابل اقليم بين تونس وسوسة .

(٧٤) الشيال ، المرجع السابق ، ص ٦ — ١٤٧ .

(٧٥) معجم السلفى ، نسخة مصورة بكلية الاداب جامعة الاسكندرية ، ج

٢ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ . الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

على بن عبد الله بن محبوب الطرابلسي ، قال عنه : « . . وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف الطرابلسي تواريخا وقفت عليه ، وانتخبت منه ما استغربته وحدثني به » (٧٦) .

— بل ان من تلامذته أيضا العالم الموحدي الشهير أبو عمر أحمد بن هارون التغزي الشاطبي الذي استشهد في سنة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م في موقعة العقاب انتى انهزم فيها الموحدون في الاندلس هزيمتهم الكبرى المعروفة بلاس تافاس دي تولوسا (٧٧) .

وتوفي السلفي في سنة ٥٧٦ هـ — ١١٨٠ م بعد أن جاوز المائة عام ، وبعد أن خلف مدرسة كان لها آثار هامة على معركة الفكر بالشرق والمغرب على السواء .

ولم تلبث مدرسة الاسكندرية أن تحولت في القرن السابع الهجري (١٣ م) الى مدرسة للتصوف بعد أن ذاعت شهرتها في الحديث والفقه في أيام أبي عوف ، والسلفي .

ويهمنا أن نذكر من علماء الفكر الصوفي المغربي في الاسكندرية قطب الاسكندرية الشهير أبو الحسن الشاذلي الذي شهدت حياته أكثر من صفحة تعلقت بأحداث المغرب والمترق في ذات الوقت .

ولد أبو الحسن الشاذلي في سنة ٥٩٣ هـ — ١١٩٧ م في اقليم غمارة بالقرب من مدينة سبتة . وهو تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار بن

(٧٦) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٥٠ .

(٧٧) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ترجمة رقم ٢٦٢ . المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٢ . د . سالم ، المغرب الكبير ، ط ١٩٦٦ ، ص ٨٢٢ — ٨٢٧ .

يوسف • درس في غمارة علومه الاولى مع حفظ القرآن ، ورحل الى تونس للاستزادة من علوم الشرق • ولم يتجه الى فاس أو مراكز العلم المغربية في ذلك الوقت لما كانت تعانيه من مشاكل سياسية ومذهبية •

وكان المغرب في النصف الثاني من القرن ١٢ هـ (١٢ م) قد عرف الصوفي الكبير الشيخ أبو يعزى بن يلنور • وفاقته شهرة هذا الشيخ وتتلذذ على يديه عدد من علماء المغرب والاندلس ، منهم القطب الغوث أبو مدين^(٧٨) التلمساني الذي رحل الى المشرق واستتراد على يد عبد القادر الجيلاني قطب العراق • وتتلذذ على يدي الغوث بعد عودته الى بجاية بالمغرب عدد كبير منهم المتصوف الكبير محي الدين بن عربي^(٧٩) •

وفد لاحظنا اضطهاد الموحدين لهؤلاء الفقهاء وامتحانهم لهم ومنهم الفقيه ابن رشد^(٨٠) الذي تعرض لمحنة كبرى في سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م على يدي يعقوب المنصور الموحدى وكذلك اضطهاد الصوفي أبو مدين الغوث

(٧٨) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م) : عنوان الدراية فيهم عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق الاستاذ ، راجح أحمد بونار ، الجزائر ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م ، ص ٥٥ — ٥٦ .

(٧٩) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني ، عنوان الدراية ص ١٥٨ — ١٦٠ . انظر أيضا : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٦١ — ٣٨٤ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

(٨٠) لقد كانت نكبة الفقيه الفيلسوف ابن رشد من سقطات يعقوب المنصور ، ولكن كان متأثرا في ذلك بضغط الفقهاء والطلبة والموحدين ، ولكنه عوض طلبه علم الحديث أعظم عناية ، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . ولقد اضطر المنصور ذات يوم أن يصرح امام سائر الموحدين وقد بلغه موقفهم من الطلبة قائلا : « يامعشر الموحدين أنتم قبائل ، فمن نابه منكم ، مر فزع الى قبيله ، وهؤلاء الطلبة لاقبيل لهم سوى ، فمهما نابهم أمر ، فأنا ملجؤهم ، والى فزعهم ، والى ينتسبون » انظر : المراكشي ، المعجب ص ١٥٨

التلمساني الذي استدعى من بجاية لحاكمته وتوفي فور وصوله الى تلمسان سنة ٥٩٤هـ (٨١) .

(ب) أبو الحسن الشاذلي ومدرسته :

ومثل هذا الجو من الاضطهاد والاضطراب دفع الكثير من رجال الفكر والفلسفة والتصوف الى الرحيل عن المغرب ، وهذا ما قام به أبو الحسن الشاذلي بعد أن تتلمذ لفترة في فاس على يد أبي عبد الله بن حرازم (٨٢) . رحل الشاذلي فيما يقرب من سنة ٦١٥هـ — ١٢١٨م قاصدا تونس أولا ومنها الى الاسكندرية ثم الحجاز ، وفلسطين والشام والعراق مؤكدا اتصاله بعلمائها وفقهائها (٨٣) .

ثم عاد الى المغرب فلقى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأخذ عنه . ولما أصبح أبو الحسن أهلا للولاية لصفاء نفسه ، وبالتالي لوراثة القطبانية أمرة أستاذه بالرحيل الى تونس حيث قال له : « .. ارحل الى افريقية واسكن بها بلدة تسمى شاذلة ، فان الله يسميك الشاذلي ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس ، ويؤتى عيك من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل الى بلاد المشرق وترث القطبانية » (٨٤) .

وفي شاذلة عكف أبو الحسن مثل أستاذه ابن مشيش في غار ، واتخذ رباطا يتعبد فيه (٨٥) . وبدأ يخرج عن رباطه بعض الوقت يقيم في تونس

(٨١) أبو العباس أحمد بن أحمد الفبريني ، المصدر السابق ص ٦٠
(٨٢) يقع ضريحه على بعد ١٥ كلم من فاس ، واليه تنسب المياه المعدنية المعروفة باسمه (ماء سيدي حرازم) .
(٨٣) نفح الطيب ج ١ ص ٤١٩ وما بعدها . الشيال ، المرجع السابق ص ١٦٥

(٨٤) الشيال ، المرجع السابق ص ١٦٩
(٨٥) ليفي بروفنسال ، أوراق ابن مرزوق (نخب من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن أبي الطيب ابن مرزوق) باريس ١٩٢٥ ، ص ٢٠

يدرس وينشر طريقته بين مريديه وتلاميذه ، مما أدى الى اقبال الناس على دروسه ومواكبه الى حد أنه قيل عنه : « كان الشيخ أبو الحسن اذا ركب تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله وتنتشر الاعلام على رأسه وتضرب الكومسات بين يديه » (٨٦) .

وأثار هذا الاقبال الحاسدين عليه (٨٧) حتى خرج من تونس الحفصية في عهد أبي زكريا الحفصي بعد براءته حاجا . وتناولت أيدي الحاسدين عليه الذين بالغوا في الكيد له الى حد أنهم أرسلوا الى الملك الكامل الايوبي سلطان مصر رسالة جاء فيها أنه : « علوى يسعى الى اعادة ملك الفاطميين وأن هذا الموصل شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم » (٨٨) . فألقى القدح عليه بمجرد وصوله الى مصر ثم أفرج عنه بثبوت براءته بل اقترب من السلطة الحاكمة ، وطاب له المقام في مصر لفترة قبل أن يعود الى تونس للقاء تلميذه أبي العباس المرسى الذي صحبه معه عائدا من جديد الى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م . وكان بين هذه الصحبة أيضا خادمه ، أبو العزائم ماضى بن سلطان ، والحاج محمد بن القرطبي ، وأبو عبد الله البجائي ، وأبو الحسن البجائي . وسيكون لهؤلاء فيما بعد مع تلاميذه المبرزين أمثال أبي العباس المرسى وأبي القاسم محمد بن منصور القنباري قيادة الحياة الفكرية والروحية في المدينة (٨٩) .

ولم يقتصر نشاط أبي الحسن الشاذلي على مدرسته بالاسكندرية بل كانت له مدرسة أخرى متنقلة بين مدن مصر ، فقد زار دمنهور ودمياط

(٨٦) الشيال : المرجع السابق ، ص ١٧١

(٨٧) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٧٣ .

(٨٨) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٧٣

(٨٩) ابن رشد السبتي ، الرحلة ، تحقيق نجاح صلاح الدين ، ص ٨٤

والمنصورة ، ومعظم مدن صعيد مصر ، وتردد كثيرا على القاهرة (٩٠) .
ومن ثم اتصل بالكثير من علماء مصر أمثال الشيخ عز الدين بن عبد
السلام ، وتقى الدين بن دقيق السعيد قاضى القاهرة (٩١) ، وعبد العظيم
المنذرى شيخ المدرسة الكاملية ، ومحيى الدين بن سراقه ، والشيخ مكين
الدين الاسمر عبد الله بن منصور. الاسكندراني شيخ القراء بالاسكندرية
(ت ٦٩٢ هـ) (٩٢) ، وأبى عمرو عثمان بن الحاجب عالم النحو والعربية ،
وابن الصلاح مفتى الشام (٩٣) .

وكان أبو الحسن دائم الحج عن طريق صعيد مصر ، وقد بات في
حمثيرا سنة ٦٥٦ هـ بالقرب من عيذاب على البحر الاحمر — وكان قد
أوصى بأبى العباس المرسى قبل وفاته بأنه « باب من أبواب الله » . ولم
تصدر عنه أى مصنفات بل كان يردد أن كتبه هى تلاميذه حيث قال :
« كتبى أصحابى » (٩٤) .

(٩٠) رغم ما نلاحظه من كثرة ترحال أبو الحسن الشاذلى الا انه لم يطلب له
المقام الا فى الاسكندرية حيث « . . أن آراءه الصوفية لم تجد لها أمانا الا فى الديار
المشرقية فانخذها مقرا له وهناك زادت طريفته وشهرته » أنظر ، ابن رشيد ،
الرحلة ، ص ٨٥ .

(٩١) رغم ما نلاحظه من كثرة ترحال أبو الحسن الشاذلى الا انه لم يطلب له
المقام الا فى الاسكندرية حيث « . . أن آراءه الصوفية لم تجد لها أمانا الا فى الديار
المشرقية فانخذها مقرا له وهناك زادت طريفته وشهرته » . أنظر ، ابن رشيد ،
الرحلة ، ص ٨٥ .

(٩٢) وعنه يقول العبدى فى رحلته : « . . عالم الديار المصرية تقى الدين
أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى ويعرف بابن
دقيق العبد صاحب المدرسة الكاملة ، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من
علم لا تكدره الدلاء . . ما يلقى له فى سعة المعارف نصير او يوجد من يمانله فى صحة
البحث والتنقيب ، وله فى البلاد ذكر شهير . . فهو الان قطب مصر وعلمها » .
الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ . وهو أحد شيوخ الرحالة ابن رشيد السبتي (أنظر
الرحلة ، ص ١٦٣) أنظر أيضا : السبتي ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص ٢٠٨
(٩٣) النسوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٩٤) عن ابن مكين أنظر ، ابن رشيد السبتي ، الرحلة ، ص ١٤ من النص
المنشور .

ج - أبو العباس المرسى ومدرسته :

لا تكاد تذكر الاسكندرية الا بذكر قطبها أبو العباس المرسى وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الانصارى المرسى البلسى الذى ينتهى نسبه الى الصحابى الجليل سعد بن عبادة ولد فى عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م فى مرسية واليه ينتسب ، واستفاد من احتراف التجارة تجارب عديدة . وفى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م خرج مع أسرته لاداء غريضة الحج وكانت رحلة شاقة لاقى فيها الاهوال وأنتهت بفرق والديه ونجاته وأخيه ، واتخذ الاخوان طريقهما الى تونس ، حيث احترف أخوه التجارة بينما انصرف هو لتحصيل العلم واتخذ لنفسه مكتبا فى زاوية الفقيه محرز بن خلف يعلم الصبيان القراءة والكتابة والحساب ويحفظهم القرآن (٩٥) .

سمع أبو العباس أثناء مقامه بتونس بالشيخ أبى الحسن الشاذلى فسمعى الى مقابلته وصحبه الى مصر . وأسّخلفه أستاذة أبو الحسن الشاذلى على شئون الدعوة ، وأعلن هذا الاستخلاف فى حفل جمع فيه أتباعه بمسجد العطارين بالاسكندرية انفراد بعده أبو العباس بسدروس المدرسة فى الاسكندرية والقاهرة وجلس رسميا مكان أستاذة سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م (٩٦) .

وحظى أبو العباس بمكانة علمية عظيمة اجتذبت اليه الطلاب والنفهاء

(٩٥) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٨٩-٣٩٠ . الشبال : اعلام الاسكندرية ، ص ١٩٢-١٩٣ .
(٩٦) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٩٠-٣٩٣ . الشبال : نفس المرجع ، ص ١٩٩-٢٠١ .

من المشرق والمغرب على السواء • وكان كأستاذة عالما لا مصنفات له بل خلف عددا من التلاميذ كان كل منهم قطبا من بعده في الصوفية وعلمها من أعلام الفكر السكندري ، منهم :

تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن عطاء الله السكندري (٦٥٨ — ٧٠٩ هـ / حوالى ١٢٦٠ — ١٣١٠ م) (٩٧) وأبو عبد الله محمد بن سليمان الماغري الشاطبي (٥٨٥ — ٦٧٢ هـ / ١١٨٩ — ١٢٧٤ م) (٩٨) • وأبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى اللكى المشهور بالقبارى الاسكندراني المتوفى سنة ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ م (٩٨) •

توفى أبو العباس المرسى بالاسكندرية في سنة ٦٨٥ هـ — ١٢٨٧ م بعد سنوات طالت الى ثلاث وأربعين سنة نذر نفسه خلالها لنشر العلم والمعرفة (٩٨ب) • وعاصر خلالها شيخ طنطا المغربى السيد أحمد البسوى الذى توفى سنة ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م (٩٨ج) •

-
- (٩٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٤١ . التقى الفاسى ، منتخب المختار أو تاريخ علماء بغداد ، نشر عباس الفزاوى ، بغداد ١٩٣٨ ، ص ٢٠٢ د . سالم تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٣٦ .
- (٩٨) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- (٩٨) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .
- (٩٨ب) دفن في باب مقربة باب البحر ، وأصبح مقبره مزارا ، وأوقفت عليه أوقافا عدة . وفي سنة ٧٠٦ هـ — ١٢٠٧ م زاره كبير تجار الاسكندرية زين الدين بن القطان الذى بنى على القبر الضريح ذو القبة والمسجد والمأذنة المربعة الشكل — وهى تماثل مآذن مساجد المغرب عموما مما يؤكد مقربة هذا التاجر — وقد خضع المسجد لعدة تجديدات ، ففي سنة ٨٨٢ هـ أعاد الأمير قجماس الاسحاقى الظاهر والى الاسكندرية بناءه ، وفي سنة ١٠٠٥ هـ — ١٥٩٦ م جددده الشيخ أبو العباس السنفى الخزرجى ودفن به ، وفي سنة ١١٨٩ هـ — ١٧٧٥ م زار الاسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المغربى فجددده ووسع بعض أجزائه . أنظر : د. سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٤٧٢ ٤٧٦ .
- (٩٨ج) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، العماد الاصفهانى ، فريدة القصر ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .

(د) أشهر علماء المغرب والاندلس في المشرق :

وبالإضافة الى الشاذلي والرسى وتلاميذهما لدينا قائمة كبيرة ممن رحل من علماء المغاربة الى المشرق ومنهم :

— أبو الحجاج يوسف بن محمد بن غاروا ، الانصارى الاندلسى من ثغر شرق الاندلس من بلاد المغرب ، أصله من مجريط « مولده بأشكرب . وتربيته ونشؤه بجيان دخل بغداد * ورحل الى خراسان في طلب الحديث ، وتوفي ببلخ ، سلخ من ذى القعدة سنة ٥٤٨ هـ — ١١٥٣ م » (٩٩) .

— الفقيه خطاب التلمسانى ، وهو أبو الحسن خطاب بن أحمد بن عدى بن خطاب بن خليفة بن عبد الله بن الوليد بن أبى الوليد * وقد قال عنه الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخى الدمشقى ببغداد: « أن خطابا كان اماما فاضلا ، وورد بغداد ، وله شعر حسن ويد باسطة في اللغة » (١٠٠) .

— أبو محمد عبد الله ابن سارة الاشبيلى ، الذى توفي بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م كان له ذكر كبير في العراق (١٠١)

— أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الاديب المعروف بالمغربى ، وهو من أهل المرية انتقل الى المشرق وقد ذكره العماد بقوله : « أنه كان طبيب المارستان المستصحب في معسكر السلطان السلجوقى ،

(٩٩) العماد ، نفسه ، ص ٣٤١ .

(١٠٠) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .

(١٠١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩ — ٢٠ ،

ص ٤٥٦ .

ثم انتقل الى الشام وتوفي ليلة الاربعاء رابع ذى القعدة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م
وقبل في السنة قبلها بدمشق « (١٠٢)

— أبو الفضل جعفر ابن شرف ، وهو ولد أبي عبد الله محمد مصنف
أبكار الافكار توفي حدود سنة ٥٣٠ هـ ، وكان معاصرا لابن رشيق وقد ذكره
الفقيه الشيخ اليسع بن عيسى الغافقي الاندلسي بمصر أن أبا الفضل جعفر
بن محمد بن شرف شيخه (١٠٣)

— ابن خفاجة الاندلسي ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفتح
ابن خفاجة الاندلسي الجزيري ، يكنى أبا اسحاق ، رحل حاجا وسامع
بالاسكندرية عن أبي طاهر السفلى . قدم بغداد بعد الستين وخمسمائة
ويعتقد أنه مات بها سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٧ م (١٠٤) .

— أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الاشبيلي ، أديب وشاعر من أهل
أنشبية رحل الى المشرق فأقام بمصر عشرين عاما ، ثم انتقل الى المهدية
وتوفي سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥٧ م (١٠٥)

(١٠٢) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . ويذكر عنه المقرئ
في نفع الطيب : « من أهل المرية ، انتقل الى المشرق ، كان كامل الفضيلة جمع
بين الادب والحكمة — كان طبيب المرستان المستنصر في معسكر السلطان
السلجوقي حل أو خيم ثم أن أبا الحكم انتقل الى الشام وشهر بدمشق » ج ٢ ،
ص ٢٣٣—٢٣٥ .

(١٠٣) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧١—١٨٢ .
(١٠٤) السيوطي ، البغية ، ص ٤٠٦ . العماد ، نفسه ، ج ٢ ، ص
١٤٧—١٤٨ ، المقرئ ، نفسه ، ج ٢ ص ١٩٥ .

(١٠٥) ويقول ابن سعيد عنه : « يقال ان عمره كان ستين سنة : عشرون
في اشبيلية ، وعشرون في المهدية وعشرون في مصر محبوسا في خزانة الكتب »
وعن حسيه يقول : « وكان قد خرج من اشبيلية ، فصحب بالمهدية ملوكها
الصنهاجيين ، وتوجه في رسالة الى مصر ، فسجن في القاهرة في خزانة البنود ،
وكان فيها خزائن من اصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها

— أبو محمد عبد الله بن سلامة ، أصله من بجاية ، ورحل الى مصر وأقام فترة من الزمن في الاسكندرية ثم في مصر ، والصعيد والريف وهو القائل فيها :

لى حرمة الضيف لو كنتم ذوى كرم
وحرمة الجار لو كنتم ذوى حسب
لكنكم يابنى اللخناء ليس كلكم
فضل ولا أنتم من طينة العرب (١٠٦)

— على بن يقطان السبتي ، أصله من مدينة سبته وقد ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، قال : « ورد الى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ومضى منها الى اليمن ، ورحل في غزن من عدن ، وسافر الى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق يمدح أهلها » (١٠٧) .

— ابن شقرون السبتي ، الذي ذكر عنه في سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م انه كان يعيش بمصر ، وله مدح في عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين (١٠٨) .
— يوسف القسطلی ، من الجزيرة الخضراء ، كان في أواخر المائة السادسة للهجرة بالمشرق ، وقد مدح عبد المؤمن أيضا (١٠٩) .

— أبو هارون موسى بن عبد الله ابن ابراهيم القحطاني المغربي

وقد برع في علوم كثيرة من حديثه وقديمه . المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، رقم ١٨٦ ص ٢٦١—٢٦٢ . وأنظر أيضا : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧—٣١١ . وأنظر أيضا : ياقوت الحموي ، معجم الادباء القاهرة ، ١٩١١ م ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

(١٠٦) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(١٠٧) العماد ، نفسه .

(١٠٨) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

(١٠٩) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

الأغماتى رحل الى مصر والحجاز والعراق وخراسان (١١٠) *

— الفقيه اليسع بن عيسى بن اليسع أبو يحيى مصنف (كتاب المغرب فى محاسن المغرب) « صنفه بمصر وطرزه بالدولة الصلاحية الناصرية » ، وكان يكتب بالاندلس عن المستنصر بن هود ، ثم رحل الى مصر وأستوطن الاسكندرية ، ثم غادرها الى القاهرة حيث قربه السلطان صلاح الدين الايوبى اليه ورفع مكانته وتوفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م (١١١) *

— أبو عبد الله ، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم ، المازنى القيسى الغرناطى ، ولد عام ٤٧٣ هـ / ١٠٧٧ م ، ونزل بالاسكندرية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، فيها سمع عن أبى عبد الله الرازى ، وبمصر عن أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى وأبى الحسن الفراء الموصلى ، وأبى عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى وغيرهم ، وحدث بدمشق وسمع أيضا بها وببغداد التى قدمها سنة ٥٥٦ هـ / ١٢٦١ م ودخل خراسان وأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام وأقام بحلب سنين وسكن دمشق (١١٢) *

— أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخرزجى السعدى القرطبى عاش فى القرن السادس الهجرى ، رحل من الاندلس وقدم مصر وأقام بالقاهرة حيث حدث وسمع من شيوخها ، وأستوطن مصر والقاهرة وتوفى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٣ م (١١٣) *

(١١٠) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(١١١) ابن الأبار ، التكملة ، ص ٧٤٤ . ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ص ٨٨

(١١٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥

(١١٣) المقرئ ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٧

— أبو بكر بن السراج ، النحوى : هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج ، الشنتميرى ، أحد أئمة العربية ، قدم مصر سنة ٥١٥ هـ وأقام بها وأقرأ الناس العربية ثم انتقل الى اليمن • وكانت له حلقة فى جامع مصر لاقراء النحو ، وكثيرا ما كان يحضر عند السلفى مدة مقامه بالفسطاط وتوفى بمصر سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م (١١٤) •

— والفقيه الحافظ أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خسيرة القرطبى المالكى ، ولد سنة ٤٧٩ هـ ، أخذ الفقه عن بعض الائمة فى قرطبة أمثال القاضى أبى الوليد بن رشد ، والحديث عن أبى عتاب وروى الموطأ عن أبى بحر سفيان بن العاصى بن سفيان ، وأخذ الادب عن أبى الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج ، وعن مالك ابن عبد الله العتبنى • وخرج من قرطبة عند قيام الفتنة الثانية فرحل الى مصر وأقام بالاسكندرية خوفا من بنى عبد المؤمن بن على ، وكان يعبر عن خوفه بقوله : « كأنى والله بمراكبهم قد وصلت الى الاسكندرية » ثم رحل الى القاهرة وأقام بها مدة وكان يقول : « والله ما يصلون الى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد » وظل على ذلك الحال من التنقل والترحال خوفا من بنى عبد المؤمن الموحدين حتى توفى بالهند كما يذكر فى سنة ٥٥١ هـ / ١٢٥٦ م (١١٥) •

— أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل السلمى ، المرسى ولد بمرسية سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ونشأ بها ثم أنتقل الى المغرب لفترة من الزمن ثم رحل من المغرب الى مصر فى سنة ٦٠٧ هـ ومنها الى الحجاز ، ثم رحل مع قافلة الحج الى بغداد حيث أقام يسمع ويقراء

(١١٤) المقرئ ، نفسه •

(١١٥) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٩

بالنظامية ، ثم قدم مصر للمرة الثانية ، وخرج منها الى الشام حيث مات بها في سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م (١١٦) .

— محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربي المعافري من أهل أسبيلية من بيت القاضي أبي بكر بن العربي (١١٧) ، درس بأشبيلية وقرطبة ، ثم رحل في المرة الاولى الى مصر فأخذ عن أبي طاهر السلفي بالاسكندرية . ورحل مرة ثانية الى المشرق وتنقل بين دمشق وبغداد وأخذ عن كبار علماء هاتين الحاضرتين وجاور بمكة وسمع بها . وعاد من رحلته الثانية الى أسبيلية في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، فأخذ عنه الطلاب بها وبقرطبة ، ثم رحل الى المشرق في رحلته الثالثة في سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م وجاور بالحرمين عدة أعوام وحج مرارا ، وسلك طريق التصوف وغلب عليه الزهد ، وتوفي في طريق العودة بثغر الاسكندرية سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م (١١٨) .

— علي بن ظافر — لم يتحقق من أصله رغم ما كان له من علاقات مع مصر الايوبية في ظل الملك العادل بالاسكندرية ، وقد حكى عن نفسه في بدائع البدائة فقال : « ومن أعجب ما دهيت به ورميت ... أنني كنت في خدمة مولانا السلطان الملك الكامل بالاسكندرية سنة احدى وستمائة مع

(١١٦) المقرئ ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠.

(١١٧) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، ص ٦٣٥ ، ص ٢٨٨ ، ورقم ١٢٩٧ ص ٥٩٠—٥٩١ ، حيث يقول : « ختام علماء الاندلس وآخر أئمتها وحفاظها توفي بمدينة فاس سنة ٥٤٣ هـ » انظر ايضا المقرئ ، ج ١ ، ص ٤٧٧ . ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(١١٨) ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٥٩٣ . المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٣٣—٢٥٠ .

من ضمته حاشية العسكر المنصور من الكتاب والحواشى والخدام * ودخلت سنة اثنتين وستمئة ونحن بالشجر مقيمين فى الخدمة مرتضعون لأفاديق النعمة ، فحضرت فى جملة من حضر الهناء من الفقهاء بالشجر والعلماء» (١١٩)

— فاضى المالكية وجيه الدين أبو زكريا ، يحيى بن عبد الله الصنهاجى اليزيدى ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م ، الذى وصف بأنه : « ... حسن الاخلاق ، حسن الهيئة ، جميل اللباس ، سمح اللقاء مليح التأنيس ... بقط ، حاضر الذهن ، كان خاطره جمرة متقدة » * (١٢٠)

— الشيخ نور الدين على بن يونس بن عبد الله الهوارى التونسى ، الذى يقال عنه : « ... طلع على الابصار ملاكا لان الغرب مطلع » (١٢١) *

هذه أمثلة قليلة لعلماء مغاربة كثيرين نزحوا الى المشرق الاسلامى وتنقلوا بين مراكزه العلمية المختلفة وأستقر بعضهم فى بعض هذه المراكز وقد ذكر المقرئ فى النفح أن بعض المغاربة كتب الى الملك الكامل الايوبى رقعة فى ورقة بيضاء ان قرئت فى ضوء السراج ظهرت فضية ، وان قرئت فى الشمس كانت ذهبية ، وان قرئت فى الظل كانت حبرا أسود * وممن الابيات التى جاءت فيها والتى نتوج أهداف المغاربة من أقامتهم بالمشرق :

لئن صدنى البحر عن وطنى
وعينى بأشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لى مكة

(١١٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ .
(١٢٠) سعد زغلول عبد الحميد ، الاثر المغربى ص ٢٥٩ .
(١٢١) سعد زغلول عبد الحميد ، الاثر المغربى ، ص ٢٦٠ .

بأنوار كعبته الزاهرة
وزخرف لى بالنبي يثربا
وبالملك الكامل القاهرة
فرد عليه الملك الكامل قائل بل قل :
وطيب لى بالنبي طيبة
وبالملك الكامل القاهرة (١٢٢)

ه — علماء مشاركة في المغرب :

وكما كان المشرق الاسلامي هدفا للرحلات المغربية الاندلسية كان
المغرب والاندلس بدورهما هدفا لرحلات عدد كبير من العلماء المشاركة
الذين رأوا في الرباط بثغور الاندلس ضربا من أعمال البر والتقرب الى
الله * من هؤلاء :

— أحمد بن علي بن هاشم القرشي المصري (٣٧٠ — ٤٤٥ هـ / ٩٨٠
— ١٠٥٤ م) الذي رحل الى الاندلس مجاهدا (١٢٣) *

— أحمد بن محمد الاموي المعروف بابن ميمون (٣٥٣ — ٤٠٠ ط /
٩٦٤ — ١٠١٠ م) الذي لزم رباط طليطلة بعد عودته من المشرق سنة
٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (١٢٤) *

— عبد الله بن سعيد بن أبي عوف العاملي الذي استوطن طليطلة
ويرابط في حصن ولش (١٢٥) *

(١٢٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٦٠
(١٢٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٨٦ ، ص ٨٦
(١٢٤) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٣٧ ، ص ٢٠
(١٢٥) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٥٧٣ ، ص ٢٥٨ *

— ميمون بن بدر القروى الذى أتى من القيروان افريقية ليرابط فى
طليطلة (١٢٦) .

واذا كان هؤلاء قد جاهدوا بأنفسهم وتحملوا مشاق السفر والاقامة
فى الرباط ، فقد نجد على الجانب الآخر أن البعض منهم جاهد. بماه أو
بما يملك مثل خلف بن أحمد بن خلف الانصارى يعرف بالرجوى ، من أهل
طليطلة الذى أوقف بعض أملاكه لبيتاع من الغلة خيلا يجاهد عليها فى سبيل
الله (١٢٧) .

وهناك أيضا من شارك من المشاركة فى رد الحملات الصليبية التى
اجتاحت غرب البحر المتوسط أمثال : موسى بن عبد الله بن الحسن الكوفى،
وهو عراقي رحل من بلده الى صقلية ومنها دخل الاندلس مجاهدا ، وتوفى
فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م (١٢٨) .

(٣)

علماء مغاربة عادوا الى المغرب

وهناك فريق من العلماء الرحالة المغاربة والاندلسيين ارتحلوا الى
المشرق الاسلامى وآثروا العودة الى بلادهم لضيق ذات اليد نذكر منهم :
— أبو عبد الله محمد بن عبد الله زكريا القلعى الاصم ، من غلطة بنى
حماد « كان جيد الشعر » ، لكنه كان منحوس الجد ، ورد الى الاسكندرية

(١٢٦) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ١٣٩٢ ، ص ٦٣٤
(١٢٧) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٣٧٨ ، ص ١٦٨ . انظر أيضا
د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٤٤ .
(١٢٨) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ١٢٢٦ ، انظر أيضا ، د . سعد
زغلول ، نفس المرجع والصفحة .

ومصر وأقام بها زمانا ، لا يجد من يروى ظمأته ، ولا يسد خلته ، وعاد الى المغرب في غير أوان سفر المركب ، غسار راجلا ، نعليه مطيته وزاده كدبته ، الى أن وصل الى قوم يعرفون ببني الاشقر من طرابلس الغرب فامتدحهم » (١٢٩) *

وفريق آخر من المغاربة أطلق عليهم اسم الوافدين أو الطارئيين على مصر منهم :

— محمود عبد الجبار الاندلسي الطرطوسي ، وأبو الحسن عبد الودود وكان قاضي قضاتهم في أيام الافضل (١٣١) ، وعلى بن اسماعيل القلعي بن عبد القدوس القرطبي (١٣٠) ، والقاضي الرئيد أحمد بن قاسم الصقلي المعروف بالطميش (١٣٢) *

ونذكر من أمثلة من عادوا لنشر العلم في وطنهم الفقيه القاضي أبو الوليد الباجي الذي : « .. كان فقيه الاندلس وأمامها ، رحل الى المشرق ، فأتسرت أنوار اقباسه .. وعاد الى الاندلس فاستقر من العزة في الاعين والانفس .. » (١٣٣) * والرحالة المغربي ابن رشيد السبتي الفهري الذي عايش الاضطرابات التي اجتاحت بلاد المغرب وأدت الى هجرة أعداد كبيرة من علماء المغرب الى المشرق حيث الاستقرار النسبي * وكان ابن رشيد

(١٢٩) العماد الاصفهاني ، فريدة القصر ، ج ١ ، ص ٣٣٧

(١٣٠) العماد الاصفهاني ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

(١٣١) العماد الاصفهاني ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

(١٣٢) العماد الاصفهاني ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(١٣٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٠٩ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ح ٢ ، ص ١٤٢ .

واحدا من المهاجرين في أخريات أيام ادولة الموحدية وبداية الدولـة
المرينية (١٣٤) .

أوضح ابن رشيد خلال رحلته المشرقية الطويلة واتصاله بالعديد من
شيوخ العلم في مراكزه مدى أهمية مصر كمركز لتلاقى العلماء المشاركة
والمغاربة . كما حدث له في لقاء التعارف في مدينة بلبيس على قاضي المدينة
وهو : أبو الحسن على بن عبد الكريم بن عبد الله الدمشقي من علماء
دمشق المستوطنين مصر ، وقد امتدحه ابن رشيد بالشيخ الفاضل (١٣٥) .
وكان ابن رشيد يستهدف من برنامجه هذا إبراز الشيوخ المشاركة

والمصريين خاصة والاسكندريين على وجه الخصوص في صورة طيبة كريمة
النفس حتى تحدث هزة عنيفة فكرية وروحية وثقافية في نفوس بنى
جلدته (١٣٦) . ويعدد ابن رشيد شيوخه الذين قرأ عليهم سواء في تونس (١٣٧)
أو في الاسكندرية (١٣٨) أو القاهرة (١٣٩) .

وممن اجتذبتهم حياة التجارة أو الاشتغال بالعلوم بعد رحلة علمية
طويلة الاملد الى المشرق عادوا بعدها الى الاندلس :

(١٣٤) هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس بن سعيد
بن مسعود ابن حسن بن محمد بن عمر بن رشيد أبو عبد الله الفهرى السبتي ،
المكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن رشيد ، مولده في جمادى الاولى سنة ٦٥٧ هـ /
١٢٥٨ م . انظر ، الرحلة تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسي ، المقدمة ،
ص د ، ص ١٩٣ .

(١٣٥) رحلة ابن رشيد ، تحقيق نجاح القابسي ، ص ١٧٣ .

(١٣٦) رحلة ابن رشيد ، ص ٢٥٦ .

(١٣٧) رحلة ابن رشيد ، ص ١٣٤-١٣٨ .

(١٣٨) رحلة ابن رشيد ، ص ٩-٣٢ من النص المنشور .

(١٣٩) رحلة ابن رشيد ، ص ٦٧-١٦٣ من النص المنشور .

— أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر
الانصارى البلسنى وكان قد « أخذ القراءات من جماعة أهل بلده رخرج
حاجا سنة ٥٧١ هـ ، فجاور مكة وسمع بها والاسكندرية من السلفى وعاد
الى بلده سنة ٥٩٦ هـ وحدث بها . وكان يحترف التجارة وتوفى بمرسية
عام ٥٩٨ هـ » (١٤٠) .

أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى (متمم كتاب المغرب
في المغرب) « من أهل قلعة يحصب ، فهو غرناطى ، قلعى ، سكن تونس . .
وسطى عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، الاديب الرحالة الاحبارى ،
العجيب الشأن فى التجول فى الاقطار . . تنقيد الفوائد المشرقية والمغربية »
خرج حاجا فى سنة ٦٣٩ هـ فألقى قصيدته المطولة فى وصف الاسكندرية ،
وأقصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب ووصف مصر ، وجزيرة الروضة
(هى الجزيرة الصالحية نسبة الى السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن
الكامل) ، وعاد الى تونس وأستقر بها مدة السلطان أبى زكرياء يحيى بن
عبد الواحد بن أبى حفص ، وتوفى بتونس فى حدود سنة ٦٨٠ هـ (١٤١) .

— أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر (١٤٢)
الايادى الاندلسى ، رحل الى بغداد وطاب له المقام بها زمانا ، تولى رئاسة
الطب ببغداد ثم مصر والقيروان ، عاد وأستوطن مدينة دانية بنسرق
الاندلس حتى وفاته بها .

(١٤٠) المقرئ ، النفح ، ج ٣ ، ص ٩ .

(١٤١) المقرئ ، نفح الطب ، ج ٣ ، ص ٢٩—٣٧ . انظر أيضا : ابن
الخطيب ، الاحاطة ، ج ٤ ، ص ١٥٢—١٥٨ . حيث يوجد اختلاف بينه وبين
المقرئ فى بعض السنوات ، راجع أيضا : د . سالم ، التاريخ والمؤرخون
العرب ، ص ١٩٦—١٩٩

(١٤٢) عن هذا البيت تفصيلىا ارجع الى : المقرئ ، نفسه ، ج ٣ ، ص

١٣ ، ١٦—١٩ .

— العابد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدنوته الخزاعي . من أهل قسطنطانة من عمل دانية • درس القراءات والحديث في بلاده ثم رحل الى المشرق حاجا ونزل الاسكندرية فسمع السلفي ، ثم عاد الى بلده ولم يرم العزلة والزهد ، وسلك طريقة التصوف ، فكان من كبار صوفية الاندلس في ذلك الوقت حتى وفاته سنة ٦٢٤ هـ (١٤٣) •

— عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملقى ، المشهور بالحنفى المؤرخ صاحب كتاب « التواريخ الملوكية في الحوادث الزمانية » ويحمل القسم الثانى من الكتاب عنوان « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » • سجل فيه تاريخ مضر منذ مولده في سنة ٨٤٧ هـ الى سنة ٨٧٤ هـ وأتبع ذبه المنهج الحولى وأهنتهم بجوادر عصره وتراجم أعيانه ووفياته معتمدا غيه على تاريخ ابن حجر والعينى ، ويقع الكتاب في مجلدين كبيرين • ويمتاز باحتوائه على رواية فريدة للمؤلف عن رحلة قام بها الى المغرب والاندلس ووصف لاحوال مملكة غرناطة في أواخر أيامها • وقد كشف الاستاد (دالافيدا) هذه الرواية الهامة مبعثرة في ثنايا المخطوط أثناء بحثه في محتوياته • كما كتب الاستاذ عبد الله عنان عن نفس المخطوط مقالا بعنوان (ذخائر التراث العربى في مكتبة الفاتيكان) (١٤٤) •

وهناك جماعة من المغاربة كان الدافع على رحلتهم الى المشرق تعرضهم للاضطهاد على أيدي الموحدين ومن ثم كانت رحلتهم من قبيل الهجرات

(١٤٣) ابن الابار ، التكملة ، ترجمة رقم ١٦٧١ •
(١٤٤) عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، ج ٢ ، ص ٣٤١—٣٤٢ (الرباط ١٩٦٥) ، عبد الله عنان ، مجلة الكتاب ، العدد ٩ ، السنة ٥ ، ١٩٥٠ ، وله عن رحلة عبد الباسط مقال نشره لصحيفة المعهد المصرى بمدير .

الاجبارية ، كما حدث لابناء أسرة بنى عشرة ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السلاوى وهى من الاسرات التى أشتبته فى أن تكون من المشرق وتزحت الى المغرب فى تاريخ مبكر ، ومن ثم كان لها دور بارز فى أحداث الدولة الموحدية ذاتها (١٤٥) .

واذا كان لنا أن نختم هذا الفصل ، فلا أقل من أن نقف قليلا عند المنبع الثقافى الذى أغترف منه مغاربة الشرفى فى العصر الذهبى للموحدين وأعنى به عصر يعقوب المنصور الذى تعددت فيه مدارس المغرب الاصيل فى علوم الفقه والتصوف فضلا عن النحو المشرقى الاصل . ففى سلاط المنصور ومجلسه ظهر على يد محمد بن يوسف اليابرى الضير ، اسذى

(١٤٥) وعن تاريخ هذه الاسرة انظر : د. محمد بن شريقة ، من تاريخ الاسر المصرية ، أسرة بنى عشرة ، تطورها التاريخى ، دورها الحضارى ، مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، سنة ١٩٦٥ ، حيث يقول : « .. يذكر البعض عن أسرة العشرة أنها وردت من العراق ، ولكن يذكر أيضا أنها من عائلة المدبر ، أو الى فزارى نسبة الى فنزارة مابين فاس والرباط (خميس فنزارة) . ويعرفون ببني القاسم نسبة الى جدهم الاقرب القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة ، وقد أشتهروا أكثر ببني عشرة وهو اسم الجد الاعلى للأسرة ، وكان عشرة من أمراء المغرب فى القرن ٤ هـ (١٠ م) . وقد ارتبطت سلاسلها فى تأسيسها الى بنى عشرة ، فكانت تعرف فى بعض الاوقات بمدينة بنى عشرة ، حيث قال لسان الدين ابن الخطيب : « وسلا المسكينة لا ترجو لعثرتها الابن عشرتها » .

وفى العهد المرابطى تولوا خطة القضاء وأدرك أصحابها من النفوذ الواسع والجاه العريض فى العصر المرابطى ما لم يدركه القضاة فى عصر سابق أو لاحق ويعرف عن المهدي ابن تومرت أنه أقام أياما عديدة عند بنى عشرة فى سلا حيث كان طلبتها يختلفون اليه ليأخذوا منه العلم . ولكن زعامة سلا التى كانت لهذه الاسرة تنتهى بانتهاء دولة المرابطين ، ومن ثم أصاب بنى عشرة ما أصاب غيرهم ممن خدم الدولة المرابطية كالقاضى عياض والقاضى أبى بكر بن العربى وان انصراف الدولة الموحدية عن بنى عشرة أدى الى انصراف بعضهم الى حياة الزهد والعزوف عن الدنيا ، ومعاشرة أهل التصوف ، وكانت لهم اليد الطولى فى حركة التصوف فى سلا ، ص ١٧٧-٢٠٦ .

كان معلما لابناء الخليفة المنصور في القراءة والتجويد ، وتوفي سنة ٦١٧هـ (١٤٦) . كما ظهر نجبة بن يحيى بن خلف الاشبيلي (ت ٥٩١هـ — ١١٩٣ م) الذي استدعاه الخليفة الى مراكش فأستوطنها وتوفي صحبة المنصور أثناء حملته في معركة الارك (١٤٧) .

وحفل العلم الحديث بعدد من علماء الاندلس استمدوا علمهم من أصول مشرقية ومنهم : عبد الكريم بن محمد بن بفي المرسى (١٤٨) ، ويحيى بن أحمد السكوني اللبلى (ت سنة ٦٢٦هـ) ، وعبد الحق بن عبد الرحمان الازدي، نزيل بجاية (١٤٩) الذي أهتم بتفسير ابن برجان ، وعبد السلام بن عبد الرحمان الاغريقى ثم الاشبيلي الصوفى (١٥٠) . وعلى بن محمد بن عبد الملك بن القطان (ت ٦٣٨ هـ) الذي كانت له الرئاسة على طلبة علم الحديث بمراكش (١٥١) . وعلى بن أحمد بن على عبد الله الربيعى المقدسى الشافعى التاجر ويكنى أبا الحسن (١٥٢) . ومحمد بن حبيشى من أهل المرية (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) ، وسليمان بن حوط الله (ب ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) أستاذ أبناء المنصور الموحدى ، وتولى قضاء سبتة ثم مدينة سلا (١٥٣) ، وكذلك سليمان بن موسى بن سائلم الكلاعى (ت ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) (١٥٤) .

-
- (١٤٦) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٤٠٦ . أنظر أكضا : الرشيدملين
عصر المنصور الموحدى ، الرباط ١٩٦٤ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦
(١٤٧) المقرئ ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٧
(١٤٨) المقرئ ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٢—٢٧٤
(١٤٩) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ١٢١—١٢٢
(١٥٠) ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص ٢٤٨
(١٥١) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٢٤٢
(١٥٢) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، رقم ٩٢٧ ، ص ٤٣٣
(١٥٣) الرشيد ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص ٢٥٠—٢٥١
(١٥٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . ابن سعيد ، المغرب في
حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٣١٠—٣١١

وفي علم النحو ظهر : ابن التسلوبيين ، عمر بن محمد بن عمر السدي كان يقرئ العربية حتى بعد عام ٥٨٠ هـ وظل كذلك لمدة سنتين سنة (١٥٥) وابن خروف على بن محمد ، الذي كان يعد من أئمة النحو (١٥٦) وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي (ت ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م) ، البربري الذي شد الرحلة الى المشرق في طلب العربية ، وزار مصر وأخذ عن نحوها أبي محمد ابن بري ، ورجع الى المغرب حاملا الكراسة الشهيرة التي تنتسب اليه وتعرف أيضا بالمقدمة الجزولية ، وقد قربه المنصور الموحدى اليه وأدنى منزلته منه (١٥٧) .

وظهر في تونس على العهد الحفصى عدد من العلماء في نفس الفرع من العلوم منهم : أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد الخضرى المعروف بابن عصفور المتوفى بتونس سنة ٦٦٩ هـ — ١٢٧١ م (١٥٨) .

وفي أدب المقامات على نسق مقامات الحريري ، أشتهرت مقامات أبي بكر بن زهر الحفيد التي تولى شرحها عقيل ابن عطية الطرطوطى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م (١٥٩) .

(١٥٥) يقول عنه ابن سعيد : « رئيس النحاة بالاندلس كان في وقته عليما بالعربية وصناعتها لايجارى ولا يبارى قياما عليها واستبحارا فيها ، توفي في صفر سنة ٦٤٥ هـ » المغرب في بلاد المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٩—١٣٠ . أنظر أيضا : ابن الابار ، النكلمة ، ص ٦٥٨ . الفبرينى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٦٦—٢٦٧ . ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥٨ .

(١٥٦) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٢—٣٩٦ . ابن سعيد ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٦—١٣٨ .

(١٥٧) جنون ، النبوغ المغربى ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(١٥٨) الفبرينى ، عنوان الدراية ، ص ٢٦٦—٢٦٨ .

(١٥٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦—٢٠ .

ويضاف الى الاسماء السابقة أسماء فئة من أدباء وعلماء الدولة المرابطية البائدة ممن واصلوا خدتهم خلفاء الموحدين ، فعادت بفضلهم الحركة الادبية في المغرب الى ازدهارها ومنهم :

— على بن ابراهيم بن أحمد بن حمويه الازدي الشيرازي ، يكنى أبا الحسن ، ولد بمصر ونشأ بها ، « وتوجه مع أبيه الى مكة ، ورحل الى بغداد سنة سبع وستين وثلاثمائة فلقى علمائها ، ودخل البصرة ثم عاد الى مكة فحج ثانية ، ثم رجع الى مصر ، ثم حج حجة ثالثة ، وتوفي سنة ستة وعشرين وأربعمائة باشبيلية » (١٦٠) .

— القاضي عياض (٤٧٦ — ٥٤٤ هـ) من مواليد مدينة سبتة ، رحل الى الاندلس ثم قصد المشرق ، وبعد عودته اشتغل بالقضاء والفتوى في سبتة والاندلس حتى سقطت الدولة المرابطية ، فباع عبد المؤمن ، واكن عبد المؤمن بن علي لم يلبث أن اتهمه بعد ثورة سبتة على الموحدين عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٥ م ، فاستقدمه الى مراكش ولكنه توفي بها في العام التالي (١٦١) .

ويمثل أدب القاضي عياض فترة الانتقال من الدولة المرابطية الى الموحدية حتى قيل عنه : « .. أنه جاء على قدر ، وسبق الى نيل المعالي ، وأبتدر وأستيقظ لها .. والناس نيام » وقد أنيت من كلامه البديع الالفاظ والاغراض ما هو أبهر من العيون النجل والجفون المراض » (١٦٢) .

(١٦٠) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، رقم ٩٢١ ، ص ٤٣٠ .
(١٦١) المقرئ ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ص ٢٣—٢٨ . أنظر أيضا : ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، رقم ٩٧٤ ، ص ٤٥٣—٤٥٤ .
(١٦٢) المقرئ ، أزهار الرياض ، ص ٢٩ . ابن فرحون ، الديباج المذهب ص ١٦٨ وأنظر أيضا : الفبريثي ، عنوان الدراية ، ص ١١٠ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، محمد بن تاويت ، الصادق عفيفي ، الادب المغربي ، ص ١٥١ .

ومن أفضل نماذج نشره رسالة وجهها الى الفتح ابن خاقان (١٦٣)
وكان شاعرا كذلك ، ومن مآثور شعره مدحه لقرية بليونش :

بليونش جنّة ولكن
طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها
الا الذي جاوز السراطا (١٦٤)

— أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي المراكشي ، ولد سنة ٥١٧ هـ /
١١١٩ م وأسنكتبه المرابطون في آخر عهدهم وبداية الدولة الموحدية ،
وبلغ ذروة مجده بجده وأجتهاده فجمع بين الوزارة والكتابة .

التحق في بداية حياته بالدولة اللمتونية ، المرابطية ، فكتب لعلی بن
يوسف، وظل يشغل بالكتابة الى أن دالت دولتهم ، فدخل في خدمة الموحدين
وحارب مع أبي حفص عمر أهم قواد الموحدين في السوس في القضاء على
ثورة الماسي بن هود . ولقد طلب أبو حفص هذا من يكتب عنه وصف هذا
الفتح الى عبد المؤمن ، فدلوه على أبي جعفر ، فاستدعاه وكتب عنه . ولما
بلغت الرسالة عبد المؤمن أستحسنها ، فاستدعاه وقلده الكتابة ثم اسنداليه

(١٦٣) وفيها يقول : « .. عمادى ابا النصر ؟ مثنى الوزارة ، ووحيد
العصر ، هل لك في منة تفوت الحصر ، تحف محملا ، وتبلغ املا ، وتشكو قولا
وعملا ، شكرا تترنم به الحداة ثقيل ورملا ؟ اذا بلغت الحضرة العلية مستلما ،
ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلما ، وحللت به ثنائه الارحب حرما
ولست بمصافحته ركن المجد بندي كرما .. » محمد بن تاويت ، الادب المغربي
ص ١٥٤-١٥٦

(١٦٤) المقرئ ، ازهار الرياض ، ص ٣٤ . محمد بن تاويت ، نفس
المرجع ، ص ١٥٧-١٥٩ . ويذكر عن قرية بليونش انها « قرية قديمة بجوار
سبّة مابين جبل موسى والبحر » .

الوزارة لما آره فيه من حصافة ورجاحة العقل ، وكانت تلك الوزارة « زينا للوقت وكمالا للدولة » .

وقد بلغ أبو جعفر منزلة رفيعة وكثر حساده عليها فكالوا له حتى أوتغ به ، وأنتهى الامر بقتله وقتل أخيه أبو عقيل بن عطيه فى سنة ٥٥٣ هـ (١٦٥)

وتعتبر رسائل أبى جعفر من الرسائل الديوانية ، وينسب به فى ذلك معاصره المشرقى القاضى الفاضل فى الاطناب والزخرفة ويتمثل ذلك فى رسالته التى أورثته الوزارة : « كتابنا هذا من وادى ماسه بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ، ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح ، بهر الانوار اشراقا ، وأحدق بنفوس المؤمنين اداقا ، ونبه للامانى النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية النسكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ، ولا لحاقا ، جمع أشتات الطلب والارب ، وتقلب فى النعم أكرم منقلب ، وملا دلاء الامل الى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء له

وتبرز الارض فى أثوابها القشب « (١٦٦) .

(١٦٥) هو « من أهل طرطوشة ، وقيل من قطر دانبة . يكنى أبا أحمد ، وكان من أهل الحفظ للحديث والمعرفة بالتوثيق ، سكن مراكش فحظى عند على بن يوسف بن ناشفين ، وولد له بها أولاد ، ولما أنتقل الامر للموحدين دخل فى طاعتهم » . العباس بن أبراهيم ، الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ج ٣ ، رقم ٣٧٤ ، ص ١٠٢ وأنظر أيضا : أحمد بن القاضى . السلاوى : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٣١ . محمد بن تاويت ، الادب المغربى ص ١٧٤—١٨١

(١٦٦) المقرئ ، النفع ، ج ٧ ، ص ١١٣—١١٤ .

ولما شعر أبو جعفر بمدى ما غعله الحاسدون من ايغار صدر عبد المؤمن عليه كتب الى عبد المؤمن يعتذر اليه ويستعطفه ، من ذلك قواسه . « بالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخبرات بطيئة ، حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : ان الله تعالى لم يوح ، فى الفلك لنوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا (عاقر نافذة صالح) وأبرمت لمحبب الخنيل حبلا ... وأتيت حضرة المعلوم لائذا ، وبقيت الامام المهدي عائدا ، لقد آن لقايتي أن تسمع ، وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف وبالذنب معترف :

فغفروا أمير المؤمنين غمنا لنا
برد قلوب هدها الخفقان (١٦٧)

ولقد ندم عبد المؤمن أشد الندم على فقدان ابن عطية وذلك عندما أراد ان يحان الشعراء بهجو ابن عطية فأسمعوه ، فأعرض عنهم وقال : « ذهب ابن عطية ، وذهب الادب معه » (١٦٨) .

— أما رسائل أبو عقيل بن عطية (٥٣٠ — ٥٥٣ هـ) فكانت متل رسائل أخيه أسمر دجا احتفاه من تبعه من الكتاب ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسائل تفصح تنسبعهما الواضح والقول بعصمة الامام المهدي .

— وهناك من يمثل الادب المغربى أيضا فى النصف الثانى من القرن ٦ هـ والى داية ٧ هـ مثل : القاضى أبى جعفر عمر بن عبد الله السلمى الاغماتى (٥٣٠ — ٦٠٣ هـ) ويمتاز برقة شعره ، بل نجده يأمر بالصلاة على ممدوحه مثل ما كان يفعل فى رسائله الموحدية التى تصلى على المهدي

(١٦٧) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٧ ، ص ١١١—١١٢ .
(١٦٨) المقرئ ، نفسه ، ج ٧ ، ص ١١٠—١١٢ . السلاوى ، الاستقصا
ج ٢ ، ص ١٣٣ .

بن تومرت * وجاءت قصائده على غرار قصائد شعراء الشرق (١٦٩) *

— شاعر الدولة الشهير : أبى العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى الزناتى شاعر الخلافة ، وصاحب المكانة الرفيعة لدى الموحدين ، ولد فى نهاية القرن ٦ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ * وكان عبد المؤمن يتفاخر به حيث قال له فى الاحتفال بتحسين جبل الفتح (جبل طارق) : « يا أبا العباس أنا نباهى بك أهل الاندلس » مشابها فى ذلك مقولة المعز الفاطمى فى شاعره ابن هانىء : « كنا نريد أن نباهى به شعراء المشرق » * وعمر أبو العباس طويلا فكان شاعر عبد المؤمن وشاعر خلفائه يوسف ثم يعقوب المنصور ثم الناصر (١٠٧) *

— ابن خبازة ، ميمون بن على بن عبد الخالق الخطابى الصنهاجى المعروف بابن خبازة (ت ٦٣٧ هـ) من أهل غاس كان ضليعا فى الفقه واللغة وأتقن أساليب البلاغة فجاء شعره « محكم النظم والتركيب » *

— أبو بكر بن يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهرى ، شاعر المغرب (ت ٥٨٨ هـ) بل كان يعتبر شيخ الشعراء ويتمثل ذلك فى قول يعقوب المنصور له : « * * كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر » (١٧١)

ومن جميل ما قاله فى مقصورة المنصور الموحدى بجامع الكتبية بمراكش وكانت عجيبة الصنع :

طورا تكون بمن حوته محيطة

فكانها سور من الاسوار

(١٦٩) محمد بن ناويت ، الادب المغربى ، ص ١٨٨—١٩٢ *

(١٧٠) محمد بن ناويت ، المرجع السابق ، ص ١٩٣—١٩٨

(١٧١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ *

وتكون حياء عنهم محجوبة
فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى
فتصرفت لهم على مقـددان
فاذا أحسب بالامام يزورها
في قومه قامت الى الزوار
ببدو فتبدو ثم تخفى بعده
تتكون الهالات للاقمار (١٧٢)

ومن أهم ما ظهر في حياة الادب المغربى فن الزجل أو ما يعرف بفن
الملحون ، ويشتمل على الاغراض الشعرية كالحماسة والحرب والوصف
والمدح . ومن أشهر الزجالين ، الزجال المغربى ابن غزلة ، الذى كان ينظم
الموشح والمترنم ، فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل (١٧٣) .

وكان لانتعاش الحياة الادبية المغربية عموما أثر كبير في اشتغال
المرأة المغربية بالعلم والمعرفة ، ومن أمثلة ذلك ام هانى بنت القاضى عبد
الحق بن عطية التى درست على ولدها وكان لها تواليف في الوعظ والارشاد
وزينب ابنة يوسف بن عبد المؤمن على الاصول ، وحفصة الركونية كانت
أستاذة نساء دار المنصور (١٧٤) وأم عمرو بنت أبى مروان ابن زهر طيبيية

(١٧٢) المقرئ ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .

(١٧٣) الجرارى ، الادب المغربى ، ص ١٧٥—١٧٦ . جنون ، النبوغ

المغربى ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(١٧٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ . ابن الخطيب ، الاحاطة

ج ١ ، ص ٤٩٣ . وأنظر عنها أيضا : العباس بن ابراهيم ، الاعلام بمن حل

بمراكش وأغمات من الاعلام ، رقم ٤٣٠ ، ص ٢١٢—٢١٨ .

دار المنصور ، وأبنتها كانت عالمة في صناعة الطب والولادة ، ورقاء بنت
ينتان الفاسية الادبية التساعرة ، وأمة العزيز السبتية التي كان لها شعر
رائع وأم العز العبدرية وكانت مجودة ، روت عن أبيها صحيح البخاري ،
ومنهم زينب القرقولية وروحية عتيق الغساني نزيلة أغمات ومراكش
وكانت أستاذة في القراءات السبع ، وأم المجد مريم بنت أبي الحسن
الغافقي الذي أنشأ مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم أول مكتبة
بالمغرب ، وخيرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاوي امام
أهل فاس في الاصول ولها ألف القصيدة البرهانية على طريقة الاشعري (١٧٥)
وهناك أيضا أسماء العامرية الاشبيلية الشلبية التي كتبت الى يعقوب
المنصور تتظلم من ولاية بلدها وصاحب خراجها (١٧٦) .

تم هناك مدرسة الفكر الصوفي المغربية الشهيرة ، وكان على رأسها
في المغرب الصوفي أبو العباس السبتي ، وهو أبو العباس أحمد بن جعفر
الخزرجي المعروف بالسبتي ، دفين مراكش عام ٦٠١ هـ وكانت له قدرة
خاصة خارقة في الكلام لا يناظره فيها أحد الا أفحمه ، وفي ذلك يقول
السلوى : « كان الشيخ أبو العباس جميل الصورة ، فصيح اللسان ،
أبيض اللون ، حسن الثياب قادرا على الكلام ، لا يناظره أحد الا أفحمه ،
حتى كان مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه » (١٧٧)
وكان مذهبه يقوم على التوكل والصدقة ويعبر السلوى عن ذلك بقوله :

(١٧٥) عبد العزيز بن عبد الله ، تاريخ الحضارة المغربية ، ص ١٠٩ .
جنون ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ .
(١٧٦) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٨—٢٩ .
(١٧٧) السلوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

« .. كان برا باليتامى والمساكين ، رحيماً بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس فى الاسواق والطرقات ، ويحضر الناس على الصدقة ، ويأتى بما جاء فى فضلها من الايات والاثار فتنتال عليه من كل جانب ، فيفرقها على المساكين وينصرف فكان له مع الله تعالى فى التوكل عليه عقد أكيد ، ومقام حميد » (١٧٨) .

ومن هؤلاء المتصوفة القاضى عياض (١٧٩) ، والشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش (١٨٠) ، والفقيه أبو اسحق ابراهيم بن محمد السلمى البلفيقي (١٨١) وأبو مدين شعيب ابن الحسن نزيل بجاية ، وكان يعقوب المنصور قد دعاه لامتحان مذهبه ولكنه توفى فى الطريق الى مراكش ودفن بتلمسان فى الموضع المعروف بالعباد سنة ٥٩٤ هـ (١٨٢) .

ومنهم من أعطى صوراً مختلفة لحياة التصوف مثل : يوسف بن محمد بن عبد الله المالقي المعروف بابن الشيخ ، الذى كانت طريقته تحث على الجهاد والشهادة فى سبيل الله ، وعلى خدمة المصلحة العامة ، وتأسيس معاهد للدين ، ولذلك غزا ابن الشيخ عدة غزوات مع يعقوب المنصور ورحل الى المشرق وغزا مع صلاح الدين عدة غزوات أيضاً ثم عاد الى بلده وبنى بها ٢٥ مسجداً من ماله الخاص خدماً فيها بيده ، وحفر خمسين بئراً (١٨٣) .

(١٧٨) السلاوى ، نفسه ، والصفحة .

(١٧٩) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ، ينتمى الى سبتيّة (المقرئ ، أزهار الرياض فى اخبار عياض ، ج ١ ، ص ٢٣) .
(١٨٠) توفى ابن مشيش فى سنة ٦٢٢ أو ٦٢٥ هـ . انظر : السلاوى ، نفسه ج ٢ ص ٢٦٢

(١٨٢) يذكره الغبريني فى مؤلفه رغم كونه فى أعقاب المائة السادسة ، انظر ، عنوان الدراية ، ص ٥٥-٦٤ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٩ ، ص ٣٤٢
(١٨٣) ملين ، عصر المنصور ، ص ٢٥٨-٢٥٩ .

(٤)

الصلات الفنية

كان المشرق الاسلامى منبعاً خصباً للتأثير العلمى والادبى والفنى ، وقد رأينا كيف أن بلاد المغرب الاسلامى فى عصر الموحدين تعرضت لموجات من التأثيرات العلمية عن طريق الرحالة المغاربة لطلب العلم فى المشرق أو عن طريق علماء المشرق الذين أسسوا فى المغرب والاندلس . وكما تأثر المغرب الاسلامى فى عصر الموحدين والحفصيين بالمشرق علمياً فقد تأثر كذلك فنياً ، ويضرب المشرقى نقلاً عن ابن الرقيق المغربى فى كتابه قطب السرور مثلاً معبراً عن مدى تأثير الفن المشرقى فى المغرب الاسلامى . وقد ذكر أن عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب كان واحد عصره فى الغناء الرائق والادب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الانيق ورقة الطبع وحلو الهمة ، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب والفكاهة وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائفه وصنعة التجويد وكان ينظم الابيات ويصوغ عليها الالحان العجيبة ، وكان يجتمع عنده اخوانه وخلانته يغنون بين يديه وأتخذ له زامراً هو بشارة الزامر . وكان من حذاق زمرة المشرق أسس عنده ، وكان لا يطرأ على ابن الحسين الحاجب من المشرق مغن الا نزل عنده ووصله منه كل صنوف البر والاكرام ، وبينما كان جالساً فى مجلس طرب وأنس ذات ليلة اذ دخل عليه بعض غلمانته فقال : « * بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ذكر أنه ضيف ، فأمر بادخاله ، فاذا رجل أسمر سناط (١٨٤) رث الهيئة ، فسلم عليه ، قال : اين بلد الرجل ، قال : البصرة ، فرحب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع العلماء فى صفه (١٨٥) »

(١٨٤) سناط : معناها ليس فى لحيته شعر .

(١٨٥) الصفة هى المكان المظلل .

وأتى بطعام فأكل وسقى أقداحا ، ودار الغناء في المجلس ، حتى أنتهى الى آخرهم ، فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت ندى وطبع حسن ، وطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الحزق في اثاره ، والطيب في طبعه ، وقال : « يا غلام خذ بيده الى الحمام ، وعجل تملئ به ، فأدخل الحمام ، ونظف ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من نياحه فألقيت عليه ، ورفعها فأجلسه عن يساره . وأقبل عليه وبسطه فغنى له * * فطرب وترب واستزاده ، فمر يوم من أحسن الايام وأطيبها ، ووصله ، وأحسن اليه ، ولم يزل عنده مقربا مكرما ، وكان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ ، فخلاه وما أحب ، ثم وصف له الاندلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى اليها ومات بها * وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق » (١٨٦) .

ويعلق ابن الرقيق بقوله : « وعلى هذا الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب » (١٨٧) .

ومما لا شك فيه أن كثيرا من التأثيرات الفنية المشرقية في المغرب الموحدى والحفصى أرتبطت بدخول العرب الهلالية والمماليك الغز أرض المغرب وقد أستقرت هذه التأثيرات لفترة طويلة في أرض المغرب بحيث أسهمت اسهاما كبيرا في نمشقه في العصر موضوع الدراسة .

أما في مجال الفنون والصناعة والزخرفة فقد كان التأثير المغربى على المشرق أكثر وضوحا لكثرة وفود الرحالة المغاربة الى المشرق الاسلامى طلبا للعلم أو لاداء فريضة الحج أو للتجارة والتكسب (١٨٨) .

(١٨٦) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ ، ولزبد عن الفن والفنون راجع ، د . سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١١٨—١١٩ .
(١٨٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٣ .
(١٨٨) د . سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ٢ ، ص ١٨٢—١٩٥ ، ص ٢٠٠—٢٠١ .

وأبرز مثل للتأثيرات المغربية ارتباط كلمة الزليجي المغربية وتقابل
الفسيفساء المشرقى بكلمة « زليزلى » العامية وانتشار ذلك فى مصر بوجه
خاص باعتبارها أكثر الاقطار المشرقية ارتباطا بالمغرب وتعرضا لتأثيراته
وفى ذلك يقول المشرقى : « ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف فى
المشرق بالفسيفساء ونوع ييسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه
المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يعرفه
أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجرى مجراه » (١٨٩) .

(١٨٩) المشرقى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٧—١٨٨ . وان هذا
الفسيفساء يستخدم أيضا فى تغطية الاجزاء الدنيا من الجدران أو ما يدور
بأعلاها من طرز خشبية تحت السقف مباشرة . راجع فى ذلك : د . سالم ،
بعض المصطلحات للعمارة الاندلسية المغربية ، صحيفة معهد الدراسات
الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العدد ١—٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤٤—٢٤٥

الخاتمة

ننتهى فى الخاتمة الى أن البحث أفاض فى الكشف أساسا عن الوجوه المختلفة لعلاقات دولة خلافة الموحدين بدولتى الايوبيين والمماليك فى عالم الخلافة الاسلامية — مغربية ومشرقية — وهو العالم الذى يمثل القطاع الاعظم من أرض الاسلام * ومثل هذا البحث يعرض لمعالم تلك الوجوه كما يعرض للقضايا التاريخية المتصلة بهذه المعالم *

وفضلا عن ذلك ، فقد رصد البحث عددا من الظواهر التاريخية التى مازالت فى حاجة الى المزيد من الدراسات المتخصصة * فهناك نظام التمييز ونظام الصفوة العشرى الذى كان كل منهما يشكل أساسا من أسس الدولة الموحدية وعنصرا رئيسيا من عناصر فكرها وتنظيماتها وما خلفه هذان النظامان من آثار على مواقف رعاياها من المسلمين فضلا عن أهل الذمة لا سيما اليهود * فكان أن عرض هذا البحث لاصول هذه الظاهرة فى الفكر المغربى ، فضلا عن دراسة الاصول الفكرية الموحدية ذاتها وصلة ذلك بالفكر المشرقى * وأثبت البحث فى هذا المجال بخلاف ما ذهب اليه الدراسات السابقة أن الفكر الشعبى المغربى ومؤثرات البيئة المغربية كانا لهما فى تلك الاصول ومن قبل رحلة ابن تومرت الى المشرق قدر كبير الى جانب الفكر المشرقى ، وهو ما سنؤكد من جديد عند العودة الى ذكر هذه الاصول فى نهاية الخاتمة *

كذلك هناك ظاهرة معارك الموحدين مع القبائل العربية المشرقية واستمرارها زمنا طويلا ، الامر الذى طرح على القبائل العربية القبول بأحد الخيارين : الانخراط فى صفوف الموحدين وقبول سيادتهم السياسية والدينية أو عدم القبول بهذا الانخراط فى اطار من التمرد القبلى المجرّد

من أى سند سياسى فضلا عن الدينى * وحدث بالفعل أن أنتهت علاقات الموحدين بعرب المشرق الى الخيار الاول * غير أن طورا آخر من تاريخ العلاقات الموحدية بالمشرق قد استجد بقيام الدولة الايوبية والانتساع فى حدودها من مصر باسم الخلافة العباسية المنافسة للخلافة الموحدية * ويتأرجح الخيار العربى هذا من دولتى الخلافتين الاسلاميتين المغربيتين والمشرقية الى ما بعد أنتهاء الدولة الموحدية من مراكش وأحيائها فى تونس وأنتهاء الدولة الايوبية من القاهرة وقيام الدولة المملوكية محلها * وجسمت هذا الموقف المتأرجح أحداث حملة قراقوش ، وما تمثله من تحالف أيوبى وعربى ضد الموحدين ، كما جسمته من ناحية أخرى ظاهرة انخراط العديد من العرب فى صفوف الجند الموحدية فضلا عن ثوراتهم ضد الحكم المملوكى فى مصر وما تمثله من تحالف موحدى عربى ضد المماليك *

لذلك فصل البحث فى دراسة جوانب هذه الاحداث الحربية وما تمثله من معالم سياسية وحربية فى العلاقات بين المشرق والمغرب فى العصر الموحدى * ومع تشدد منظور الخلافة الموحدية المهدوية الراضى لغيرها من الدول ، والقاضى بتكفير كل خارج على سلطاتها وتعاليمها ، أوضح البحث كيف أن العلاقات الاسلامية العامة كانت تغلب أحيانا كما وثق فى طلب السلطان صلاح الدين الايوبى من الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على يد رسوله ابن منقذ بقيام البحرية المغربية بعرقلة المسيحيين (الكفار) فى الغرب وعدم تمكينهم بارسال المدد الى اخوانهم فى الشام ، مما يمكن مسلمى المشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا *

وأثبت البحث أن هذا الطلب العسكرى الايوبى من المغرب استند الى ما كانت تتمتع به دولة الخلافة الموحدية من قوة بحرية. أعدت أعدادا تويا منذ عام ٥٥٧ هـ * ورغم الحفاوة والكرم التى لاقاها ابن منقذ أثناء

أقامته في مراكش وما تلقاه عند عودته من الهدايا ، فقد ذهبت أقوال عن عدم تلبية المنصور طلب صلاح الدين وتعددت التفسيرات من جانب المؤرخين والكتاب في ربطهم السبب بعدم تصدير الرسالة الايوبية بلقب : « الخليفة يعقوب المنصور أو أمير المؤمنين » ولكن الحقيقة التي أنبتها البحث فضلا عن هذا التعليل هي أن المنصور كان مشغولا بأخطار صليبية على أملاكه الاندلسية والافريقية لم تكن بأقل من الخطر الصليبي على عكا ، وهي الاخطار التي حسرتها جيوش الموحدين بانتصارهم في معركة الأرك الشهيرة سنة ٥٩١ هـ / ٤ — ١١٩٥ م . وفي رأى المغاربة أن المنصور الموحدي اعتبر نفسه بذلك قد ساعد المشرق الاسلامي في القضاء على الزحف الصليبي الى الشام مما أدى الى كسب صلاح الدين مكانة بها ، ومن ثم غلب هذا الرأى بظاهرة وحدة المواقف الاسلامية العامة في التاريخ

وبانتقال مقر الخلافة الموحدية من مراكش الى مقر الحفصيين في تونس ، صادف أن وقع أيضا في المشرق حدث قيام الدولة المملوكية محل الدولة الايوبية في حكم مصر والشام وحدث انتقال مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة بعد اجتياح المغول للاراضى المشرقية حتى بغداد .

وترتب على هذه الاحداث العودة بالموحدين في شخص الحفصيين الى التنسدد في دعواهم بخلافتهم كخلافة واحدة لجميع العالم الاسلامي ونالوا في ذلك تأييد بيت الاشراف في مكة المكرمة ، وجاءت للحفصيين البيعة مكة سنة ٦٥٧ هـ / ٨ — ١٢٥٩ م .

وأفادت هذه البيعة بمدى ما أصاب الخلافة المشرقية العباسية من تدهور في مقامها الديني والسياسي . غير أن مبادرة المماليك في العمل على تجديد المقام الديني للخلافة العباسية من القاهرة قد أضعف من جديد من

أنصار المشاركة للدعوة الموحدية + وفي هذا الصدد ، أختلف البحث مع
الرأى الذى ذهب اليه الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى بشأن حجم
أنصار الموحدين فى مصر والشام بأن علق البحث قدرا هذا الحجم على
درجة التدهور فى قوة دولة المشرق وخلافتها الاسلامية ، بمعنى أن هذا
القدر كان يزداد عندما تضطرب هذه الدولة ويضعف دور خلافتها ويعود
هذا القدر الى النقصان بعودة دولة المشرق وخلافتها الى سابق قوتها
ودورها التاريخى + لذلك ، مع أستقرار الاوضاع فى كل من دولة المغرب
الحفصية الموحدية ودولة المشرق المملوكية قصرت كل دولة نشاطها السياسى
والحربى على الاخطار الاوربية التى تهددها ، وفى ذات الوقت سمحت
صلات الجوار بعلاقات اقتصادية وثقافية وفنية بين المغرب والمشرق أعظم
مما كانت من قبل + ودليلنا على ذلك هنا أن مصر ومدينة الاسكندرية فيها
على الخصوص قد صارت بمثابة الوطن الثانى للحفصيين ، فهى الملجأ
والملاذ لهم من اضطهاد السلطات الحاكمة فى تونس + حدث ذلك عندما
فر السلطان أبو يحيى زكرياء الليحيانى الى الاسكندرية بأبنائا : مصرى
وسكندرى ، وعبد الله الواحد ومات ودفن بها هو وابنه سكندرى + ومثال
آخر عندما هرب السلطان محمد بن أبى ضربة الى الاسكندرية بحرا وأقام
بها حتى وفاته سنة ٧٢٧ هـ أو ٧٢٨ هـ + ولم يكن هذا اللجوء بمصدر تضرر
للسلطات الحفصية ، فكثيرا ما اعتبرت هذه السلطات مصر منفى طيبا
للمغضوب عليهم فى دولتها +

وفى هذا المجال أتبت البحث أن الامر وصل فى فترة ضعف السلاطين
الحفصيين ، من عهد الواثق بن المستنصر وما بعده ، الى حد اقتراب الحكام
الحفصيين من الدولة المملوكية فى مصر باعلان اسم السلطان الناصر محمد
بن قلاوون بدلا من أسم المهدى فى خطبة الجمعة + ولكن لم يمنعهم ضعفهم
هذا من تحول ميولهم عن المشرق تحت حكم المماليك الى المغرب تحت حكم

المرينيين أو العكس تبعا لقوة الدولة الاسلامية فيهما * ومثل هذا الموقف انما يعد تكرارا لظاهرة تاريخية كثيرا ما أتبعها الدول الاسلامية عموما *

وأثبتت الدراسة أيضا في صدد العلاقات الموحدية المملوكية كيف تطور دور الجند الترك الغز على حساب دور الجند العرب * وكان دور هؤلاء الترك قد ظهر من أيام الايوبيين عندما استخدمهم الخليفة الموحد يعقوب المنصور كحرس خاص له ، ووضح اهتمامه بهم من قوله : « أن هؤلاء الترك الغز أحب الى من هؤلاء (أى العرب) » * وقد صار لرجال هذا الحرس مركز الصدارة فيما دار من حروب بين البيوتات الحفصية * ثم توسعت الدولة الحفصية في استخدام الترك بالعمل على انخراطهم في سلك الجندية الحفصية جنبا الى جنب مع العرب ، وأزداد ضعف الاخيرين الى جانب الترك باستخدام جند الجنادة أيضا ، وهم المجلوبون من السودان *

وزاد من ضعف نفوذ العرب العمل على تجريدهم من ثقلهم الاقتصادي المستمد من تخويلهم حق فرض اتاوة الخفارة مقابل حراستهم للقوافل التجارية وقوافل الحجيج ، وذلك عندما استبدل الحفصيون هذه الخفارة برواتب وعطايا من الدولة شأنهم في ذلك شأن الموظفين مما أدى السى استقرارهم وتأسيس القرى مثل : القلعة الصغرى والكبرى وأكودة الحمام في القرن ٨ هـ *

وكما توسع الحفصيون في استخدام أتراك وعرب المشرق ، نجد على الجانب الآخر استخدام المغاربة في جندية المشرق * وقد لعب هؤلاء المغاربة دورا بارزا في أحداث عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م في الحملة الصليبية القبرصية على مصر ، وما قاموا به من أعمال دفاعية مجيدة حموا بها سكان مدينة

الاسكندرية • كذلك أثبت البحث أن المغاربة كونوا غالبية في الاسطول
بحرى مملوكى الذى تم على يديه استتباب الامن فى الحجاز الى عهد
السلطان الغورى المملوكى •

وظهر من البحث أن جالية مغربية كبيرة قد استقرت فى الاراضى
المصرية وتآلف منها الى جانب الجند المغاربة غالبية تجارية تركت تأثيرا
واضح على الحياة الاجتماعيه والاقتصادية والثقافية والفنية • ويتحلى
هذا الاثر فى وجود زنقة الستات وهى ما تعنى الشارع فى اللهجة المغربية،
و استخدام نون الجماعة فى اللهجة السكندرية ، ولبس النعال (البلغة)
والبرانس • وكذلك ادخال أكلات « الكسكى والمحمصة والشعرية » المغربية
فى عادات الغذاء السكندرية •

ومن هذه الجالية المغربية أيضا ذلك العدد الكبير من فقهاء المغاربة
وما سغلوه من مكانة فى الحياة التعليمية والفقهية المصرية عمرها والسكندرية
خصوصا • ولعل أعلام من هؤلاء أمثال : الطرطوشى ، أبو الحسن الشاذلى
وأبو العباس المرسى وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى البحث • كذلك تسواى
العدد الكبير من المغاربة وظائف القضاء والفتيا ، بل تقرب عدد لا بأس به
منهم الى السلطات الحاكمة خاصة المملوكية • فعرض البحث لأسماء عدد
كبير من المشايخ الخاصة للسلطان ، وقراء القرافة الخاصة ، بل وصلت
أهمية هؤلاء المغاربة الى حد استخدامهم كمسغراء ورسول مثلما حدث فى
عهد السلطان قايتباى عندما استخدم ابن محفوظ المغربى سفيرا له • وهذه
المكانة الكبيرة التى شغلها الجالية المغربية فى مصر تفسر ما ذهب اليه عامة
من اعتقاد فى كرامات شيوخهم حتى أقيمت لهم المقامات التى أصبحت على
مر العصور مزارات هامة •

وكشف البحث أيضا عن تاريخ هذه الجالية الى أن عددا كبيرا من أفرادها عاد بعد فترة من الاستقرار بالشرق الى موطنه حاملا معه علوم المشرق كي تؤثر بدورها على الحركة الفكرية والادبية بالمغرب . وقد أظهر البحث في أكثر من موضع معالم هذا الاثر الفكرى المشرقى فى العصر الموحدى سواء بالنسبة لفكر المرشدية فى العقيدة الموحدية أو بالنسبة للآثر العام على التراث الفكرى المغربى فى كتابات الاعلام المغاربة من أمثال القاضي عياض وأبى جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وأخيه أبى عقيل بن عطية ، وأبى جعفر عمر بن عبد الله السلمى الاغماتى ، وأبى العباس الجراوى وابن خبازة ، وابن غزلة رائد الزجل المغربى المعروف بالملحون .

ومن هذه المؤثرات الثقافية أيضا تلك المدرسة الصوفية المغربية التى قامت على غرار مدرسة الاسكندرية الصوفية على يد مؤسسها عبدالسلام بن مشيش وأبى العباس السبتي .

وظهر للمرأة المغربية دور أيضا مماثل لدور المرأة الشرقية فى الحياة الادبية حسبما ورد من تفصيل فى البحث . هذا فضلا عن التأثيرات الفنية المتبادلة .

وفى مجال الحياة الاقتصادية ظهر من البحث أهمية دور كل من الاسكندرية وتونس فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر مسالكها البرية والبحرية . وأوضح البحث أثر الطريق البرى القادم من السودان الغربى عبر الطريق الصحراوى على ازدهار النشاط الاقتصادى وزيادة رفاهية المجتمع المغربى والمشرقى على السواء الى حد التأثير على السدورة النقدية ، وما تخلفه من ارتفاع وانخفاض فى قيمة العملة .

ومن دراسة شكل العملة الموحدية الوارد نموذجها في البحث ، ظهر بالفعل اختلاف في قيمة الدينار الموحدى عن نظيره المرباطى بناقص نصف جرام (١٥٠ ج : ٣ ج) * وأظهر البحث أثر دور اليهود في هذا الصدد الذين ذهبوا منذ القرن الحادى عشر الى صهر النقود الفضية بدلا من الذهبية ، وبالرغم من ظهور الدينار الذهبى الحفى المعروف بالتونسى والمرصود نموذجه أيضا في البحث ، فقد ظهر لفترة الحندوس أو الفلّس النحاس الذى سرعان ما ألغى بسبب الثورة على انخفاض قيمة العملة والغش فى أوزانها *

وبالنسبة للطريق التجارى البحرى ، فقد أوضح البحث الدور البارز لكل من ألوانى الموحدية والمشرقية فى الدورة التجارية بحوض البحر المتوسط والصلة الوثيقة لهذه الدورة بالتجارة الاوربية *

ومن خلال ما توفر لدى صاحبة البحث من مراسلات موحدية لم يسبق تناولها فى الدراسات العربية ، أبرز البحث تنظيم الموحدين لاسس التعامل التجارى مع أوروبا عبر كتب الامان الصادرة للتجار ، وأعداد قوائم حصر التجار الاحياء منهم والاموات بهدف تسوية الحقوق وأداء ماعليهم من واجبات ، وانشاء وظيفة الوكيل لحل المشاكل المترتبة عن العقود بين المغاربة والاوربيين ، فضلا عن وظائف العدول (الشهود) والدلائين (الوسطاء) * وقد أشتغل بأعمال الوساطة التجارية المسلمون والمسيحيون من مختلف الاقطار ، فكان منهم المصرى والعراقى والشامى والتمسانى والطنجى والتونسى والبجاوى والجنوى والبندقى وغيرهم ممن ظهوروا فى طيات البحث * وبتعدد هؤلاء المشتغلين بتلك الدورة التجارية البحرية المشرقية — المغربية — الاوربية ، كثرت الفنادق وتعددت الاسواق فى بلاد

الموحددين على غرار ما كان ببلدان المشرق ، كما عرفت مدنها الابواب التى تغلق ليلا بالمناويس •

كذلك أثبت البحث مختلف السلع التجارية كما سجلتها المراسلات الموحدية السابق ذكرها • ومن هذه السلع : الجلود : الزيتون وزيتته ، الكروم ، النمرور ، الشمع ، الملح ، حب الفلفل ، الزنجبيل • القرفة أو الدارصينى • ملح النوشادر • الزئبق ، الخشب عموما وخشب الصنوبر خصوصا القادم من طرطوشة بالاندلس • وقدمت نصوص هذه المراسلات معلومات أخرى عن مقدار الكوس المقررة على هذه السلع تحصيلها للعشر حسب الشريعة الإسلامية وان اختلف مقداره الحقيقى فيما بين ٨ ٪ - ٢٠ ٪ من ثمن البيع • وأظهر البحث أن الاختلاف فى مقدار المكس كان يرجع الى أسباب مختلفة منها ما يتعلق بعقيدة التاجر (مسلم — نصرانى — يهودى) ومدى تقربه من السلطان ، فضلا عن نوع البضاعة التى يتاجر فيها • وعموما فقد تم تصنيف مقدار المكس على النحو التالى :

١٠ ٪ للأجانب ، ٢٥ ٪ للمسلم ، ٥ ٪ للذمى •

كذلك ، توصل البحث فى هذا المجال الى معرفة نوعية المواد التجارية المعفاة من المكس وهى : الذهب والفضة والرصاص والشب • كما أثبت البحث أنواع العقوبة المنصوص عليها لكل من يخالف تلك القواعد والشروط المعلنة فى العقود التجارية • وأثبت البحث ضمن ملاحقه نص عهد الامان الصادر من هذا النص المحفوظ ضمن الاوراق الموحدية المذكورة عاليا أن الفضل فى صدور هذا العهد يرجع الى مناشدة السلطات الحفصية فى تونس السلطان المملوكى بأن يرعى مصالح التجار البيشانيين أسوة بالبنادقة • وفى هذا دليل على أهمية الدورة التجارية السابق وصفها لدى كل من الحفصيين فى تونس والمماليك فى مصر •

وبالرغم من عداة العقيدة الموحدية لليهود حسبما سبقت الإشارة ،
الا أن البحث أثبت في مجال الانتساب التجاري الدور الهام الذي لعبه اليهود
ولمعا في اتقانه كوسطاء في علاقات الدورة التجارية تلك • وبرز من بينهم
على الخصوص يهود الرهادنة في تونس الذين سهلت صلاتهم بالبلاط
الحفصي الاشتغال بنوع معين من السلع على سبيل الاحتكار ، وكذلك
الاشتغال بافتكاك الاسرى ، الامر الذي در عليهم أرباحا طائلة بل ونسغلوا
وظائف الترجمة في عقد المعاهدات الدبلوماسية كما حدث في عام ١٢٦٧ م
بالنسبة للكاظم موسى المعين لبلدية جنوة ترجمانا باللغة العربية ، كما
نسغلوا مناصب دبلوماسية حسبما حدث سنة ١٢٩٣ م عندما تم تعيين
الطبيب ابن داود سفيرا الى أرغونة • وبناء على توسع نفوذهم التجاري
سرقا وغربا ، أمثلك هؤلاء اليهود سفنا تجارية خاصة بهم أخذت تجوب
سواطى المسلمين البحرية من المغرب غربا الى المشرق شرقا محملة ببضائع
تلك البلدان بالاضافة الى تجارة أوروبا •

هكذا رصد البحث في الفصل الخامس معالم الصلات الاقتصادية بين
المغرب والمشرق عبر تلك الدورة التجارية وأستند في أثباتها أساسا وكشف
ما خفى من حقائقها على المراسلات الموحدية التجارية • كذلك ذهب البحث
في الفصل الاخير الى تقصى جانب آخر غامض من معالم الصلات المغربية
المشرقية هو ما يتعلق بالاساس الفقهي الذي قامت عليه أصلا الدعوة
الموحدية وفكرها • وان البحث في هذا الاساس بالتفصيل مع صعوبته ،
من الاهمية بمكان لتفسير أحداث الحركة التاريخية الموحدية وأحداث
علاقاتها بالدولتين الايوبية والمملوكية في المشرق • وفي هذا السبيل ذهب
البحث الى تتبع أصول العقيدة الموحدية في الفكر المغربي من ناحية والفكر
المشرقي من ناحية أخرى • ومن ثم كان البحث عن هذه الاصول في فكر

المالكية والشافعية والاشعرية والسيعة والمعتزلة والخوارج ، فضلا عن ميراث الفكر الشعبي المغربي * وتوصل البحث الى حقيقة هي أن العقيدة الموحدية قد تألفت من منظومة قامت أساسا على فكر الاشعرية وأخذت من المذاهب الاخرى بنسب متفاوتة وتأثرت بنسبة أكبر من تراث هذه المذاهب في الفكر الشعبي المغربي *

والخلاصة ، فان دراسة موضوع العلاقات المغربية والمشرقية الاسلامية كما جاء في هذا البحث لم تكن بالامر اليسير * فكما سبق الذكر في مقدمة البحث ، فان المعلومات المتعلقة بهذه العلاقات قليلة للغاية ومتناثرة ومتفرقة فيما هو متوفر لدينا من المصادر القليلة عن تاريخ الموحدين * كما أن هذه المعلومات تتعلق بأحداث لا تشف عن روابط ودية بقدر ماتسفر عن أكثر من وجه للتنافس والعداء القائمين بين دولة الموحدية ودول المشرق الاسلامي المعاصرة لها * ومع ذلك ، أمكن لصاحبة البحث أن تكتشف في منهاج علمي موضوعي عن كل وجوه الحركة التاريخية المتصلة بتلك العلاقات ودية كانت أم عدائية حسبما عرضت للنواحي السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية التي تدخل في نطاق أحداثها *

والله ولي التوفيق

الملاحق

ملحق رقم (١)

كان من ألقاب الحفصيين لقب الخليفة ، وفيما يلي نماذج لصورة هذا اللقب حسبما وردت في تلك المراسلات الواردة ضمن مجموعة أماري عن الموحدين والحفصيين :

من نص الرسالة رقم ٢٥ ص ٧٥ — ٧٧ :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبي الكريم
وعلى آله وسلم تسليما

« الشيخ الاجل المعظم الموقر الاسنى الارفع المكرم لنبارت غليول الفرناج .. وبعد حمد الله أهل الحمد ووليه والصلاة على نبيه وصفيه والرضى عن الامام المعصوم المهدي المعلوم المرتضى وعن كافة الخلفاء الاكرمين أئمة الدين والهدا ومولا الدعا لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين بالنصر الاعم الاعلا كتب محلكم » *

من نص الرسالة رقم ٢٧ ، ص ٨١ — ٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« الى السيد الاجل السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ملك الدنيا والدين الى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب ظهير أمير المؤمنين ... فالغرض من المولا حرس الله مدته تقليد خدماه غاية الامتنان بحفظه ورعايته ... فكلما يذكره لمولانا » *

من نص الرسالة رقم ٢٨ ، ص ٨٣ — ٨٥

« للشيخ الاكرم المجلد البسقات أبالذ يسكونت صاحب بيثى أرشده الله ووفقه شاكركم المبادر لقضاء طواييجكم عمر بن أبى بكر الصابونى

سلام عليكم وبعد حمد الله تعالى والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم
ورسوله المصطفى والرضا عن الامام المعصوم المهدي المعلوم المجتبي وعن
الخلفاء الائمة الراشدين ائمة الهدى وصلة الدعا لسيدنا ومولانا الخليفة
الامام العادل أمير المؤمنين أبو محمد عبد الله بن الخلفا الراشدين * *

من نص الرسالة رقم ٢٩ ، ص ٨٦ — ٩٧ :

« * * * هذا كتاب صلح مبارك انعقد عن اذن سيدنا ومولانا الخليفة
الامام القائم بأمر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو يحيى زكريا
بن مولانا الامير أبي العباس ابن الامرا الراشدين أيدهم الله * * * » .

من نص الرسالة رقم ٣٠ ، ص ٩٨ — ١١١ :

« هذا الكتاب صلح مبارك عقده عن اذن سيدنا ومولانا الامام
المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو اسحق ابراهيم ابن
سيدنا ومولانا الخليفة الامام المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير
المؤمنين المقدس المرحوم أبي يحيى أبي بكر ابن الامرا الراشدين أيدهم
الله * * * » .

من نص الرسالة رقم ٣٢ ، ص ١١٥ — ١١٨ :

« من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد بن مولانا الامير
أبي عبد الله محمد بن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي
يحيى أبي بكر ابن الامراء الراشدين * * الى البطل الزعيم جوان دكوت
صاحب بيش * * * » .

من نص الرسالة رقم ٣٤ ، ص ١٢٣ — ١٣٦ :

« هذه نسخة نسخت من عقد الصلح بالحضرة العلية كتب بحبلى
الجامع وهي غير مشهودة لما وفد على الحضرة العلية السامية السنية مدينة

تونس المحروسة حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام الملك الهمام المرتضى
ايالة الاسلام ظل الله في أرضه القايم بنقله وفرضه المتوكل على الله
المؤيد بنصر الله المنصور بفضل الله الطاهر الساجد الموثر النصب في أمره
عن المسلمين والعبادة على الراحة أمير المؤمنين فخر الملوك والسلاطين
المجاهد في سبيل رب العالمين أبو فارس عبد العزيز خلد الله دولتهم ***
ابن سيدنا ومولانا الخليفة الامام الملك الهمام المقدس المرحوم أبي العباس
أحمد ابن سيدنا المرحوم أبا عبد الله محمد ابن سيدنا ومولانا الخليفة
الامام ** أمير المؤمنين المرحوم أبا يحيى أبا بكر *** » *

وواضح من نصوص الالقاب المذكورة عاليه أن لقبى أمير المؤمنين
والخليفة غالبا على الالقاب المختلفة المستخدمة في تلقيب الامير أو السلطان
الحفى * فهل المقصود من هذا هو الجمع بين اللقب التراثى الموحدى
للخلافة واللقب الدنيوى السلطانى للحكم ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل
تتأكد من ظاهرة الخلط في نفس الالقاب التى أوردتها الزركشى في تاريخ
الدولتين الموحدية والحفصية حسبما تفصح عنها نماذج النصوص الاتى
ذكرها :

نصوص من واقع تاريخ الدولتين للزركشى :

ص ٣٣ : عن المستنصر ابن أبى زكرياء : « وتسمى بالامير ولم يتسمى
بأمر المؤمنين الا في يوم الاثنين الرابع والعشرين لذى الحجة من سنة
خمس مائة وست مائة وذلك لما قدمت عليه البيعة من مكة بانشاء عبد الحق ابن
سبعين وقدمت عليه بيعة الشام والاندلس وتلقب بالمستنصر » *

ص ٣٣ : « رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الامير

قصورا فتسمى بأمير المؤمنين. وأمر أن يذكر ذلك في الخطبة ويطبع في الذهب » *

ص ٣٧ : « بعد وصول بيعة مكة أنشد بعض الشعراء :

أهناً أمير المؤمنين ببيعة

وافتك بالاقبال والاسعاد

فلقد حبأك بملكه رب الورى

فأتى بيتر بافتتاح بلاد

واذا أتت أم القرى منقاداً

فمن المبرة طاعة الاولاد » *

ص ٣٩ : « وفي سنة ثمان وستين وستمائة قرئت بيعة صاحب المغرب

الاقصى الامير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على المولى المستنصر » *

ص ٦٦ : عن محمد أبى ضربة ابن زكرياء « .. فكانت مدة خالفته

بتونس تسعة أشهر ونصف شهر » *

دولة أبى بكر يحيى بن إبراهيم

« وتولى تونس أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو بكر ابن الامير

أبى زكرياء يحيى .. » *

ص ٧٩ : « وفي ليلة الاربعاء الثانية من رجب من السنة (٧٤٧ هـ)

المذكورة توفي السلطان الخليفة أبو يحيى أبو بكر يتونس ... » *

ص ٧٩ .. « وولى بعده ولده الامير أبو حفص عمر .. ببيع لـه

بالخلافة يوم الاربعاء الثانى لرجب الفرد من عام سبعة وأربعين

وسبعمائة ... » *

ص ٩٢ : عن دولة ابراهيم ابن أبى بكر : « وجاء به الى القصر
وأقعدده على كرسى الخلافة » *

ص ١٠١ : « فى فاتح سنة ست وستين وسبعمائة توفى الشيخ الحاجب
أبو محمد عبد الله ابن نفراجين بتونس ودفن بمدرسته الكائنة بقنطرة
ابن ساكن داخل باب السويقة وحضر دفنه المولى الخليفة أبو اسحاق حتى
وضع بملحدده *** » *

ص ١١٤ : « وفى يوم الاربعاء ثالث شعبان من سنة ست وتسعين
وسبعمائة المذكورة توفى المولى الخليفة السلطان أبو العباس أحمد بتونس
بمرض سابق ** » *

« فقتولى تونس وبلادها بعده ولده مولانا أمير المؤمنين أبو فارس
عبد العزيز » *

ص ١١٥ : « ** وأستقل بتونس مولانا أمير المؤمنين أبو فارس
عبد العزيز وأخذ بالحزم فى أموره *** » *

ص ١١٩ « *** وفى عام ثمانية وتسعين ازداد للمولى الخليفة
(أبو فارس) المولى الاجل أبو عبد الله محمد المنصور ** » « *** وفى
هذه السنة خرج المولى أبو العباس أحمد ابن المولى أبى عبد الله محمد
ابن المولى الخليفة أبى العباس أحمد فجاء ببعية بجاية *** » *

ص ١٢٦ : « ** وفى عام سبعة وعشرين وثمانمائة افتتح المولى
السلطان مدينة تلمسان *** ثم ارتحل قاصدا مدينة فاس حتى لم يبق
بينه وبينها الا مسيرة يومين فوجه له صاحب فاس ان البلاد بلادكم
والسلطنة سلطنتكم وجميع ماتامرونا به نمثله * فقبل السلطان أبو فارس
كلامه ووجه له هدية عظيمة كافاه عليها بأكثر منها وقفن راجعا الى حضرة

تونس غانما منصوراً ولحقته بيعة فاس ثم بيعة صاحب الاندلس فصار
البلاد الافريقية والمغرب الاقصى والايوسط كلها تحت نظره وفي ملكه *
ص ١٢٨ : « وفي عشية يوم الاحد الثاني والعشرين من رجب العام
المذكور (٨٣٣ هـ) مات المولى الاجل ولى عهد الخلافة أبو عبد الله محمد
المنصور ابن المولى أبي فارس بوطن طرابلس وحمل الى تونس * * * »
ص ١٣١ : دولة المنتصر الحفصي حفيد أبو فارس عبد العزيز * * *
وبويع لولي عهده المولى السلطان أبي عبد الله محمد المنتصر ابن الامير
الشهيد أبي عبد الله محمد المنصور ابن مولانا أمير المؤمنين أبي فارس
عبد العزيز ابن الخلفاء الراشدين * * * وأظهر موت جده الخليفة * * * وعقد
على بجاية لعمه المولى أبي الحسن على ابن المولى الخليفة أبي فارس عبد
العزيز وصرفه ايها * * »

عن تكرار ألقاب الخلافة ص ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣ *

ص ١٤٤ : « وفي أوائل عام أربعة وخمسين وثمانمائة أمر الخليفة ببناء
خزانة الكتب بجامع الزيتونة * * * وفي يوم السبت الموافق عشرين لربيع
الثاني من عام خمسة وخمسين وثمانمائة عمل المولى السلطان عرس ولده
المولى الهمام ولى عهد الخلافة أبي عبد الله محمد المسعود على ابنة عمه
شقيق الخليفة المنتصر * * * »

وعن ذكر نفس الألقاب ، ص ١٤٨، ١٥٥، ١٥٧ *

ملحق رقم (٢)

رسالة من محمد (المهدى) بن تومرت الى أمير المسلمين

على بن يوسف بن تاشفين

من القائم بدين الله ، العامل بسنة رسول الله ، محمد بن عبد الله
وفقه الله .

الى المغرور بدنياه على بن يوسف .

أما بعد ، فأنا ما وجدنا لأكثركم من عهد ، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين
لم تخشوا عقوبة رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ،
الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعهم الناس أجمعون فاذا هم أخسر
الخاسرين ، وقد أمرنى الله بادحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس الى
اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين ، لا تغتروا فان المسلمين اليكم ..
فلا بد أن نجيش ونفوز ... لقتال من زاع وجنف وكفر بنعمة الله ، وقد
جاء فى التنزيل انكم لستم بمؤمنين بلا الا اله الا الله ، وأنها كلمة تقولونها
عند الخوف والتعجب ، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل
ذلك دماؤكم حلال ، ومالكم فىء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل ، (وما تغنى
الايات والندور عن قوم لا يؤمنون ؟) (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب
ينقلبون) .

والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن .

كتاب الوثائق ، رقم ٨٠ ، ص ٢٣٠ . وهى رسالة غير مؤرخة ولا يعلم
بالضبط متى أرسلت الى الامير على بن يوسف المرابطى ، لكن من المرجح أنها
أرسلت اليه قبل معركة البحيرة التى وقعت عام ٥٢٤ هـ .

ملحق رقم (٣)

رسالة من محمد (المهدي) بن تومرت الى جماعة المرابطين

بِسْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

من محمد بن عبد الله العربي القرسي الهاشمي الحسني الفاطمي

المحمدي :

الى الفئة الباغية ، والشُرذمة الطاغية ، الذين طغوا في البلاد ،
فاكثروا فيها الفساد ، الذين استنزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمان ،
جماعة المثلمين الزاجنة الساكنين بسوس دمرهم الله .

أما بعد ، وجدت أكثركم فاسقين ، وقد رأييناكم عن الحق نازحين ،
ولم تذكروا عقوبة رب العالمين ، اشتهى بكم الناس فاذا أنتم أخسر
الخاسرين ، لا محالة بأثرهم ماضين ، وقد أمر الله تعالى بادحاض صحبة
الظالمين ، ودعائهم الى الصراط المستقيم ، ان الموحيدين اليكم قادمون ،
على الله متوكلون ، بأيديهم سيوف قاطعة ، ورماح نافذة سمهرية وردينية
تقد تقلد بها الموحدون ليقطعوا بها صولتكم كما قطعت بها صولة أصحاب
بدر ، يضربون بها ويطنعون في سبيل الله ، لا بد من جيش العرب يقوده
الامر الالهى ، يفور عليكم فورة البرمة المحماة بالنار ، فويل لاهل الغرب
بيدهم أشرارهم بعد ذلك ، وويل لاهل السوس وجيرانهم جزولة الكست
ولطه وأهل القبلة كافة ، وعسى أن يكون ذلك ان شاء الله في سبع وتسعين

أو ثمان وتسعين أو تسع وتسعين ، أوله غبار ووسطه استتيار : وآخره
عبرة كبيرة في الروم عظيمة ، وأسأل الله العظيمة ، ولا يعلم الغيب الا الله ،
أمر الله حتم يمثل من خالفه يقتل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا الذي
بنعمه تتم الصالحات .

والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى .

كتاب الوثائق ، رقم ٨١ ، ص ٢٣٢ . رسالة غير مؤرخة أيضا ، وفيها
بشبه ابن نوميث نفسه بالرسول ، وأنه سوف يقود الموحدين في غزاته ضد
المرابطين مثلما فعل الرسول في غزوة بدر . في هذه الرسالة وعد ووعيد
وتهديد ، مدفوعا في ذلك بشدة تمسكه بالحق وشدة ايمانه بالتوحيد ومرشدته
السابقة الذكر .

ملحق رقم (٤)

رسالة من محمد (المهدي) بن تومرت

من محمد بن عبد الله **** فعرّفونا بشرح ذلك وإيضاحه ، ليتبين
الفساد بفساده والصالح بصالحه ، ولتصل منكم جماعة فيها شيسو وخكم
وأعيانكم النبهاء وفقهم الله ، ليستبين عندهم ما تضمنه كتابكم المذكور من
تلك العلامات يبحثون عنها بحثاً بالغاً على أوقى الحالات ، ويعرفونا بذلك ،
فننظر فيما هنالك ++

والله يتوب على من تاب وأصلح وتبين ، وبعيننا جميعاً على القيام
بما وجب بفضله وكرمه +

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته +

كتاب الونائق رقم ٨٢ ، ص ٢٣٣ .
يبدو من هذه الرسالة أنها مرسلة إلى شيوخ المصامدة رداً على رسالتهم
إلى المهدي التي لم نعثر عليها ، وكما هو ملاحظ أنها مبتورة في بدايتها ونهايتها
وهي كسابقاتها غير مؤرخة ، يستعلم فيها المهدي عن الذين يودون الدخول
في طاعة الموحدين لكي يقوم فيهم بعملية التمييز السابق ذكرها في صلب
الرسالة .

ملحق رقم (٥)

الرسالة (١) التى بعث بها يعقوب المنصور الموحدى الى طلبة

مراكش فى ١٨ شعبان ٥٨٣ هـ يخبرهم فيها بفتح مدينة قابس

« ... فقد علمتم ما كان من الاشقياء الغربيين ، وأخوانهم فى الضلالة الميروقيين من التسحب على أرجاء هذه الجهات الافريقية وأكنافها ، وشنهم الغارات بأوساطها وأطرافها ، وأجماعهم على اكتساح زروعها فى هذا العام وأنتسافها * وما سولته لهم أمانيتهم الكواذب من قطعها بالحرابة وأضعافها ، فحال بينهم وبين ما أملوه من ذلك المنع الالاهى والصد ، ... وكان من صنع الله العجيب ، أن انتهينا اليها عند بلوغ زرعها الى حال الكمال والطيب ، فحماه الله من اختطافهم ، وصانه على أربابه من اعتدائهم واتلافهم ، وصيره رزقا ، واسعا لاجزابه المؤيدين ... وكان هؤلاء الاشقياء المتمردين ، والكفرة المتخلصون من ثوب الاسلام المتجردون ، والجنساء المجردون بالخلاء وهم منفردون ، والاباش المتظافرون ، على الحرابة المتعقدون ، وقد استنزلهم الشيطان وأغواهم ، واستجرهم الطمع المهلك وأسئخواهم ، وصور لهم أن لاقامع يجمعهم فاضلهم وأرداهم * ولما أذن الله تعالى بهلكهم ، وقضى بقهرهم على أيدي أوليائه المظفرين وعزكهم ، وأراحة هذه الجهات مما دهاها من زورهم وأفكهم ، عزم الموحدون — أعزهم الله — على النهوض اليهم الى محال قرارهم ، وغزوهم فى عقر دارهم ، وأسئعناوا بالله تعالى على ابادتهم ومحو آثارهم فنهضوا من تونس — كلاها الله — ودلائل نجحهم صادقة ، واعلاقمهم بالفتح والتأييد

(١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ، ص ١٨٠-١٩٠

خافقة *** وعندما أحس الاشقياء بحركة أهل التوحيد * تحركوا من مواضعهم مخيلين بزورهم * ولا وصل الموحدون — أعزهم الله — الى القيروان — كلاها الله — رأوا أن يقدموا الانذار اليهم ، وقيموا الحجة عليهم ، ويسلكوا على سنن الشرع في تقرير الدعوة الى الله تعالى والى رسوله وبما جاء به لديهم ، فكفروا نعمة الرفق بهم وغمطوها ، ازدروا المنة بذلك عليهم وسخطوها ، وجهلوا قدر المنحة الميسرة لهم فلم يتلقوها بالقبول ويرتبطوها ، وأعتقلوا الرسول جريا على عادة كفرهم ، وكانوا عند احتلال الموحدين — أعزهم الله — بالقيروان بجهات وادى ران ثم قصدوا قفصه — أعادها الله — مخيلين باللقاء عندها ، ومشيعين أنهم يقارعون الموحدين — أعانهم الله — ان قصدوا قصدها ، فاقتفى الموحدون — أعزهم الله — آثارهم الى مقربة منها ، وأخذوا على طريق لم يخطر ببال الاشقياء السلوك عليها ، ولا اختلج في صدورهم اهتداء اليها ، فسقط في أيديهم وأختلت أرائهم وأضمحلت دعاويهم ، وتوغرت على الهرب الى قابس — والشيطان يخيل لهم الاستقلال بما قبل لهم به ولا طوق ، حتى أنتهى بهم السير الى حمة مطماطة حيث حم حمامهم ، وتصرمت أيامهم ، وتزلزلت أقدامهم ، وأستصرخوا صعاليك سليم وذؤبانهم ، وكل من وافقهم على ضلالتهم من الاعراب وأعانهم من أهل الباطل وأعوانهم ، * فلأذوا بالفرار ، واستسلموا لحكم الشغار ، وتخلوا النجاة في تولية الادبار ، فأتبعهم أولياء الله يقتلونهم في كل غور ونجد ، ويجدلونهم في كل ربوة ووعدة ، ويصرعونهم حيث ما يتمموا من منتحى وفصد ، *** وسبق العدد الجم من رؤوس أبطالهم وخيلهم ، والتاجون منهم بجريعة الذقن وهم الاقلون يدعون بثبورهم وويلهم ، *** والطلب لا ينسى في أثر من بقى من حثالتهم واستيصال من اغتر بجهالتهم وانخدع بسراب محالهم وزور ضلالتهم ، * وفي صبيحة الليلة الثنى أذل الله في يومها الاشقياء ، وأعز

ففيها الاولياء ومنحهم الظفر عليهم والاستيلاء ، وهو يوم الخميس العاشر من شهر تاريخه ، وصل الى قابس — كلاها الله — فلحين الاطلال عليها خرج أهلها راغبين في الامن والامان ، معلنين بكلمة التوحيد والايمان ..

وكان بقابس بنو الشقى قراقوش وأهله ، وجملة ما قسمه انتهابه وضمه حبله ، ومعهم جماعة من أوباشه الذين يعتمد عليهم ، ولا يثق بأهله وولده وماله الا اليهم ، فتحصنوا بقصبة بها منيعه الجوانب . سامية المراقب ، مستعصية على المنازل لها والمحارب ، وأجمعوا على الاستماتة فيها ، فأحرقت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحيها وأستنزلوا منها على الامن في رقابهم ، واستقصاء كافة أموالهم وأسلابهم ، واسترقاق نسائهم وأبنائهم وعيال من شهد الواقعة من مقتولهم وهرابهم . وحصل أهل قراقوش وبنوه وماله غنما لاولياء الله تعالى ونفلا . ومكنا لطائفة الحق وخولا .. » *

ملحق رقم (٦)

شجرة نسب الاسرة الموحدية

الموحدون أربعة عشر (مدة خلافتهم ١٤٤ سنة ، ١١ شهرا ، ٢٣ يوما)
أولهم

الامام المهدي محمد بن تومرت
أبو محمد بن عبد المؤمن بن علي الكومي
أبنيه : أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
أبنيه : أبو يوسف يعقوب المنصور
أبنيه : أبو عبد الله محمد الناصر

عم أبيه : أبو مالك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف
بالمخلوع »
٦٢٠ — ٦٢١ هـ

ابن أخيه : العادل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور المعروف
بالمقتول ، قتل خنقا في فسقية ماء
٦٢١ — ٦٢٤ هـ

أخوه : المأمون أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور ٦٢٤—٦٢٩ هـ
ابن أخيه : المعتصم أبو زكرياء يحيى ابن محمد الناصر بن يعقوب
المنصور ٦٢٤ هـ وخلع في الحين الى قتله « قتلته عرب المعقل غدرا » *

ابن أخيه : الرشيد أبو محمد عبد الواحد بن المأمون أبي العلاء ادريس
« الغريق » توفي غريقا في جوانب القصر
٦٢٩ — ٦٤٠ هـ

أخوه : السعيد أبو الحسن علي بن المأمون « قتل مع والده في إحدى
معارك بني عبد الواد » *
٦٤٠ — ٦٤٦ هـ

ابن عم أبيه : المرتضى أبو حفص عمر بن السيد أبي ابراهيم اسحاق
ابن يوسف بن عبد المؤمن
ابن عم أبيه : أبو دبوس الواثق بالله أبو العلاء ادريس أبي عبدالله
محمد بن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن * الذي انقرضت على يديه
دولتهم *
٦٦٥ — ٦٦٧ هـ

أرجع الى : مجهول ، الحل ، ص ١٥٣ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ،
ص ١٦٢—١٦٣ .

۱- بابا و مادرش

أبو جعفر، المعروف بالحنساري

الحمد لله

- 1991-1992

- أنظر — ابن القنفذ ، الفارسية .
— أنظر أيضا — عبد اوهاب بن المنصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ١٦٨

ملحق رقم (٨)

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين • أيدهم الله بنظره ، وأمدهم بمعونته — الى الطلبة والموحدين والاشياخ والكافة بتونس — أدام الله كرامتهم بتقواه ، وأعانهم على شكر ما منحه من فضله وآتاه ، وتابع لهم السرات بترادف فتوح هذا الامر العزيز وبشراه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

أما بعد فلنا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ونصلى على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله • والحمد لله الذى واتر لهذه الدعوة العلية فتوحة السنية ووالاها • وقرب لها الامال القصية وأدناها وتتم عندها نعمه الجمة ووقاها ، وأجزل عطاياها من منحه الجسيمة وسهالها وسهل لها مرلماتها على أفضل ما يتنهأ متخير أن يكون وسناها ، وقضى أن يكون فى اعلاء كلمته ، واذلال أئباع الباطل وشيعته ، قصدها المحتسب ومسعاها ، وقرن بالتوفيق والتأييد ، وانتظام الاغراض على أتم مراد المرید مبادئ ماكخذها الميمنة وعقباها ، وجعل الى المال اليسر ، والمصير المضلل المدمر ، فغبة متساقيا وعداها وأذل فتتها الخاسرة بأيدي أوليائه المریدين وأخزاها ، وأوقفها على عاقبة هلكها ورداها ، وروى من دمائها المسالة قناها ، وحكم فى طلاها المذالة صوارقها الغضبة وظباها ، وكشف غماء شركهم وغيابة زورهم وافكهم بحقها الواضح وحلاها ، وأراح بنظرها السعيد ، ورأيها الموفق السديد ، كرب هذه البلاد وباراها ، وأبراها من عللها الفادحة وشفافا • وتقع بزالال المن وسلسال العدل والامن ، غللا البرحة ورواها والصلاة على محمد نبيه المصطفى ورسوله الاكرم المجتبى ، مبصر الامة من عماها ، ومجلى غيب الحيرة وبعها ، ومرشد

الكافة الى سبيل هداها ، ومعرفها بخيبة من أوبق نفسه ودساها ، وفلاح من ظهرها بالطاعة وزكاها ، ومزهداها في عاجلة قصير مداها ، قليل نداها ، نذير جناها ، فعنصر بيد الاسترجاع والانتزاع عطاها النزر وجداهها ، ومرغبها في آجله لانفاد لرزقها ولا انقطاع لحياها ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي أعاد ملته الحنيفية وأحياها ، وأظهرها وأبداها ، وأوضحها نقية بعد أن حجبها الجهل وغطاها ، وصيرها بينه جلية وقد كان الضلال أضمرها وأخفاها ، وحد الكافة على مصالح دينها ودنياها ، ودعاها الى ما يحييها وينجيها وهداها ، وعن صاحبه الاهدى ، وخليفته الاعدل الافقى ، سيدنا الامام أمير المؤمنين أحق البرية بخلافته العلية وأولاها ، وممشى كلمته المهدية الى غايتها الشريفة ومنتهاها ، ومرقياها في درج النماء والعلاء الى أبعد مرقاها ، وأصعد سماها ، ومؤدى تعليماته النافعة ، ومقالاته النافذة للخير الجامعة ، كما سمعها ورعاها ، والمناضل بالادلة الباهرة والاسنة الباترة ، كل من عاندها وأباها ، حتى استقرت في نصابها الاكرم ومعناها ، واستمرت على منهجها الاقوم دفعناها ، ملقية أزمته الى من يحفظ حوزتها ويحمي حماها ، والدعاء لسيدنا الامام أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين دارت مقاماته الكريمة وعلاها ، ومشيد أركان مآثره العميمة ومبناها ، بدوام سعوده الصاعدة وبقياها ، وترادف الفتوح المتناسقة ، لدعوته السامية السابقة ، موفيا على أولاها أخراها •

وهذا كتابنا اليكم — عرفكم الله من فتوح الامر العزيز ونشوره ، ومحمود مقاماته في نصرة الدين وجميل اثره ، ما يفعم أرجاءكم بطيب عونه الأرج وعطره ، ويملا مسامعكم بمتعذب مسموعه الذي لا يمل وخبره ، ويزعكم شكرا يؤدي حقوق ما أولاكم من خصائص الاستناد الى طائفته

النصورة وأثره — من منزل الموحدين — أعزهم الله — بظاهر قفصة —
فتحتها الله — والذي نوصيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والاستعانة
به ، والتوكل عليه ، وأن توقنوا بأن الله تعالى في طي محاولات هذا الامر
العزیز أسراراً يمحس بها عباده ، ويحقق رجاء من أخلص في نيته في
التوكل عليه وأعتقاده ، وأحتسب في طاعته ، وابتغاء مرضاته ، سعيه
وجهاده ، وألقى مستسلماً في يد الرضا بما اختاره الله لامره العزيز
زمامه ومقاده ، وعلم أن الله — جلت قدرته — لا يخذل أمره ولا يخلف
ميعاده ليزداد المؤمن ايماناً ، والراضى بالله ربا وبمحمد نبيا تسليماً واذعاناً ،
ويثق بنجازه ما وعد من اظهار دعوته واعلاء كلمته ، ثقة لو كشف له الغطاء
معها ما ازداد ايقاناً ولا يطلب على ما ثبت منها في روعته ، وانطوت عليه
أمناء ضلوعه ، دليلاً وبرهاناً ، والله يجعلنا ممن استدام بالشكر الاثم
ما أنعم به أسراراً واعلاناً ، بحثه وجوده •

وكانت — وفقكم الله — هذه الحركة المباركة مبنية على التجرد منها
لقمع المعتدين ووقم العابثين والمفسدين ، والقيام لله تعالى بما أوجب من
حماية الحق ونصرة الدين فسنى الله سبحانه فيها من التيسيرات الخارقة
للعادة ، المربية على أقصى الفتوح ونهاية الارادة ، والمكيفة على أوفى متخير
من تأتى الآمال المصحبة المنقادة الجارية على ادلالها في عموم الخير وانتظام
السعادة ، وتعرف النماء في كل حالة وظهور الزيارة ما شفى صدر المؤمنين ،
وصدق ظنون الموقنين ، وحقق الثقة برب العالمين ، وعرف أن العاقبة
للمتقين المحسنين • ولما من الله تعالى بدمار الاعداء وتبابهم ، وقضى
بعهدهم على أيدي أوليائه المؤيدين وغلابهم ، وصيرهم الى عاقبة خسرهم
وسوء ما بهم ، وأراح هذه الاصقاع من اشباباتهم
الخبثية وأوباشهم ، على ما تقدم به اليكم خطابنا ، وتضمن شرحه ارسالنا

الواردون عليكم وكتابنا ، نهض الموحدين — أعزهم الله — من قابس —
كلأها الله — آخذين على صحرائها ، وقاصدين الى البلاد الجريدية من
ورائها ، على طرق لا عهد لها بالعساكر ولا علم فيها لعامر ، ولا منفذ
أمامها لوارد ولا صادر ، بحيث منقطع التراب ، ومتصل القفر اليباب ،
ولا ماء ينبع في الارض ولا يستقر من صوب السحاب ، وأن سلكوها لمن
العجائب العجاب ، وآياب هذا الامر الميسر الطلاب ، المذكر ببراهينه
الواضحة لأولى الالباب ، المنصور اللواء الممكن الاسباب •

وعندما شارف الموحدون — أعزهم الله — الجهات المذكورة جاءت
الفتوح تبارى في شدها ، وتنظم لآلىء الاقطار الجريدية في عقدها ، وتتجز
لاولياء الحق وأنصاره صادق وعددها ، واستنفذت نفزاوه وقسطيلية
— كلأها الله من وبش الفتنة ووعددها • وألقت بلاد نفزاوة وتوزر وتقيوس
والحمة ونقطة بأزمته وتطلبت من هذه الدعوة العلية معلوم منتها ،
واستنزلت بتحقيق توبتها متعارف رفقا ومعهود رحمتها وخفقت أنها لم
تبدل دينها ولا فارقت ايمانها ويقينها في حالتى سكونها وفتنتها • فغمهم
هذا الامر العزيز وأمنه ما مهد أرجاءهم ، وصدق في فضل هذا الامر العظيم
رجاءهم ، وعرفهم ببركة ما أمهم من الخير العميم وجاءهم • وثاروا بمن
كان عندهم من الاشقياء يقتلون فريقا ويأسرون فريقا ، ويوسعونهم تشنيتا
بجموعهم اللثيمة وتفريقا ، ويوردونهم بارهاق نفوسهم الخبيثة سعيرا
لا يخبو انقاده وحريقا • وكلما مر الموحدون — أعزهم الله — ببلد من هذه
البلاد المذكورة — كلأها الله — أتوهم بالعدد الجم من أساراهم وبقاياهم
فتقط الرقاق طلائهم ، وتنظم الصعاد كلاهم •

وكانت بتوزر منهم جملة ذميمة فادرع بعضهم جناح الظلام وغروا من الحمام الى الجمام ، وتوغلوا في الصحراء المهلكة كتسارد الانعام ، والله يجعل لهم ولن أمهله الاجل من حثالتهم بواذر الانتقام ، ويجرعهم كما عود بأيدي أولياء هذا الامر العزيز أكوس الموت الزؤام ، بمه وجوده + وتركوا أحوالهم وأموالهم ، وكافة ماتأثلوه من أثاثهم وأشغالهم ، ونفل الموحدون عامه أسلابهم وأنفالهم ، ومسلكهم رق أهليهم وبنيتهم وعيالهم ، وأجلت بهم الغير مثلاتها ، وأرتهم العبر عجائبها وآياتها وتعس مهلمهم القدر الى انتزاع أرواح الخبيثة لاجلها المكتوب وميقاتها بحول الله وقوته +

وهذه البلاد الجريدية لم يكن الوصف يعرب عن صفتها ، ولا يؤدي كنة صورتها ، ولا يطلع السامع على ما يجتليه المعين من حقيقتها وغاية كل عبارة وان بالغت التقصير على تبين جليتها ، فحققت المشاهدة أنها اقليم متنسح الاكناف ، رحب الاوساط والاطراف ، كثير المنافع والمرافق والالطاف ، جم الحداثق الغلب والجناب الالفاف ، وكل مدينة منه مستقلة بذاتها ، مكتفية بأقواتها مستغنية عن غيرها بما جمعت من ضروب غلاتها ، محتاج اليها لما يجلب منها من أنواع فوائدها وصنوف ثمراتها + وتوزر — حاطها الله — حاضرة هذا الاقليم العظيم وقطبه ، وروحه وقلبه ، ومركز دائرته الذي عليه يستدير محيطه ، وبالاستناد اليه يتمهد رحبه ، وقد توطدت بعودته الى هذا الامر العظيم أقطاره ، وعمرت بالامنة والهدنة دياره ، وطهرت أدناس الكفر من أرجائه ومحيت آثاره ، يحول الله قوته، وجوده ومنته +

واستمر بالموحدين — أعزهم الله — سيرهم المبارك من توزر — حاطها الله — الى قفصة — أعادها الله — فألفوا بها جملة ذميمة من أشقياء الاغزاز وأتباعهم قدراان على قلوبهم هواهم ، واستغواهم الشيطان

واستهوهم ، وسول لهم فعالية الغلاب فوعدهم غرورا ومناهم ، فأظهروا ما عندهم من الاقتناع ، واستشعروا شعار المصارمة والدفاع ، واغترخوا بجدارتهم السامية الارتفاع ، وهيهات أن تعز هذا الامر العزيز نسامحات البواذخ وطامحات القلاع معزم الموحدون — أعزهم الله — على منازل هذا المعقل وحصره ، واستعانوا بالله تعالى على أمره ، وسألوه سبحانه معهود تنسيه كما عوده ويسره • ومرامه بحول الله أيسر محاول ، وأقرب متناول ، وأدنى مروم وأسهل مزاول ، بحول الله وقوته •

وفي يوم الحلول به وصل خطاب قراقوش وأرساله راغبا في التوحيد خاضعا مادايد الاستكانة الى هذا الامر السعيد ضارعا ، معلما أنه أن قبلت توبته ، واجيبت رغبته ، جاء الى الموحدين — اعزهم الله — مطيعا سامعا ، ووصلت في غده أرسال ابي زيان ومخاطبته معرفا بركونه الى هضبة هذا الامر العظيم وركنه ، واعتلاقه بذمة أمانه وأمنة ، وايوائه الى كهفه الارقي وحصته ، وهو زعيم من زعماء الاغزاز يضاهي قراقوش قدره ، ويقاسمه في أمره • وكان قد انتبذ عنه أنفه من مشاركته ، وعزما على مصارمته ومشاركته ، واستبد بطرابلس — كلاها الله — ونواحيها ، واظهر دعوة التوحيد فيها، وصارت — والحمد لله — هذه البلاد كلها الى معهودها من الطاعة ، والانتقام في سلك الجماعة ، والفيئة الى فلكه هذه الدعوة العلية وأفافت مما خامرها من الادواء وأفلفت من سقم الفتنة المعضل ودائها العياء • وكمل المقصود لها من تمهيد الاكناف وتوطيد الارعاء ، وتأمين الجهات وسكون الدهماء، بفضل الله الذي المن والآلاء وعرفناكم — وفقكم الله — بهذه الفتوح الجمة التي عظمت قدرا ، واعجزت حمدا وشكرا ، وخرقت العوائد تسهلا ويسرا ، لتضربوا بقداح المساهمة فيها وتذيعوها في ادانى جهاتكم

واقاصيها ، وتجدوا حمد مخولها — جلت قدرته — وموليها ، وتقوموا
بالواجب من شكر مسببها سبحانه ومسنيها والله تعالى يعينكم من ذلك على
ما يتكفل لكم بتضاعف نعمة عليكم وتواليها بمنه وجوده . لا رب غيره ،
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب في الثاني من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (هـ).

(*) ليفي بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ، وهي من انشاء
الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الامير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
الى طلبة تونس في ٢ رمضان ٥٨٣ هـ يعلمهم بدخول أهل الجريد تحت طاعة
الموحدين وبحصار مدينة قفصة . ص ١٩١-١٩٩

ملحق رقم (٩)

رسالة من الخليفة الموحدي عمر المرتضى الى البابا اينوصانت الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما *

والحمد لله وحده

من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الامير أبى ابراهيم بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته الى مطاع ملوك النصرانية ، ومعظم عظماء الامة الرومية ، وقيم الملة المسيحية ، ووارث رياستها الدينية ، البابا ابنه سانس أش ، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وارشاده ، وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها عدته لحياه ومعاده ، وأناله من سابق الهداية ما يقضى لمدى الغاية بأتم انفساحه وامتداده .
تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا ، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به الجار لدينا *

أما بعد ، فانا نحمد الله الذى لا اله الا هو حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والتشواهد ، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمان عما يقول المثلث والمشبّه والجاحد ، ونصلى على سيدنا محمد ورسوله المصطفى الكريم الذى وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد ، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوائد ، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان يناوىء ويعاند ، وعلى آله وصحبه الكرام الذين ازدانت بهم الحاضر والمشهد ، ووصلت قصار صوارهم في مواقف الحروب السواعد ، وأنجزت لهم في استيلاء الاسلام على مشارق

الارض ومغاريها المواعد ، ونسأل الله عز وجل رضاه عن الامام المعصوم ،
المهدي المعلوم ، الذى جدد به لدين الله تعالى الشباب المعاود ، وأهلت
بهدايته بعد اقفارها المعاهد ، وباء بالخسران المخلقل لامر والمكابد ، وعن
التخلفاء الرانسيدين المهتدين الذين تولى منهم اتمام بدايته الامام الراشد
فالراشد ، وعلت بهم لامراء الله تعالى المراقى والمصاعد ، وعن سيدنا الامير
الطاهر ابى ابراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير
المؤمنين الذى طابت منه العناصر والمحائد ، واشتق من نبعة للخلافة قد
أورق نضارة وغضارة فننها المائد ، وزهد فى الدنيا الفانية ورغب فى الآخرة
الباقية فنعم الراغب والزاهد .

وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه تركو وتتوفر ،
واستعملناه واياكم بكل مانتهياً به لاهراز الفوز لديه ونقتير ، من حضرة
مراكس حرسها الله تعالى ، ودين الله عز وجل عال مسماه ، ومصعده ،
والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده ، والسعى معمل فى ابتغاء رضا الله
تعالى موقفة ومسدده ، والحمد لله رب العالمين حمد يتوالى على اللسنة
تكرره وتردده ، ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من
يشكره ويحمده ، والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه واسعادكم ، وجعل فى
طاعته التى تعيد بها خلقه اصداركم وايرادكم فانه سبقت منا اليكم
مراجعات عن كتبكم الموثرة الواصلة الينا ، وارسلنا نحوكم من الجواب
عنها ماتمنا به بركم ووفينا ، وعرفناكم فيه أهل دينكم بالشغوف على
سائر ملهم من المراتب ، فانتم عندنا لذككم بالكرمة الحفيلة ملحوظون ،
وبالعناية الجميلة ملحوظون ، ونؤكد من أسباب المواصلة لكم ماحقه أن
يؤكد ، ونجدد من عهود الحفاية بكم ماشأنه أن يجدد ، ونشكر لكم ماتوالى
علينا من حسن ايثاركم لجانبنا وتردد .

وفي سالف هذه الايام انصرف عن حضره الموحدين أعزهم الله
البشيب (١) . الذى كان قد وصل بكتابكم الينا انصراغا لم يعده مناقبه بر
واكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ، كما أنه فى المدة التى قضى له
فيها لدينا بالمقام ، لم نزل نتعهده اثناءها بالاحسان والانعام ، وتحمل
كتابنا اليكم تعريفا بما اختار من انصرافه ، وتوخيا فى ما أثره من ذلك
لاسعافه ، وما قصر له فى حالى مقامه ورحيله ، ولا عدل به عن حفى البر
وحفيله ، وسنى المن وجزيله ، ذهابا لتكريم انسارتكم السابقة فى حقه ،
وسلوكا به من البر على أوضح طرقه ، والله تعالى يرشد فى كل الاحوال
لازكى الاعمال لديه ، وينجد من الاقوال والافعال على ما يقرب اليه ،
بمنه ، ومتى سنع لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه أن توجهوا لهؤلاء النصارى
المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونه برسم ما يصلحهم فى
دينهم ، ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فتخبروه من أهل العقل الراجح
والسمت الحسن ، وممن يسلك فى النزاهة على واضح السنن ، وممن يتميز
فى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ، وذلكم هو الذى اذا تعين
من قبلكم مستجمعا للصفات المذكورة ، وتحليا بالحلال المشكورة ، حسن فى
كل ما يستخدم أثره ، وتسنى له بذلك الخبر وأوفره وأنتم تفنون بهذا
المقصود فى ما تعلمون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم ،
لاحد ، وتعتمدون فيه أجمل معتمد ، وشكرنا لكم على ما تذهبون اليه فى
جانبنا من تمشية الاغراض ، والمذاهب ، وتختلفون فيه من المساعدة
الصادرة منكم عن كرم الضرائب ، وتبادرون الى بذله من المكارم المناسبة
لما لكم فى نحلتنكم من الناقة المناصب ، مما نكافىء به صدق مصادقتكم ،

(١) رتبة رهبانية من الكلمة الاسبانية Opispo وهو الاسقف لوبى
فرنانديثدى آين .

ونتوخى منه مالا يعدل عن موافقتكم ، جزاء لبركم بأمثاله ، واعتناء بما يقضى لولا تكم بدوامه واتصاله ، يحول الله تعالى وقوته ، وهو سبحانه ييسيرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ بنا فى ديننا ودنيانا على أقوم سبله ، ويجعلنا واياكم بما يمنحنا من التوفيق فى أول رجيل من حزب الحق وأهله ، بمنه ، وكرمه ، لا رب سواه .

وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيع الاول عام ثمانية وأربعين وستمئة .

وكتب على ظهر هذه الرسالة عنوا للموجهة اليه :

الى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عصماء الامة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابه ابنه سانس أش أنار الله بصيرته بالتوفيق والارشاد ومنحه بتقواه سعادة الحيا والمعاد .

النرم الخليفة الموحدى ادريس الملقب بالمأمون (ولد عام ٥٥٨١ هـ) —
تولى فى ٥٦٢٤ هـ ، وتوفى ٥٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) — بن يعقوب المنصور — لفرناندو الثالث ملك قشتالة أن يؤسس كنيسة للنصارى بمدينة مراكش اذا ما أعانه بجيش يثبت به ملكه المترزع بالمغرب ، وفى ادريس المأمون بهذا الشرط بعد تغلبه على ابن أخيه يحيى المعتصم بن محمد الناصر ودخوله الى مراكش منتصرا يوم (الاربعاء ١٣ غبرابر ١٣٢٩ م) ٢٥ ربيع الاول عام ٥٦٢٧ هـ ، فأسس للفرسان النصارى الذين أمده بهم ملك قشتالة كنيسة لاقامة شعائر دينهم كانت فى نفس الوقت محكمة للفصل فيما يحدث بينهم من خلاف وناديا يعقدون فيه الاجتماعات ويحيكون المؤمرات .

ومع أن هذه الكنيسة التى كانت قذى فى أعين المراكشيين وسائر المغاربة هدمت بعد سنتين من بنائها اهتم الكرسي الرسولى فى روما بهـ

وبالجنود القشتاليين العاملين في الجيش الموحدى ، وذهبت الامانى بهذا الكرسى الى حد الطمع في تنصير ملوك الموحدين ورعاياهم من أهل المغرب والاندلس والصحراء ، غبدأت الاتصالات وايفاد السفارات ، وارسل القساوسة والرهبان ، وكانت بداية ذلك في عهد البابا اينوسان الرابع (هو سينيالدوفيتشى ، ولد بجنوة سنة ١١٩٥م ، وتقلد منصب البابوية من سنة ١٢٤٣م الى سنة ١٢٥٤م) ، الذى بعث بالقس لويس فرنانديثدى أين الى مراكش سنة ١٢٤٦م ليكون أسقفا لها، وأرسل مع القس المذكور كتابا يهنئ فيه الخليفة السعيد بانتصاراته على خصومه ويشيد بالدور الذى قام بها المرتزة النصارى في تحقيق هذه الانتصارات ، ويحثه على الاستكثار منهم ، وينصحه باعتناق دين النصارى لكى يفوز على حد زعمه برضا الله ويغنم بركة الكرسى الرسولى ، كما كتب البابا رسائل الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يوصيهم بتسهيل الاتصال بين النصارى المقيمين بمراكش وبين اخوانهم المقيمين بتلك المراسى .

ولم يطلع على نص الرسالة الى الآن ، ولكن لدينا تلك الرسالة الطويلة الصادرة عن الخليفة الموحدى عمر المرتضى بن اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، مؤرخه في ١٨ ربيع الاول سنة ٦٤٨هـ (الاثنين ٢٠ يونيو ١٣٥٠م) حملها الاسقف لويس فرنانديثدى أين السالف الذكر الى البابا اينوسان الرابع . وقد نشرت في مجلة هسبريس المغربية ، المجلد السادس لعام ١٩٢٦ ، صفحة ٣٧ على يد الكريدينال تيسران ، والاستاذ وييث . وهى مكتوبة بخط مغربى جميل ، في أعلاه بين التصلية والحمد له والمتن علامة الخليفة وهى : « والحمد لله وحده » .

(وها هى نص الرسالة)

ملحق رقم (١٠)

من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبي خرسان الى الارك
الجليل الاكرم أرك بيثشة والمشيخة الجلة قناسلتها وقمامصتها والخاصة
والعامة من أهلها أهذا الله توفيقهم ٠٠ كل الى السداد طريقهم *

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد حمدا لله تعالى بما استندار من
سوابع نعمه والينا عليه الولاء من سوامع قسمه فان كتابنا هذا الى الارك
الجليل أرك بيثشة والمشيخة الجلة قناسلتها وقمامصتها والى أهل الحل منها
والعقد وكافة الخاصة والعامة من أهلها بعد ونحن نهدي اليهم من السلام
أعطره ونشر عليهم دره ونذرف بذكرهم مسكه وغنبره ونحضر فيهم كل يوم
محاضرة لما انعقد قديما وحديثا من السلاف والاحلاف منا ومنهم من
أسباب المحبة ومتقدم الصلبة والمودة التي علمت وتحققت حتى يحادث
أسنى قربه ومعلم الله سبحانه أنا لنعتد بذلك ونسلك فيه أسنى المسالك
وننتهى من أحكامه وسد عصامه الى أنقد الرايات وأقصى المدارك ليرتدع
به العدو وتستهر معه معاقد الهدو ويتجدد أوامره على تكرار العشى
والعدو وقد وصلنى كتابكم الاشراف وخطابكم المشرف من يد الشيخ
الجليل الاثير الفضيل الرئيس أبى تميم ميمون بن قليلما ٠٠٠ لعمر الله
عذوانهم ويدهم ولسانهم فوقفنا على الكتاب المبجل بعد الاكثار لموقعه
والايثار لموضعه والمسرة برو محامله اذ كان مصدره عن المشيخة الجلة
الذين وشجت بيننا وبينهم أوامر الايتلاف واستمرت منا ومنهم المحبة
الى سبى أصغى من السلاف وتلقينا ما خصونا به من السلام والدعاء
الى ٠٠٠ رحوان الله سبحانه يحدينا به على سبل القوام وقد فعل المرلى

جل وعلا وأجابه وأمدنا بنصره وتمكينه وأعاننا على عدونا في تحركه وسلوبه حين جاء الينا بحشوده المحتشودة وجنوده التي كانت عندنا للحتوف معدودة وقد رفع عنا والخذلان يرافقه والنحوس توافقه والخيبة تجذبه وشواهد تلك الاحوال التي عاينها منا ترعبه خالحمم لله على ما وهبه من النصر ومنحه من الطفر الذي حاش به من القدر من جل الصدر واياه نسل دوامه ونطلب منه تمامه لا رب غيره ولا خير الاخير فاما ذكره المشيخة الجلة من أن أمورهم كانت عندنا جارية على مرادهم وسارية مسرى اعتقادهم وأنها الآن حالت عن معهودها وخرجت عن قنونها في وصول المركب الذي وصل من الاسكندرية وما كان منا اليه بعذر يأتي هذا عند المشيخة مقبول لاننا كنا بعثنا مركبا الى الغزو فزعبه الضرورة الى دخول الاسكندرية فأكرم هنالك وأجرى مجرى العناية وما يسعنا أن نقابل عن ذلك الاكرام الا بمقتضاه فوصل ذلك المركب فزودناه وباع بمدينة تونس حماها الله ما اتفق له من السبى الذي كان معه ورجع بأكثره وما علمنا أنه وصل بأحد من أهل بلدكم ولو علمنا ذلك لبذلنا فيه نفائس أموالنا وأعطينا فيه ذخايرها اكراما للمشيخة الجلة ومعرفة لقدرهم ومحافظة على صحبتهم وقد سددنا هذا الباب ومنعنا منه ممن يتصرف الى بلدنا برقيق أو جليل من السبى هاذ فصل قد عقدناه مع الشيخ الرئيس أبى تميم حفظه الله • وأما أمر القبضه التي تؤخذ من التجار وجرت بها العادة فقد هوناها وأمرنا بلطفها ورنسنا لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة ولم يتفق له معها أنه معانى فيها مرفوع عنه الواجب واللازم في أمرها يعيدها الى بلده على غرضه مراده وأمرنا ليصاير عامة تجاركم والقيامه بهم والاهمال بسورهم وحریاتهم على الاكرام والرعاية والاهتمام وتفاوضنا في ذلك مع الشيخ

الرئيس أبى تميم سلمه الله ولم ينزل وجها وقد أرحنا العلك ورجعنا فى رعاية حامهم واجراءتجار هم الواصلين من جهتهم على السمع الاول وعقدنا ذلك مع الشيخ الجليل الرئيس أبى تميم حرسه الله عقدا ثابتا محكما وشددها شدا وثيقا مبريا وحملناه ما ينهيه الى المشيخة أعزها الله ويؤذنه اليهم بلسان المسافحة عند الاجتماع بهم والحديث معهم بالمواجهة ان شاء الله تعالى وكتبهم الاثيرة ومخاطبتهم الخطيرة تعر علينا وتكرم لدينا وهم أولى الناس بمواصلتها الينا ومتابعتها علينا مضمنة ما نسر به من صالح أحوالهم وينبهج عند سماعه من يحاج آمالهم ونختم هذا بالسلام الاتم الازكى عليهم وعلى صغيرهم وكبيرهم ومنسرفهم ونسريفهم وكتب فى آخر جمدى الاولى سنة اثنتين وخمسين وخمسائة وحسبنا الله ونعم الوكيل •

وقد تركنا لتجاركم ما يخرجون من الشب وأعفيناهم من الواجب فيه وعقدنا مع الشيخ الجليل الرئيس أبى تميم أن كل ما سوى يقع عندنا من بلدكم نحن ننستريه ونكرمه وننفذه اليكم مكرما وكذلك أيضا عقدنا معه أن كل ما سوى يقع عندكم من أهل تونس حماها الله تشسقرونه ونكرمونه وتنفذوه الينا ان شاء الله تعالى والقبضة التى تؤخذ من تجاركم هى بيد واحدة لا زيادة عليها تعلمناكم بذلك والسلام معاد عليكم وحسبنا الله ونعم الوكيل •

ملحق رقم (١١)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حق حمده

الى أمير المؤمنين، آية الله العظمى، وأعز نوره، دسظمون مقامه، وملتزمون
أعطايه أبلده أرك بشه وصاحب كرسقة وسردانية وقناسلتها وشيوخها وأهل
المسك والعقود، غدا سلاماً تديمه على الشجرة العظيمة ورحمت الله تعالى
وبركاته أما بعد فالحمد لله على العلم والايان له أنه الحكيم العليم الاول
القديم الذي لا تترك له بشار ولا تنقص به الاضرار ولا تنيف على كنهه
عطا... الاخطار الموجود بكل مكان الخارج عن كل زمان كان بلا ابتداء
الدائم بلا فناء فلهذا به بيل ربه الى ونسأله بعزته وعظامة قدره أن يديم
العزة الى أمير المؤمنين موفور الجملة متواصل النعمة منصور الريات منجح
المطالبات ملا الله أيامه مسعداً ونجهاً وواسع جنده نصراً وفتحا بمنه وطوله
وحوله وقوته كتابون اليكم أيديكم الله ونصركم من مدينة بيضة حرسها الله
أنا مركب من تجارنا وأهل قمارنا وأئماننا أوسنا بالناسج من جزيرة سقلية
وأماوا يرمون مدينة اربلس عمارنا الله فاقدرهم الريح في أهوازها
وكان المساء قد عجزهم فنزلوا الى البر ليستقروا فلم يتركهم أهل الموضع
الا حتى بعوا منهم من القمح قليلاً فلما كان في اثر هذا وصل من مدينة
اربلس غراباً معهما من عند والينا ومقدمنا وقبض على القسم وأنهبهم
وقبض على الذي وجد في المركب من التجار ونجا بعض منهم من العشارى
وقذفوا حتى وصلوا الى اربلس وهم منتسمين بصاحبنا فقبض على
جميعهم وأنه... جميع ما وجد عندهم من قمح ومال وهم في سجنه وتحنى

أسره حتى الان فرغبتنا جميعنا الى فضل سيدنا أمير المؤمنين أبده الله
لينفذ أمره العلى بتسريحهم بجلتهم وجميع مالهم ويصرحوا على التى هيا
أسسن الى أوطانهم اذ هم وسواهم من من تملهم هذا الامر الملتزم والعهد
النافذ المحكم مومنين فى أنفوسهم وأموالهم من جميع بلاد الموحدين
لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد أخذ من منهم والله
بعزته جعلنا ممن وفيا بعهدده وحافض على عقده بمنه وفضله *

والسلام الاعظم الاكرم على الحضرة العليا ورحمت الله تعالى *

أمير المومنين أبى يعقوب يوسف بن أمير

أمير المومنين أيد الله أمرهم وأعز نصرهم *

ملحق رقم (١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما
كتاب أمان وتأكيد احسان أمر بكتبه عبد الرحمن بن سيدنا أبى حفص
ابن سيدنا الخليفة الامام أمير المؤمنين الى جماعة تجار نصارى بيش
هداهم الله أمن به سربهم وأعذب شربهم وأسر وحشنتهم وسكن نافرهم
أحمد مواردهم ومصادرهم وأجراهم على ما يعودوه من احسان سيدنا
الخليفة الامام أمير المؤمنين أيدهم الله ووثيق عهدهم ومعهود رفعتهم
ومعروف عدلهم وجميل مذهبهم فى معاهدتهم اجراء تاما عاما لفوائده أخذوا
بعوايده مقتديا بمقاصده بالغاً فيه الى الغاية التى تؤكد لطالبه الثقة به
والاستئانة له والسكون اليه بحول الله فليصلوا الى بلاد افريقية حاطها
الله محمولين على سنن الرعاية والعناية محوطين بكائف الكفاية والحماية
ملحوظين بهذا المنزع الاوزع ، والمقصد الارشد والمذهب الاصبوب ان
شاء الله وحيث حلوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها فى مسالك
تجاراتهم وترددتهم بها ومتصرفاتهم لا يعترضهم فى شى منها معترض
ولا ينعضب لهم هذا الحبل المتين ولا يفرض ان شاء الله تعالى فممن وقف
عليهم من قبلهم من المسلمين أعزهم الله فليعاملهم بمقتضاه ولا يعدل عن
منحاه ان شاء الله تعالى لا رب غيره ولا معبود سواه .

وبالله التوفيق .

ملحق رقم (١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى
آله وصحبه وسلم تسليما

يقول تشهداء هذا العقد الذى نعلمه ونشهد به أن المسطحان الذين
أخذوا مركب الرايس مسعود بوادى مدينة تونس فى شهر شوال فى سنة
ست وتسعين وخمسمائة نعلم أن جميع من كان فى المراكب المذكور انما
هو من أهل مدينة تونس وباديتها وحجاج وصلوا من المغرب ولم يكن فيه
من أهل الاسكندرية الا رجل واحد ولم يكن معه الا شئ يسير فهذا الذى
نعلمه ونشهد به والذى أتشهد عندنا واستفاض أن المسطحات الذين أخذوا
بمركب الرايس مسعود المذكور الاركليوسه والكرناطة ومعها زوج قطاع
هما الذين أخذوا المركب المذكور اشتهر ذلك اشتهرا رفع به العلم نشهد
بذلك من علمه وحققه وكتب شهادته بذلك لايها فى آخر شهر شعبان ١٠٠٠
من سنة سبع وتسعين وخمسمائة واصلاح الاركليوسه على سى صحيح
شهد بذلك كله من علمه وحقه ٠٠٠ فى تاريخه المذكور محمد بن أبى القاسم
وحسن ابن على الترجمان وعثمان بن أبى بكر الترجمان وقاسم بن على
الريعى وأحمد بن عبد الواحد الرساطى وعبد الكريم بن عبد المؤمن اللخمى
الترجمان وأحمد قطران الترجمان وعبد الرحمن بن أبى الطاهر التميمى *

ملحق رقم (١٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الاكرم الاجل المبرور باج اكرمه الله وأعانه على ما فيه الصلاح
والرشاد محبكم الراغب فيكم الداعي الى الله تعالى بسلامتكم وجمع
الشمل بكم محرز القابسى الذى نعلمك به انك لما أقلت يوم الكاينة وجرى
من قدر الله تعالى ماجرى وأقلت من فم الوادى ومعك بيرو ككله الذى
كنت ضمنته لنا فى مايتين ديناراً وعشرة دنانير ثمن ألف جلد وستماية جلد
ضايئة ودفع لنا فى ثمنها عشرة دنانير وبقي الباقي عنده والذى عندك
يا صديقى فى خاصة نفسك ثمن تسع مائة جلد وتسعة جلود ثمنها ثلاثة
وسبعون ديناراً ونصف دينار وعندك أيضاً ثمن تسعة قناطير صوف وهى
ثلاثون ديناراً الا نصف دينار أعطيتنى خمس دنانير منها وأنت يا صديقى
ذكرك ذكر خير عندنا وأنت مشكور الاحوال عند التجار وعند من سافر
معك فلا تكن الا عند ما يظن بك من الخير ولولا جاهك عليه ما تركناه
ساعة واحدة والساعة يا صديقى عندما تحب أن تسافر الى عندنا تونس
فعسى تجتمع معه وتأخذ منه الذهب الذى لى المذكور فى الاعلى ولا تتركه
ويكون صحبتك ان شاء الله فانك أنت المطلوب به ولا يعتل لك بعلة الديوان
عندنا فقد ذكر ابن قسوم ان ما بقى لى سوى ستة دنانير فالله الله
يا صديقى لا يكن من ذلك بد فمالك موقوف ومال غيرك فعسى تصل أنت

ومن له شيء حتى يتصفونا من أنفسهم وما تحتاج تأكيد وصيه على ذلك
وأنت المشكور المثاب على ذلك والسلام على من اتبع الهدى ورحمت الله
وبركاته .

الشيخ المكرم البرور المجل باج البيشانى
كتب الله سلامته وجمع النمل به

ملحق رقم (١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخان الاكرمان الاجلان المبروران باج وفرسطان البيشانيان كتب
الله سلامتهما وجمع الثمل برؤيتهما صديقكما المحب فيكما الحريص على
ما يقع بعرضكما ابراهيم بن خليفة الجلاذ سلام على من اتبع الهدى وخشى
عواقب الردى ورحمت الله وبركاته وبعد فانكما أقلعتما يوم الكانية وكان
بذلك بقدر الله تعالى السابق في حكمه ولم تنصفاني أنفسكما في ثمن الجلاذ
الذى أشتريته يا باج في خاصة نفسك على يد عنمن الترجمان وعدده سبع
ماية جلد وخمسون جلدا ضاينة بيع سبعة دنانير الماية جملته ستة وخمسون
وثمانية وعشرين جلدا ضاينا وقسمها مع أصحابه بننادكرك وبين نساط
والتمن مايثان دينارا وخمسه وعشرون دينارا على يد جوان قطران وعندك
يا فرسطان من قبل البحر من متاعك ستمائة جلد وخمسون جلدا ثمنها مائة
دينار وستة دنانير الا درهمين بقى لنا منها أربعة وستون دينارا ودرهمين
وذلك على يد طب طب وأشتري كرسى من أبراهيم المذكور على يد على بن
باديس وتميم ثمن الماية جلد بستة وستين دينارا بيع ثمانية دنانير ونصف
الماية ونعلمك ياكرس ، ان ابن قسوم ذكر أن مالك في الديوان شىء وأن ثمن
النحاس الذى ذكرت لعثمان الترجمان أن يعطينا منه فهو باق عند المشتري
ولم يعط لنا منه شىء ونعلمك يا باج أن هذا المال ما هو متعلق الالبك فلاتصل
الا بالتجار الذى كانوا معك حتى تنحل منهم فما أحد يعرف التجار وانما
يعرفون أنت فما لكم موقوف على وجه الامانه لم يغير فيه شىء ففتصلوا

حتى تجادا الناس فيمالكم وعليكم وعثمان المهدي ياكرس بادر اليه في
ثمن النحاس فانه سافر الى الاسكندرية أعلمكم ذلك والسلام على من
اتبع الهدى ورحمت الله وبركاته *

الشيخان الكريمان البروران باج وفرستان كتب
الله وسلامتهما وجمع الشمل بهما

ملحق رقم (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم
وعلى آله وصحبه وسلم أفضل التسليم .

هذا كتاب صلح مبارك انعقد عن اذن سيدنا ومولانا الخليفة الامام
القايم بأمر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو يحيى زكرياء بن
مولانا الامير أبي العباس ابن الامرا الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم
بمعونته وخلص ملكهم وأبقى لكافة المسلمين بركتهم مع جوان فصول
والرينر دلباينة الرسوليين الوافدين على الحضرة العلية أعلى الله منارها
وجدد أنوارها تونس حرسها الله من قبل طيش دقمط دكولى النايب عن
فدريك قمط دمنط فائرة فكار كمون بينس وأشياخها وكمونها وذوى الراى
منها ومن له النظر فى مصالحها وكافة أمرها منهيين الى الحضرة العلية
أعلى الله أمرها وأجزل نصرها رغبة مرسلها فى عقد صلح لاهل بييس
وما اليها لتجرى بمصلحة ذلك أحوالهم وتنيسط بالاسعاف به آمالهم
فأسفتهم الحضرة العلية بمطالوبهم وكتبوا لهم رضى الله عنهم هذا الصلح
كتب الله لهم النصر والتمكين والفتح المبين لمدة عشرة أعوام تسمسية متوالية
أولها منتصف شتنبر الكاين فى شهر جمدى الاول فى عام ثلاثة عتسـر
وسبعماية على شروط يأتى ذكرها هى :

— أن يكون جميع من يصل من تجار البيشانيين وأتباعهم الى الحضرة
العية مهدها الله والى جميع بلادها الداخلين تحت طاعتها وماسيفتح بعد
أن شاء الله تعالى آمنين فى أنفسهم وأموالهم وحد بلادهم المصالح عليها
من بلد فى البحر الكبير يسمى القرب الى بلد يسمى حفظ بال ولهم فى جزر

البحر سردانية وحصنها قشتيل دقاشتر وجزيرة قرصقة وبينوزة وآلة
وكبرارة وكركونة وجلى ومننت أكرشت •

— وعلى أنه لا يصل الى بلادهم الساحلية ولا الى جزرهم المذكورة
جفن حربى لضرهم من الحضرة العلية مدة هذا الصلح المذكور •

— وعلى أن يكون لهم فى كل بلد من البلاد الساحلية من البلاد
الافريقية وما اليها المعلومة بنزولهم فيها للتجار فى دواوينها فندق يختصون
به لتجارته لا يشاركون فى سكنه غيرهم من النصارى ويمكنوا فى كل فندق
من الكنيسة التى فيه ومن مدفن لموتاهم ومن فرن يختصون به على جرى
العادة المتقدمة وأن لهم دخول حمام يختصون به يوما فى الجمعة •

— وأن يؤخذ منهم فيما يبيعونه من السلع العشر بكماله عند سفر
من أراد السفر منهم ومن لم يسافر منهم وأطال الاقامة أخذ منه العشر
عند انقضا ثلاثة أعوام من وصوله فعل ذلك لهم اجابة لرغبتهم •

— ولا يؤخذ منهم فى جميع ما يشترونه بحضرة تونس ثمانين درهم
المائة دينار وأن يؤخذ منهم من الذهب والفضة المسكوكين نصف العشر
عند وصوله وما يجلبونه من ذلك غير مسكوك يدفعون فيه العشر اذا باعوه
واذا لم يبيعوه يكون لهم أن يردوه من غير أن يؤخذ منهم شىء اذا تحقق
ذلك وأن ما يجلبونه من الدينانير والدرهم من ضرب النصارى يحرون فيه
على العوايد المتقدمة •

— وأنه متى عطب لتجارهم مركب فى ساحل من السواحل الافريقية
وما اليها فعلى من قرب فيه من سكان البلاد المذكورة حراستهم بغير اجارة
حتى يخلصه أصحابه ولا يودون فى حمل سلعهم الا ما جرت به العادة •

— وأنهم لا يضمنون شيئا كان بينهم وبين النصرى أعدائهم في مرسى الحضرة العلية ولا يضمن لهم شيء مما كان بين أعدائهم معهم *
— وأنه متى كان خصام بين مسلم ونصراني أو بين نصرانيين أجريا فيه على الحق وأن يجروا في اجارة الوزن الذي يزن لهم سلعهم على المعتاد *

— وأن يكونوا حيث ما حلوا من السواحل الافريقية وما اليها على الاختيار في الإقامة لقضاء ما ركبهم ولا يمنعوا في اشتراء ما يحتاجون اليه من زاد ومرفق *

— وأن يكونوا في سلعهم التي يصلون بها على اختيارهم في انزالها أو ردها وأن لا يحدث عليهم المشتغلون بالدواوين وغيرها في جميع البلاد المذكورة ولا التراجمة ولا أصحاب القوارب حادثا سوا ما جرت به العادة
— وأن يكون كل تاجر منهم غير ممنوع من السفر عند تخلصه في الحضرة العلية مهددا الله في ساير بلادها *

— وأن يكون من يصل معهم من غيرهم في مراكبهم من التجار له مالهم وعليه ما عليهم *

— وأن لا يمنع تجارهم من البيع في الحلقة متى طلبوا ذلك على المعتاد
— وأن سلعهم التي يصلون بها الى مراسى السلسلة ولا يمكنهم رفعها في الفور الى فندقهم متى ثبت ضياع شيء منها فعلى حراس الموضع المذكور غرمه لهم وأنهم متى طلبوا المحاسبة بالدواوين وقرها الله مكنوا منها ولا يؤخذ منهم الا ما جرت به العادة *

— وإذا حاسب بيشانى بالديوان ودفع ما وجب عليه وأخذ براءة التسريح بالشهادة فلا يعقل ولا يشغب عن سفره ولا يطلب باعادة ذلك الحساب الا أن يظهر ما يوجب ذلك بحق بين ولا يوخذ منهم الا ما جرت به العادة *

— وأن يكون لهم ببونة حرسها الله فندق يختصون بنزولهم فيه لا يتساركهم فيه غيرهم من النصرى وأن يجروا فيه على عوايدهم في حضرة تونس حرسها الله وكذلك في قابس وصفاقس وطرابلس *

— وأن لا يوخذ منهم فيما يبيعونه من المراكب عشا الا فيما يبيعونه ممن لا صلح له *

— وأن كل سلعة يودون عشاها ثم تصرف عليهم فيحتملونه الى بلد غيرا البلد الذى عشت فيه لا يكون عليهم فيها عشا اذا صح ذلك *

— وكذلك اذا أخذ منهم من الذهب والفضة نصف العشر أو أرادوا أن يشتروا بثمن السلعة التى دفعوا عشاها أو بما دفعوا فيه نصف العشر فلا يلزمهم شىء فى جميع ذلك لا فى الحضرة العلية ولا فى غيرها من بلادها إذ صح ذلك *

— وأن لا يوخذ من أصحاب المراكب نصف العشر الواجب عليهم فيما يشترونه بأكرية مراكبهم *

— وأنه متى احتيج الى مركب من مراكبهم لحمل عشا أو غيره أن يوخذ من كل ثلاثة مراكب مركب بالكراء يعينة قنصلهم *

— وأنه متى عشا أحد منهم على عدد ولم يشتتر به شيا ثم أراد تركه عند أحد قبيلة فلا يمنع من ذلك اذا ثبت أنه لم يتصرف فى شىء منه *

— وأن ما يبيعونه في الحلقة بالشهادة ضمان ثمنه أن غر على الديوان
وما يبيعونه على أيدي التراجمة بالشهادة ف ضمانه أنه على التراجمة •

— وإذا باع بيشانى سلعة أو استراها من أحد من المستغلين أو التزم
شراء سلعة من سلع بلاد الحضرة العلية وكتب له في ذلك عقد مشهود
فلا يفسخ عليه الا أن ثبت دلسه أو ربيه أو غش •

— وأن غريبشانى أو غر برهن أو حق للجانب الكريم أو لاحد من
المسلمين فلا يطلب قنصل البيشانيين ولا تجارهم بذلك ان لم يكونوا
ضامنين له ولا يطلب بذلك الا الجانى بنفسه •

— وإذا باع بيشانى كتانا أو قطنا أو غير ذلك من السلع الموزونة
فلا يودى في ذلك رطلا ولا طعما للديوان ولا للتراجمة •

— وإذا صرف بيشانى سلعة على نفسه في الديوان فلا يودى عليها
الا ترجمة واحدة •

— وإذا وصل بيشانى بسلعة تصلح للجانب الكريم وترفع فلا تمسك
الا عشرة أيام ، ويكون دفع ثمنها في الامد المذكور أو ترد على صاحبها •
— وأن يكون لقناصلتهم يوم في الشهر يصلون فيه الى المقام الاعلى
أدام الله رفعتته •

— وأن يكون أيضا لقناصلتهم اجتماع مع مشغل كل بلد ينزلون فيه
يوما في الشهر •

— وأنه متى خرج أحد من عماله البيشانيين أو جزائريهم المذكورة
وأضر باحد من أهل البلاد الافريقية أو من انضاف اليها فعلى حاكمهم

وأشياخهم وقناصلتهم الانصاف من ذلك وأخذ الجانبين وقتلهم والتمكين
من أموالهم •

— وعلى أنهم لا يسترون ممن يقطع على المسلمين شيا من سلع
المسلمين ولا من أسراهم ومتى وجد بأيديهم شيء من سلع المسلمين أخذت
لهم أو أسراهم أخذ ذلك منهم بغير عوض •

— وأنهم متى طرأ بينهم خصام فلا تحكم بينهم الا قناصلتهم •
— وأنه لا يؤخذ منهم في جميع محاولتهم في الديوان الا ما جريت به
العادة •

— وأن تكتب من هذا الكتاب نسخة لكل بلد من بلاد الحضرة العلية
الذى يتجرون فيه •

— ولا يمنع تجارهم من اشتراء السلع ممن يريدون الاشتراء منه •
— وأن لا يمنع بيثاننى من اشتراء سلعة بسبب جنوى أو غير من
النصرى •

— وأنه اذا اشترا أحد منهم سلعة من السلع المحاولات لا يفسخها
أحد عليه لا المشتغل الذى باعها ولا الذى يأتى بعده اذا لم يكن فى البيع
ريية ولا دلسه ولم يكتم من الثمن المذكور شيئا •

— وأن جميع ما يشترا بالسهادة بالديوان للجانب العلى خلده الله
ويكون بيد البايع عقد بالشهادة بذلك يكون الثمن لازما للديوان من غير أن
يطلب البايع بزيادة بيان •

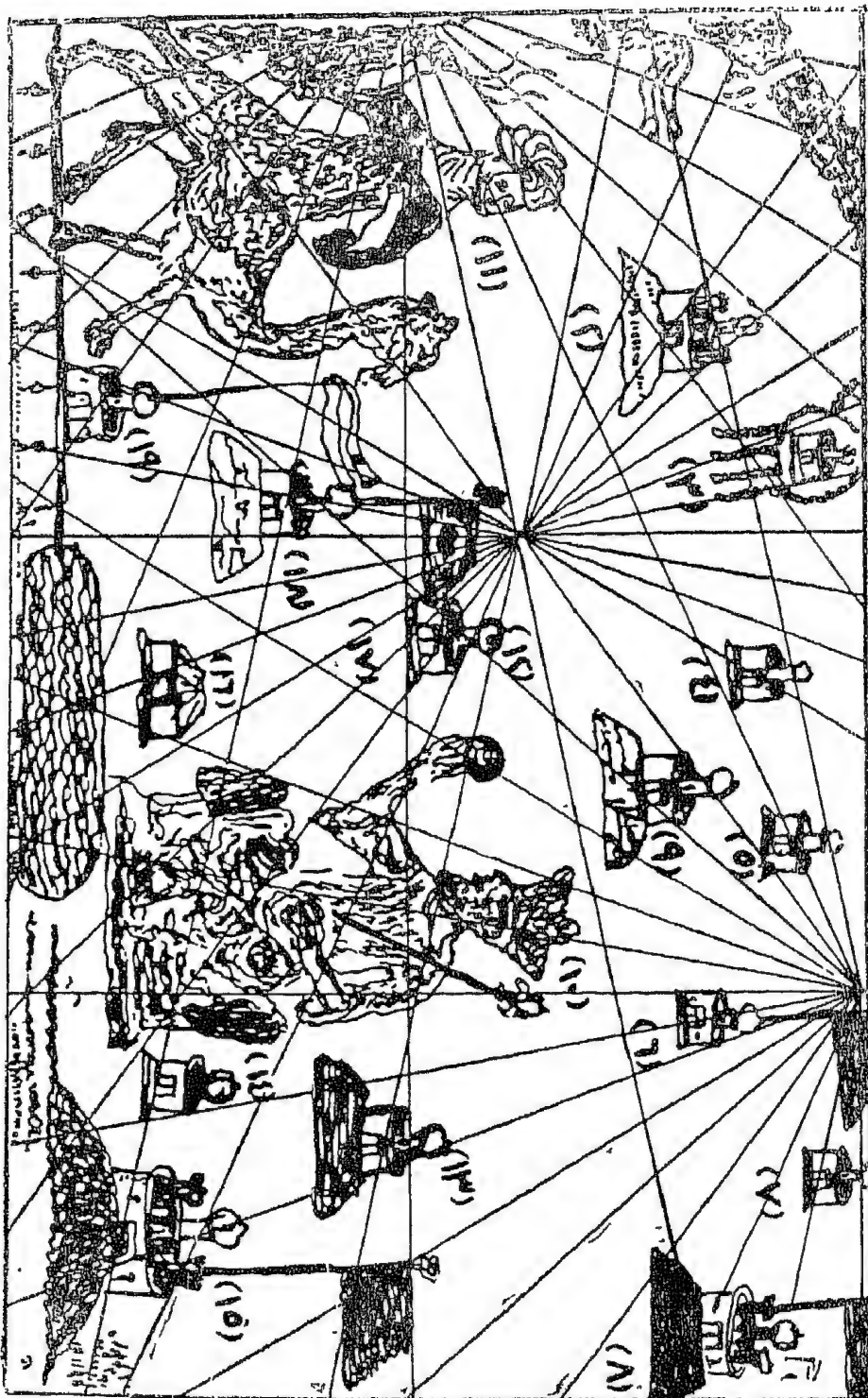
— واذا كان لاحد منهم حق فى الديوان وعليه حق فيه وبيده ذلك
تنفيذ حوسب مما له بما عليه •

— وكذلك اذا ترتب على أحد منهم حق في موضع من مواضع المحاولات
المباركة وترتب له حق في الموضع المذكور وكان بيده بذلك تنفيذ أقتطع ماله
مما عليه *

— وأن يحملوا في جميع أمورهم على البر والاكرام كغيرهم — من
النصرى المصطلح معهم *

— وعلى أن يكون كل من دخل من المسلمين الذين تحت طاعة الحضرة
العلية بلدا من بلاد البيشانيين أو جزرهم أو مرسى من مراسيهم هو آمن
بأمان الله تعالى في نفسه وماله *

فشهد على اشهاد الرسولين المذكورين جوان فجول والرنيردلبانية
المذكورين في عقدهما هذا الصلح عن مرسلتهما المذكورين وهما بحال الصحة
والتطوع والجواز بترجمة من جرت عادته بذلك من المسلمين وحضر لعقد
هذا الصلح من تجار البيشانيين القنصل كان بنجال بركان وجوان كرية
ولام اسكر سلب لطار وكلوش دلنيال وجيك الياط وجان بنكت وجول جنكين
وبان سنيلت وعلى اشهاد من تنفذ الاوامر العلية الان على يديه بالباب
الكريم أسماه الله وأسعده وحفظه باقضا ذلك وذلك بتاريخ الحادى
والعشرين من جمادى الاولى من عام ثلاثة عشر وسبعماية وهو الموافق
اليوم الرابع عشر من شهر شتنبر وبذلك ذلك في آخر شه ** جمدى **
الحق عصيى وأحمد بن اسمعيل بن أحمد الريعى *



بيانات الخريطة :

١ — وادى درعة الذى يخرق جبال أطلس ، وهو أحد طرق القوافل الى السودان •

٢ — مدينة تاكورام

٣ — مدينة سجالماسة

٤ — مدينة تابلبرت

٥ — مدينة أنزيزا

٦ — مدينة توغرت

٧ — مدينة بسكرة

٨ — مدينة توزور

٩ — مدينة توات

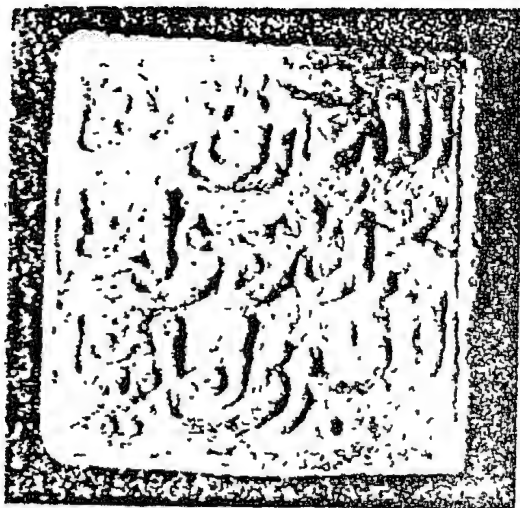
١٠ — صورة السلطان كنكن موسى ، ويبدو وفى يده قطعة من الذهب يقدمها للوافد عليه فوق جملة — وتوجد عبارة مكتوبة على الخريطة خلف صورة السلطان موسى نصها : « يدعى هذا الزنجى ، موسى مالى ، سيد زنوج غينيا ، وهو أثرى وأعظم ملك فى بلاد السودان ، لوغرة الذهب فى بلاده » •

١١ — أحد التجار من المثلثين العاملين فى التجارة بين بلاد السودان وبلاد المغرب ، وأمام صورته على الخريطة عبارة نصها : « ينتشر المثلثون فى جميع أرجاء المنطقة ، وهم الذين يضعون اللثام على أفواههم ، فلا ترى سوى أعينهم • وهم يعيشون فى خيام وعماد قوافلهم الجمال ، وفى هذه

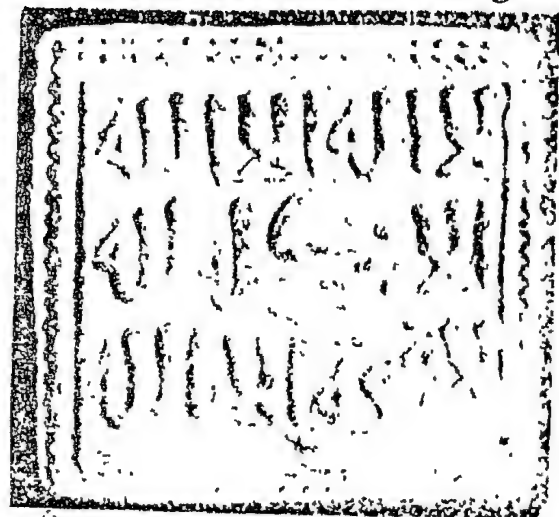
المنطقة يوجد الحيوان المعروف باسم « اللط » ^(١) (Lemp) ومن جلده تصنع الدروع المتينة .

- ١٢ — مدينة تعازة
- ١٣ — مدينة بودا
- ١٤ — مدينة جاو ^(١)
- ١٥ — مدينة ميمة
- ١٦ — مدينة تنبكت
- ١٧ — غينية
- ١٨ — السودان
- ١٩ — مدينة مالى

(١) هذا الحيوان يشبه الثور
 (١) جاو عاصمة دولة سنفي الاسلامية ، وتقع على النيجر ، وتعرف في الكتب العربية باسماء مختلفة منها : كانح ، كوغا ، كوكو ، كركر الخ . . ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ج ٦ ، ص ٢٠٠ .



وجه الدرهم



ظهر الدرهم



وجه الدينار



ظهر الدينار

ملحق رقم (١٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم الامر الشريف الغالى المولوى قانصوه

السلطان الملكى الاشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه
وصرفه أن سطر هذا المرسوم الشريف الى كل وافق عليه وناظر اليه في
الجنابات العالية والمجالس السامية النواب والحجاب والمباشرين والنظار
والمتكلمين وأرباب الوظائف وأصحاب الادراك بتغر الاسكندرية المحروسة
وغيرها من الثغور الاسلامية ، والسواحل بممالكنا الشريفة ضاعف الله
تعالى نعمه ، الجنابات العالية وأعز المجالس السامية يتضمن اعلامهم ان
قد برزت مراسيمنا الشريفة لطايفة الفرنتين من الافرنج بالامان والاطمان
والاخذ والعطا والبيع والشرى وأن يحضروا الى الثغر الاسكندري
المحروس والى غيره من الثغور الاسلامية ، والى السواحل بممالكنا
الشريفة ببضايح متجر ولهم الامان والاطمان والبيع والشرى والاخذ
والعطا وعليهم أمان الله تعالى وأمانتنا الشريف ، فيتقدم كل واقف عليه من
الجنابات والمجالس بالوصية القائمة لهم وأكرامهم وأحترامهم ومعاملتهم
بالعدل . ومنع من يتعرض لهم بسوء أو ضرر ، ولهم عادة التجار من
الافرنج الذين يحضروا الى ثغر الاسكندرية ولهم الامان والاطمان في
البيع والشرى والاخذ والعطا ، وأنهم يحضروا طيبين القلب منشرحين
الصدر آمنين على أنفسهم وأموالهم ومراكبهم ، وإذا حضروا في غير
مراكب طابقتهم يكون لهم الامان في البر والبحر . وأن يعاملوا بالعدل
والا يحدث حادث ولا مظلوم وأن لا يوزنوا الا أسوة التجار البنادقة وهم
من تجار الافرنج الذين يحضروا الى الثغر الاسكندري في البحر ، وذلك

على حكم ما بيدهم من المراسيم الشريفة في أيام الملك الأشرف العبد الشهيد قايتباى سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان على يد قاصدهم الوزير دالستوغا مع الوصية لهم • ومنع من يتعرض لهم بسوء أو تضرر ومن هلك من طائفة الفرنتيين عن وصية فليعمل بها من غير أن يتعرض أحد لوصيته ، وإذا انكسر مركب من مراكب الفرنتيين بممالكنا الشريفة فلا أحد يتعرض الى البضاعة ولا الى شئ منهم سوى السلاح على ما جرت به العادة من تقادم السنين • وإذا حضر من بلادهم قنصل فلا أحد يحكم بين طائفة الفرنتيين الا القنصل ••• قولاً واحداً وأمرأ حازماً ومراسيماً الشريفة نؤكد عليهم في ذلك غاية التأكيد فيحيط علمهم بذلك والله تعالى الموفق بمنه وكرمه •

ان شاء الله تعالى •

في ثامن عشر القعدة الحرام سنة احدى عشر وتسعمائة (١) •

(١) ميشيل أمارى ، رسالة رقم ٤٢ ، مؤرخة بتاريخ ١٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ م ، قانصوه الغورى ، ص ٢١٤—٢١٧ •

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية المخطوطة :

١ - ابن البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجى) :

« أقوال المهدي بن تومرت في علم الكلام » نسخة حديثة محفوظة

بدار الوثائق بالرباط ، ميكروفيلم رقم ١٠٥١ •

٢ - أمارى (ميشيل) :

مجموعة رسائل تحت عنوان :

Documenti Degli Archivi R. Toscani Pubblicati per Cura Dellal Soprintendenza Generale Agli Archivi Medesimi,

دار الوثائق بالرباط تحت رقم
AQ 4 583
1 dis

٣ - النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) :

« الامام بما جرت به الاحكام المقضية في وقعة الاسكندرية » نسخة

مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ، محفوظة

بمكتبة كلية الاداب ، بجامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م • ونسخة أخرى

مصورة من مخطوطة الهند، محفوظة بمكتبة كلية الاداب جامعة الاسكندرية

برقم ٧٣٨ م • ونسخة ثالثة مصورة من مخطوطة برلين ، محفوظة أيضا

بمكتبة كلية الاداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٦٦٧ م •

ثانيا - المصادر العربية المطبوعة :

٤ - ابن البار (أبو عبد الله محمد ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :

« الحلة السيرة » تحقيق د • حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ •

٥ — ♦♦♦♦♦ :

- « التكملة لكتاب الصلة » نشر كوديرا ، ج ٥-٦ ، ليدن ١٨٨٧ م .
- ٦ — ابن الاثير (على بن أحمد بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) :
« الكامل في التاريخ » ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ م .
- ٧ — ابن الاحمر (أبو الوليد اسماعيل) :
« روضة النسر في دولة بنن مرين » ، الرباط ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
- ٨ — الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن الشريف الادريسي ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) :
« صفة المغرب والاندلس مأخوذة عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، نشره دوزي ودي غويه ، ليدن ١٨٦٦ ، طبعة الجزائر ١٩٥٧ .
ونسخة بعنوان صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ، ١٨٩٤ م .
- ٩ — الاصفهاني (العماد) :
« فريدة القصر وجريدة العصر » ، قسم شعراء المغرب ، ج ١ تحقيق : محمد المرزوقي ، محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى ، تونس ١٩٧٣ ، النشرة الثانية .
- ١٠ — ابن ابياس الحنفي (محمد بن أحمد) :
« بدائع الزهور في وقائع الدهور » ج ٢ هـ أولى ١٣١١ هـ ، ج ٣ ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ م القاهرة ، ج ٤ مطبعة الدولة باستانبول ، ١٩٣١ م .
(تحقيق : محمد مصطفى) .
- ١١ — ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك بن مسعود ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) :

« الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم
وأدبائهم » نشر عزت العطار ٥٠-١٩٥٥ .

١٢ — البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٤ م)
« المسالك والممالك — الجزء الخاص بشمال افريقيا » ط . دى سلان

• ١٨٥٧

١٣ — *****

« المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » باريس ١٩١١ . ونشره
دى سلان De Ssane بعنوان :

Description de L'Afrique Septentrionale

• الجزائر ١٩١١

١٤ — البلخي (أبو القاسم عبد الله أحمد بن محمود ت ٣١٩ هـ) :
مقالات اسلامية في كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق :
هوّاد سيّد ، تونس ، ١٩٧٤ .

١٥ — البيذقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي) :
« أخبار المهدي بن تومرت وبدايه دولة الموحدين » . تحقيق عبد
الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ .

١٦ — *****

« المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب » ، تحقيق ، عبد
الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ .

١٧ — ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) :
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ج ١ — ج ١٢ ، دار
الكتب المصرية ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م ، والجزء الثالث من طبعة وليم بوبر ،
كاليفورنيا ١٩٣٢ م .

- ١٨ — الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) :
البيان والتبيين ، ج ١ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة، ١٩٤٨م
١٩ — الجزنائي (أبو الحسن علي) :
« كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس » ، نشره الفرد بل ، الجزائر
١٩٢٢ م +
٢٠ — جولد تسيهير :
« العقيدة والشريعة في الاسلام » (الترجمة العربية) ، القاهرة ،
١٩٤٩ م +
٢١ — ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :
« المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ١٠ اجزاء المطبوع منه ابتداء من
القسم الثاني من الجزء الخامس الى نهاية العاشر + بعناية د + سالم
الكرنكوري ولجنة خاصة في دائرة المعارف العثمانية + حيدر آباد ، الدكن
١٣٥٧ هـ — ١٣٥٩ هـ +
٢٢ — ابن حبيب (عبد الملك) :
« أخبار في فتح الاندلس » نشرها الدكتور محمود علي مكى في
مقاله :
Egipto y Los Origine s de la Historiografia Arabigo-Esponola
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ،
١٩٥٧ م +
٢٣ — ابن حزم الظاهري (أبو علي بن أحمد ، ت ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤م) :
« الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، ط مصر ١٣١٧ هـ +
٢٤ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبى
ت ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) :

- « صورة الارض » ، ط دى سلان ، الجزائر ١٨٥٧م .
- ٢٥ — ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) :
« المسالك والممالك » ، ط . دوزى ، ليدن ، ١٨٨٩م .
- ٢٦ — الخزرجى (على بن الحسن) :
« العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » ، تحقيق : محمد بصيلونى عسل ، القاهرة ج ١ ، ١٩١١ ، ج ٢ ، ١٩١٤م .
- ٢٧ — الخشنى (محمد بن الحارث بن أسد ، ت ٣٣٦هـ) :
« طبقات علماء افريقية » القاهرة ، ١٣٧٢هـ .
- ٢٨ — الخشنى (أبو عبد الله محمد) :
« قضاة قرطبة وعلماء افريقية » (من تراث الاسلام) ، تحقيق : عزت العطار الحسنى ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ .
- ٢٩ — ابن الخطيب (محمد لسان الدين ، ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م) :
« الاحاطة فى أخبار غرناطة » مجلد ١ ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٥ .
- ٣٠ — ++++++
- « أعلام الاعلام غيمن بويى قبل الاسلام من ملوك الاسلام »
(القسم الخاص بالاندلس) تحقيق ليفى بروفنسال ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦
(والقسم الخاص بالمغرب) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكنانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .
- ٣١ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمى ، ت ٨٠٨هـ — ١٤٠٥م) :
« كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » ج ٦٥٣ ، القاهرة ١٣٨٤هـ .
بيروت ١٩٥٩ — ١٩٦١ . دى سلان الجزائر ١٨٨١م .

٣٢ — ++++++

« المقدمة » القاهرة ، ١٩٥١ ، ط ، بيروت ، ١٩٥٠ م *

٣٣ — ++++++

« التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » تحقيق الاستاذ محمد

بن تاوويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ *

٣٤ — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ،

٦٨١هـ — ١٢٨٢م) :

« وفيات الاعيان وأنباء الزمان » ٦ أجزاء ، تحقيق : محمد محيي

الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨—١٩٤٩م وأيضا طبعة بيروت

ج ٣ ، ١٩٧٠ ، ج ٥ ، ١٩٧٧ ، ج ٨ ، ١٩٧٢م *

٣٥ — الدباغ (عبد الرحمن محمد بن عبد الله الانصاري ، ت ٦٩٦هـ) :

« معالم الايمان في معرفة أهل القيروان » ج ١—٢ ، تونس ، ١٣٢٠هـ *

٣٦ — ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني

القيرواني) :

« المؤنس في أخبار افريقية وتونس » تحقيق : محمد شمام ، الطبعة

الثالثة ، تونس ١٣٨٧هـ *

٣٧ — الرقيق القيرواني (من ق ٥٥ — ٤٧٠هـ) :

« تاريخ افريقية والمغرب » — قطعة تبدأ من أواسط القرن الاول

الى أواخر القرن الثاني الهجري * تحقيق : المنجي الكعبي ، تونس ١٩٦٧م *

٣٨ — ابن أبي زرع (علي الفاسي) :

« كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب

وتاريخ مدينة فاس » دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣م *

٣٩ — الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) :

- « تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » ، تحقيق . محمد ماضور .
تونس ١٩٦٦م *
- ٤٠ — السراج (محمد بن محمد الاندلسي الوزير) :
« الحلل السندسية في الاخبار الاندلسية » تحقيق . محمد الحبيب
الهيبة ، ج ١ ، تونس ١٩٧٠م *
- ٤١ — ابن سعيد المغربي (على بن موسى) :
« المغرب في حلى المغرب » ج ١ ، تحقيق : د. شوقي ضيف . القاهرة .
١٩٥٣م *
- ٤٢ — السلاوي (أحمد بن خالد الناصري) :
« الاستقصا لدول المغرب الاقصى » تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :
جعفر ومحمد الناصري * الدار البيضاء ، ١٩٥٤م *
- ٤٣ — السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر
٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) :
« بغية النحاة في طبقات اللغويين والنحاة » تصحيح : محمد أمين .
القاهرة ، ١٣٣٦ هـ *
- ٤٤ — أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل
المقدسي الدمشقي ٦٦٥ هـ — ١٩٤٧ م) :
« كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تحقيق :
الاستاذ محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٦٢م *
- ٤٥ — التهرستاني (محمد بن عبد الكريم — ت ٥٤٨ هـ) :
« الملل والنحل » القاهرة ١٩٦٥م *
- ٤٦ — ابن صاحب الصلاة (عبد الملك — ٥٩٤ هـ — ١١٩٨ م) :

« تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » • السفر الثاني • تحقيق : الاستاذ عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤م •

٤٧ — الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، كان حيا في النصف الاول من القرن ٤هـ) :

« المسالك والممالك » • تحقيق : الاستاذ محمد جابر عبد العال الحسين ، القاهرة ، ١٩٦١م •
١٩٣٩م •

٤٨ — العباس بن ابراهيم :

« الاعلام بمن حل بمراكش وأعمات من الاعلام » ج ٣ ، الرباط ،

٤٩ — ابن عيد الحق (صفى الدين عبد المؤمن البغدادي ٧٣٩هـ — ١٣٠٨م) :

« مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع » • تحقيق : الاستاذ على محمد البجاوي ، القاهرة ، ١٩٥٤م •

٥٠ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٧٦هـ — ٨٨٩م) :

« فتوح مصر والمغرب » تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ،

١٩٦١م ، مطبعة Albert Gateau يعنوان :

Conquête de L'Afrique de Nord et L'Espagne

• الجزائر ١٩٤٧

٥١ — ابن عذاري المراكشي (٧١٢هـ — ١٣١٢م) •

« البيان المغرب في أخبار المغرب » ، ٤ أجزاء ، بيروت ، ١٩٥٠ ،

ج ٣ تطوان ١٩٦٠م •

- ٥٢ — العذرى (ت ٤٧٨ هـ — ٩٨٨ م) :
« ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك » ، نشر عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ م .
٥٣ — الخبرينى (ت ٧٠٤ هـ — ١٣٠٤ م) :
« عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » ، تحقيق الاستاذ : رابح أحمد بونار ، الجزائر ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م .
٥٤ — عمر بن شاهنشاه الايوبى (محمد بن تقى الدين ٥٦٧ — ٦١٧ هـ)
صاحب حماء :
« مضممار الحقائق وسر الخلائق » * تحقيق د. حسن حبش القاهرة .
١٩٦٨ م .
٥٥ — الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد ٥٠٥ هـ — ١١١١ م) :
« كتاب فضائح الباطنية للرد عليهم » نشر وتحقيق : د. عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
٥٦ — ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى الفاسى) :
« جزء من كتاب نظم الجمان » تحقيق الدكتور محمود على مكى .
منشورات كلية الاداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط تطوان ، ١٩٦٤ م .
٥٧ — القلقشندى (أبو العباس أحمد ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) :
« صبح الاعشى فى صناعة الانشا » دار الكتب ، ١٣٣٢ هـ .
٥٨ — ابن القنفذ القسنطينى (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ، ت ٨١٠ هـ — ١٤٠٧ م) :
« الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية » تحقيق وتقديم : محمد

التشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ١٩٦٨م *
٥٩ — ابن كثير الدمشقى (الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل
ت ٥٧٧٤هـ — ١٣٧٢م) :

« البداية والنهاية فى التاريخ » ، ج ١٢ ، مصر ، ١٣٤٨هـ *
٦٠ — المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله ت فى نهاية القرن
الرابع الهجرى) :

« كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية » ج ١ ،
تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٥١م *
٦١ — المالكى (ابن الصغير — القرن ٣هـ — ٩م) :

« أخبار الائمة الرستميين » (ألفه فى ناهرت حوالى ٢٩٠هـ) نشر :
موتلنسكى ، أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين ، باريس ١٩٠٨م *
٦٢ — مجهول :

« كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار » لكاتب مراکشى من كتاب
القرن السادس الهجرى ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ،
الاسكندرية ، ١٩٥٨م *
٦٣ — مجهول :

« تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية » نشر جورج كولان ،
الرباط . ١٩٣٤م *
٦٤ — مجهول :

« كتاب الحل الموسية فى ذكر الاخبار المراكشية » نشره وصححه :
د . س علوش * مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، ج ٦ ، الرباط
١٩٣٦ . وتحقيق : الدكتور سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامة ،
الرباط ١٩٧٩م *

- ٦٥ — ابن مرزوق (أبو الحسن الخطيب) :
نخبة من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن
الخطيب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٥م *
٦٦ — المراكشي (محيى الدين عبد الواحد ت ٦٢٠هـ — ١٢٢٤م) :
« المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، تقديم : محمد الفاسي المغرب ،
سلا ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م *
٦٧ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين ٣٤٦هـ — ١٩٥٧م) :
« كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » تحقيق الاستاذ محيى الدين
عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨م *
٦٨ — المقدسي (تميم الدين مجير الدين العيلمي الحنبلي ،
ت ٩٢٧هـ — ١٥٢١م) :
« أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » طبعة دي خونيه ، ليدن
١٩٠٦م *
٦٩ — المقرئ التلمساني (شهاب الدين أحمد بن محمد ، ت ١٠٤١هـ
— ١٦٣١م) :
« نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، عشرة أجزاء ، القاهرة ،
١٩٤٩م * دار الكتاب العربي ، بيروت *
٧٠ — *****
« أزهار الرياض في أخبار عياض » * تحقيق الاستاذ مصطفى
السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ —
١٩٣٩م *
٧١ — المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ — ١٤٤١م) :

« المواعظ والاعتبار بذكر الخط والاثار » ٣ أجزاء ، القاهرة ،

١٣٢٤ هـ *

٧٢ — *****

« السلوك في معرفه دول الملوك » نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة

القاهرة ١٩٣٦ م

٧٣ — *****

« الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك » ، نشر الدكتور

جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م *

٧٤ — الملطي (محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٣٧٧ هـ) :

« التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع » القاهرة ، ١٩٤٩ م *

٧٥ — ابن ممتي (الاسعد) :

« كتاب قوانين الدواوين » جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال

عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ م *

٧٦ — المكناسي (أحمد بن القاضي من ٩٦٠—١٠٢٥ هـ) :

« جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس » ، نشر

دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣ م *

٧٧ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ٦٩٧ هـ — ١٢٩٧ م) :

« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشر الدكتور جمال الدين

الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٦٠ م *

٧٨ — ياقوت الحموي (شهاب الدين الرومي ٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م) :

« معجم الادباء » ج ٢ ، القاهرة ، ١٩١١ م *

ثالثا — المراجع العربية الحديثة :

٧٩ — أحمد. (مصطفى أبو ضيف) :

« القبائل العربية في المغرب في عصرى الموحدين والمرينيين » رسالة

ماجستير ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ م *

٨٠ — اسماعيل (الدكتور محمود) :

« المالكيون والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية » *

٨١ — *****

« المعتزلة في المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية » الرباط ، ١٩٧٦ م *

٨٢ — *****

« الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى »

الداو البيضاء ، ١٩٦٧ م *

٨٣ — اسماعيل سرهنك باشا :

« حقائق الاخير عن دولة البحار ، جزءان »

٨٤ — أنسباخ (يوسف) :

« تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين » جزءان ، تحقيق

الاستاذ عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ م *

٨٥ — بدوى (الدكتور أحمد أحمد) :

« صلاح الدين الايوبى بين شعراء عصره وكتابه » القاهرة ، ١٩٦٠م

٨٦ — باجة (صالح) :

« الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الاولى ، اشراف الدكتور

على الشايبى ، تونس ١٩٧٦ م *

٨٧ — بالنتيا (آنخل جنثالث) :

« تاريخ الفكر الاندلسى » ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة

١٩٥٥ م *

٨٨ — بل (الفرد) :

« الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي » ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ، بنغازي ١٩٦٩ م *

٨٩ — *****

« بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد » الجزائر ، ١٩٠٣ م *

٩٠ — نجاة باشا :

« التجارة في المغرب الإسلامي من القرن ٤ هـ الى ٨ هـ » * تونس ،

١٩٧٦ م *

٩١ — ابن تلويت (محمد) ومحمد الصادق عفيفي :

« الادب المغربي » ، بيروت ١٩٦٠ م *

٩٢ — *****

« من زوايا التاريخ المغربي » مجلة تطوان للابحاث المغربية الاندلسية

العدد ١٠ ، تطوان ، ١٩٦٥ م *

٩٣ — الجراري (الدكتور عباس) :

« الموحدون ثورة سياسية ومذهبية » مجلة المناهل ، العدد الاول ،

السنة الاولى الرباط ١٩٧٤ م *

٩٤ — *****

« وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ » الرباط ، ١٩٧٦ م *

٩٥ — *****

« الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها » ج ١ ، الرباط ١٩٧٩ م

٩٦ — الجنحاني (الحبيب) :

« المغرب الإسلامي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية : القرن ٣-٤ هـ / ٩-١٠ م » تونس ١٩٧٧ م *

٩٧ — جنون (عبد الله) :

- « النبوغ المغربى فى الادب العربى » ، ط ٢ ، ج ١-٣ ، بيروت ١٩٦١ م .
- ٩٨ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) :
- « تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ط ٥ ، ج ١ . « الدولة العربية فى الشرق ومصر والمغرب والاندلس » القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ٩٩ — حسن (الدكتور على ابراهيم) :
- « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- ١٠٠ — خطاب (محمود شيت) :
- « قادة الفتح المغربى العربى » ط ١ ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
- ١٠١ — ديموز (محمد على) :
- « تاريخ المغرب الكبير » ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ١٠٢ — الدمشقى :
- « محاسن التجارة » القاهرة ، ١٣١٨ هـ .
- ١٠٣ — ديمانند (م . س) :
- « الفنون الاسلامية » ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم دكتور أحمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٠٤ — زكار (الدكتور سهيل) :
- « تاريخ العرب والاسلام » بيروت ١٩٧٥ م .
- ١٠٥ — ابن زيدان :
- « العز والمصولة » نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١ م .
- ١٠٦ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) :

« طارق بن زياد » مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ،

١٩٥٩ م *

١٠٧ — « مرسية » مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦١

١٠٨ — « المهدي بن تومرت » مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠

١٠٩ — « الفنون والصناعات بالاندلس » مقال بدائرة معارف

الشعب ، عدد ٦٤ *

١١٠ — « المسجد الجامع بالقبروان وجامع الزيتونة بتونس » مقالان

بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، كتاب الشعب عدد ٧٨

١١١ — « التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى »

مقال بمجلة المجلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ م *

١١٢ — « المساجد والقصور بالاندلس » القاهرة ١٩٥٨ م *

١١٣ — « أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بأسبانيا

وفرنسا » المجلة العدد ١٤ ، ١٩٥٨ م *

١١٤ — « مسجد المدجنين بطيطله » مقال بمجلة كلية الاداب جامعة

الاسكندرية ، ١٩٥٨

١١٥ — « روائع الاثار الاسلامية بجمهورية الجزائر العربية » ،

المجلة ، العدد ٣٩ ، ١٩٥٩ *

١١٦ — « المغرب الاسلامي » كتاب الشعب عدد ١٣٨—١٣٩ القاهرة

١٩٦١ م *

١١٧ « المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح

العربي حتى الفتح العثماني » القاهرة ١٩٥٩ م *

١١٨ — « تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي »

الاسكندرية ، ١٩٦١ م *

- ١١٩ — « تاريخ المسلمين وآثارهم في الاتدلس » بيروت ١٩٦٢ م
- ١٢٠ — « طرابلس الشام في التاريخ الاسلامى » الاسكندرية ،
١٩٦٧ م *
- ١٢١ — « التاريخ والمؤرخون العرب » الاسكندرية ١٩٦٧ ، ١٩٨١ م
- ١٢٢ — « تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة اسطول الاتدلس » ،
بيروت ، ١٩٦٨ م *
- ١٢٣ — « تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامى »
مكتبة المدن الاسلامية ، اعدد الاول ، بيروت ١٩٦٤ م *
- ١٢٤ — « تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر الابيض
المتوسط » ، ج ١ ، ٢ بيروت ١٩٧١ م *
- ١٢٥ — « وسائل الدفاع الاسلامى فى العصور الود طى » مجلة
الجيش ، عدد ٨٢-٨٣ *
- ١٢٦ — « المغرب الكبير » ج ٢ ، العصر الاسلامى دراسة تاريخية
عمرانية وأثرية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١
- ١٢٧ — سرور (الدكتور محمد جمال الدين) :
« سياسة الفاطميين الخارجية » القاهرة ، ١٩٦٧ م *
- ١٢٨ — *****
- « الدولة الفاطمية فى مصر » القاهرة ، ١٩٦٦ م *
- ١٢٩ — سليم (الدكتور محمود رزق) :
« الاشراف قانصوه الغورى » ، أعلام العرب رقم ٥٢ *
- ١٣٠ — سليمان (نعيم زكى فهمى) :
« طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر
العصور الوسطى » جامعة القاهرة ١٩٦٨ م *

- ١٣١ — ابن سودة (عبد السلام عبد القادر) :
« دليل مؤرخ المغرب الاقصى » ج ١-٢ ، الرباط ١٩٦٥ م .
- ١٣٢ — ابن شريفة (الدكتور محمد) :
« من تاريخ الاسر المغربية ، أسرة بنى عشرة ، تطورها التاريخي ،
ودورها الحضاري » مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، ١٩٦٥ م .
- ١٣٣ — تسعيرة (الدكتور محمد عبد الهادي) :
« الاسكندرية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي ، مقال من
الكتاب الذي أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ م .
- ١٣٤ — الشيبال (الدكتور جمال الدين) :
« أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي » القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٣٥ —
« مجموعة الوثائق الفاطمية » ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م
- ١٣٦ — الشيخ (الدكتور محمد محمد) :
« الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها » الاسكندرية ،
١٩٧٢ م .
- ١٣٧ — الصبيحي (محمد) :
« انبلاج الفجر عن المسائل العشر » ، الرباط ، ١٩٤٠ م .
- ١٣٨ — طرخان (الدكتور ابراهيم على) :
« دولة مالي الاسلامية » القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- ١٣٩ —
« مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة » القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- ١٤٠ — عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) :
« قبرس والحروب الصليبية » القاهرة ١٩٥٧ م .

١٤١ — •••••

« مصر في عصر دولة المماليك البحرية » القاهرة ١٩٥٩ م •

١٤٢ — •••••

« مصر في العصور الوسطى » القاهرة ، ١٩٧٠ م •

١٤٣ — •••••

« الحركة الصليبية » جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ م •

١٤٤ — •••••

« العصر المماليكي في مصر والشام » القاهرة ١٩٦٥ م •

١٤٥ — العامري (محمد عبد الهادي) :

« تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول » ، تونس ،

١٩٧٤ م •

١٤٦ — العبادي (الدكتور أحمد مختار) :

« دراسات في تاريخ المغرب والاندلس » الاسكندرية ١٩٦٨ م •

١٤٧ — العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم :

« تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط »

جزءان ، بيروت ١٩٧١ م •

١٤٨ — •••••

« الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية » مدريد ١٩٥٣ م

١٤٩ — •••••

« قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام » بيروت ١٩٦٩ م •

١٥٠ — العبادي (الدكتور عبد الحميد) :

« المجلد في تاريخ الاندلس » مصر ١٩٥٨ م •

- ١٥١ — ابن عبد الله (عبد العزيز) :
« معطيات الفن الاسلامى فى المغرب » مجلة المناهل ، العدد ٣ ،
الرباط ، ١٩٧٥ م .
١٥٢ —
« تاريخ الحضارة المغربية » الدار البيضاء ، ١٩٦٣ م .
١٥٣ —
« البحرية المغربية والقرصنة » مجلة تطوان ، العددان ٣ — ٤ ،
١٩٥٩—٥٨ م .
١٥٤ — ابن عبود (محمد بن عبد السلام) :
« تاريخ المغرب » ج ١ ، تطوان ، ١٩٥٧ م .
١٥٥ — عبد الحميد (الدكتور سعد زغول) :
« الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى » مجلة كلية الاداب
بالاسكندرية ١٩٧٥
١٥٦ —
« تاريخ المغرب العربى » الاسكندرية ١٩٦٤ م .
١٥٧ —
« العلاقة بين صلاح الدين الايوبى وأبى يوسف يعقوب المنصور
بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » مجلة كلية الاداب بالاسكندرية ،
١٩٥٣ م .
١٥٨ —
« محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والاندلس » بيروت
١٩٧٣ م .
١٥٩ — العدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) :

- « الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط » القاهرة ، ١٩٥٧ م
١٦٠ — ++++++
- « الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم » القاهرة ، ١٩٥٨ م +
١٦١ — ++++++
- « قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط » القاهرة ١٩٦٣ م
١٦٢ — عثمان (الاستاذ فنتحي) :
« الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى ، والاتصال الحضارى » ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ م +
١٦٣ — علام (الدكتور عبد الله على) :
« الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن على » دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ م +
١٦٤ — عنان (الاستاذ محمد عبد الله) :
« عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس » القسم الاول والثانى ، القاهرة ١٩٦٤ م +
١٦٥ — ++++++
- « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » القاهرة ، ١٩٣١ م +
١٦٦ — ابن غازى (محمد) :
« الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون » الرباط ١٩٥٢ م +
١٦٧ — الفاسى (التقي) :
« منتخب المختار أو تاريخ علماء بغداد » نشر عباس الغزاوى بغداد ١٩٣٨ م +
١٦٨ — فهد (الدكتور بدرى محمد) :

« تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ، ٥٥٢—٦٥٦ هـ / ١١٥٧ —
١٢٥٨ م » بغداد ، ١٩٧٣ م *
١٦٩ — فهمى (الدكتور عبد الرحمن) :
« فجر السكة العربية » من مجموعات متحف الفن الاسلامى القاهرة
١٩٦٥ م *

١٧٠ — *****

« صنع السكة في فجر الاسلام » ، القاهرة ١٩٥٧ م *

١٧١ — *****

« الشارات المسيحية والرموز القبطية على السكة الاسلامية »
محاضرة في المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية بفاس ، القاهرة ١٩٦١ م
١٧٢ — *****

« النقود العربية ، ماضيها وحاضرها » المكتبة الثقافية ، عدد ١٠٣ ،
القاهرة ١٩٦٤ م *

١٧٣ — الكعك (الاستاذ عثمان) :

« العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ » تونس ١٩٧٢ م *

١٧٤ — لوبون (جوستاف) :

« حضارة العرب » ترجمة : عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ م *

١٧٥ — لوييس (أرشيبالد) :

« القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط » ، ترجمة

الاستاذ أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ م *

١٧٦ — ليفى بروفنسال (أفارست) :

« مجموعة رسائل موحدية » الرباط ١٩٤١ م *

١٧٧ — *****

« سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ، القاها عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ » ترجمة : الدكتور محمد عبد الهادي نسعيرة ، راجعها الدكتور عبد الحميد العبادي ، مطبوعات كلية الاداب — الاسكندرية ، ١٩٥١ م *

١٧٨ — *****

« مؤرخو التسرفا » تعريف : عبد القادر الخلادي ، تقديم : الدكتور محمد حجي ، مجلة أرابيكا ١٩٥٦ ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة ، سلسلة التاريخ رقم ٥ ، الرباط ١٩٧٧ م *

١٧٩ — ليو الافريقي (حسن بن محمد الوزان ت حوالى ١٥٤٠ م) :

تاريخ ووصف أفريقيا وأشهر ما فيها من عجائب *

١٨٠ — ماجد (الدكتور عبد المنعم) :

« السجلات المستنصرية » القاهرة ١٩٥٤ م *

١٨١ — *****

« نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » القاهرة ١٩٥٣ م *

١٨٢ — ماهر (الدكتورة سعاد) :

« البحريه في مصر الاسلاميه وآثارها الباقيه » القاهرة ١٩٦٧ م *

١٨٣ — محمود (الدكتور حسن أحمد) :

« قيام دولة المرابطين » القاهرة ١٩٥٧ م *

١٨٤ — ماير (ل * أ *) :

« الملابس المملوكية » ترجمة صلاح النسييتي ، مراجعة وتقديم الدكتور

عبد الرحمن فهمي محمد ، القاهرة ١٩٧٢ م *

١٨٥ — مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز) :

« الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس » بيروت ١٩٧٢ م

- ١٨٦ — ملبن (محمد رشيد) :
« عصر المنصور الموحدي » الرباط ١٩٤٦ م
- ١٨٧ — مكى (الدكتور محمود على) :
« التشيع في الاندلس » صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية
بمدير ، المجلد الثالث ١٩٥٤ م *
- ١٨٨ — *****
- « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطيين » صحيفة المعهد المصرى
للدراست الاسلاميه بمدير ، المجلد السابع ، العدد ١-٢ ، ١٩٥٩ م *
- ١٨٩ — *****
- « الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار الماثورة » مجلة المعهد المصرى
للدراست الاسلاميه بمدير ، المجلد العشرون ، ٧٩-١٩٨٠ م *
- ١٩٠ — ابن منصور (عبد الوهاب) :
« قبائل المغرب » الرباط ١٩٦٨ م *
- ١٩١ — مؤنس (الدكتور حسين) :
« مقدمة رياض النفوس للمالكى » القاهرة ١٩٥١ م *
- ١٩٢ — *****
- « فتح العرب للمغرب » القاهرة ١٩٤٧ م *
- ١٩٣ — *****
- « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطيين وأيامهم فى الاندلس »
صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلاميه بمدير المجلد الثانى ١٩٥٤ م
- ١٩٤ — *****
- « فجر الاندلس » القاهرة ١٩٥٩ م *

١٩٥ — ميتر (آدم) :

« الحضارة الاسلامية » ج ١ — ٢ ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادي أبوريادة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

١٩٦ — نلينو (كارلو الفونسو) :

« بحوث في المعتزلة » فصل من كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ترجمة : الدكتور عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٥ م .

رابعا - الرحلات :

١٩٧ — ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي) : « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، ج ١ — ٢ ، القاهرة ١٩٣٤ م .
١٩٨ — التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد — ت حوالي ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م) :

الرحلة . نشر حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ م .
١٩٩ — ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

٢٠٠ — السبتي (القاسم بن يوسف التجيبي : ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م)
مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس ١٩٧٥ م .

٢٠١ — ابن رشيد السبتي (محمد بن عمر ٦٧٥ — ٧٢١ هـ / ١٢٥٩ — ١٣٢١ م) :

« ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة

وطيية » • تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسي ، آداب عين شمس ،
١٩٧٨ م •

٢٠٢ — العبدري الحيجي (أبو عبد الله محمد بن محمد) :

الرحلية المغربية ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ١٩٦٨ م •

٢٠٣ — دائرة المعارف الاسلامية :

النشرة الفرنسية ١٩٦٢ ، ج ٢ ، فصل دينار ، بقلم :

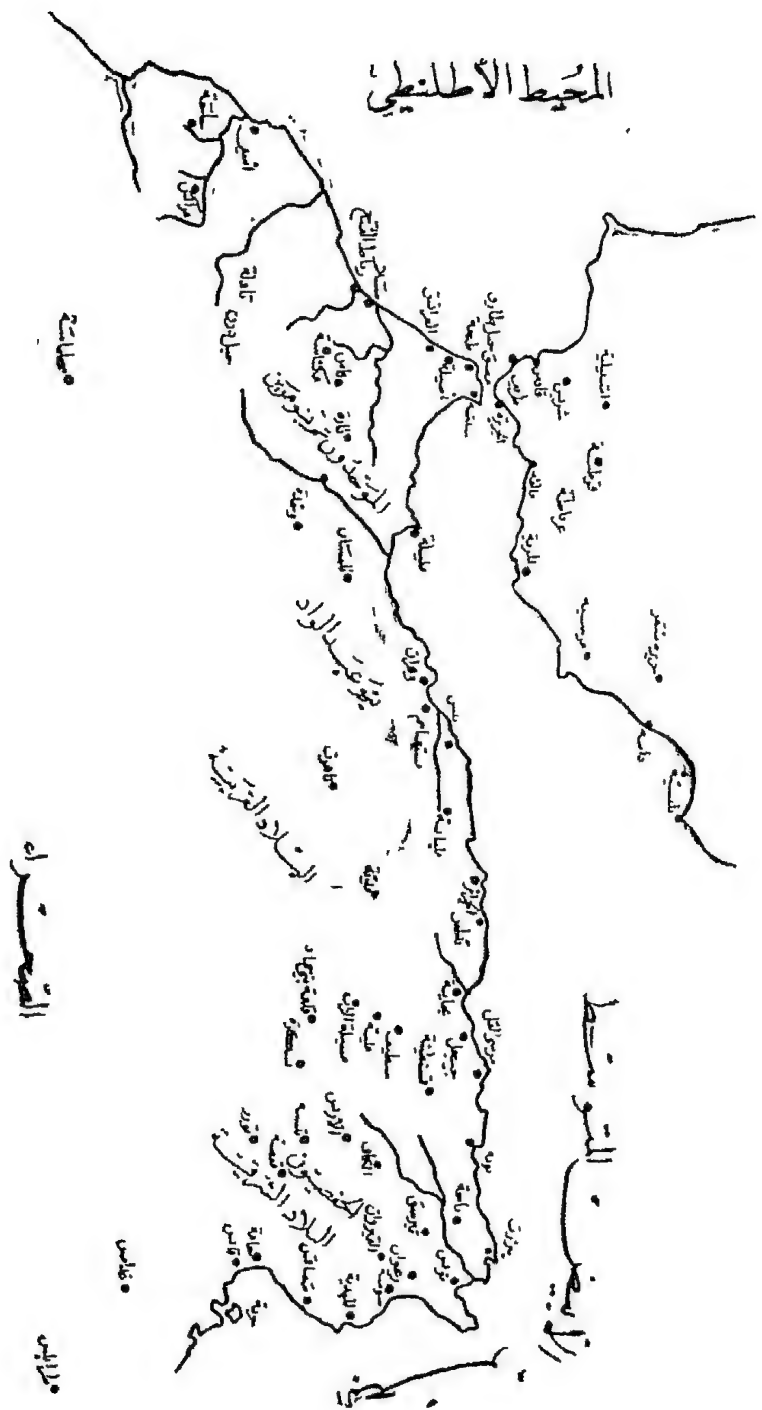
G. Miles.

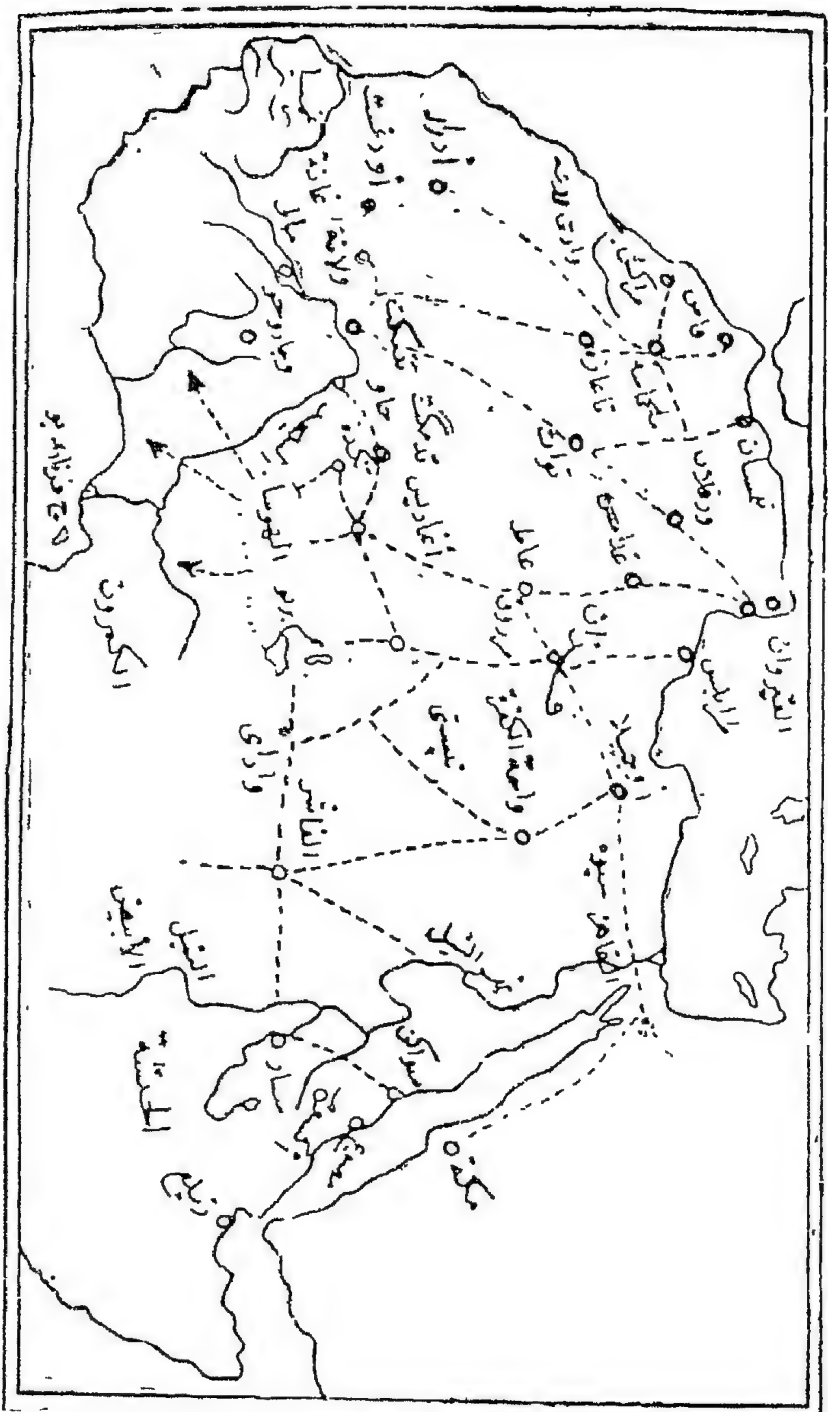
راجعاً — المراجع الاوربية :

- 1 — Abun-Nasir "Gamil M." : A History of the Maghrib Cambridge, 1971.
- 2 — Alfred Bel; Les Banou Chanya, Paris, 1909
- 3 — Amedroz : Notes on Some Sufi Lives, 1912.
- 4 — Anonyme . Chazaouat Aroudj au Khair-ed Din "Frade-Sanden-Rang et Davis" 2v in-80 Paris 1887.
- 5 — Bovill "E.W " : The Golden Trade of the Moors. London, Oxford 1970.
- 6 — Bourouiba "Rachid"; Ibn Tumart. S.N.E.D. Alger. 1974.
- 7 — ———; Abd El-Mu'min Flambeau Des Almohades. Alger, 1974.
- 8 — Brunschvig "R" : La Berbérie Oriental Sous Les Hafsides. 2 Tome Paris. 1940—46
- 9 — Cahen "CL." : Le Commerce dans le Monde Musulman a Son Apogèc, UNEF, FGEL annee 1966—1974.
- 10 — Curtin "Philip. D." : The Atlantic Slave Trade, London. 1969.
- 11 — Davidson "B" : - Old Africa Pediscovered, London, 1959.
- 12 — ——— - Black Mother, London, 1961.
- 13 — Debreuil : Les Pavillons des états Musulmans Hespéris Tamuda, 1960.
- 14 — Fisher "Humphery" : The Western And Central Sudan Cambridge, 1970.
- 15 — Hartwing Derenbourg : Omara du Yemen, Sa Vie et Son Oeuvre, Tome I, Paris, 1909.
- 16 — Heyed "W." : Histoire du Commerce des Levant au Moyen Age Paris, 1885.
- 17 — Julien "C.A." : Histoire de L'Afrique du Nord de la Conquête Arabe a 1930. Paris 1952—1959.
- 18 — Kuczynski, "R.R." : Population Movements. Oxford 1936.
- 19 — Lavoix "H" : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, 3 Vols, Paris, 1887.

- 20 — Lean "L'Africain" · Description de L'Afrique Adrien-Maison-
nenve Paris 1956
- 21 — Lopez "Robert S." . Medieval Trade In The Mediterranean World.
Columbia, 1961
- 22 — Marçais "Georges" : La Berberie Musulmane et L'Orientan Moyen
Age. Paris, 1946.
- 23 — ———, Les Arabes en Berberie du XI^e au XIV^e Siècles. Paris.
1913
- 24 — Massignon "Luis" : Le Maroc Dans Les Premieres Années du
XVII Siècle. Paris, 1906.
- 25 — Oliver "Roland" & Fage "J.D " : A Short History of Africa. Lon-
don, 1970.
- 26 — Peyrouton "Marcel" : Histoire Générale au Maghreb. Paris, 1966.
- 27 — Piloti "E." : L'Egypte au Commencement XV^e Siècle. Cairo. Univ.
Fouad. 1950
- 28 — Pirenne "H" : Les Villes au Moyen Age. Essoi d'Histoire Econo-
mique et Sociale Bruxelles 1937.
- 29 — ——— . Mohamet ét Charlemagne, Paris, 1937
- 30 — Pliak, "A.N." : Les Révoltes Populaires en Egypte à L'epoque de
Mamloukes et leurs Causes Economiques.
R.E.I. Tome 3. Paris, 1934
- 31 — Rabinowitz, "L.I." : Jewish Marchant Adventures, London, 1948
- 32 — Raymond Mayny's : Tabbteau Geographique de L'Oues African
au Moyen Age, Paris, 1961.
- 33 — Seligman, C.G., Races of Africa, London, 1966.
- 34 — Strauss, "E " Prix et Salaires à L'èpoque Mamlouke, etude sur
L'etet Economique de L'Egypte et de la
Syria a la fin du Moyen Age. Paris, 1949

- 35 — Terrassé; "H." : Histoire de Maroc, Casablanca, 1949.
- 36 — Tourneau; "R.Le." : L'Occident Musulman du Viles a la fin du XV^es. Algerie 1958.
- 37 — Wiet Gaston : Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV (L'Egypte Arabe) Paris 1926.
- 38 — Cambridge Medieval History, Tome II : Medieval Trade In The Mediterranean World Columbia 1961.





طريق القوافل الرئيسية بين المغرب الإسلامي والمشرق

تعريف بعض المصطلحات المغربية

- الحـلال** : في المغربية القديمة هو السارق *
- ود الخلافة** : أى أد واجبات الخلافة وتشريفات الامير ،
والعبارة عامية ولا زالت مستعملة الى الان *
- مولاهـا** : صاحبها *
- تطهير الصبى** : ختانه ، ولا زالت مستعملة بهذا المعنى في بعض
جهات المغرب *
- أسـاراك** : مربط الخيل باللغة البربرية المغربية *
- مسـذود** : جمعها مذواد، وهى مأكلة الدواب وموضع علفها *
- أسـمـلس** : باللغة البربرية السوسية يثت بللسمن أو الزبد
وتأكله الجماعة *
- الزراجنـة** : هى جمع زرجان وهو طائر أسود البطن أبيض
الريش *
- الشـطـيط** : الأغصان الاشجار في العامية المغربية *
- أمزكـور** : هى الذرة بالشلحة (أى البربرية) *
- الجـسـمـون** : كان الموحدون يلقبون المرابطين بالجسمين ، لان
محمد بن تومرت ألزم فقهاءهم أثناء تناظره
بالقول بالذات والمكان *

اكرارو : مجمع باللغة البربرية *

المخزن : الحكومة في الاصطلاح الادارى المغربى القديم ،
ولا زال يستخدم بنفس المعنى الى الان *

المحلة : الجيش المستقر في الاصطلاح العسكرى المغربى
القديم ، وعكسها الحركة أى الجيش الضارب ،
وقد تعنى المحلة مجرد الجيش *

اللسان الغربى : أى لغة الغرب (المغرب) وهى بالبربرية فى عرف
الاندلسيين والمغاربة القدماء *

السرزة : يراد بها العروة التى يدخل فيها العمود (الزكروم)
الذى تغلق به الابواب ، وتطلق الرزة أيضا على
العمامة لاستدارتها على الرأس وما زالت للرزة
دلالتها المذكورتان الى الان *

الطاق أو الطاقة : الكوة ، النافذة الصغيرة وهى عزبية * والطاق
المصرية دار صغيرة فوقية تبنى فوق الحوانيت
أو مدخل الديارة ، ولعل هندستها نقلت الى المغرب
من مصر فنسبت لها *

الغسير : التغيير : أى الشر *

ضم : أى جمع : والكلمة تستعمل في العامية المغربية بهذا المعنى

ويقلب ضاها طاء (طم) *

تدرسنى : أى تدوسنى ، والكلمة من العامى الفصيح *

أيفـرخـان : جمع أفروخ ، أى الشاب القوى بالبربرية *

ويقلب ضاها طاء (طم) *

تمت بحمد الله

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
— موضوع البحث وتوزيع فصوله	
— عرض لأهم مصادر الرسالة ومراجعتها	
● الباب الأول :	
العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى	٢٣٠ — ٥
● الفصل الاول :	
قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق	٤٥ — ١٣٠
١ — ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين	٤٧ — ٧٥
٢ — قيام دولة الموحدين	٧٦ — ١٠٢
٣ — الاجهاز على دولة المرابطين	١٠٣ — ١١٥
٤ — توسع دولة الموحدين نحو الشرق	١١٥ — ١٣٠
● الفصل الثانى :	
العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين	١٣٠ — ١٦٩
١ — العلاقات الموحدية العربية حتى سقوط الدولة الفاطمية	
بمصر	١٣٣ — ١٤٧
٢ — التحالف الثلاثى العربى المسوفى ضد الموحدين	١٤٧ — ١٥٦
٣ — سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور	
الموحدى	١٥٦ — ١٧٠

● الفصل الثالث :

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والشرق

الاسلامى ١٧١ — ٢٣٠

١ — نشأة الخلافة الحفصية ١٧٤ — ١٩٠

٢ — تطور العلاقات الخارجية الحفصية مع المشرق الاسلامى

(فى عهود خلفاء : المستنصر — الليحيانى — الواثق —

أبى العباس) * ١٩١ — ٢٠٧

٣ — تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركىة المملوكية

وبين الحفصيين * ٢٠٨ — ٢٢٢

٤ — دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية ٢٢٢ — ٢٣٠

● الباب الثانى :

الصلات الحضارية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ٢٣١ — ٣٨٨

● الفصل الرابع :

الصلات الاجتماعية ٢٣٣ — ٢٦٤

١ — أثر الرحلات المغربية الى المشرق ٢٣٥ — ٢٥١

٢ — انخراط المغاربة فى سلك الوظائف المشرقية ٢٥٢ — ٢٥٨

٣ — موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق ٢٥٨ — ٢٦٤

● الفصل الخامس

العلاقات الاقتصادية ٢٦٥ — ٣١٧

١ — الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغرب ٢٦٧ — ٢٧٧

الموضوع	صفحة
٢ — تجارة السودان	٢٧٨ — ٢٩٤
٣ — التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية	٢٩٤ — ٣١٨

● الفصل السادس :

الصلات الثقافية والفنية بين الخلافة الموحدية والمشرق

الاسلامى	٣١٩ — ٣٣١
١ — الاصول الفكرية للدعوة الموحدية *	٣٣١ — ٣٤٨
٢ — فقهاء الفكر الصوفى المغاربة فى المشرق	٣٤٨ — ٣٦٩
٣ — علماء مغاربة عادوا الى المغرب	٣٦٩ — ٣٨٤
٤ — الصلات الفنية *	٣٨٥ — ٣٨٨
— الخاتمة	٣٩٠ — ٤٠٠
— الملاحق	٤٠١ — ٤٦٤
— ثبت بمصادر الرسالة والمراجع	٤٦٥ — ٤٩٤
— خرائط وتعريف بمصطلحات مغربية	٤٩٥ — ٥٠٣

مطابع جريدة السفير

فونش مونتيسوسا
٧٥٥٠

١/١٢٢٥٧٧

دارالمعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)

To: www.al-mostafa.com